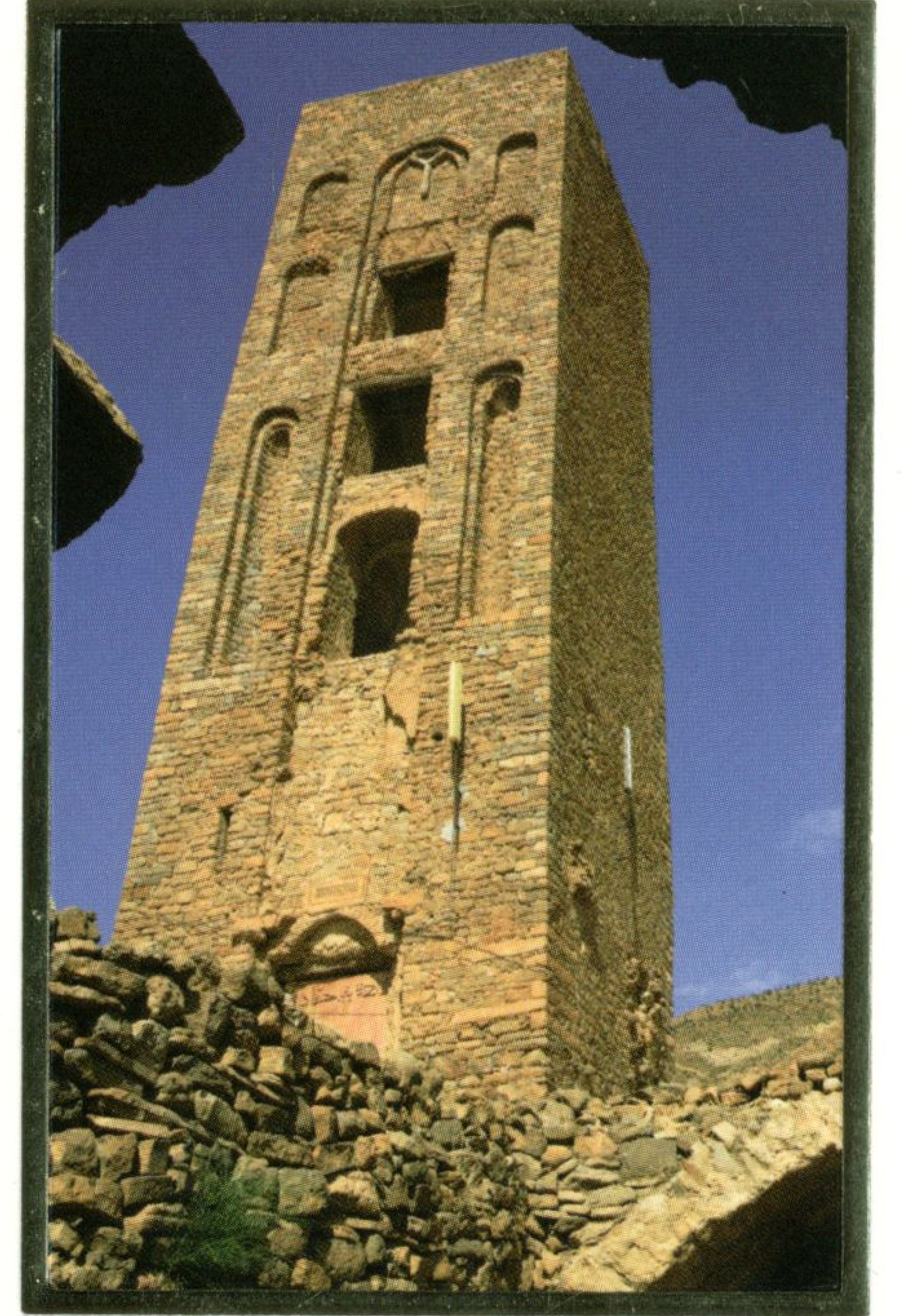
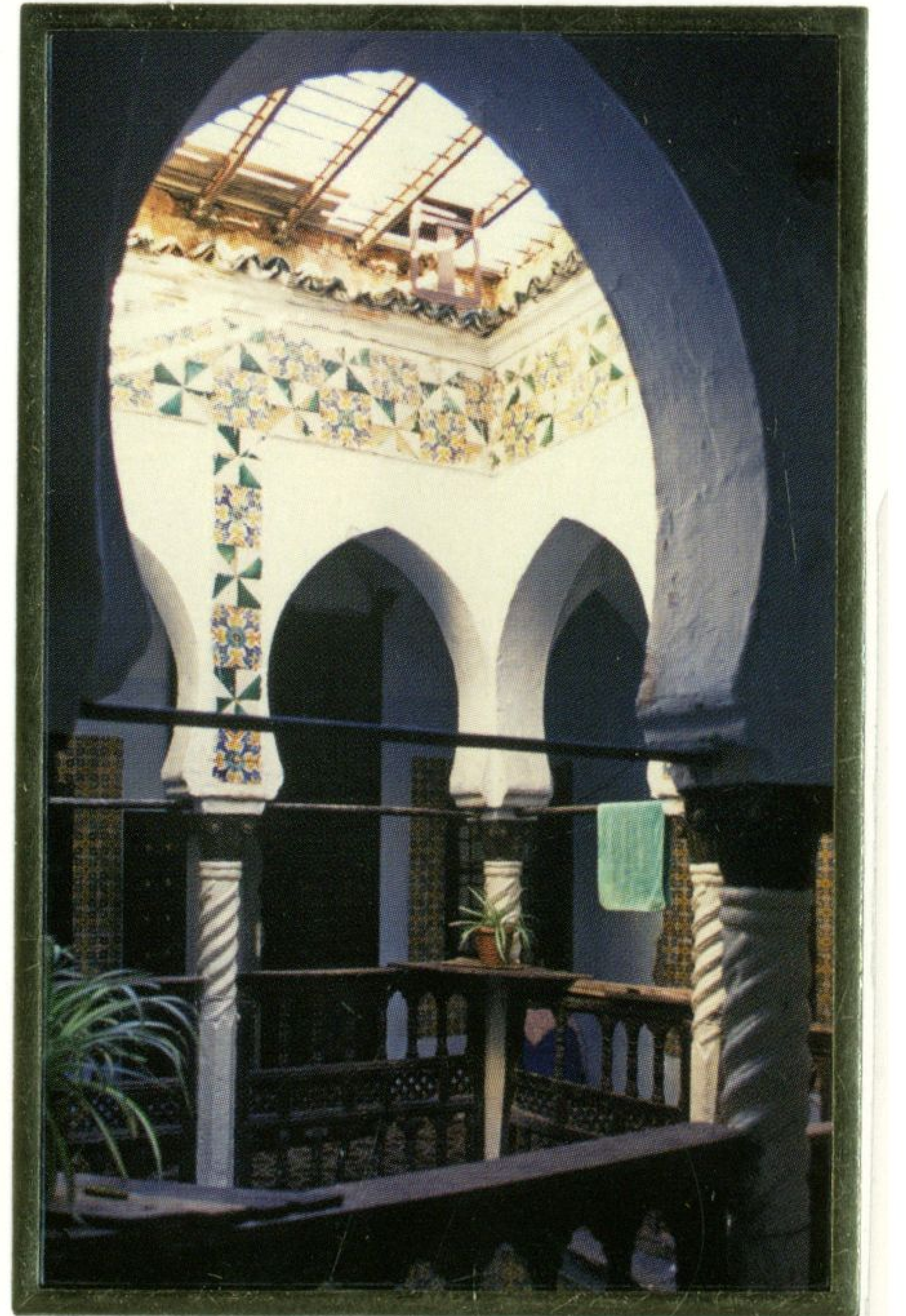
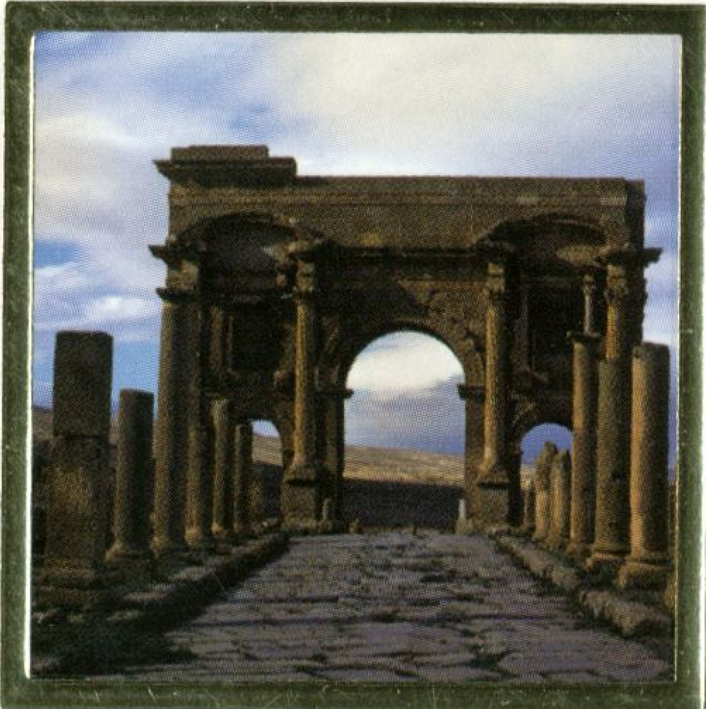
جزائر الأزل

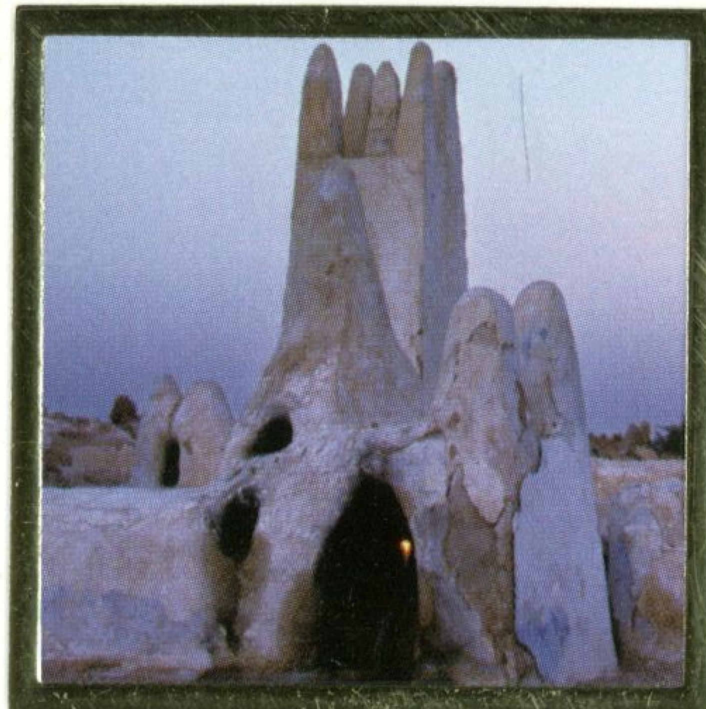
المواقع المدرجة ضمن التراث العالمي

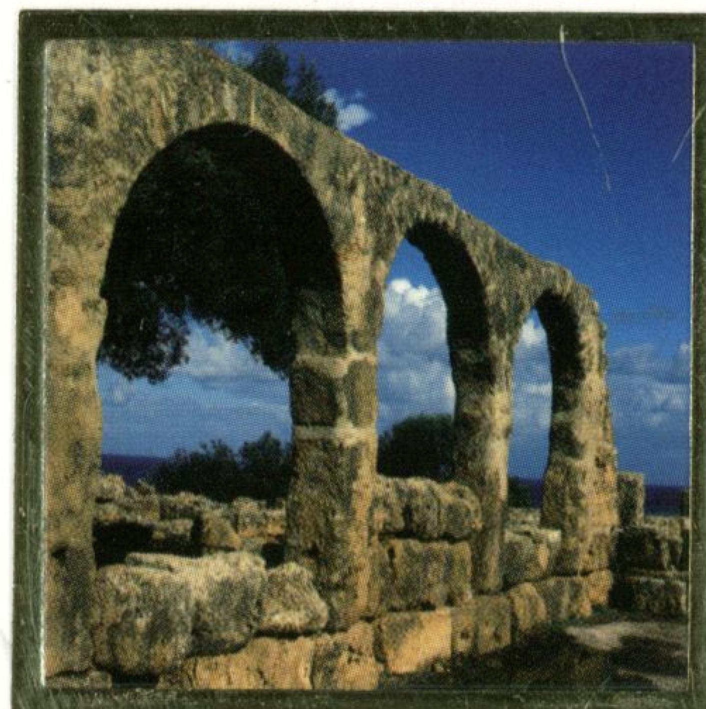


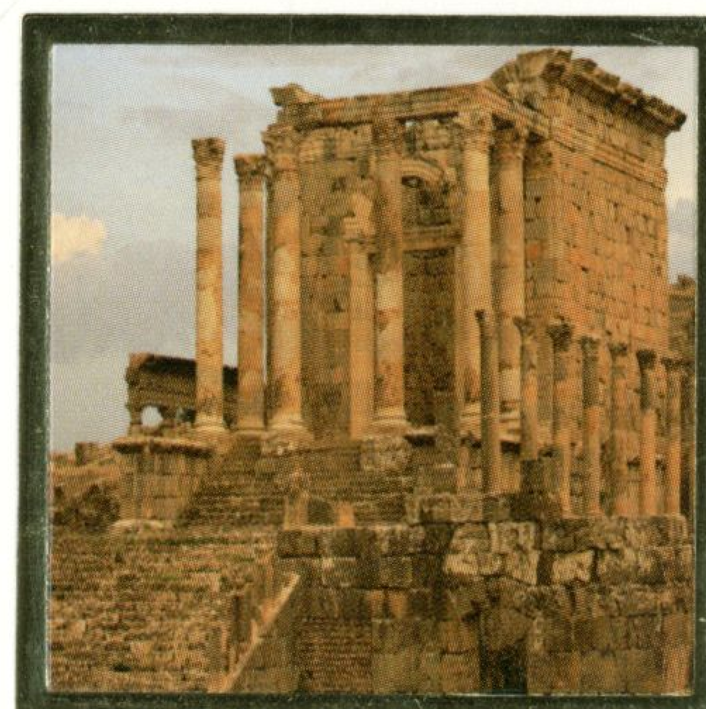








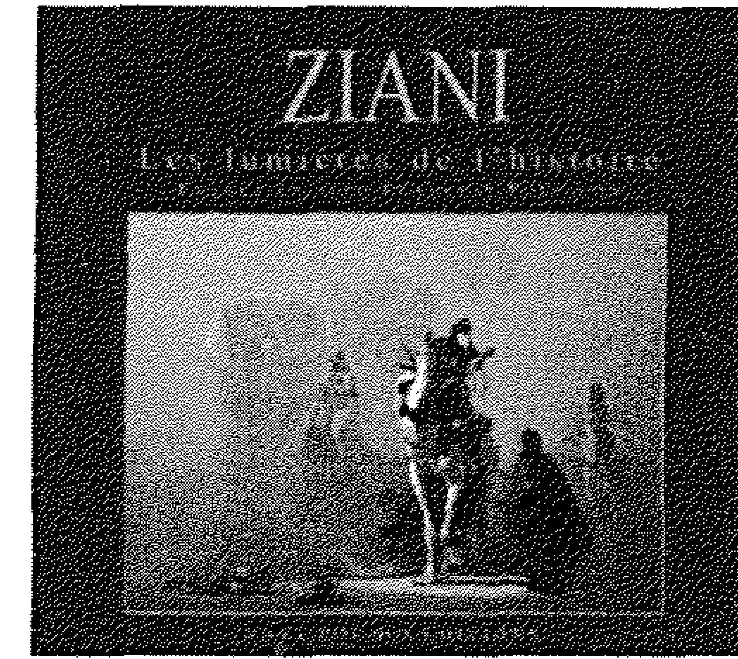




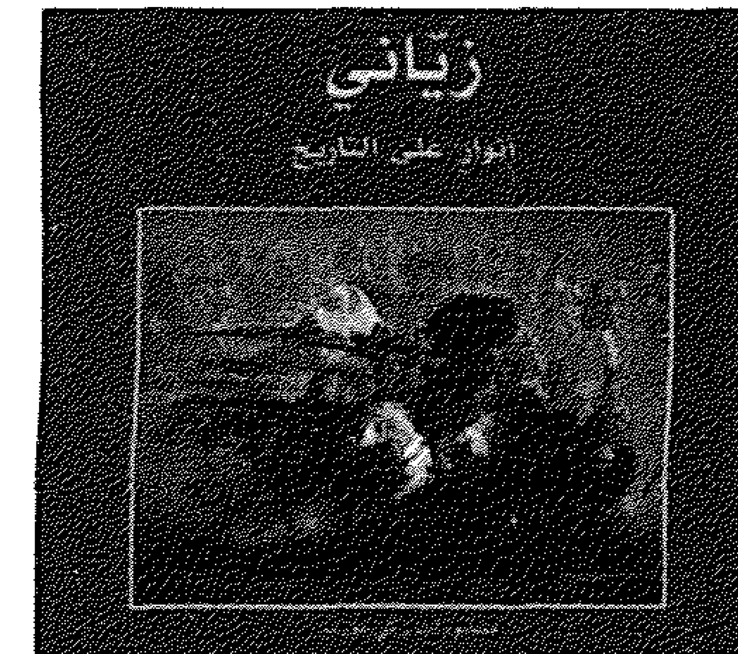
منشورات زكي بوزيد

الجزائر 2007
عاصمة الثقافة العربية

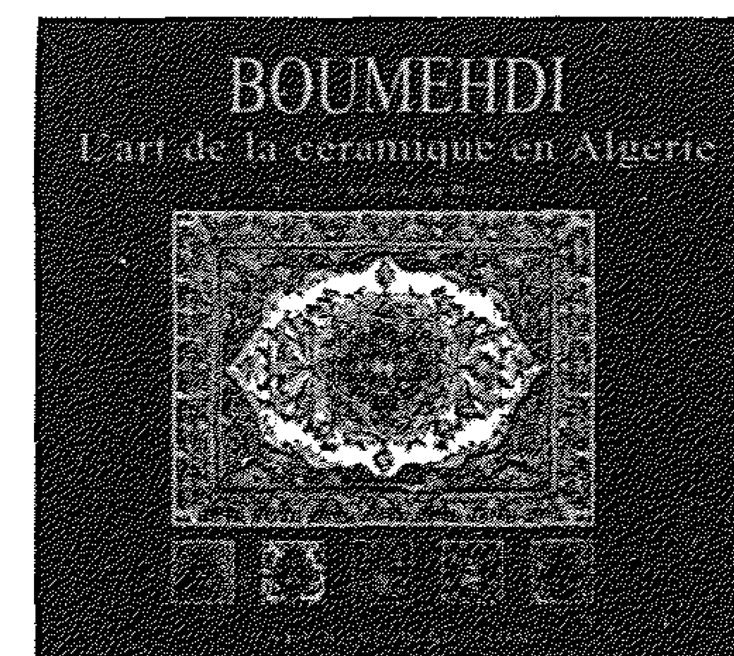
صدر لنفس الناشر :



زياني
أنوار على التاريخ
192 صفحة صدرت بالفرنسية بالإنجليزية و العربية



بو مهدي
فن الخزف في الجزائر
192 صفحة صدرت بالفرنسية بالإنجليزية و العربية



192 هـ

192 هـ

إلى والدي ووالدتي اللذين غرسا فيّ حبّ الجزائر وكشفا لي أسرار جمالها، ولقّناني تاريخها.

زكي بوزيد

سورة فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم

الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط

المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب

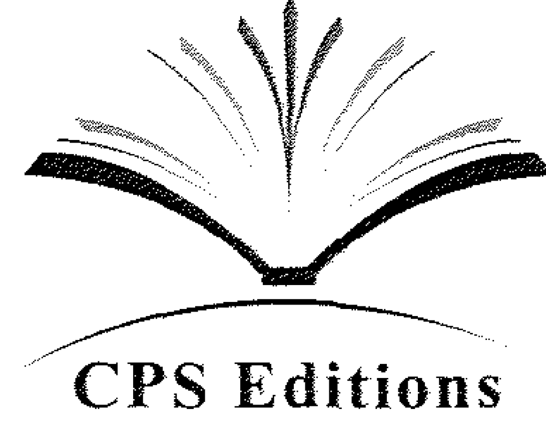
عليهم ولا الضالين

سبع آيات مكية

، ، قرآن
إمضاء ضريب
مطهّر ابن محمد
الحماوي
مؤرّخ في 768 هـ
1367 م ، ،



مصحف (تجليد جلد
وذهب)
محفوظ بالمكتبة
الوطنية للحامة . بالجزائر
يرجع تاريخه إلى 768
(1367)


CPS Editions

قام بنشر هذا الكتاب شركة كونتيننتال باك سيرفيس
رياض الفتح ـ مركز الفنون ـ رواق الخدمات
المدنية ـ الجزائر
هـ :25 17 28 21 213 +
+ 213 61 51 04 01
zakibouzideditions@yahoo.fr

ردمك 1961 - 771 - 05 -2
الإيداع القانوني 2635 ـ 2007

التكوين النقشي: منشورات كونتيننتال باك سيرفيس
الإدارة الفنية والتصميم والإنجاز: زكي بوزيد
مساعدو الإنجاز: شريفة وأيمان ـ أسمهان بوزيد
الصور: بن يوسف شريف ـ ندير جمعة ـ قيس جيلالي ـ توفرون
فيصل عبد العزيز ـ لوت ـ كرزابي ـ ولد خطار ـ ستريدتر ـ أوماسيب
مساعدا الإنجاز الفني للماكيت: بابا عيسى، قيس جيلالي
مساعدا إنجاز الكتاب: عدنان ونسيم بوزيد
ترجمة: إنعام بيوض

طبع في فرنسا بمطابع مام

جزائر الأزل

المواقع السبعة المدرجة ضمن التراث العالمي لليونسكو
وسبعة مواقع أخرى للاكتشاف من التراث الوطني



منشورات زكي بوزيد



مقدمة

ما من مرّة يثار فيها موضوع المواقع الجزائرية المصنّفة ضمن التراث العالمي إلاّ وتملّكني إحساس خاص. وبما أنني بدأت حياتي المهنية منذ ما يقرب من أربعين عاماً كباحث في تيبازة، أو تلك الشرفة المطلة على قديم الحقب، فقد شرعت حينئذ، بنوع من الرغبة المحمومة والمتعطشة للمعرفة، في القيام بتلك الرحلة الطويلة الرائعة للبحث عن الأصول ولملاقاة آثار الماضي واستكشافها.

وبمجرد ذكر اسم من أسمائها تحضرني الذكريات والأسئلة، مع أنها والحق يقال، لم تغادرني البتة: فما عسى علم الآثار أن يعلمنا حول أنفسنا وحول تاريخنا، دون أواصر الصحبة التي تتوثق في ورشات الحفريات، ودون الصداقات الودية التي تنشأ خلال مهمات الاستكشاف، ودون تلك المناقشات الثائرة والمثيرة حول طرق المحافظة على الآثار؟ وما عساه يفعل عمل من الأعمال يتطلب كماً معتبراً من الصبر والشجاعة، دون الصرامة الضرورية والموضوعية، ودون إدماج الذات وبعدها الحميم، ودون التوازن الذي تقوم عليه كل معرفة؟

حين نتصفح هذا الكتاب، الأول من نوعه الذي يعطي هذا التراث كلّه كامل اعتباره، يمكننا أن نتخيل و نحن نقرأ مداخلات الباحثين المرموقين ونرى التصاوير الثرية، بأننا نقوم بجولة في أعماق التاريخ، ونكتشف التنوع الهائل لأصول البشرية.

إن بقايا أمجاد هذه العصور الخالية لا تزال إلى يومنا هذا تعيش مصيرها المتمثل في ذاكرة حية، مهددة في أغلب الأحيان، بينما تطمسها أحياناً أخرى يد الجهل أو الغفلة تاركة إياها أثراً بعد عين. والإجراءات التي يمكن أن تتخذها الهيئات المعنية بالمحافظة على التراث وترقيته هي بطبيعة الحال إجراءات لا غنى عنها لكنها غير كافية، إذ أن مثل هذه الكنوز لا يمكنها أن تعيش وأن تبقى دون محبة المجتمع بأكمله ودون اهتمامه الموسوم باليقظة. وهو، على ما يبدو لي، أحد الأهداف الرئيسة للمؤلفين وللناشر على حدّ سواء. ولا يسعني هنا إلاّ تقدير الجهد المبذول والجدارة المستحقة حق قدرهما.

ولطالما عانت المواقع الجزائرية السبعة المصنفة ضمن التراث العالمي لليونسكو من التورية على صعيد الإعلام الدولي، إذ ظلّت حبيسة أنظار المختصّين أو أسيرة الشغف المستتر لبعض الهواة المغرمين. في حين، ليس أسوأ على بقايا أثرية من أن تُطمس، مع أن الوظيفة الأساسية للمحافظة عليها، علاوة على الدراسة، تتمثل بالتحديد في إظهارها في الحاضر والمستقبل كشاهد على صنيع الأسلاف. لكن الإظهار لا يعني بالضرورة أيضاً العرض المفرط للمواقع الذي قد يؤدي للأسف إلى تهشيشها، بل إلى تخريبها. وبعبارة أخرى، فإنه عمل يشبه عمل المصور في مختبره حين يبذل قصارى جهده لإبراز صورة إلى النور دون أن يحرق الفيلم.

إن هذا العمل يندرج في مرحلة تثير الجزائر فيها بشكل متزايد الاهتمام والفضول بعد أن وطّدت أواصرها مع التيارات الدولية.

وقد استفادت المواقع الأثرية من هذا الانفتاح، كما يشهد على ذلك الإنتاج المكتوب والمصور، والفيض المتنامي من الزوار، بالإضافة إلى مؤشرات أخرى لا تقل تشجيعاً مثل تظاهرة سنة الجزائر في فرنسا. وهي مواقع تستحق بالفعل هذا الاهتمام لكونها تغطي، من خلال تنوعها الهائل، فترات أسست جزءاً هاماً من تاريخ البشرية.

كما تعلّق الأمر أيضاً، وهو ما يرمي إليه هذا الكتاب، بإلقاء نظرة جديدة على تراث تعود جذوره إلى أمهات حضارات البشرية، والقيام أخيراً بإعادة ربط الوشائج الحية للذاكرة من خلال المشاعر القوية التي تثيرها التحف الفنية التي ميّزت عصرها وعاشت بعده. إنّها شواهد على تاريخ يغوص بنا في أغوار الإرهاصات الأولى لمظاهر الإبداع الإنساني.

لقد تركت لنا الثورة النيوليتية في قلب الصحراء من غابر العصور، منذ أكثر من عشرة آلاف عام، أكبر متحف في الهواء الطلق تثريه آلاف النقوش والرسومات الصخرية. وما تبقى لنا من هذه الحضارات يتمثل في مظاهر محيّرة وهشّة لفن أصيل مكتمل، فن قائم بذاته عرف كيف يصور بواقعية أخّاذة أرهف لطائف التجريد، وحمّل رقّة الرسم كل قوة التمثيل التشكيلي.

وخلال خمسة قرون، تمكّنت العصور القديمة بقوتها العمرانية والمعمارية الرومانية من إنجاز شبكة من مدن الفن التي عرفت ازدهاراً وإشعاعاً حضارياً لا يمكن إنكاره مثل تيبازة وتيمقاد والجميلة، استطاع فيها الفنانون النوميديون من صنّاع الخزف والفسيفساء إحداث قلقلة جميلة في صرامة النموذج الروماني وذلك في تآلفات غير مسبوقة.

كما كان للإسلام الذي ورث كل هذه الحضارات أن يطبع بصماته على فن عمارة الصروح لمدن المنطقة المغاربية الوسطى، بحيث تبارت السلالات المزدهرة في الارتقاء بالفنون والعلوم والهندسة المعمارية والعمران إلى أرفع المصاف، وتركت شواهد في العديد من المناطق من خماسية المزاب إلى قلعة بني حمّاد إلى قصبة الجزائر ووصل بريق إشعاعها إلى الحواف الصحراوية للساورة وتوات والقرارة.

ومع حلول الأزمنة الحديثة وإلى غاية بداية القرن السابع عشر، وسمت الفترة العثمانية المصير الوطني والمتوسطي لمدينة الجزائر. فبرزت إبّانها هندسة عمارة النور بقصورها ومساجدها ونوافيرها التي بيّنت مدى التفنن في الصنعة الذي يروي أيضاً تاريخاً من التفنن في العيش.

إن اكتشاف أو إعادة اكتشاف هذه المواقع الأثرية الجزائرية يعني أن نسلك درب المعرفة والوعي لصفحة رائعة من صفحات التراث العالمي للإنسانية.

منيـــر بوشنـــاقي

نائب المدير العام للثقافة في اليونسك



سيدي عبد الرحمن
المسجد والمقبرة
زيت على قماش،
سهيلة بلبحار الجزائر

أتقدم بأحر الشكر إلى كل الأشخاص الذين ما كفّوا أبداً عن مساندتنا و ساهموا أيضاً في إنجاز وإنهاء هذا العمل وأذكر على الخصوص:

فخامة رئيس الجمهورية.
وزارة الدفاع الوطني.
السيد رئيس مجلس الأمة.
السيد رئيس المجلس الشعبي الوطني.
السيد وزير الدولة وزير الشؤون الخارجية.
السيد محمد الصغير بابيس رئيس المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي.
السيد مراد مدلسي وزير المالية.
الدكتور شكيب خليل وزير الطاقة والمناجم.
السيدة خالدة تومي وزيرة الثقافة.
الدكتور بوجمعة هيشور وزير البريد وتكنولوجيا الاتصال.
السيد نور الدين موسى وزير السياحة.
السيد منير بوشناقي نائب المدير العام للثقافة في اليونسكو.
السيد الرئيس المدير العام للشركة الوطنية سوناطراك.
السيد امحمد طيب بن ويس الرئيس المدير العام للشركة الوطنية للخطوط الجزائرية.
الدكتور محمد لقصاصي محافظ بنك الجزائر.
السيد محمد لوكال الرئيس المدير العام لبنك الجزائر الخارجي.
السيد مراد بتروني مدير التراث الثقافي.
السيدات والسادة محافظو مختلف المواقع والمتاحف لما قدموه من مساعدة كريمة.
السيد مدير الوكالة الوطنية للآثار.
السيد أمزيان فرحاني لمساعدته الودية.
السيد مصطفى أوريف مدير رواق أسمى لنصائحه السديدة.
السيد مدير المكتبة الوطنية للحامة بالجزائر.

كلمـــة النـــاشـــر

"الكنز"، كلمة غالباً ما استعملت لوصف التراث الأثري، وطالما تناقلتها الألسن بشكل يجعل المرء يرغب للوهلة الأولى في أن يبحث عن غيرها، أي بمعنى آخر أن يسربل القديم بالجديد. لكن هل يوجد بالفعل ما هو أنسب للتعبير عما كان مكنوناً ومنسياً ثم أصبح مكشوفاً ومبجلاً؟ إن تلك الآثار تعتبر بالفعل كنوزاً لروعتها ولطابعها الفريد ولقيمتها النفيسة ولما تعطيه من شهادة لا تعوّض عن تاريخنا وإنها بالفعل لكنوز. وعلى الرغم من أن الكلمة ليست مبتكرة إلاّ أنها الأقوى والأصح.

لقد كان طموحنا ونحن ننجز هذا العمل هو القيام بجرد واحتفاء وتوجيه نداء لتوعية الضمائر، فذلك أقل ما تستحقه المواقع الجزائرية السبعة للتراث العالمي. ومن نافلة القول، إنه لا يمكن لكتاب واحد استيفاء أهميتها المعمارية، ومغزاها التاريخي، وتنوع حقبها وحضاراتها، بل بوسع كل منها أن يوحي بعشرات الكتب.

إنها تروي حكاية عجيبة يرتكز مغزاها على مسلّمتين اثنتين: أولاهما أن حضور الإرث العالمي في الجزائر يعود إلى أزمنة سحيقة، وقد ساهم في تشكيل تضاريسها الحضارية عبر العصور. وثانيهما أن الجزائر لم تكن أبداً بوتقة سلبية بل لعبت دوراً فعّالاً في تطوّره.

إن هذه الأعمال التي ابتدعتها عبقرية البشرية تبلّغنا رسالة لا تمس ماضينا فحسب، بل تتعلق مباشرة بحاضرنا المطبوع بالعولمة حيث تسعى كل أمة لإيجاد مكانتها من خلال المحافظة على هويّتها.

ومن ثمّ، فنحن أمام مسؤولية مزدوجة تتمثل في المحافظة على هذه المواقع التي يعجز البيان عن وصف سرعة عطبها وهشاشتها، وفي تسليمها بدورنا كورثة وبصفتنا مؤتمنين عليها أمام البشرية التي اعترفت بها كأدلة ودلائل على تطورها.

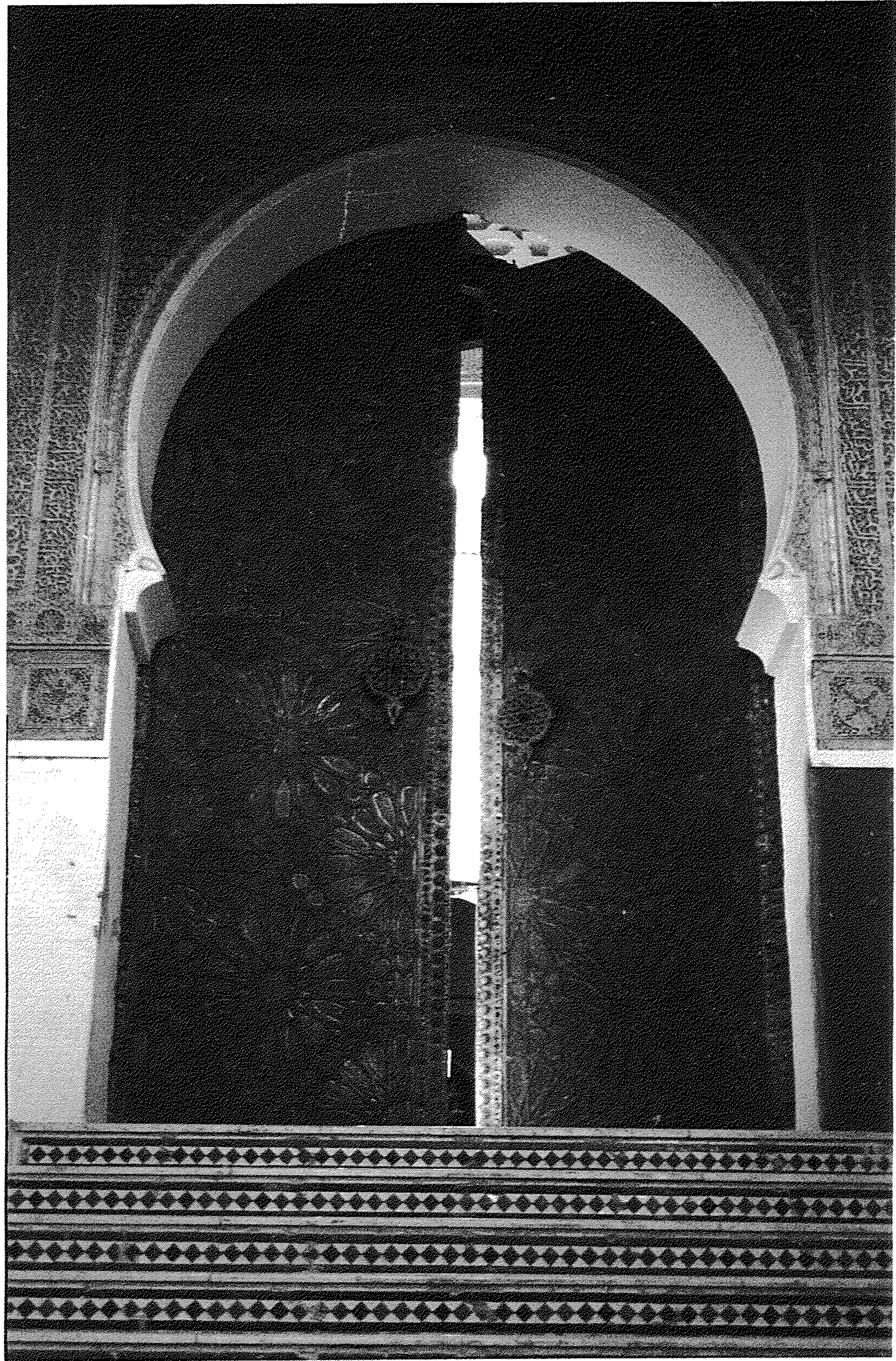
وبما أن الوعي لا يتنامى إلاّ بالمعرفة، فقد جاء هذا الكتاب بمثابة دعوة للاكتشاف، ورحلة عبر تلك الأقطاب السبعة التي يزخر كل منها بتمازج فريد من التاريخ والجمال.

كما رمينا الطرف أيضاً صوب مواقع أخرى لا شك في استحقاقها التصنيف ضمن التراث العالمي، والتي قد يسمح إدراجها في هذا الكتاب بالدلالة على التواصل التاريخي والأثري للجزائر.

إنّ هذا الكتاب بالإضافة إلى كونه محاولة للتصدي لتهديد الزمن ولإساءة النسيان ولكل أنواع التلف الممكنة للأسف، هو أيضاً تكريم للنساء والرجال من علماء الآثار والمحافظين والمرممين والأعوان البسطاء الذين يدافعون بكل يقظة عن هذه الكنوز التي نمتلكها باسم الإنسانية.

زكـــي بوزيـد





سيدي بومدين

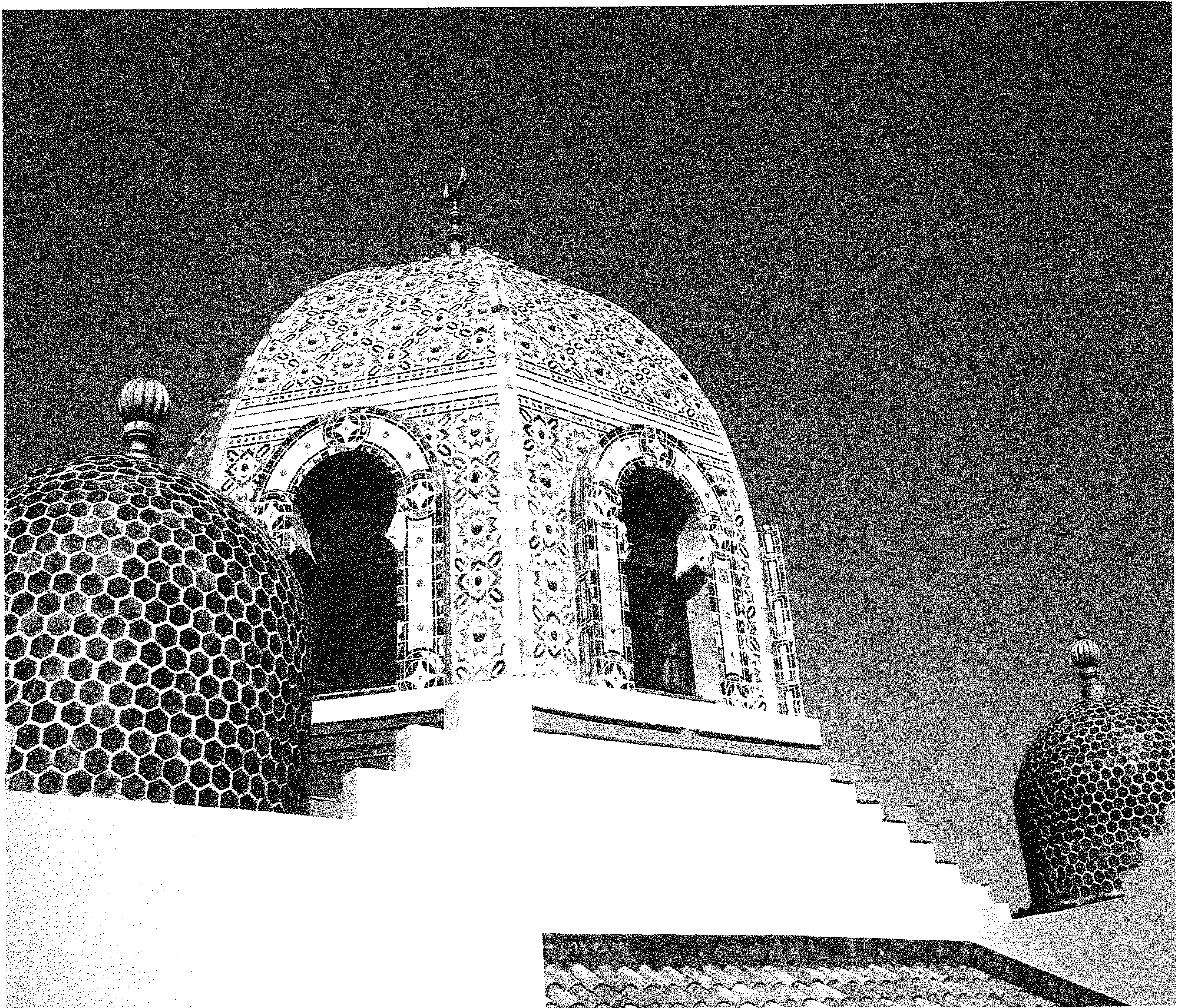
فهرس

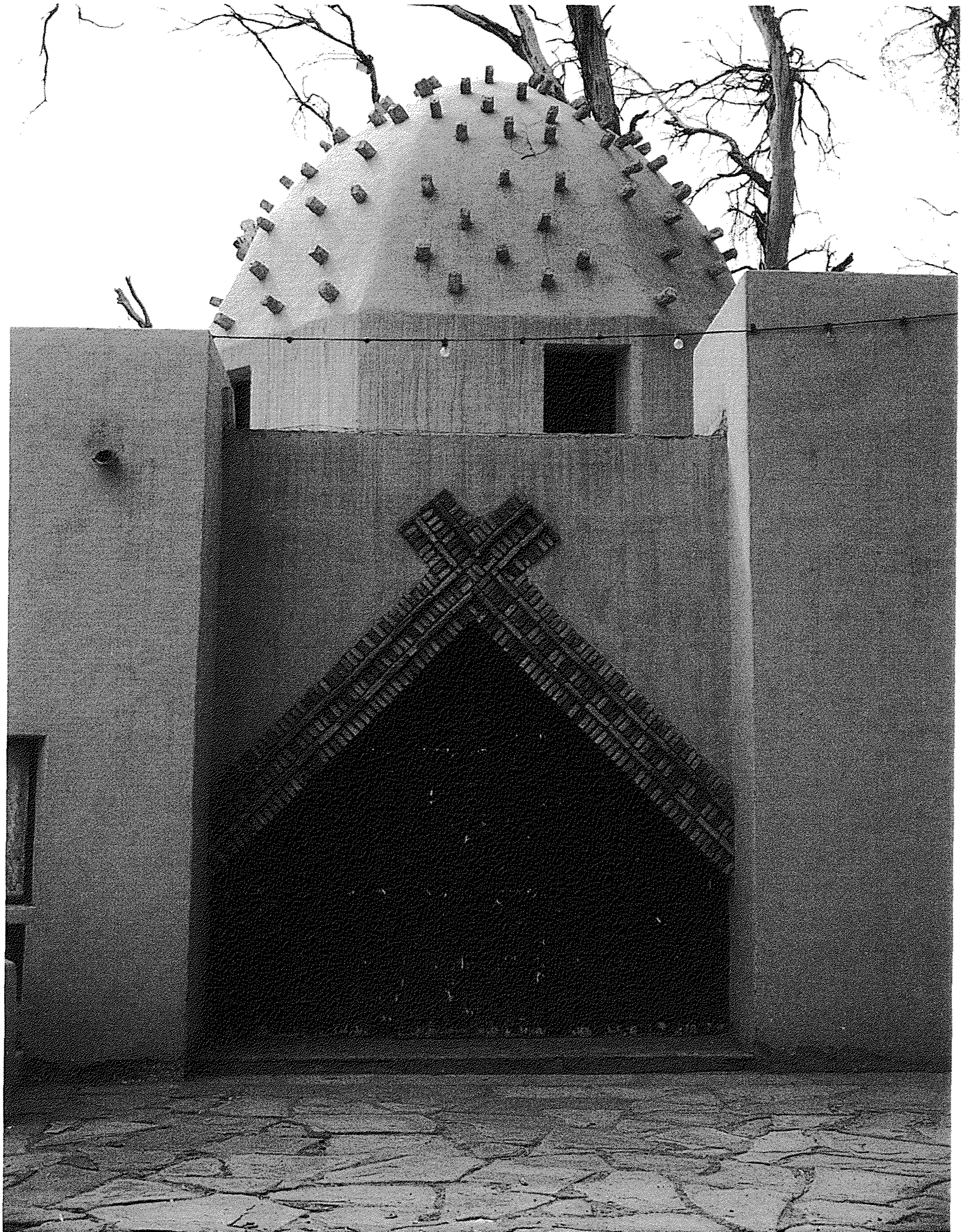
I - المواقع السبعة المصنفة ضمن التراث العالمي لليونسكو

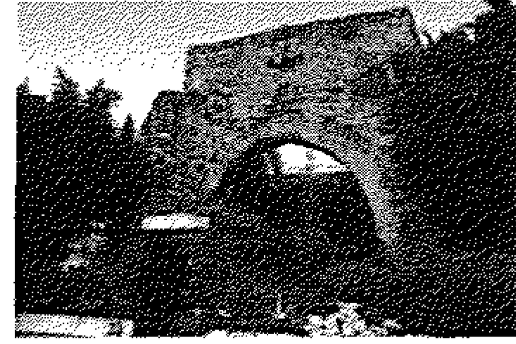
II ـ المواقع السبعة الأخرى للاكتشاف من التراث الوطني

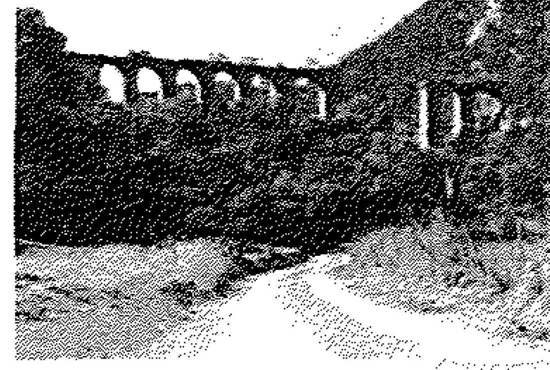
ساهم في إعداد نصوص هذا الكتاب كل من:

جينيت أوماسيب	دكتورة في الأدب، مختصة في ما قبل التاريخ الصحراوي، مديرة سابقة لمختبر البحوث الأفريقية التابع للمركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا.
نصيرة بن صدّيق	دكتورة في التاريخ القديم والكتابات اللاتينية، أستاذة في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة بالجزائر.
سعيد دحماني	دكتور في تاريخ القرون الوسطى. باحث في التاريخ وعلم الآثار، المحافظ الأول لموقع ومتحف هيبون، عنابة.
عبد الكريم جيلالي	صحفي وكاتب.
صباح فردي	دكتورة في علوم التاريخ القديم، محافظة موقع ومتحف تيبازة.
محند آكلي إيخربان	محافظ موقع ومتحف الجميلة
عبد الرحمن خليفة	دكتور في التاريخ وعلم الآثار، مفتش الصروح والمواقع التاريخية، مدير سابق للتراث الثقافي وللوكالة الوطنية للآثار.
جمال سويدي	دكتور في تاريخ القرون الوسطى، وكاتب.
جعفر لسبط	مهندس معماري، وعالم اجتماع وكاتب





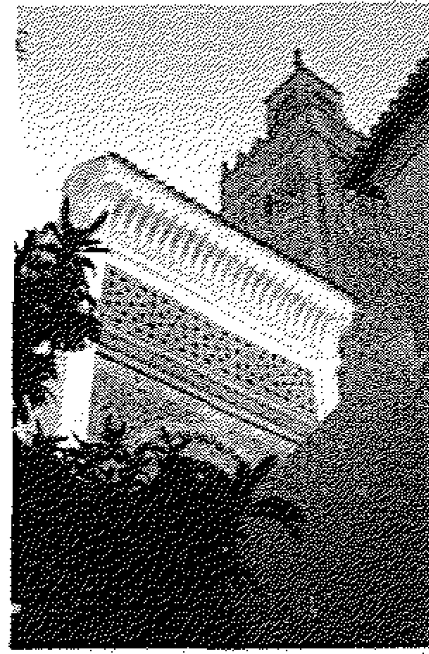
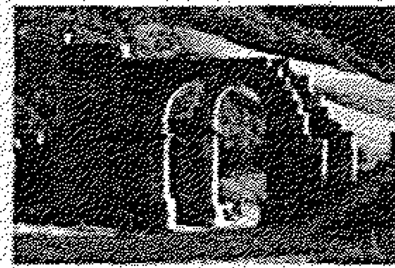
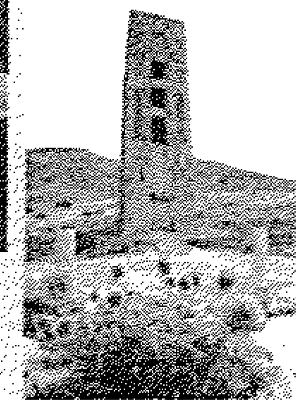


هيبون
بجاية
الجزائر
شرشال

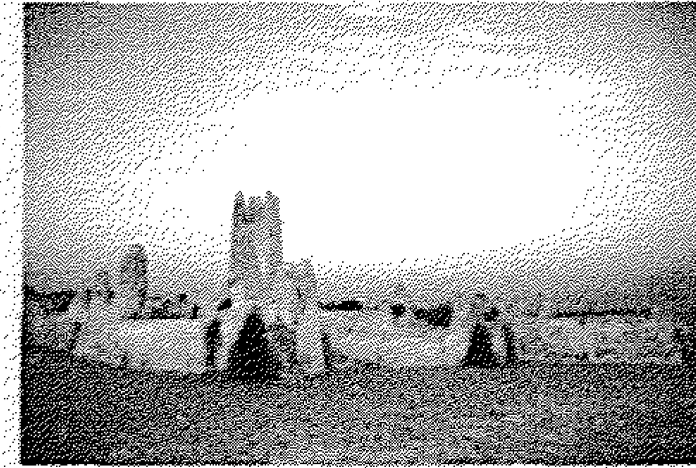


عنابة
قسنطينة
تيبازة
سطيف
الجميلة
باتنة
تلمسان
تيمقاد
قلعة بني حماد



غرداية
المزاب



تيميمون



الجزائر

جانت
الأهقار
تاسيلي نازجر






التاسيلي

نازجر

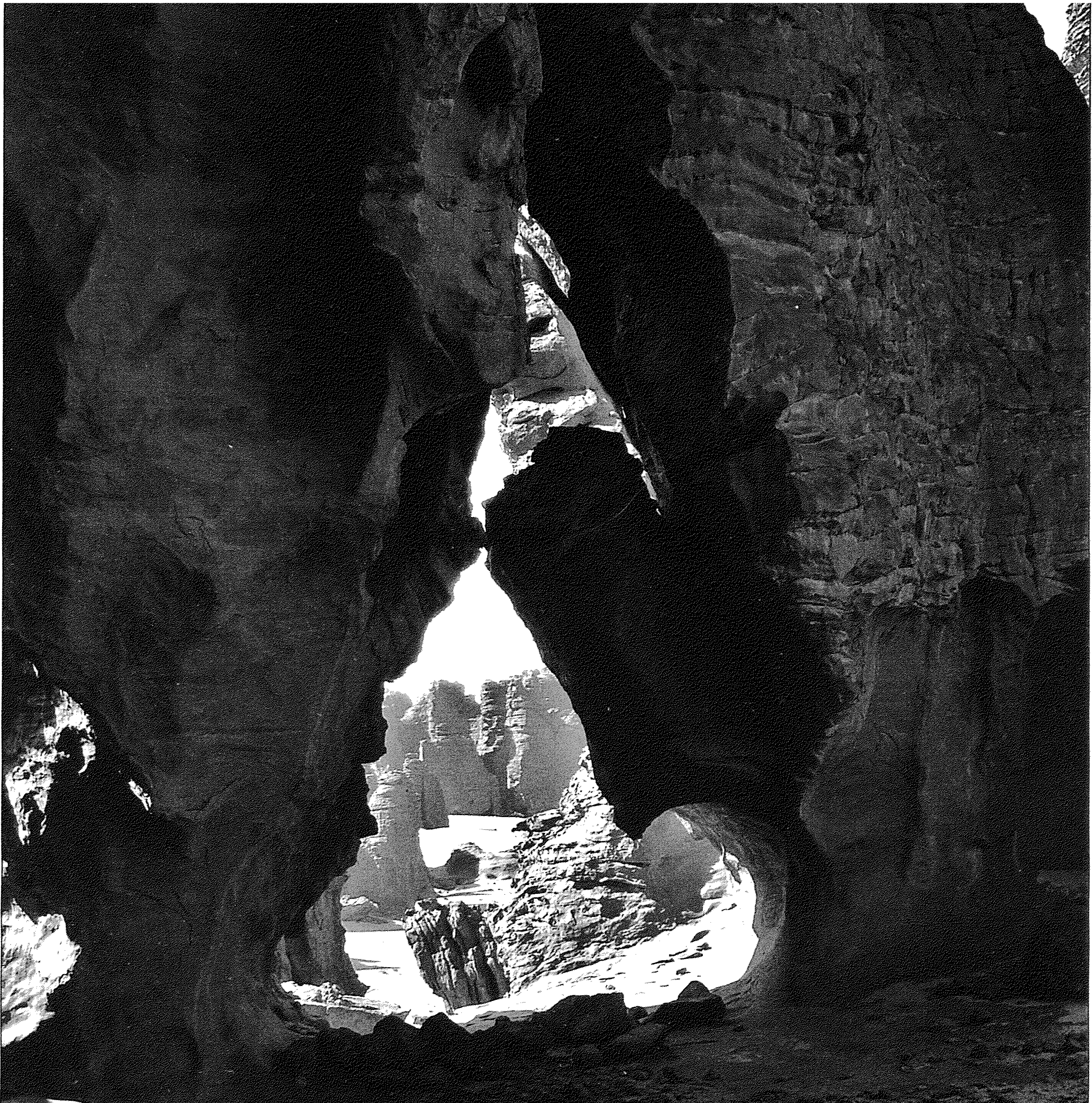
جينيت أوماسيب

يشكل التاسيلي أزجر [1] الجزء الشرقي من سلسلة الجبال الصحراوية الوسطى. وهو هضبة حثية على شكل قوس دائرة ذات ارتفاع يقدر بـ 1500 إلى 1800 م بميل نحو الشمال والشرق، لا يفصله عن جبال الأهقار سوى سهل فسيح على ارتفاع 500 إلى 800 م وهو الأخدود التاسيلي التحتي؛ وهذه المنطقة الواطئة هي ميدان المكاثب وأهمها مكثب أدمر. ومن انخفاض آخر يسمى الانخفاض التاسيلي الداخلي جاءت المسميات: التاسيلي الداخلي والتاسيلي الخارجي. يشرف التاسيلي الداخلي على السهل التاسيلي التحتي من فوق جرف شاهق ذي قمة يبلغ ارتفاعها 600 م صعبة الارتقاء. ولا يمكن الوصول إليها إلاّ عن طريق الدروب الضيقة التي تسمى "عقبة"، حيث يمشي المرء طوال ساعات وسط مسالك انزلاقية مدوّخة لا يغامر فيها إلاّ الرجال والحمير. الأكثر شهرة منها هي تافلالت وأغوم، تؤدي الأولى إلى الموقعين تامريت وسفار الذائعي الصيت، والأخرى تؤدي إلى جبّارن؛ وفي شمال جانت يمكن الوصول إلى ممر أساكاو الأكثر انحداراً بواسطة الجمال. المنظر في القمة يخلب الألباب، ويتألف من آلاف الأعمدة الضخمة المتراصة فيما بينها وكأنها قصور أو أطلال مدن، تشكل أحياناً غابات حقيقية من الحجارة. وفي قاعدة تلك الأعمدة توجد نخاريب كان يستعملها سكان ما قبل التاريخ ولا زالت تستعمل مراراً لحد الآن. جدرانها مغطاة برسوم تنبئ عن أناس توالوا عليها طوال أكثر من عشرة آلاف سنة. في الجنوب يطلق على التاسيلي الخارجي اسم "تادرارت" الذي يوجد الجزء الجنوبي منه فقط في الجزائر، واسمه في الجنوب "فاندوم".

وتضاريس تادرارت لا تختلف كثيراً عن التاسيلي الداخلي في جزئه الشمالي بنفس الانحدار الخفيف نحو الشرق، وبنفس الجدار العالي المتعذّر الارتقاء الذي يبلغ ارتفاعه 400 متر والذي يشرف على الأخدود التاسيلي الداخلي. وبفضل التفكك الكبير الذي تتميّز به في الجزء الجنوبي، فإن هذه المنطقة تتسم بتنوع مدهش في تضاريسها برؤوس جبلية وحواجز صخرية اجتاحتها الرمال. والفاندوم عبارة عن هضبة شاسعة تغطيها كلية قشرة من الزنجار الأسود يعطيها طابعاً متفحماً. ولمعانها المدهش ينتج عن تراكم ذرات الغبار الغضاري على شكل شرائح مجهرية على سطحها.



1- لا يزال الجدال قائماً حول مغزى كلمة آزجر المستعملة منذ زمن طويل. وحالياً يفترض أنها تعني العجل باللغة التاماهاكية، و جاءت من آزغر أو آزجر ومنها اختلاف طريقة رسم الشكل الخطي.



وبما أنها غير نفوذة فإنها تمنع تسرب مياه الأمطار التي تسيل على السطوح الصخرية الواسعة، ولا تلج إلا داخل الشقوق لتزيد من انفتاحها وتحولها إلى قنوات لا ترى إلّا عند الاقتراب من حافتها.

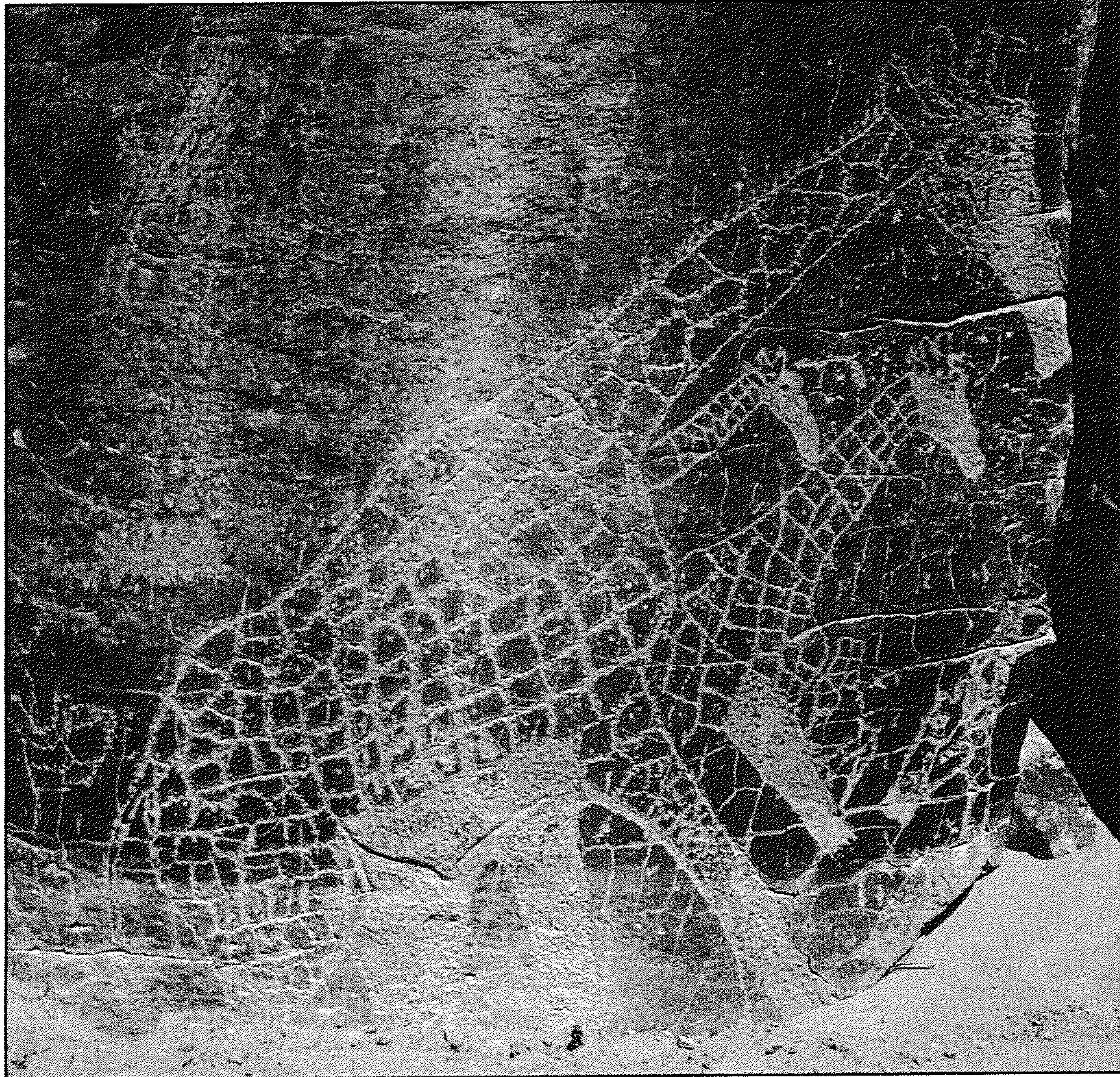
الوضعية الجغرافية للتاسيلي آزجر هي: 50N°26__00°23 5، 12°__20° 00E، وهي تجعل مناخه قليل الأمطار، لكن وكما يؤثر المناخ المتوسطي السائد على المناطق الشمالية، كذلك يؤثر المناخ الاستوائي على المناطق الجنوبية. والأمطار فيها غير منتظمة بل نادرة وقليلة الغزارة. والمعدلات السنوية تتراوح بين 10 و25 مم من أمطار تهطل بشكل غير منتظم من شهر سبتمبر إلى شهر مايو مع قيمة قصوى في شهري يناير وفبراير. والاختلاف هام في درجات الحرارة بين الليل والنهار. إذ تبلغ درجة الحرارة الأكثر ارتفاعاً حدود 30 درجة مئوية، وذلك بين بين شهري مايو(أيار) وجوان (حزيران)، بينما قلّما تتعدّى درجات الحرارة الأقل حدود 10 درجات مئوية في «جانت» بين نوفمبر (تشرين الثاني) وفيفري (شباط).

كان يسكن التاسيلي آزجر، قبل تمازج الأعراق الحديث العهد، الطوارق آزجر، وهم فئة من طوارق الشمال انفصلوا في القرن السابع عشر، واطلقوا اسمهم على البلاد التي كانوا يسكنونها. يقدر تعدادهم بـ 10 آلاف نسمة. وتضم كونفدرالية الآزجريين حوالي خمسة عشر فئة من البدو الرحل يجوبون المراعي، وخمسة عشر فئة من المستقرين الذين يعيشون منذ أزمنة غابرة على تربية الإبل والمواشي وقليل من الزراعة في ثلاث قرى تقع في واحات جانت والميهان وأزلواز وآجاهيل، وكذلك في مراكز زراعية صغيرة من أشهرها إهرير. ومنذ حوالي عشرين سنة بدأ هؤلاء الرحل في الاستقرار محتفظين بثقافتهم البدوية.

وبفضل ثراء وتنوع تضاريسها الجيولوجية وفنّها الصخري حظيت منطقة التاسيلي آزجر بالتسجيل في قائمة مواقع التراث العالمي في العام 1982. وفي العام 1986 تم تصنيفها كمحمية للمحيط الحيوي. وفي العام 1972أعلنت وزارة الثقافة عن جعل منطقة المدّاك حظيرة وطنية، وفي العام 1979 امتدت المساحات المحمية لتشمل المناطق المجاورة.

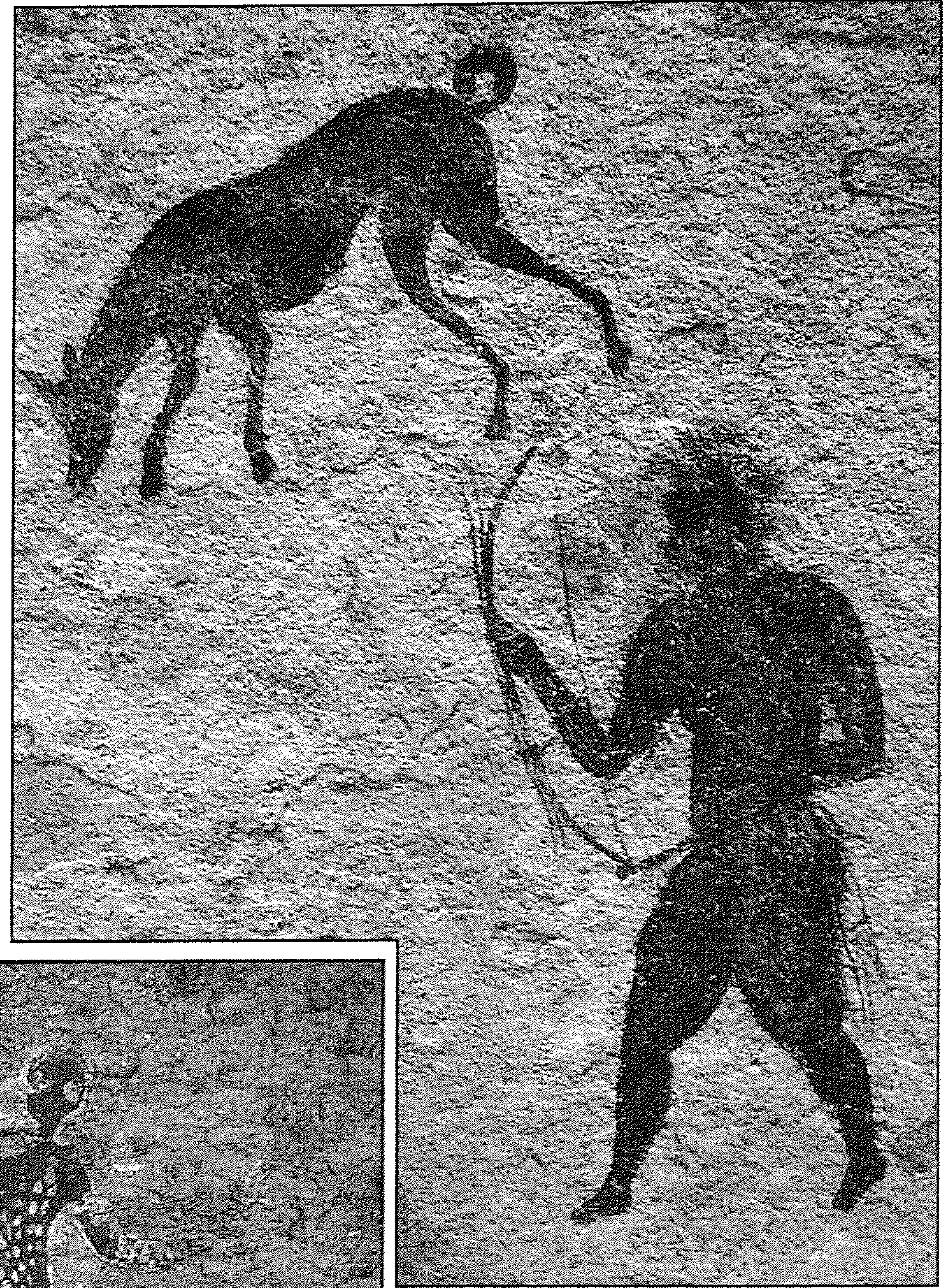
مدرسة للجيولوجيا

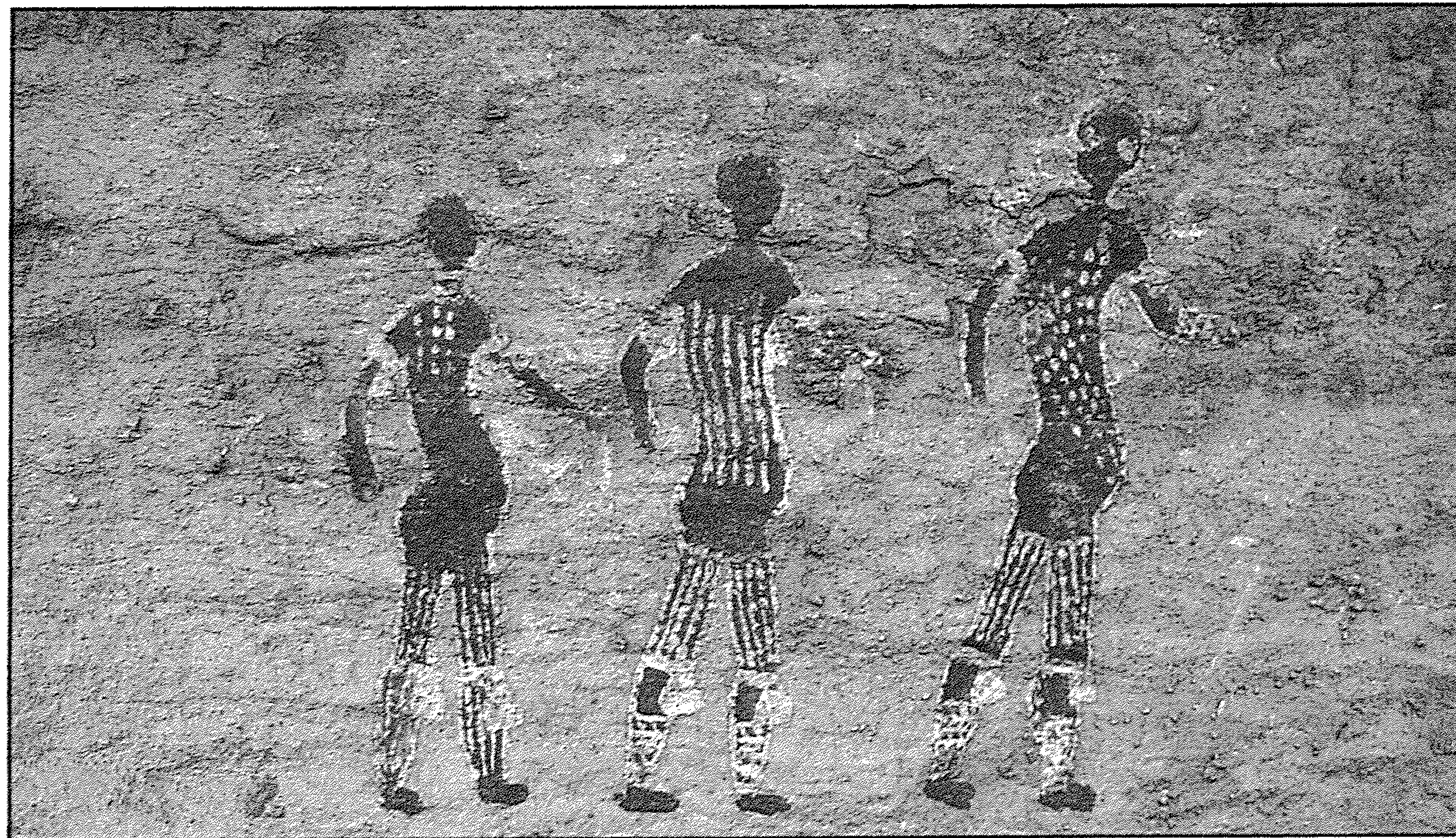
في التاسيلي، يمكن للمرء أن يقرأ على الصخرة الجرداء وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح تاريخ الكوكب المغرق في القدم، تاريخ أولى الأراضي التي برزت على وجه البسيطة. وعليه، أصبحت هذه الأماكن مدرسة حقيقية للجيولوجيا. والتاسيلي هو الميدان الأكثر قدما لوجود الصلصال الرملي وهي صخور تتحلل في أحشاء الأرض، على عمق آلاف الأمتار ومنها يُستخرج النفط... وتشكّل الجزء الأكبر من سطحه. أما في المناطق الواطئة، كما هو الحال في «جانت» فإنها تسمح أحياناً بظهور الصخرة الغرانيتية التي تفترشها؛ فترانا نطأ



تربةً عمرها أكثر من 500 مليون سنة. وتفسح المجال لبروز تنضيدات في الأخدود التاسيلي الداخلي، وأحياناً في الأجزاء الواطئة، وكذلك على الصخرة الغرانيتية التي تتموضع فوقها. وهكذا، فإننا نطأ في جانت إحدى أقدم الأراضي في العالم. تنتمي صخرة الغرانيت إلى الأراضي التي يسميها الجيولوجيون باسم الأرخينية التي ينيف عمرها عن 3 بليون سنة وتذكر بالاسم الغامض لـ غوندوانا إحدى أولى القارّات.

غوندوانا اليوم تشكل الموقع الذي تتربّع عليه أفريقيا، وتروي بذلك قصتها. وهي عبارة عن نطاق قاري بدائي يتألف من أراضٍ متحوّلة تعرضت لتغير شديد بفعل الحمم. وقد غيرّ التحات هذه الصخور محرراً عدداً كبيراً من حبّات الرمل والغبار الغضاري التي جرفتها المياه؛ فترسّب الرمل والغضار في أعماق البحر خلال مئات آلاف السنين، بحيث تركّز الرمل قرب الشواطئ والغضار في مناطق أبعد. ومع مرور الزمن تحوّلت الرمال إلى صلصال. وشكلت إكليلا يحيط بالنطاق البدائي الذي ساهم تقبّبه البطيء في تحتت الصخور وجلب الصلصال إلى ما فوق مستوى البحر. الأمر الذي يفسّر عدم تجانس الصلصال، بحيث يلاحظ وجود صلصال ذي حبات ناعمة تشكلت بعيداً عن الشطآن، مقابل حبات غليظة تشكلت قرب الشواطئ، و نرى تنضيدات متقاطعة تعود إلى تغيرّ جهة مجرى التدفق المتناوب لسيلان الأنهار والمياه الجارية في فترات الفيضانات. ويمكنها أن تكون مشوهة في الجزء السفلي، بينما تبقى في الجزء العلوي





أفقية وتختزن نقاطاً متميزة توجد فيها مستحاثات شديدة القدم وهي الخيشوميات. و يمكننا أن نعثر في المناطق الوسطية بين المحيط البحري والمحيط النهري على جحور مستحثة لحيوانات حفّارة يسمى البعض منها "هارلانيا" موجودة بكثرة في منطقةإرهارهاين.

لهذه الرمال الصلصالية سطوح تعرضت لتحتت عميق بفعل المياه ، فظهرت فيها الحزوز والقنوات والجرافات والسهول الجليدية كتلك الموجودة في أهرّير والتي تحكي قصة الانزياح الطويل لـ غوندوانا. فقد كانت هذه القارة منذ 400 مليون سنة تقع قرب القطب الجنوبي. وكانت تغطيها طبقة سميكة من الجليد الذي صقل صلصال التاسيلي الداخلي تاركا على سطحه آثار التحات الجليدي. وقد سبّب انزياحه نحو موقعه الحالي بسبب حركات الحمم، ذوبان الجليد وارتفاعاً معتبراً لمستوى سطح البحر. وقدعدّل تغير خطوط الشواطئ من وضعية الترسبات؛ فحيثما كان يترسب الرمل صار مكاناً لترسب الصلصال نظراً لبعد المسافة التي تفصله عن الضفة. ثم تتحول هذه الخطوط إلى تنضيدات تحتوي على حيوانات بدائية graptolithes تعيش في ذلك البحر السيلوري، وتشبه قناديل البحر التي يمكن ملاحظتها في الأخدود التاسيلي الداخلي. ثم يصبح البحر أقل عمقاً وتترسب فيه من جديد الرمال والصلصال مشكلة التاسيلي الخارجي. وبعد أن تراجع البحر منذ 300 مليون سنة، لم يعد هناك ترسبات بحرية وأصبحت الأراضي حينئذ قارية.



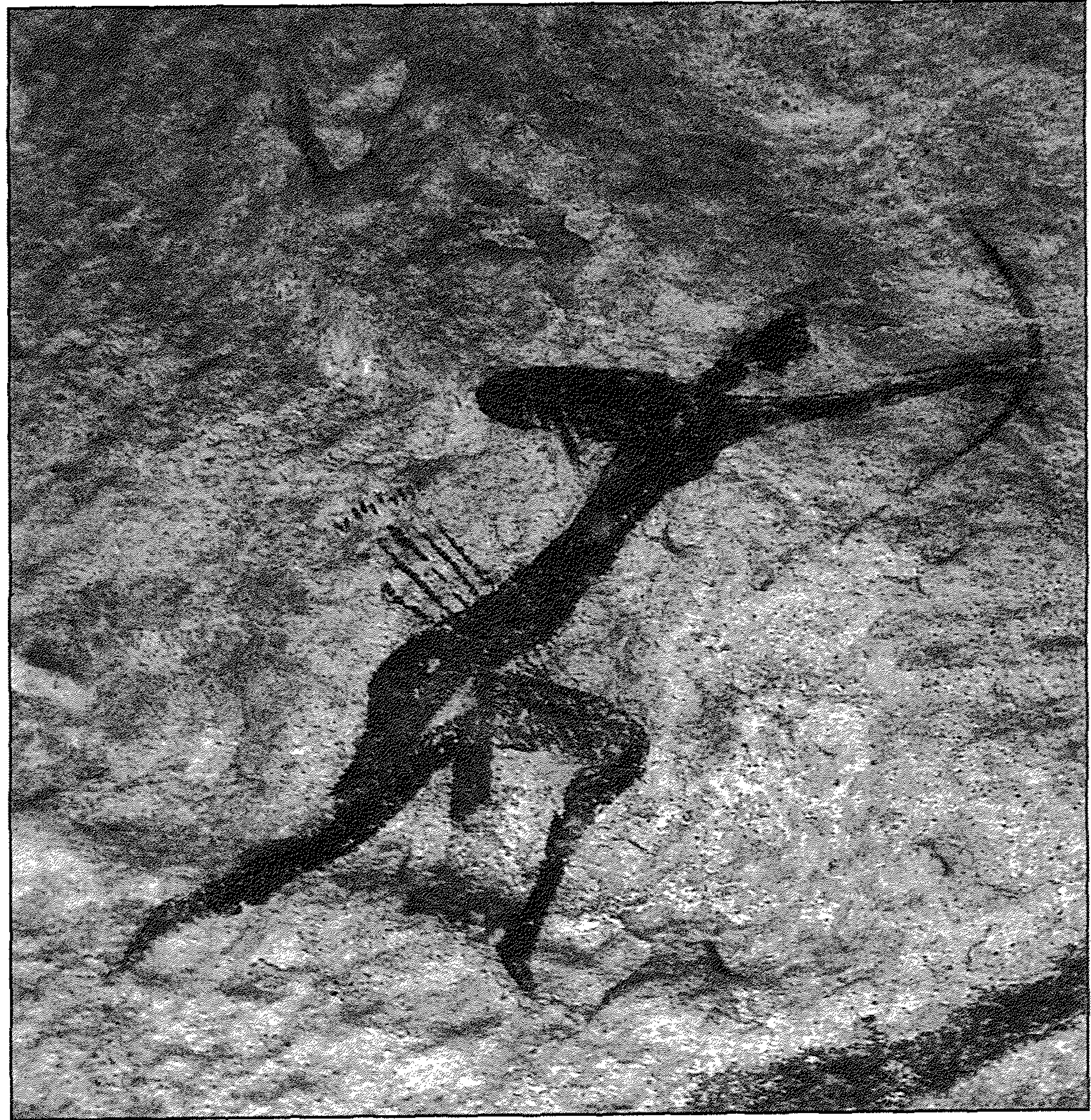
ولم يعد الصلصال الرملي والغضار يتراكمان مثلما كان الحال أثناء تكوينهما. وبروز العهد البدائي البطيء جعلهما ينحسران، مما أدى إلى ميلانهما وجعلهما أكثر هشاشة عن طريق ملامسة مقطع كل منهما. حيث لم يكن للتحات مفاعيل متشابهة. والمناطق الأقل مقاومة هي التي كانت تشكل الجزء المحتوي على التنضيدات. والاحتكاك بين صلصال التاسيلي الداخلي والصخور الغرانيتية للعصر البدائي التي كانت تتبدّل بسرعة أكبر من الصلصال الرملي، قد أحدثت إحداها الأخدود التاسيلي الداخلي والأخرى الأخدود التاسيلي التحتي والشواطيء الصخرية الشاهقة التي تشرف عليهما. وقد تجزأ السطح الصلصالي للتاسيلي الداخلي الذي نحتته عوامل التحات الجليدية إلى حد كبير لدرجة بروز الغابات الصخرية ذات المظهر المذهل والتي حفرت فيها أودية عميقة بينما تفككت فيها مناطق أكثر هشاشة إلى أن ظهر الغرانيت.

وعندما مست حركات الهضبة الصخور الأقل ضغطاً مثل الصلصال الرملي سحقتها سحقاً وبعثرتها في كل الاتجاهات محدثة بذلك صدوعاً وفكوكاً وخسوفات أرضية عميقة أحياناً، ومنافذ بركانية. ويشكل صدع جانت مثالاً باهراً مع تفاوت في المستوى يبلغ 600 متر بين فلجتي الانشقاق. تتناثر على الضفة اليسرى من الواد نتوءات غرانيتية تغطي جنباتها كريات ضخمة أحدثها التحات؛ وعلى بعد حوالي عشرة كليومترات تعلو صخور الغرانيت هضبة صلصالية يبلغ ارتفاعها 800 متراً. في حين أن المنظر مختلف تماماً في الضفة اليمنى، إذ لا يتجاوز ارتفاع الهضبة الصلصالية الخمسين متراً، لأن خسوف هذا الجزء لا يظهر سوى قمة الصلصال الرملي. ومع تغلغل الواد داخل الانشقاق قوّض أساس الجزء العلوي، ونظراً لكون الغرانيت أقل تأثراً بعوامل التحات من الصلصال الرملي، بدأ هذا الغطاء يتفكك شيئاً فشيئاً مسفراً عن صخور غرانيت العصر البدائي.



إن مجرد التفكير في أن إنسان العصر الحجري هو الذي أبدع هذه التحف الفنية يغمرنا بالدهشة والإعجاب.

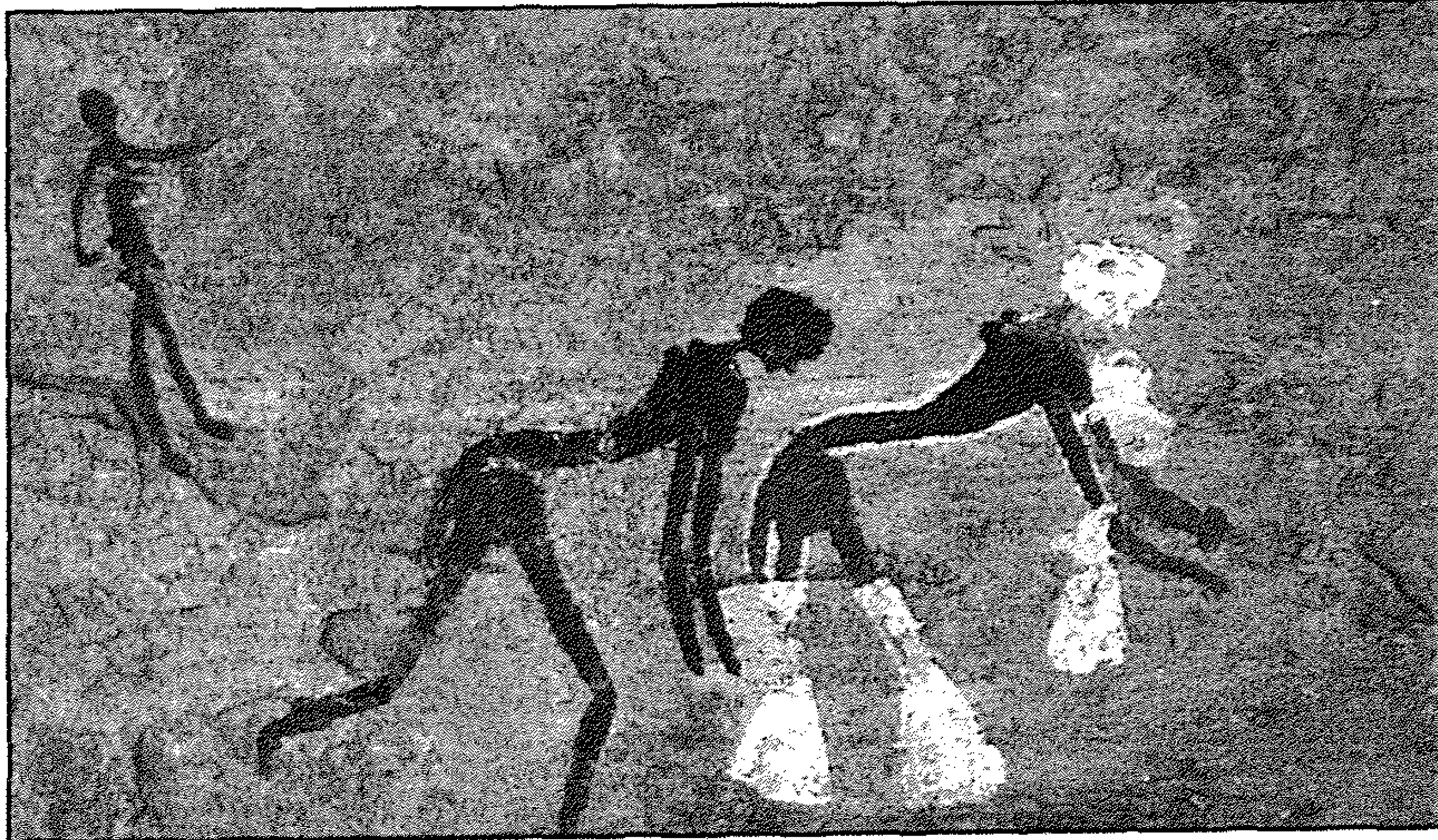
هـ. لوت. 1958



ومنذ عشرات الآلاف من السنين غمرت الرمال المنطقة بأسرها مشكلة مساحات كثبانية واسعة تدعى المكاثب، تظهر تضاداً بارزاً مع الجبال والهضبات الشاهقة. وتعتبر معالم لحركة ارتجاف الصحراء بمدها وجزرها.

المتحــف الطبيعـي

إن النباتات المتناثرة التي اكتسبت خاصيات غير مألوفة بفعل العزلة وآلاف السنين من الكفاح ضد القحط، تجعل من هذه المنطقة متحفاً طبيعياً. وهي نادرة بالفعل بل ومنعدمة في بعض المناطق. تتجمع في أماكن متميزة، خاصة في أحواض الوديان حيث تنعم بالرطوبة وتمنحها الأشجار التي تستقي المياه من الأعماق بعض البرودة إلا أنها تبقى هزيلة. ولا تتلاقى سيقان النباتات أبداً بل تأخذ شكل وسيدة. فالمنافسة ضارية، بحيث تتمكن بعض الأصناف من احتلال جل المساحة بالقضاء على الأصناف الأخرى محدثة بذلك أماكن ذات نباتات خاصة تلقب بها. وهكذا أخذ واد أفالهله اسمه من نبتة البنج الشديدة السمومة والقاتلة، أو أفالهله الطوارق واسمها العلمي: هيوسياموس موتيكوس، وتستعمل على جرعات قليلة في معالجة بعض الأمراض. ويقوم الطوارق بغية مكافحة الجدب بحرق هذه النباتات إذا أينعت، للحد من تكاثر هذه الأصناف التي لا تروق للحيوانات ولفسح المجال للشتائل الصغرى.



كانت المظاهر البركانية متفشية في كل مكان. فقد خلّفت الهروق البازلتية قرب أكروف مسلات يبلغ سمكها عشرات الأمتار. وعلى مشارف جانت توجد قبة تين تاوسين المكونة من صخر الفونوليت الذي بقره تدفق البازلت. أدرار نزجر هو بركان واسع يحتل مساحة قدرها 2 825 كم مربع، ويبلغ ارتفاع قمته آزاو 2165 متراً، وهو ارتفاع يجلب الأمطار التي تتسرب داخل البازلت لتعود وتظهر في أهرّير مزودة إياها بنهرها و بحلتها الخضراء. ونجهل حتى الآن تاريخ نشوء هذه الظواهر البركانية، ولكن كما هو الحال في الأهقار حيث يرجع أصل هذه المظاهر إلى 5000سنة، نميل إلى الافتراض بأنها حديثة العهد. والأساطير المحلية تلمح بالفعل إلى نثر أحجار نارية، و انتقال أوتاد حجرية من مكانها وقد شرخت أو عوّضت بحفر، وانبجاس ينابيع، مما يوحي بأن أهل هذه المنطقة قد شهدوا هذه الثورات البركانية.

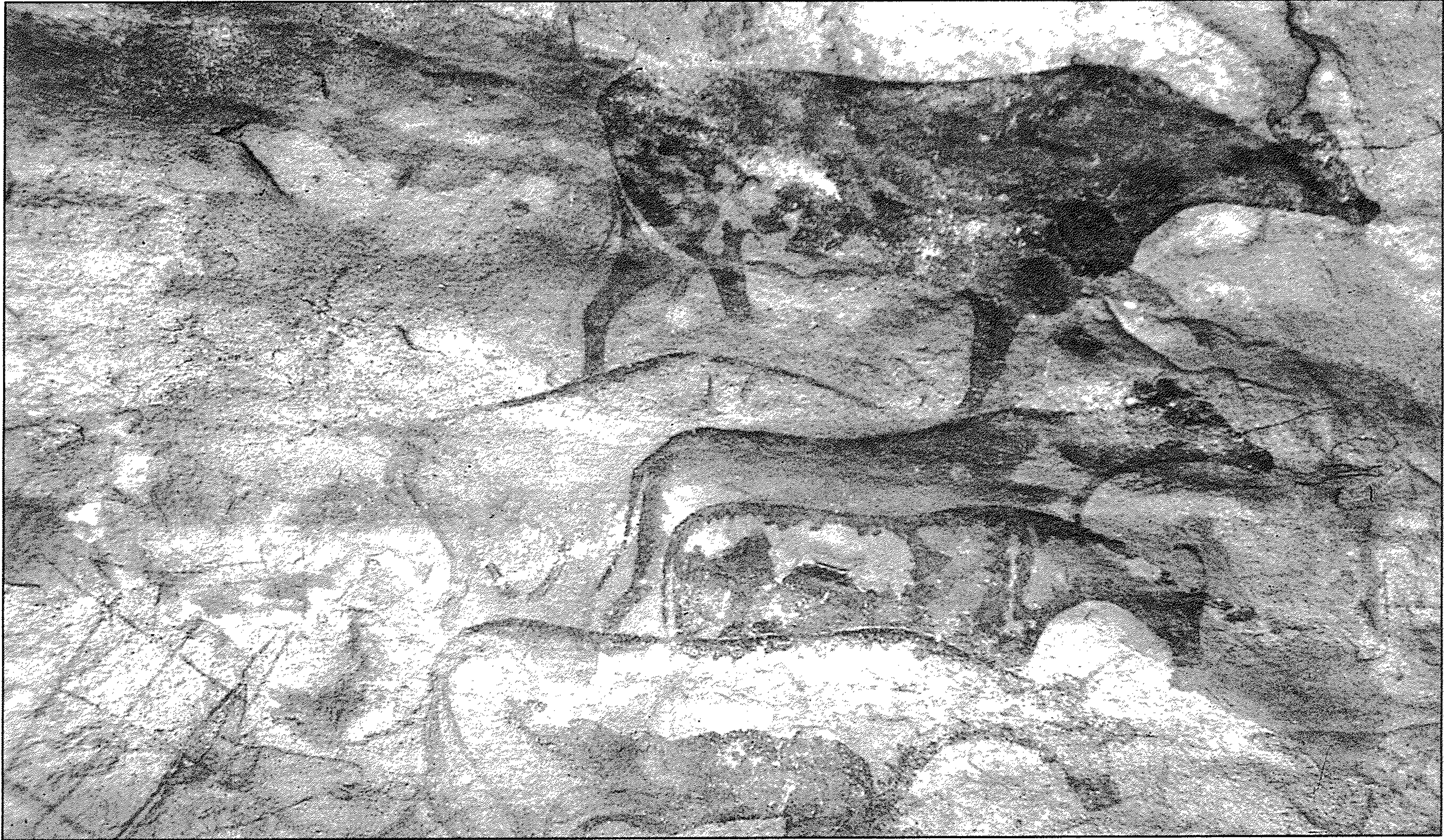






"العلم في الصغر كالنقش على الحجر"

"العلم في الكبر كخط رمل بلا أثر"



وكما هو الحال في كل الصحراء، تعيش النباتات وتبقى عن طريق تقصير عمرها الإنباتي. إذ يكفي لنبات "العشب" وهو من صنف الحشائش، 20 مم من الماء لينمو. وخلال أيام قلائل، بعد هطول المطر، تبدأ البذور والبصلات التي كانت قد بقيت لسنوات تنتظر القطر في النتش والنمو والإزهار، ثم تشكل بذوراً وبصلاً يسبت إلى حين. أما النباتات الدائمة فقد تأقلمت بواسطة إنقاص أوراقها التي يتبخر من مسامها الماء، وتطوير نظام عجيب لجذورها، بحيث أن بعضها يستقي الماء من عمق 40 متراً. وهناك نبتة غريبة من نوعها ومتوفرة بكثرة في منطقة تادرارت اسمها "وردة الخليل" واسمها العلمي: أناستاتيكا هييروكونتيا، قد فقدت جذورها، على عكس النباتات الأخرى، وتعيش بامتصاص الندى من على كامل سطحها، ولا تصمد أمام الرياح التي تنقلها باستمرار.

إن هذه النباتات المعزولة بتلك المساحات الشاسعة الجرداء قد تطورت دون اتصال بالخارج منذ زمن طويل، وهي تشمل أيضاً أصنافاً مستوطنة عديدة أخرى. وقد طورت عن طريق تأقلمها مع ظروف الصحراء الصعبة عدة خاصيات متميزة، وسلوكات تختلف عن تلك التي تمتلكها في مناطق أخرى. ويتباين عدد الأصناف المستوطنة إلى حد كبير من مؤلف إلى آخر، إذ قدر عددها في الستينات في حدود المائة. وهبط هذا العدد مؤخراً إلى 28 حسب البعض و13 حسب البعض الآخر، مما يبين مدى تعقّدها ومدى الجهل بها من الناحية العلمية. والسبب في ذلك أن عدم استمرارية الغطاء النباتي قد جعل بعض الأصناف تتخذ أشكالاً مختلفة من واد إلى آخر. وأصبح التاسيلي بذلك مختبراً طبيعياً رائعاً لعلم الجينات، حيث يمكن رصد التحولات التي تؤدي إلى التغيير.

أغلب النباتات غنية بالقلويدات وهي مواد تستخلص منها خاصيات متعددة، وتشكل صيدلية طبيعية للطوارق الذين يعرفونها جيداً. وقد أدت الأهمية التي يكتسيها هذا التراث الجيني إلى تصنيف التاسيلي آزجر كمحمية عالمية للمحيط الحيوي في إطار برنامج اليونسكو: الإنسان والمحيط الحيوي MAB. لكن هذه الثروة النباتية تتسم بهشاشة قصوى وهي عرضة للخطر الآن من جرّاء العفس الناتج عن ازدياد عدد المرتادين لمناطقها، وبالتالي أضحى من الضروري إنشاء بنك للجينات النباتية للمحافظة على بذورها.

يوجد أقل من 500 صنف من النباتات في التاسيلي، حوالي مائة منها موجودة في تادرارت. وهي خليط من النباتات المتوسطية والاستوائية والصحراوية منها ثلاثين صنفاً نادراً. تنمو النباتات المتوسطية في المرتفعات اعتباراً من 1500 متر، وتحتل النباتات الصحراوية الأجزاء الواطئة اعتباراً من 500م، وبينهما مجال النباتات الاستوائية.

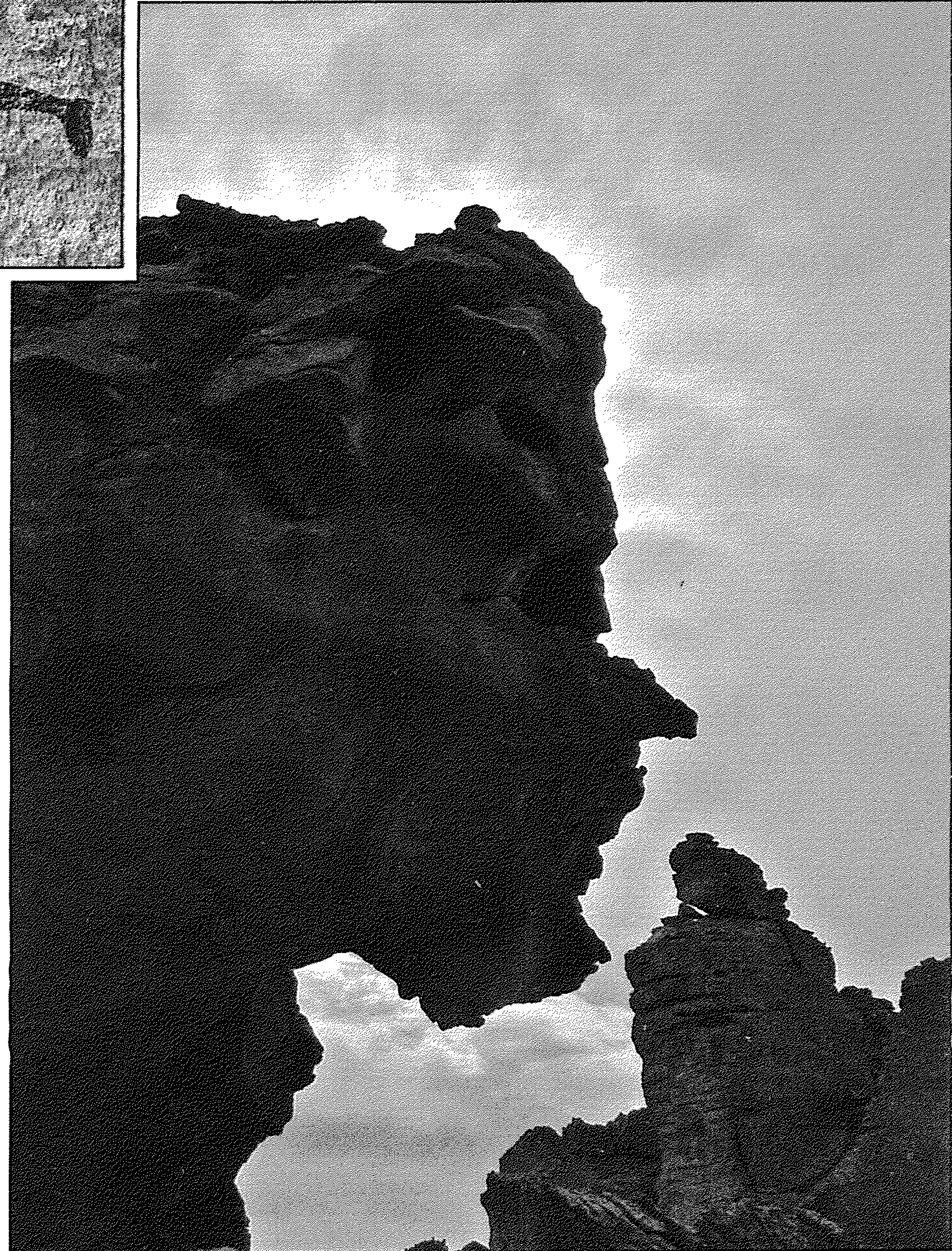
أكثر النباتات الاستوائية انتشاراً هي النباتات الجنبية، منها "الطرحة" أو كالوتروبيس بروسيرا، وهي نبتة متشجرة مألوفة ذات أوراق سميكة ولماعة بلون أخضر مائل إلى الزرقة وزهيرات بنفسجية تفرز سائلاً لبنياً مذيّباً شديد السمومة، كان يستعمل في الماضي في تسميم السهام، ولا تأكلها إلاّ الماعز. وقد لفت هذا الصنف الانتباه إلى مسألة السموم في السلسلة الغذائية، بحيث أشار عالم النبات بيلت Pelt إلى أن الفراشات التي تخرج من يرقات تغذّت بها تصبح سامة للطيور التي تأكلها. ومنها أيضاً «أراسو» التي تنمو في وسط رملي حيث تشكل أكمات تحتجز الرمل في سفحها. كما تشكل كل من سالسولا فوتيدا أو «إيسّين»، وأناستاتيكا هيير وكونتينا أو «عقربة»، وكولوسنتيس فولغاريس أو «القاد» جزءاً معتبراً من الثروة النباتية. أما الأشجار فتنحصر في بضعة أصناف، وأكثرها انتشاراً هي أكاسيا تورتيليس راديانا أو «أبصار» وتسمى بالعربية «طلحة». وهي شجرة ذات أشواك طويلة، ويمكن أن يبلغ طولها 10 أمتار، لكن غالباً ما يقزّمها الجفاف. وهناك أيضاً أكاسيا ألبيدا أو «أحيتس» وهي شجرة كبيرة قد تتجاوز 25 متراً وجذعها أكثر امتشاقاً من سابقتها، وكانت في الماضي تغطي مساحات واسعة من الأراضي. ولا يزال باقياً منها حرش جميل في منطقة شرق مدّاك. ويتخلل هذه الأصناف أشجار مثل: مروا كراسيفوليا أو «أقار» التي يمكن أن تتجاوز 6 أمتار، وتسمى «تقارت»[1] عندما



1 - نذكر بأن التاماهاك لغة الطوارق تعبّر عن صيغة التأنيث بإضافة حرف "ت" قبل الكلمة

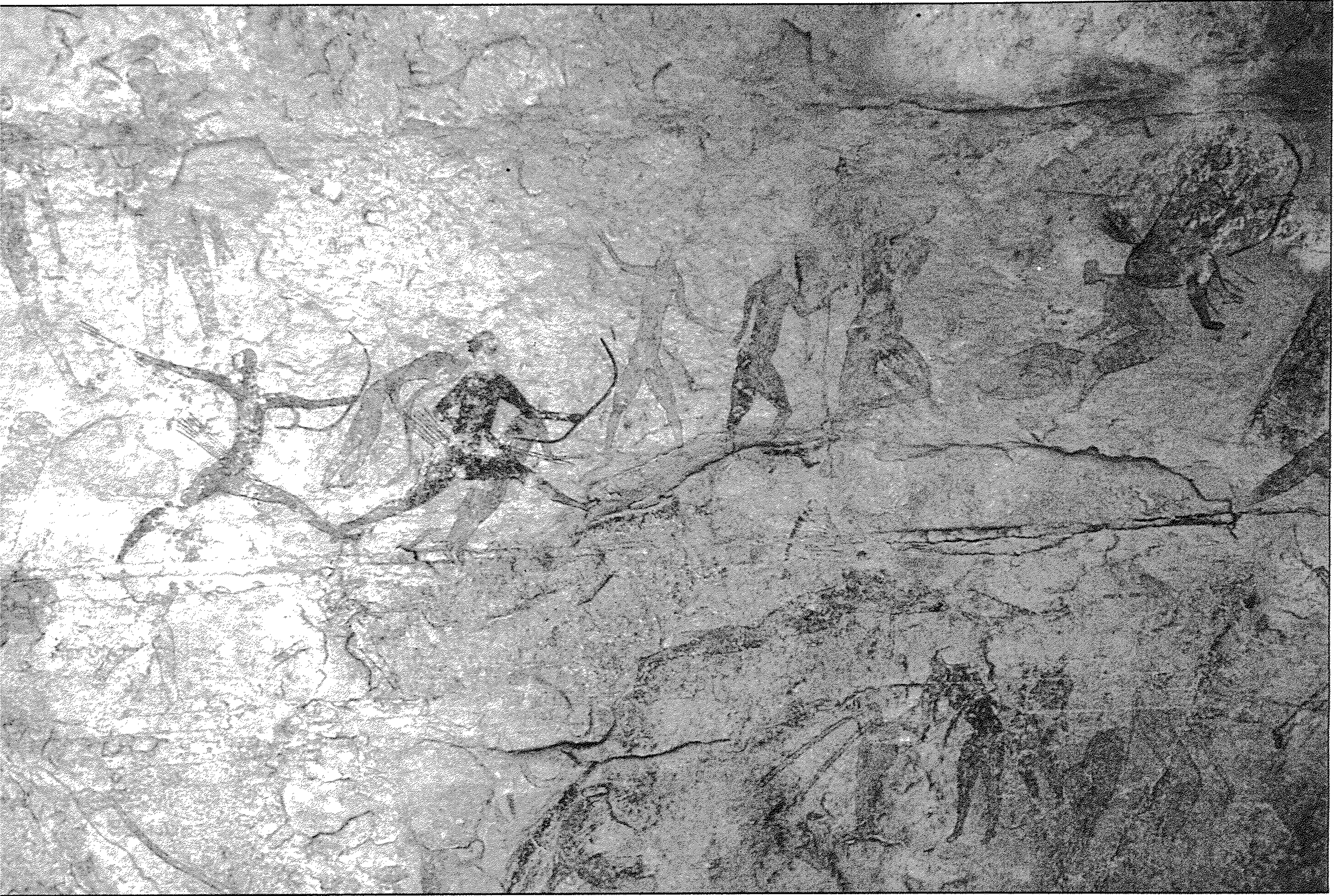
تكون شجيرة كثيفة وليس شجرة بالمعنى الصحيح، وتقول الأساطير الطرقية بأنها مسكونة بالأرواح. وشجرة هيفاين ثيبايكا، أو «تاقايت» أو " تاكو كايت" باللغة الطرقية، وهي نخلة دوم ذات أوراق كسعف النخيل، قد يبلغ ارتفاعها من 10 إلى 15 متراً، بينما الشجرة الأكثر ندرة هي بالانيتيس أوجيبتياكا، أو تبوراق"، صغيرة الحجم، قد يصل طولها من 6 إلى 8 أمتار، كثيفة الأغصان و كثيرة الأشواك.





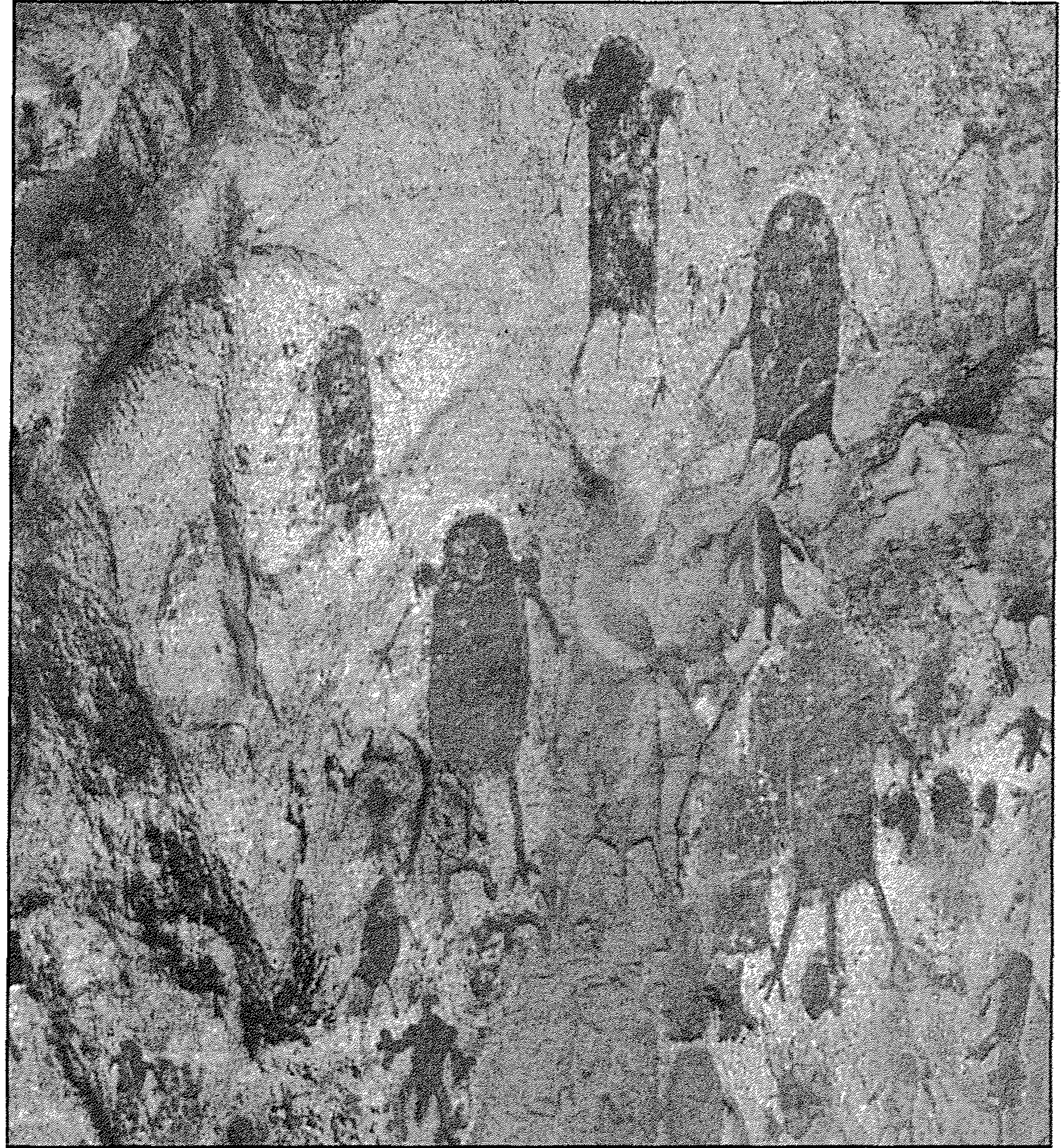
تقتصر الفئة المتوسطية على بعض أشجار الزيتون مثل أوليا لابيرِيني أو "ألّيو" وتنمو حول "القلتات" أي البرك المائية والوديان. ومنها أيضا: فيكوس ساليسيفوليا أو "تيلوكات"، و روس أوكسياكانثا أو " تهونك" اللتان تنبتان في أماكن تتوفر على بعض الرطوبة، وأتريبليكس هاليموس أو " أراماس". أما شجرة كوبريسوس دوبريزيانا أو "تاروت" فهي شجرة عظيمة أحصي منها 231 شجرة، وتوجد في أعلى جزء من التاسيلي آزجر؛ و يقال أن هذا الصنف قد تم تطويره في القرن الماضي، حيث استعمل في بناء المنازل في قريتي الميهان و أزلواز القديمتين الواقعتين في واحة جانت، وكذلك في بناء منازل قرية قات في ليبيا. واليوم لا تنمو هذه الشجرة إلا في المشاتل. واكتشف مؤخراً أن لها طريقة مبتكرة في التكاثر دون الحاجة إلى إخصاب مشيجة مؤنثة بمشيجة مذكرة، بل يتم عن طريق انقسام المشيجة الذكرية ذاتها؛ متفادية بذلك المشاكل الناجمة عن "العصب الواحد".

ومثل هذه الحالات من التكاثر الذي يستغني عن الإخصاب معروفة، لكنها تمس المبيض أو المشيجة الأنثوية. أمّا عن جنبات الجزء المتوسطي فهي أكثر انتشاراً وتنوعاً مثل الطرفاء والدفلى، و نيريوم أولياندر أو "إليل"، و أناباسيس آرتيكولاتا أو "بندر" التي تدل على وجود مياه قليلة العمق، والآس والخزامى والأرطماسية والعناب... لكن لا توجد إلا نبتة واحدة كثيفة الورق وشديدة الندرة واسمها العلمي: كارالوما ديكايسنيانا، أو "تايارو" بالطرقية، وهي نوع من الصبّار سام جداً ويعزي لها الطرقيون خاصيات مؤذية.



يطغى على النباتات العشبية صنفان من التجيليات وهما: بانيكوم تورجيدوم أو "آفازّو"، وستيباغروستيس بونغينس (=آريستيدا بونغينس) أو "توللولت"، ومعروفة أيضاً باسمها العربي المحلي "درين"، وتشمل أصنافاً أخرى عديدة تنتمي إلى بيئتها بالذات وهي السيلان و الترمس واللبلاب، وكذلك الإسليخ والقرنفل والنعناع... وينتشر في إهرير البوط، وتيفا إليفانتينا أو "تاهلي"، وقصب المكانس أو "تالمست" واسمها العلمي: فراغميت أوستراليس.

العديد من هذه الأصناف تستهلك إما للأكل أو تستعمل لصناعة أغراض شتى مثل السلالة والبناء والفحم. وكانت جنبة كالوتروبيس بروسيرا وهي من نوع الفصيلة الآسية، تستخدم في الماضي في صناعة المسحوق الأسود المستعمل في الأسلحة النارية. والكثير من النباتات تدخل في تحضير الأدوية المحلية، بحيث يعالج السعال باستعمال منقوعات أرتيميسيا جودايكا، والآس وأوراق السنط، والمروة المتعددة الأوراق التي تستعمل أيضاً كطارد للحمّى وللتخفيف من التقيؤ وأوجاع البطن، وزيت يستخرج من أوراق وثمار البلوط الذي تستعمل قشوره وجذوره كمسهل للأمعاء، في حين تستعمل أرتيميسيا



كامبيستريس ضد الدوخة والإسهال والمغص. وتستعمل جذور آتريبليكس هاليموس المضادة لداء الحفر أو الاسقربوط كفرشاة أسنان.

في مثل هذه البيئة المحرومة القاسية لا يوجد إلا عدد قليل من أصناف الحيوانات وبأعداد ضئيلة. والكثير منها محمي برسم المعاهدة حول الإتجار الدولي بأصناف الحيوان والنبات المهددة بالانقراض (CITES)، ومحمي منذ 1983 بالتشريعات الجزائرية. وهي مصنفة في القائمة الحمراء للاتحاد الدولي للمحافظة على الطبيعة (UICN).

تتألف الثروة الحيوانية على الخصوص من الطيور، ويحصى منها حوالي 200 صنف في الصحراء المركزية ومنها الحجل الخاص بمنطقة جانت، واسمه العلمي أليكتوريس باربارا دوبريزي. وفي مواسم الهجرة يتوقف في المنطقة حوالي خمسين صنفاً، خاصة البلشون الفضي الذي كان يحب قلتة إفري قبل أن تتحول إلى منطقة سكنية. وتنحصر فصيلة الثدييات في الثعالب والأفناك والقوارض. وهي حيوانات تجري وتقفز وتستطيع قطع مسافات كبيرة. ويتلون فراؤها في الغالب بلون الحرير الخام أو اللون الأغبس الذي يشبه لون الرمل، وتتميز بآذان ذات صيوان واسع. والكثير منها حيوانات حفّارة مما يسهل عليها الاحتماء من الحر القائظ. وتتبع في تنقلاتها مسار مناطق الكلأ وتساقط الأمطار. ويعيش كل من الزلم أو "أكاوكا"، وهو حيوان بحجم الأرنب البري مع أنه يقرب للفيل، والقندي و"التلّوت" على شكل جماعات في شقوق الصخور قرب الوديان.

وتعتبر الجبال ملاذاً للأروية أو "أوداد" التي تعرضت لمحاولات تدجين في هذه المنطقة منذ ما يقارب 10 آلاف سنة خلت. وتحتل الآن مكانة هامة في الفلكلور المحلي. وفي بعض المناطق توجد الغزلان، وأكثرها انتشاراً هي "أهنكض" نظراً لتأقلمها مع ظروف الجفاف. وقد كانت توجد في مكثب آدمر في بداية القرن غزالة داما وظبية روبير، و"إنير" أو المها وتعيش في حدود منطقة الساحل الأفريقي. كما توجد آثار للظباء المرقطة مع ندرتها. مثل المهاة أو "آملال" التي شوهدت في مكثب آدمر بعد هطول الأمطار في العام 1985. و في العام 1987 عثر في الجنوب على جثتين لحيوان الأوريكس. كما توجد بعض الضواري لكن بأعداد قليلة جداً مثل السمع والعناق والضبع المخطط والوشق والسنور، والأكثر انتشاراً هو الفهد أو "آماياس". ويمكن ملاحظة ابن آوى الذي يتغذى ليلاً على الجيفة بأنواعها قرب المخيمات.

تصطاد العقارب ليلاً الحشرات والعناكب الكثيرة العدد رغم قلة أصنافها. وعلاوة على الذباب، يوجد نوع من الخنافس السوداء تجري باستمرار على سطح الرمال. لكن الحيوانات التي يصادفها المرء بكثرة هي الزواحف، ومنها "أجزارم" والضب، و الإسقنقور أو سمك الرمل التي يؤكل لحمها، والحرذون وأبو بريص والرتيلاء. ورغم أن عضة الورل أو "أغاتا" خطيرة إلا أن الطوارق يحمونه لأنه يحتل مكانة خاصة جداً في مخيالهم الشعبي، وتدور حوله الكثير من الأساطير ويتمتع بالاعتبار نفسه الذي يمنح للعم. و تعتبر الأفعى ذات القرون أو "تاشلت" الأكثر انتشاراً

من بين أصناف الأفاعي الثلاثة الموجودة في المنطقة.ولسعتها شديدة الخطورة وغالباً ما تكون قاتلة.

وعلى أطراف نقاط المياه يمكن للمرء أن يصادف العلاجم ، إذ تم إدخال الضفادع إلى المنطقة في العام 1938. وتحتوي قلتات أهرير على الرخويات والمنقعيات والجرّيات والبوري وبعض الأسماك النهرية الأخرى. وقد تم استيراد سمك مهلك البرغش للقضاء على يرقات الناموس.

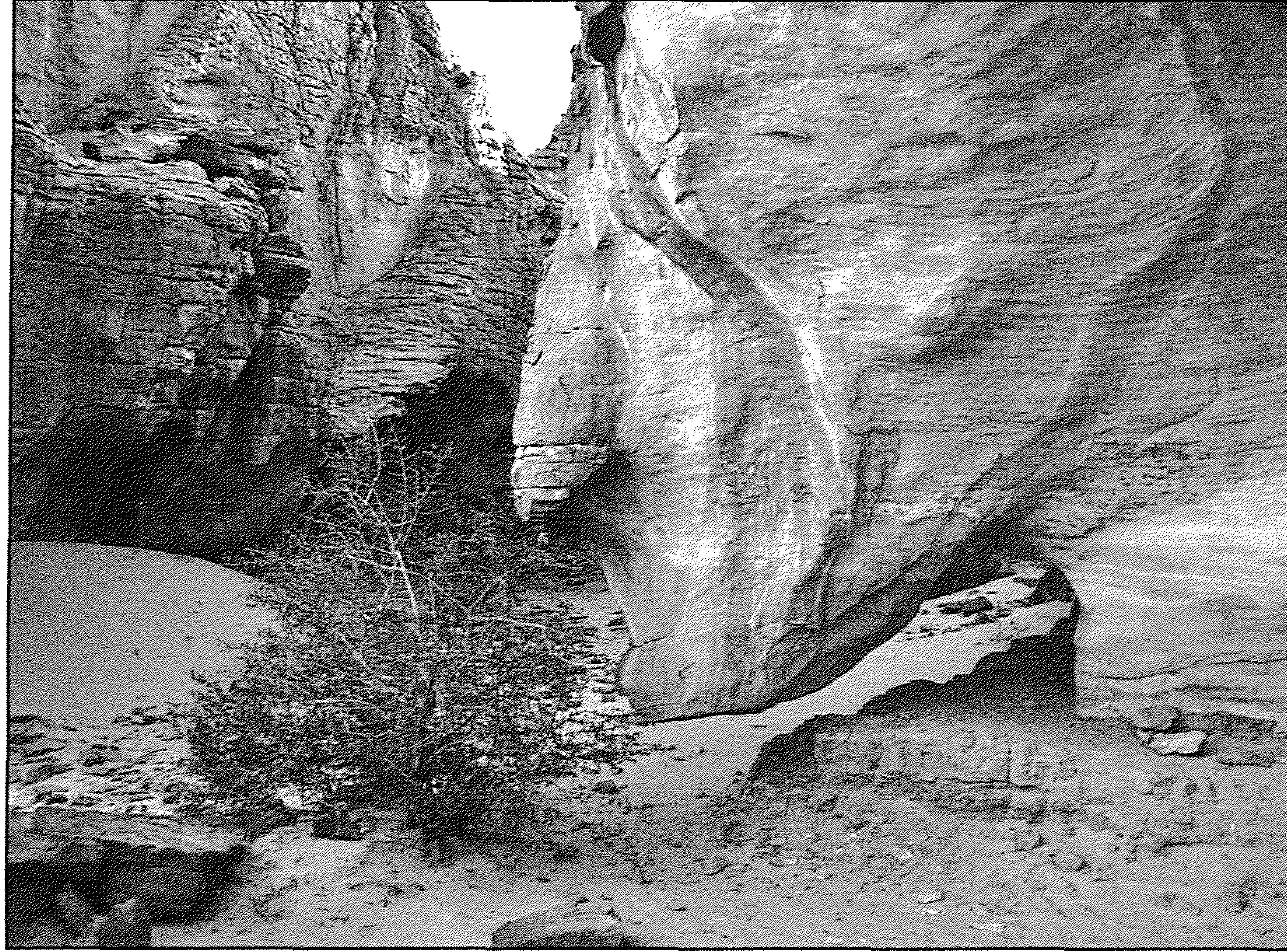
ويقال بأن تمساحاً من بقايا التركة الحيوانية القديمة قد قتل في العام 1924 أو 1934 في أهرير ، وقتل آخر في العام1940 في واد إيميرهو ، حيث كانت آثار تلك الزواحف كثيرة في القرن التاسع عشر.

متحف العراء الشاسع

منذ مليوني سنة ترك الإنسان آثاره في التاسيلي آزجر. وقد أبدع أولئك الذين استوطنوه منذ 10 آلاف سنة حضارات باهرة غنية بآلاف الرسومات والنقوش التي غطوا بها الصخور ، والتي تجعل من هذه المنطقة متحفاً شاسعاً في العراء. ولا تزال الأدوات الحجرية التي يمكن أن تعرفنا على هوية الفنانين هامدة تحت التراب. وترتيبها ، حين لا تكون يد الدهر أو الإنسان قد مستها بتحوير ، يسمح للمختصين بإعادة تمثيل سلوكات مغرقة في القدم.

يعود أقدمها ، وهو ما يسمى بالحصى المهيأة إلى فجر الإنسانية. وارتباطها بترسب قديم جداً يعطيها عمراً يفوق المليون ونصف مليون سنة. لا يعرف لحد الآن صانعيها ولا المكان الذي أتوا منه ، لكن كل الدلائل تبعث على الاعتقاد بأنهم كانوا يشبهون أولئك الذين كانوا يعيشون في أفريقيا الشرقية والذين يطلق عليهم جميعاً اسم: Homo habilis أي الإنسان الحاذق. وقد أفسحوا المكان منذ 800000 سنة ، ولفترة تبلغ 700000 سنة للآخيليين صانعي ذات الوجهين ، وهي أداة وسلاح منتشر في الأجزاء السفلى للتاسيلي ، حيث كان مالكوها يؤمون أطراف البرك والمستنقعات في أنو و ليليوة ، وأدرار إجلح ، و وكروزة ، وتين مرزوقة... اشتهرت منطقة تيهوداين منذ العام 1864.

دوفيرييه بعد العثور على عظام ضخمة كان يقول الطوارق عنها بأن امرأة بدينة يمكن أن تجلس بارتياح في تجويفها الحرقفي. عرف بعدها أن الأمر يتعلق بفيل ضخم يتجاوز طول حاركه 4 أمتار وقد انقرض. ومنذ ذلك الحين أصبحت تيهوداين أحد المراكز الهامة لدراسة ما قبل التاريخ الصحراوي ، لكنها لا تفتأ تتعرض للتلف والنهب الذي سوف يحرمنا في المستقبل من القيام بأبحاث جديدة



بمناهج جديدة. لقد ترك نحاتو الأداة ذات الوجهين صفحة مؤثرة من تاريخ البشرية ، ألا وهي ظهور التجريد. وتترجم في الطريقة المعقدة التي كانوا يحصلون بها على الأدوات ، حيث يتم التحضير بشكل معقد لكتلة من الحجارة تدعى النواة تسمح الصدمة الأخيرة لها من إنتاج ذؤابة أو شظية مستديرة الحواف أو شفرة. وحسب الضربة يتحدد الشكل.

لكن ما يجعل التاسيلي يرتقي إلى أعلى مصاف القطاعات المدعومة لدى اليونسكو هو أن تلك النقوش والرسومات هي آثار لأناس أقل قدماً بكثير. تنقسم الرسوم إلى أربع مجموعات تلي بعضها البعض: الرؤوس المستديرة ،



شخوص صغيرة ذات قرون بلون قرمزي مسطح تبرز عن طريق تضعيف الألوان والرسومات الجبهية. وتمثل المراحل المتوسطة شخوصاً ذات رؤوس منفصلة بالكاد عن أجسادها، وغالباً ما تكون مزينة بسخاء، وقد أطلق على تلك الشخوص اسم " أهل عطارد" في وقت كانت فيه وسائل الإعلام تشغل الناس بالحديث عن أهل الفضاء الخارجي. وفترة الرؤوس المستديرة تؤثر الرسومات الخطية لكنها لا تمثل إلا الرجال والأروية والظباء. وربما كانت تلك الفترة التي رسم فيها الكثير من الآلات الموسيقية، مع أنه لم يعثر على أيّ منها في مواطن تلك الحقبة. وهناك من يضفي على هذه الرسوم نقوشاً ذات طابع جنسي موجودة في أماكن مختلفة. في واد جرات على وجه الخصوص توجد مشاهد جماع بشخوص بارزة الأعضاء أو نساء في وضعيات ضفدعية تبدين أعضاءهن بشكل واضح. إن الشخوص في هذه الرسوم التي تبين بأن التابوهات لم تمس دوماً الجزء نفسه من الجسد، غالباً ما تلبس رؤوساً حيوانية للتأكيد على القيمة الرمزية.

فن البقريات مختلف تماماً، من حيث حركيته القوية البارزة، والشخوص التي تقوم بحركة ما، لكنه يتميز بتعابير مختلفة من منطقة إلى أخرى. أعطى الفنانون في الجزء الجنوبي وفي منطقة سفار بالتحديد الأفضلية للألوان المسطحة الأمغرية التي تذكر بفن الخيالة الصيني. بينما في الشمال، وفي أهرير مثلاً، فقد استعملوا عدة ألوان ورسموا صوراً بمنتهى الرقة واللطافة. إنه فن يعبرّ في كل مكان، في سفار، وإهرير، وتيسوقاي، وتيكديوين، وفي عشرات الأماكن الأخرى، يعبر عن مجتمع رعوي تنتشر فيه الأبقار بكثرة. إنها تكوينات ووسائل تعبير رائعة الجمال لم تكن موجودة إلى ذلك الحين، ترصد مشاهد من حياة المخيمات، مخيمات تاكيديدوماتين وأهريرن، وتشكل تدويناً تاريخياً حقيقياً.

والبقريات، والخيول، والإبليات والتي عثر عليها ضمن الآثار المادية، في حين أنه من الصعب الفصل بين المجموعتين الأخيرتين. والنقوش تشكل صعوبة أكبر في تحديد فترتها، إذ يمكن التعرف بشكل عام على مرحلة البقريات وقبلها النقوش الحيرمية التي يعتقد أن جزءاً منها معاصر لرسومات الرؤوس المستديرة. والنقوش الخيلية نادرة قياساً بالإبلية الأكثر تواتراً.

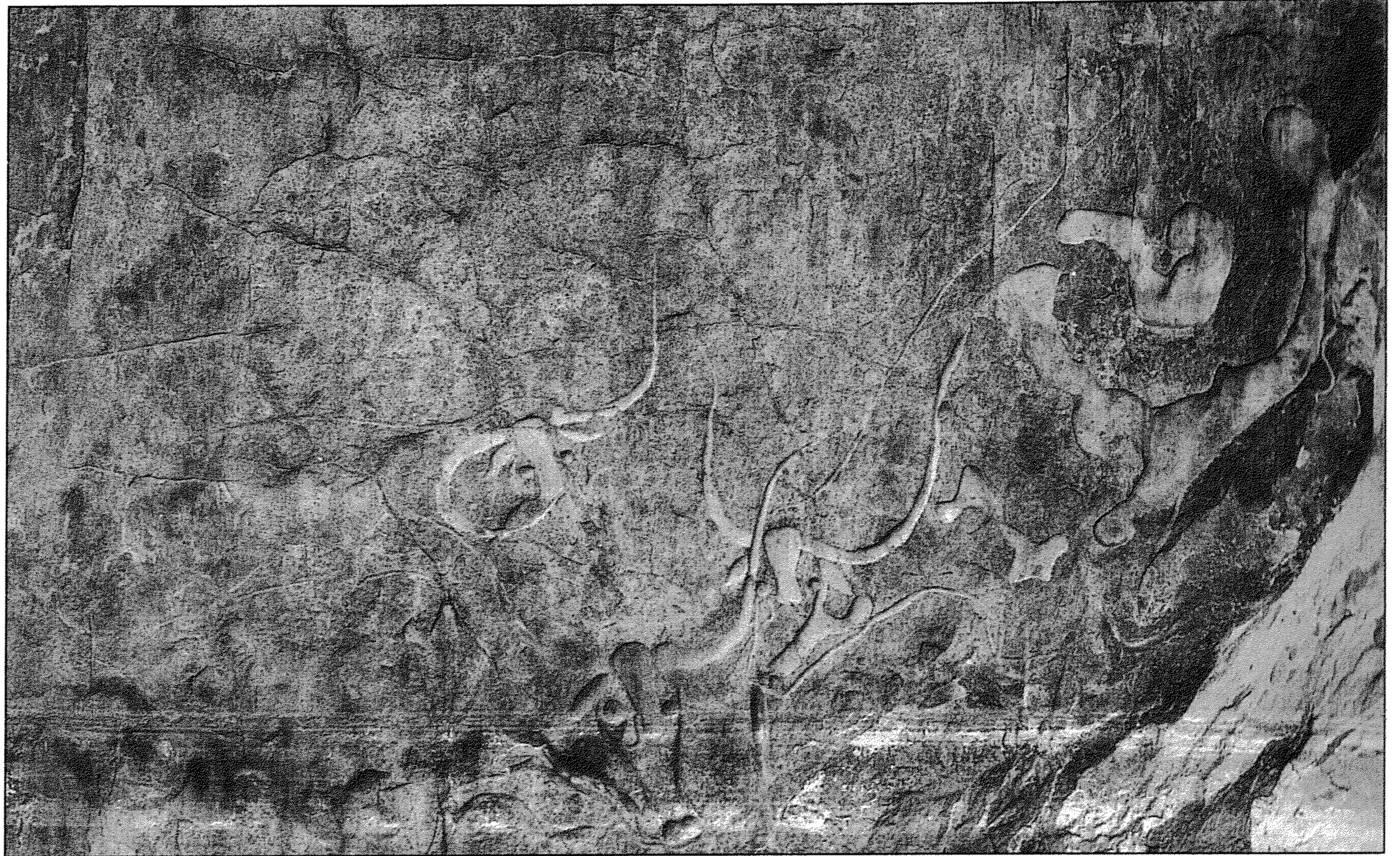
ورغم الشكل الذي يقترب من الطبيعة إلى حد ما لرسوم الرؤوس المستديرة الأكثر قدماً فإنها لا تتسم بالطابع السردي بل التمثيلي. وتمثل غالباً رجالاً مع إعطاء أهمية خاصة للأروية والظباء، وهي موجودة بكثرة في جبارين وفي عين أونغات. تظهر في رسوم المراحل القديمة





فمشهد تطهير الثيران الموجود في تين هاناكاتن الذي استحوذ عليه قوم فترة البقريات، وجداريات مثل تلك الموجودة في تين تازاريفت وجبّارن وأوان درباون وغيرها، تروي الاحتفالات الطقسية التي تربط بشكل عميق الإنسان بالقطيع. وقد قرأ فيها العلامة الكبير آمادو هامباتيه با، الذي ينتمي إلى قبائل البول، مكافئات لمشاهد تعليمية طقسية كانت تمارس لدى قبائل البول بورورو قبل اعتناقهم الإسلام. وتحتوي مناطق مثل عين دبيرن، وتغاغارت، وتين تيريرت، وجرات، و وان زواتن، وعين جران على نقوش من هذه الفترة تتميز بنوعية فنية خارقة للعادة.

عاش الأتيريون في الصحراء من 40000 ، والآراء ترجّح 60000 ، إلى غاية 20000 سنة، وبعضهم استمر إلى فجر العصور النيوليتية. وقد اخترعوا طريقة بارعة تتمثل في سويقة تسهّل وضع مقبض للأدوات. وأدواتهم ترقد في كل مكان تحت المكثب والكثيب. إذ كانوا يتخدون مساكنهم قرب مواقع المياه وهي كثيرة في الكاثب. تحتل تويريرين في مكثب تيهودايِن مساحة تقدر بكيلومتر طولا وما ينيف عن مائة متر عرضاً على ضفاف بحيرة قديمة. وتذكر القطع السميكة الورقية الشكل بالأدوات الصغيرة ذات الوجهين. ولا زال الوقت أمامنا طويلاً لمعرفة ما إذا كانوا هم خلفاء الأخيليين، أم أن ثقافة معروفة في العالم قد دخلت بينهما،

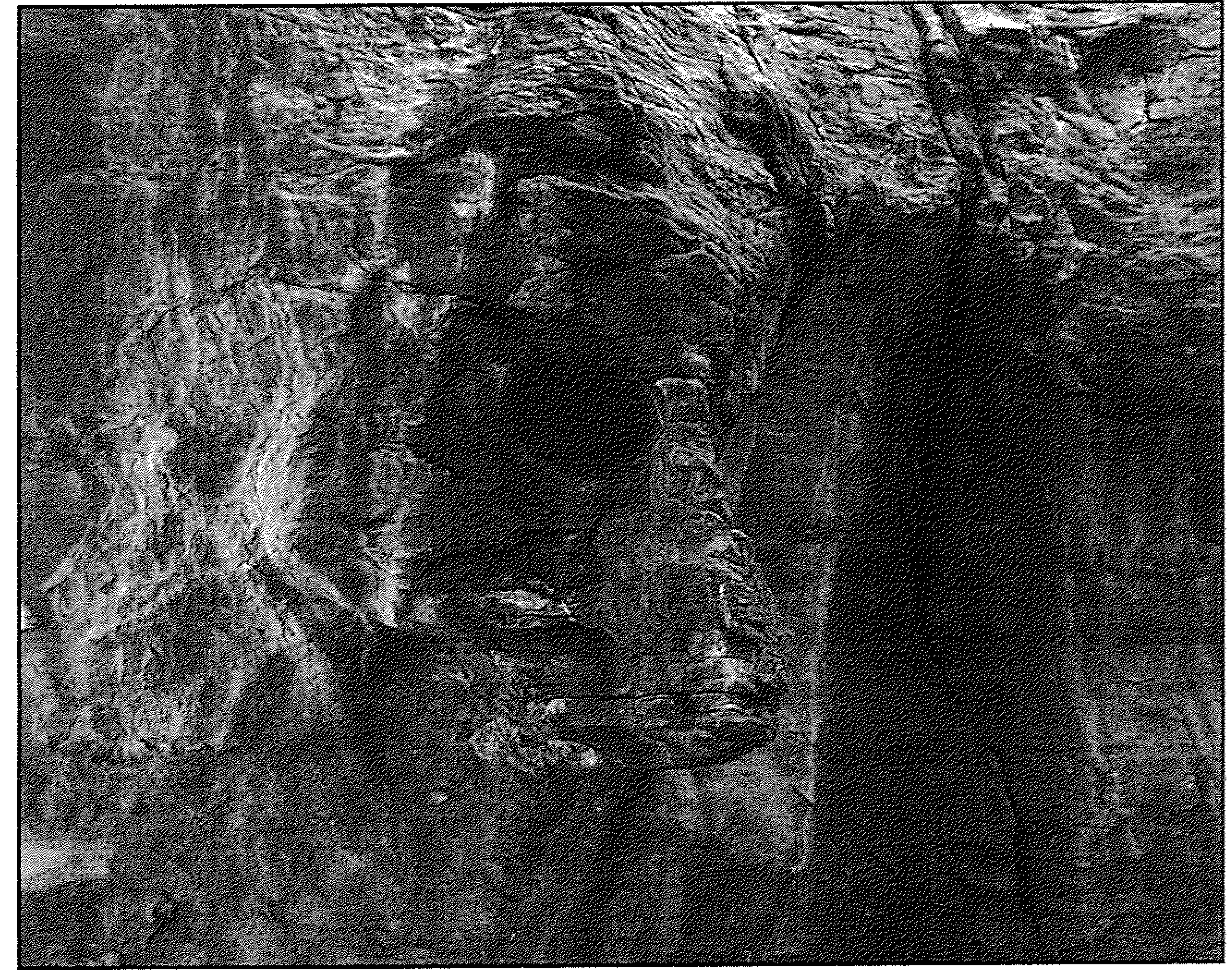


ألا وهي ثقافة الموستريين التي أخذوا عنها جل سماتهم ما عدا السويقة.

إن ما يشكل ثروة التاسيلي آزجر يتمثل أيضاً في آلاف الصور المنقوشة على الهضبات الشاهقة أو التي تغطي نتوءات الصخر. وقد أحصى هـ. لوت في واد جرّات على مسافة 70 كم 75 محطة وأكثر من 2500 صورة. وقد أحصي على البلاطة الصخرية لـ تين تيريرت بمفردها 125 صورة منها صورة حيوان بقري طوله 465 سم يغطي جسمه أشكال لولبية. وإذا كان جزء من الفن المنقوش يعود إلى الفترة البقرية، فإن العديد من الصور التي تدعى بوبالينية تعود إلى حقب أقدم بكثير. وتمثل خاصة فيلة وزرافات وكركدن وأفراس البحر وظباء، لكنها تمثل أيضاً أبقاراً وحميراً ونعامات... ويطرح تأريخها مشكلة، إذ أظهرت اكتشافات حديثة مثل نقوش تيدوناج أنها أقدم بكثير من الألفية السابعة أو السادسة التي غالباً ما كانت في الماضي تحال إليها.

والأماكن التي كان يقطنها هؤلاء الأقوام القبتاريخيين كثيرة. ففي تين هاناكاتن حيث كانت مستويات البقريين تتجاوز تلك التي خلفتها الرؤوس المستديرة، وقد عاش الإنسان هنالك دونما انقطاع تقريباً لمدة تفوق 10000 سنة. [2] لكنه لم يعرف نفس الظروف البيئوية والمناخية، نظراً لانحسار السهوب المشجرة، حيث عاشت الرؤوس

2- في أساس تعبئة الملجأ يوجد أيضاً مكان سكن أتيري تعلوه الرمال الهوائية استقرت عليه أول الأقوام النيوليتية للتاسيلي وهي الرؤوس المستديرة.



بالإقفال المحكم. وقد صنع أصحاب الرؤوس المستديرة مزهريات كبيرة يبلغ قطرها 30 سم ذات فتحة واسعة تزود بما يشبه العنق أوبعنق قصير جداً، طبعت على سطحها نقاط ومسننات وخطوط متماوجة. وأصبح من المعروف اليوم بأنها أقدم من تلك المكتشفة في مصر وفي الشرق الأوسط، وبأن الصحراء المركزية كانت مهد اختراعها.

تكمن أوجه الاختلاف الكبيرة بين الرؤوس المستديرة والبقريين في الممارسات الجنائزية. إذ كان أصحاب الرؤوس المستديرة يدفنون موتاهم في أماكن سكناهم بعد طلائهم بدهان أبيض من الصلصال الصيني الأبيض ولفهم بحلفاء السلال، بينما لم يكن البقريون يستعملون اللون الأبيض، والترسبات الموجودة حول الموتى غالباً ما تكون مشحونة باللون الأمغري. والميت لا يُسجّى بل يلوّى على شكل جنين. كما كان البقريون يدفنون حيواناتهم لدرجة أنهم تركوا مقابر حقيقية كمقبرة منخور التي تمتد على بضعة هكتارات، وكانوا يميزون مقابر العجول بوضع كومات صغيرة من الحجارة.

وتعزى رسوم الرؤوس المستديرة إلى قوم ذوي سمات زنجية وقرابة متوسطية، مما يوحي بامتلاكهم لخاصيات تأقلمية

المستديرة، نتيجة خمسة قرون من الجفاف لحقت بالبلاد في الألفية السادسة.



وحين اعتدل المناخ قليلاً لم تتجدد النباتات التي كانت موجودة في زمن الرؤوس المستديرة، واختفت الأصناف المتطلبة للمياه، فتشكلت سهوب عشبية صالحة للرعي. ونميل إلى الاعتقاد بأن جزءاً من الرؤوس المستديرة قد نزح صوب الشرق، وبعض من ممارساتهم موجودة في وادي النيل والحضارة الفرعونية، لذا يتم البحث اليوم عن العلاقات التي تربط بين هذين الكيانين.

كان البقريون وأصحاب الرؤوس المستديرة يستعملون تقريباً الأدوات نفسها، وجميعهم كانوا يصنعون السلال مع تفوق الرؤوس المستديرة في التقنيات. وقد قطفوا الأزهار أيضاً، فقد عثر من بين بقاياهم على زهرة اللؤلؤ وعلى زهرة شفوية صغيرة لا تزال تحتفظ بلونها الأزرق. ولم يضف البقريون إلى قائمة أدوات الرؤوس المستديرة سوى صفائح بيضاوية الشكل إلى حد ما ورؤوس سهام أكبر حجماً وأكثر عدداً. وكان خزفهم يتميز بنوعية أفضل، ومزود بعنق وأحياناً بقاعدة تسمح



"إن الصحراء بحد ذاتها فرصة لمن يعرف كيف يراها كأروع كتاب للصور حفظته الطبيعة الحكيمة والمحتاطة لدارس ما قبل التاريخ. إنها مدرسة قاسية ومثرية، أبت إلا أن تبوح بأسرارها، لا إلى الناهب العجل، بل إلى ذلك الذي يتكيف مع مفهوم قيمة الزمن كما توحي به..."

(ج. هـ. هوغو. 1950-57)

لم تتبلور بعد، أو أن لهم أصولاً مزدوجة. وهذه الإزدواجية حاضرة أيضاً في الرسوم التي تمثل شخوصاً ذات سمات زنجية، وأخرى ذات سمات متوسطية. يُنسب البقريون إلى رعاة حاميين أو يشبهون قبائل البول، التي تتحدر منها الرؤوس المستديرة. ويؤدي البحث عن أصول الرؤوس المستديرة جزئياً إلى قوم "كل السوف"، [4] الذين لم يعرفوا إلاّ بنقوشهم التي تصور أشخاصاً بأشكال تخطيطية مجردة، يتناضد فوقها فن الرؤوس المستديرة وفيها يترسخ. وكل الدلائل تسمح بالاعتقاد بأن قوم "كل السوف" يتحدرون من سلالة الأقوام الذين أحاطت بهم الصحراء من كل جانب بسبب الجفاف الذي حلّ بالمنطقة منذ 20000سنة، في الوقت الذي كانت فيه الجبال الجليدية تمتد فوق أوروبا. وكانت حياتهم شاقة بلا شك. وفي منطقة تادرارت حيث تم التعرف عليهم، تعزى إليهم أحواض نجدها الآن مكسرة ومقلوبة، حفروها بأنفسهم في الصخر لتجميع المياه التي تترشح من الصخور. و تركوا شهادة مؤثرة إلى أبعد الحدود، تتمثل في رجل وامرأة يمسك أحدهما يد الآخر، إنهما دون شك أقدم زوجين في العالم.

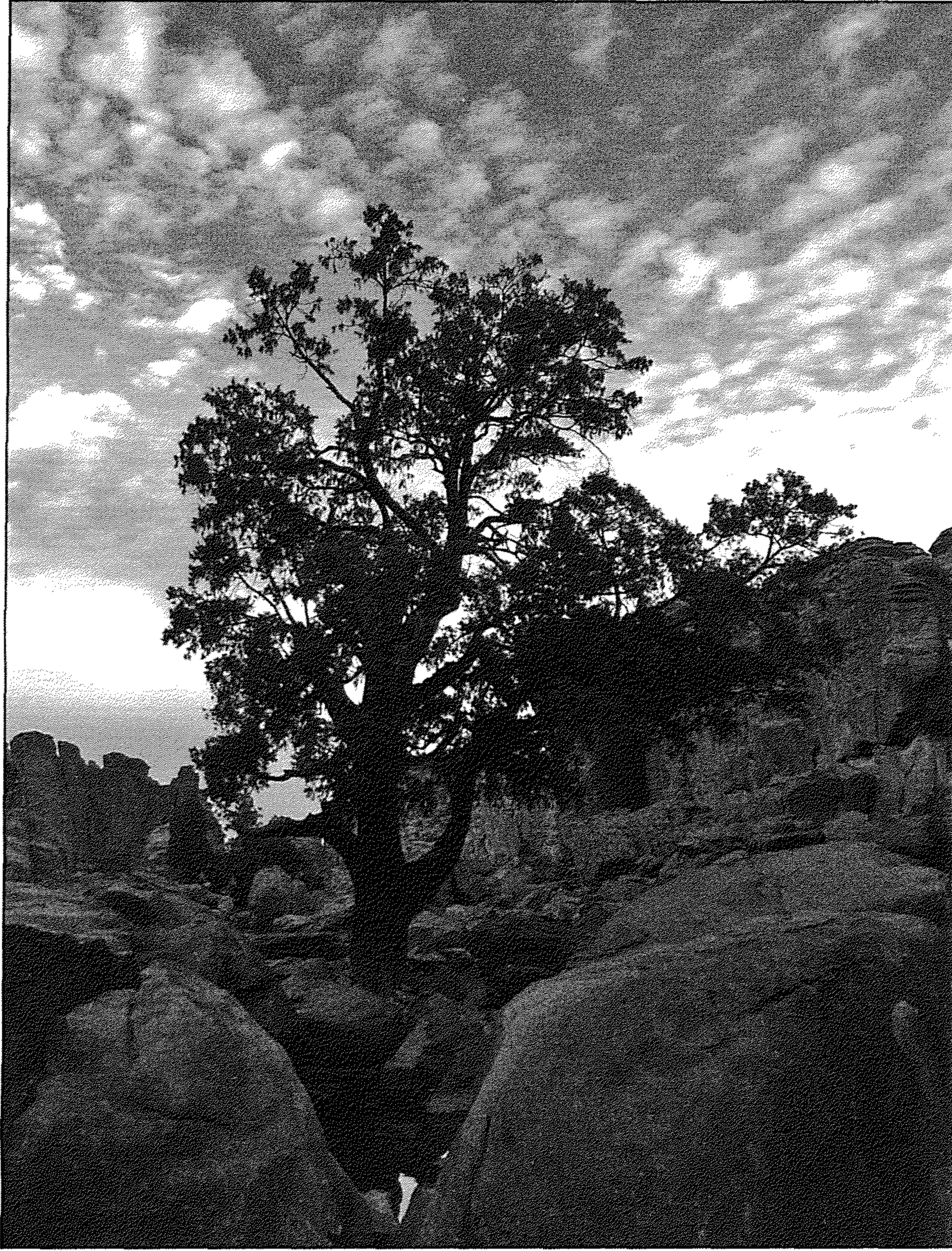
الكل كان يسكن في ملاجئ تحت الصخر أو في أكواخ يحتمل أنهم كانوا يبنونها في الهواء الطلق. وكانوا يهيئون حظيرة في الوديان الضيقة حيث يرفعون أسواراً من الحجارة ويسدونها لتصبح حظائر لبهائمهم. وإن اشتركوا جميعهم في ممارسة القنص والقطاف، فإن أصحاب الرؤوس المستديرة كانوا يمارسون أيضاً صيد الأسماك كما تدل على ذلك الرسوم أو النقوش التي تمثل الأسماك أو الفقاريات الموجودة في تين هاناكاتن أو في تادرارت. وكانوا أول من حاول تدجين الحيوانات، وزراعة النباتات. والعديد من رسومات الرؤوس المستديرة تذكر ببدايات الزراعة وتربية المواشي. وهناك رسم في تيفريرت يصور شخصين منحنيين يمسكان نباتات بأيديهما، مما يوحي بمشهد يتعلق بالزراعة.و في تين تازاريفت صورة شخص يشد بقوة شيئاً يشبه حبلاً مربوطاً بأنثى أروية حامل مثبّتة أطرافها بحرن على الأرض؛ أفلا تكون هذه عملية قبض على الحيوان لكي تضع



-4 اسم يطلقه السكان المحليون ويعني " أهل الفراغ" واحتفظ به دارسو ما قبل التاريخ.



مهما طالت ليلة الشتاء فسوف تتبعها الشمس.

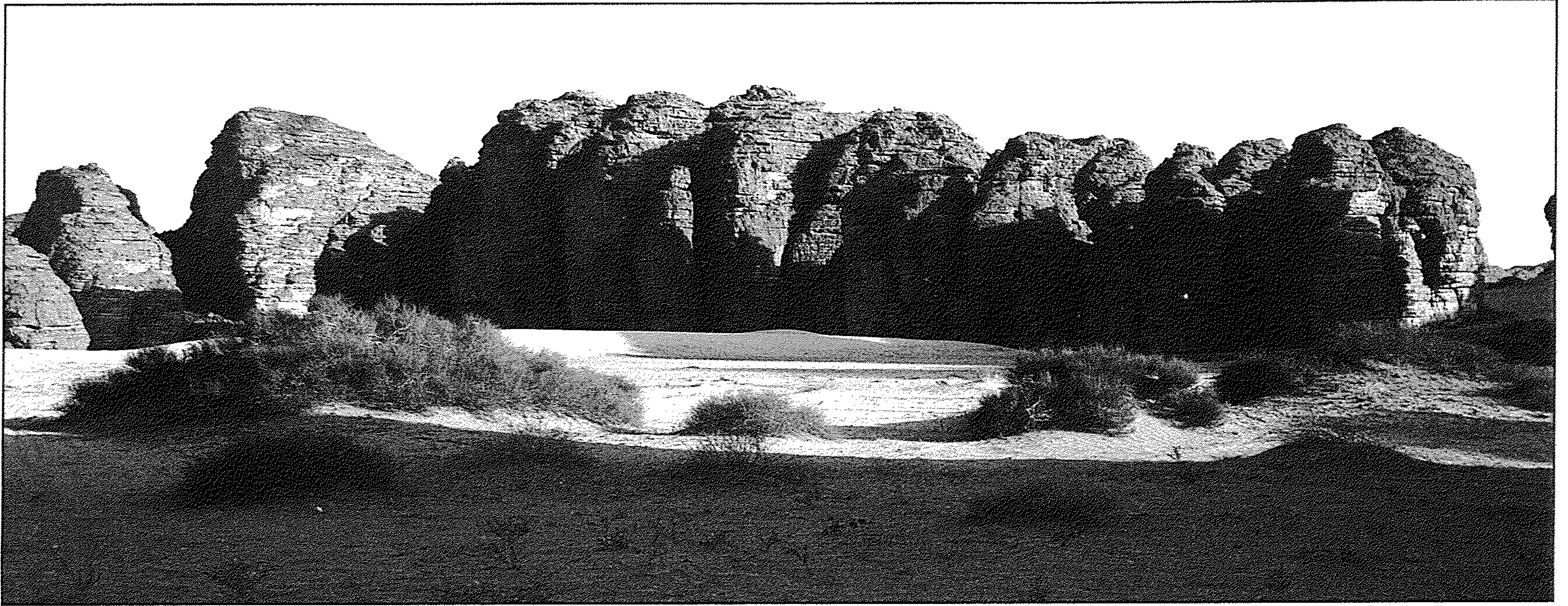


" سوف تصعق حين ترى جبّارين!". قائل هذه العبارة هو العقيد بروينان مخاطباً الملازم هنري لوت عشية شده الرحال إلى التاسيلي منذ خمسين سنة. كيف للأمر أن يكون غير ذلك أمام عظمة العمل وجمال الصنيع؟

وليدما في الحظيرة فيحتفظ بهما معاً؟ كما يوجد مشهد في تين هاناكاتن بسفار يصور قفزاً فوق قطيع وهو اختبار تعليمي لا زال يمارس في منطقة البحيرات الكبرى. أغلب تلك المحاولات لم يكن مثمراً لأنه بعد فترة الرؤوس المستديرة لا نجد أثراً لنباتات مزروعة لدى السكان القبتارخيين للمنطقة وصارت الأروية اليوم شديدة الوجل. لم يبق سوى الأبقار وأصبحت مصدر ثراء خَلَفهم لدرجة أن أطلق اسمها على ثقافة بأسرها. وصارت ترسم في كل مكان لكن بقاياها نادرة في أماكن تجمع السكان، ويمكننا أن نتخيلها على شكل قطيع عظيم يمد الحليب والدم ولا يؤكل إلا لحمه في الاحتفالات.

تظهر نهاية العهد البقري في الرسوم من خلال تواتر الخراف والماعز التي عوضت الأبقار شيئاً فشيئاً. أصبحت فترة المكوث في المساكن وجيزة، وهجرت بعض القطاعات بينما تجمع الناس في قطاعات أخرى. وهكذا لم يبق في تادرارت إلا عدد قليل من السكان قد لا يذكر؛ على العكس من ذلك عرفت إرهارهاين كثافة أكبر ونزح جزء من السكان نحو الجنوب والغرب. وترتبط هذه التحولات بمناخ تحول مجدداً إلى مناخ قاحل، و زاد الناس والقطعان من حدة تأثيره السيئ على النباتات. لكن دلائل كثيرة تشير إلى أن بعض الناس لم يغادروا، بل تأقلموا مع الظروف الجديدة إلى أن انسجموا معها تماماً.

خلال الألفية الثانية، أحدث دخول العربة والحصان تغييراً جذرياً في المجتمع. توجد صورة نموذجية لرسم الفترة الخيلية تمثل عربة طائرة يجرها حصان محضر، وتتركز هذه الرسوم المنمطة لتلك الفترة في التاسيلي آزجر. و في منطقة إيكات نوشَر يمكن رؤية صورة متميزة بأحصنة حرونة تقارن بالصور الإغريقية لما بين القرنين الخامس والثالث ق.م. وتدل هذه الصور على مجتمع تسلسلي لم يسبق له عهد في الماضي. ولفترة من الوقت، عُزيت العربة لغزاة ما. غير أن معرفة أوفى بالفن الصخري تظهرها وقد اختلطت مع القطعان الموجودة دون أدنى أثر للعنف، كما اكتشافات متعددة منها اكتشاف حصان أصلي ينتمي لمنطقة شمال أفريقيا تدعو إلى إعادة النظر في ظروف وجوده.





ولقد ترددت افتراضات جديدة حول دوره منها الأبهة والصيد والقتال والسباق. لكن يفترض أنه بإمكان حصان وان تباراكات أيضاً نقل الأشياء أو السلع. و حتى أصله المصري لدى البعض والكريتي لدى البعض الآخر يعاد فيه النظر. وفي بداية العصر المسيحي فقد مكانته البارزة واستبدل بالجمل وفقد التصوير الصخري ثراءه لكنه ظل محتفظاً بالبنية نفسها.

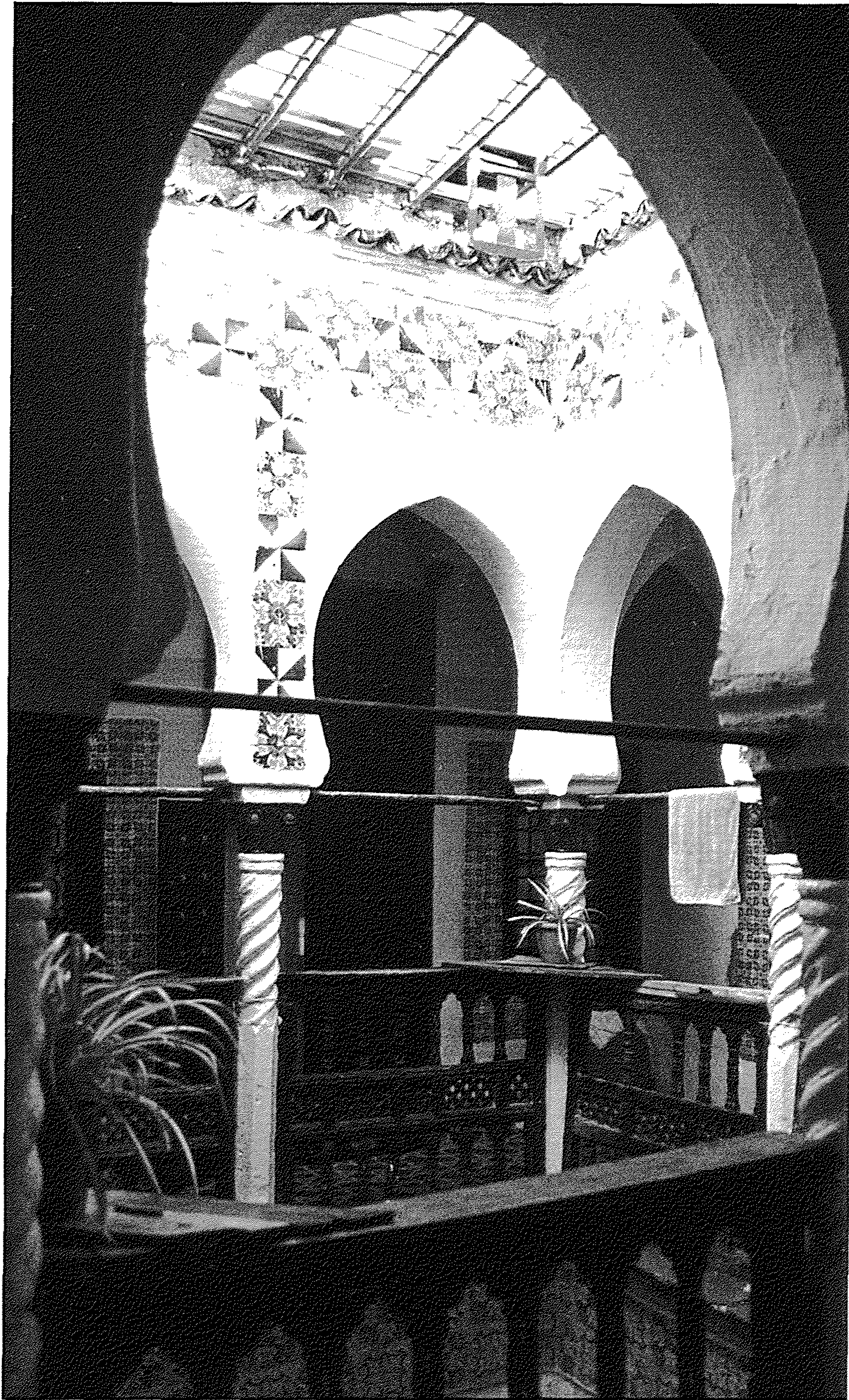
ليس في وسعنا أن نختم الحديث دون استحضار ذكرى هنري لوت ومرشديه الذين كان من أشهرهم جبرين. تعلّم لوت الفن الصخري على يد القسيس برويل انطلاقاً من رسوم شفّها برونان على الطبيعة في التاسيلي منذ 1932، ولم تعرض إلا بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ. نظم عدة بعثات استكشافية ثقيلة وطويلة سمحت باستنساخ آلاف الرسوم وإظهارها للعالم. ولشدة حرصه على المحافظة عليها، وضع الأحجار الأولى لإنشاء حظيرة التاسيلي. وقد وضعت السيدة إيرين لوت تحت تصرفنا صوراً كانت قد التقطت أثناء تلك البعثات. نشكرها على ذلك بكل حرارة فقد مكنتنا هذه الصور من معرفة حالة الرسوم والصخر وقت اكتشافها، وبعد أن نزعت عنها طبقة الغبار الألفية التي كانت تغطيها.



القصبة

جوهرة بني مزغنّة المحروسة

عبد الرحمن خليفة



داخل منزل

صنّفت اليونسكو مدينة الجزاير ضمن قائمة التراث العالمي في العام 1992. وهي مصنفة أيضاً ضمن المائة موقع ذوي الأهمية المشتركة للبحر الأبيض المتوسط. وليس ذلك سوى إنصاف لهذه الحاضرة نظراً لتراثها المعماري وللدور الذي لعبته في التاريخ.

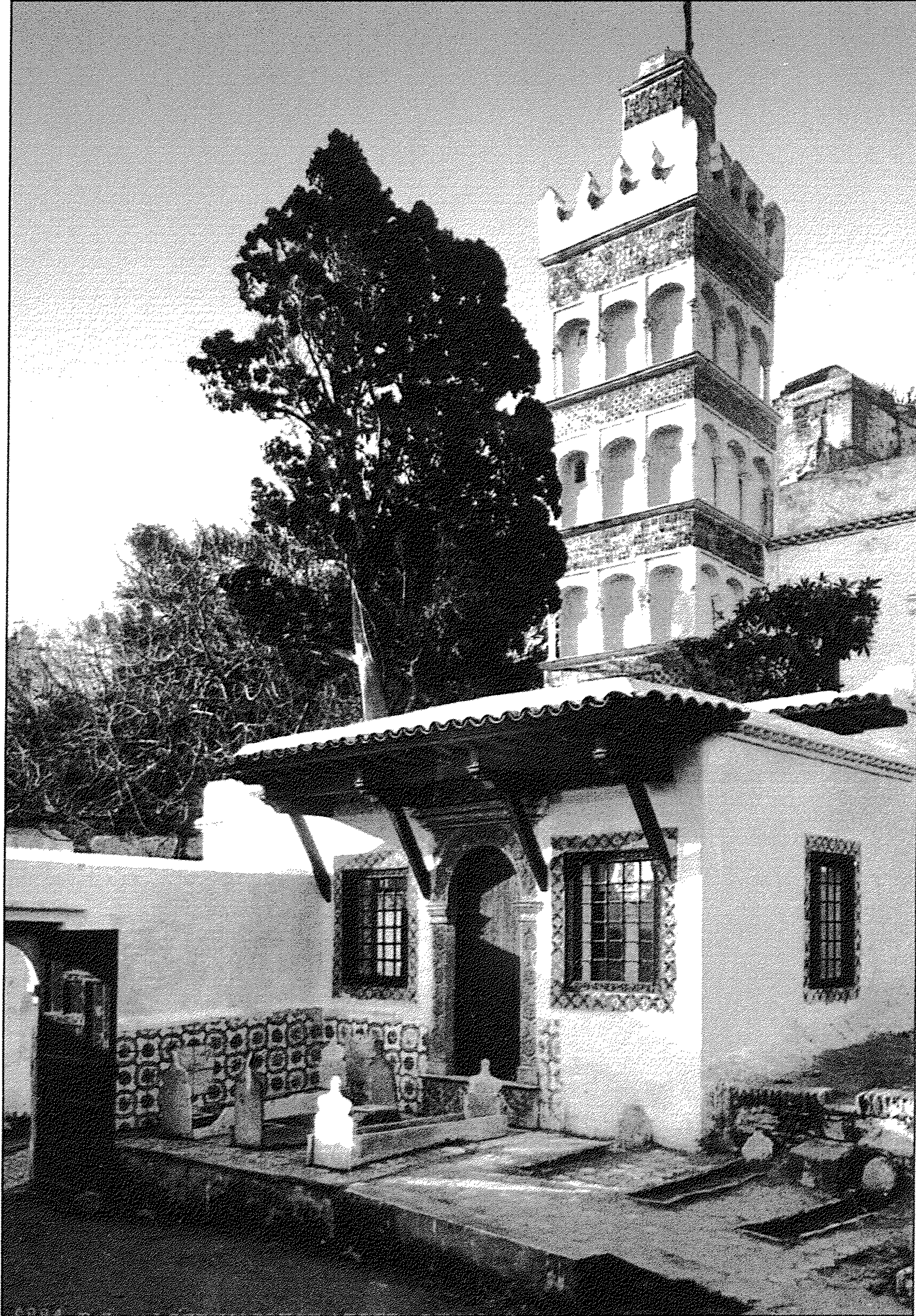
ويعتبر الموقع التاريخي للجزاير أول نواة حضرية شكلت مدينة الجزائر منذ غابر العصور.

تزدان الأزقة الضيقة لهذه المدينة ببيوت موريسكية ذات شرفات بيضاء ومداخن تقليدية، ومما يزيدها جمالاً الخرجات الناتئة المحمولة على حطبات مدورة من خشب العفص على شكل إفريزات تتلاقى أحياناً في الأعلى ليصبح الدرب تحتها ممراً مغطى.

القصبة مدينة بحرية بأتم معنى الكلمة، تقع على خاصرة جبل تتربع على قمته القلعة، ويسترسل في انحدار منتظم يأخذ شكل مثلث. وتشقها شبكة من الردوب والأزقة المتعرجة التي تقطعها أحياناً دورات من السلالم.

كانت تحيط بالقصبة التي ترتمي على مساحة 45 هكتاراً جدران تشكل أسواراً دفاعية تصل إلى غاية البحر، بالإضافة إلى خندق كبير يطوّق المدينة. وكانت لها أبواب خمسة ضخمة منها باب الوادي في الشمال الغربي، وباب عزّون في الجنوب الذي كانت تدخل منه القوافل القادمة من داخل البلاد، وباب الجديد في أعالي القصبة والذي كان يفتح للاجئين الأندلسيين، وأهمها جميعاً باب الدزيرة أو باب البحر الذي ينفتح على البحر وحي التجارة والأعمال.

وكان يعبر القصبة محور رئيسي من تركة الحقبة الروماني وهو الديكومانوس القديم، أي محور شرق- غرب الذي يصل باب الوادي بباب عزّون، مشكلاً مركزاً واسعاً إلى حد ما تجري فيه النشاطات التجارية الأكثر أهمية على مقربة من المسجد الكبير. ويعتبر قصر الحكومة الذي كان يسمى "الجنينة" مركز المدينة الحيوي ومقر الإقامة التقليدي لحكام المدينة. ويشكل هذا المحور المتنفس الاقتصادي للمدينة، إذ توجد فيه الأسواق والقيصرية التي كانت مخصصة للتجارة الدولية.



"تبدو المئذنة وكأنها طفرت
من بين أوراق حديقة مارانغو
لتسهر على المدينة كالحارس
المنتصب على سفحها"
ج. إيسكير. الجزائر العاصمة

مسجد ومقبرة سيدي عبد الرحمن

أما فيما يتعلق بالمدارس والمساجد الأخرى التي كان يفوق عددها المائة، فقد كانت موزعة على كامل النطاق الحضري للمدينة التي كانت تحتوي على 175 سبيل مياه، تزود أغلب الشوارع والردوب، مع أن كل بيت يحتوي على بئر وصهريج يخزن مياه الأمطار التي تجمع من السطوح.

كان لمدينة الجزائر أحياء متنوعة تتمايز لأسباب إثنوغرافية وجغرافية وثقافية وتجارية؛ فكان هناك حي الأندلسيين وحي اليهود وحي الصباغين وحي البسكريين؛ وكان لكل حي دربه (ردب أو طريق مسدود)، وبابه، ومسجده، وكنيسه، وكنيسته، ونافورته أوسبيله... وذلك للمحافظة على خاصيات كل مجموعة.

كانت القصور ذات واجهة بسيطة وخالية من أي زينة، بفتحات ضيقة فوق الطابق الأرضي. تتألف عموماً من مستويين للسكن مصممين حول فناء تحيط به أقواس تعلو الطابق الأرضي. يرتكز عليها في الطوابق العليا درابزين جميل من الخشب المخرم. وتحيط بالفناء أعمدة مبرومة من الرخام الإيطالي. والجدران مغطاة بالخزف المستورد من دلفت وإيطاليا وإسبانيا وتونس...

التـــــاريخ

سكن الإنسان موقع الجزائر منذ حقبة ما قبل التاريخ. إذ عثر على العديد من الأدوات التي ترجع للعصر الباليوليتي في موقع مدينة الجزائر(واد كنيس، ومنجم الحلوف ودلمن بني مسوس...) وفي ضواحيها المتاخمة.

وترجع الأسطورة التي أوردها النحوي سولان تأسيس مدينة الجزائر إلى هرقل. إذ تقول بأن خمسة وعشرين من رفقائه تركوه في هذا المكان ليستقروا فيه:" بنوا سوراً حتى لا يتباهى أحد بإعطاء اسم لهذه المدينة، وقرروا تسميتها إيكوزيم، وهو اسم يذكر بعدد مؤسسيها."



منظر القصبة من علٍ. بمئذنة مسجد سفير.



وقد تناقل هذه الأسطورة مؤلفون آخرون مثل آميان مارسلان (نهاية القرن السادس) أو إيزودور دو سيفيل(القرن السابع). لكن الاكتشافات الأثرية قد أظهرت منذ ذلك الحين وجود مدينة بونية ترجع إلى حدود القرن الرابع. وكانت قرطاجة في تلك الفترة قد أنشأت عدة مراكز تجارية على الساحل. وقد وضعت هذه المراكز على مسافات منتظمة فيما بينها بشكل يراعي القواعد البحرية لقرطاجة في تلك الفترة.

ولم يبق من إيكوزيم، الاسم البوني لمدينة الجزائر، سوى ذكرى باهتة لمركز تجاري للبحارة الفينيقيين والقرطاجيين الذين كانوا يرمون بها مرساتهم بانتظار الإبحار نحو شبه الجزيرة الإيبيرية لمقايضة الأرجوان بالقصدير والرصاص.

وقد خلفت لنا هذه الفترة كنزاً أثرياً معتبراً منه مجموعة من النقود التي تعود للقرن الثاني قبل الميلاد، وبعض الخزفيات التي اكتشفت أثناء بناء



عمارات حي البحرية، بالإضافة إلى بعض الأدوات الحجرية مثل المسلات ومنها مسلة تانيت. وقد أبرم القرطاجيون الذين كانوا يتجرون مع سكان شمال أفريقيا عقوداً مع ملوك الماسيل والماساسيل الذين كانوا يحكمون تلك المناطق. ولم تزح مدينة الجزائر بعد النقاب عن آثار تلك الفترة، على الرغم من أنها كانت جزءاً من مملكة سيفاقس وماسينيسا، وبعدها جزءاً من المملكة الموريتانية إلى غاية فترة جوبا الثاني قبل أن تخضع للسلطة المباشرة لروما في العام 40 م. وأصبحت مستعمرة رومانية في بداية القرن الأول الميلادي خلال حكم فيسبازيان. وعرفت المدينة تطوراً عمرانياً إلى بداية القرن الرابع. وفي سنة 371-372 دمرّها فيرموس، وهو أمير بربري تمرّد على روما. وأشار بيربروغر، أول محافظ لمتحف الجزائر، إلى وجود سور يرجع إلى الحقبة الرومانية على مقربة من أقواس المسجد الكبير.

احتفظت إيكوزيوم من الفترة الرومانية وإلى غاية الفترة العثمانية بخط محور ديكومانوس شرق-غرب ومحور كاردو، وبعض بقايا معبد روماني متواضع، وخزف مسرحها، وبعض العناصر المعمارية لأبنية عمومية مثل تيجان الأعمدة، والأعمدة والمسلات، وغيرها. ولا تزال آثار أخرى تكتشف مثل الخزفيات التي عثر عليها تحت بلاط قصر يقع قرب البحر أو قرب دار الحمرا ومسجد علي بتشين.

وبعد غزو الوندال في العام 429، عرفت مدينة الجزائر هيمنة بيزنطية في حدود منتصف القرن السادس، لكن لم يحتفظ بآثار تذكر لهاتين الفترتين.

بقيت المدينة مجهولة لوقت طويل، أي إلى غاية القرن العاشر حين أسس بولوغين ابن زيري الأمير الصنهاجي للدولة الفاطمية مدينة الجزاير بني مزغنّة، وهو اسم القبيلة التي كانت تقطن في الضواحي، ثم استقرت في المدينة حسب ما ذكر ابن خلدون. ومن المعروف أن بولوغين ابن زيري الذي حكم من العام 945 إلى 971 قد أسس أيضاً مدينتي المديّة ومليانة.

وقد منحها هذا الأمير قصبة (حصن) وأحاطها بأسوار لها أبواب مثل باب عزون في الجنوب، وباب الوادي في الغرب. كما بنى فيها مسجداً كبيرا يسمى سيدي رمضان، لا يزال يؤمه المصلون إلى يومنا الحاضر. وقرب هذا المبنى الديني تقع القلعة التي يعود تاريخها إلى القرون الوسطى.



داخل دار مصطفى باشا (أول متحف وأول مكتبة وطنية بمدينة الجزائر)

كان لميناء الجزاير بني مزغنّة دور شديد الأهمية في نقل الذهب والسلع الأخرى التي تجلب من المناطق الداخلية، ومن أفريقية والأندلس، كما يؤكد ذلك الجغرافي العربي ابن حوقل في كتابه "تضاريس الأرض" الذي فرغ من تأليفه في العام 988.

يقول عن المدينة التي زارها بين 947-948 :" الجزاير مدينة محاطة بالأسوار، تقع على طرف البحر. فيها العديد من الأسواق وتحتوي على ينابيع ماء زلال تتدفق على الشاطئ ويستعملها السكان لقضاء حاجاتهم. يتألف إقليمها من سهول واسعة وجبال يسكنها عدد كبير من البربر. وإنتاجها الوفير من العسل والزبدة والتين يصدر حتى إلى القيروان وإلى أمصار أبعد منها. وتوجد جزيرة على مرمى سهم قبالة المدينة، يلجأ السكان إليها حين يهاجمهم الأعداء."

وقد أكّد مؤرخون وجغرافيون عرب آخرون لتلك الفترة على نشاط ميناء المدينة، أمثال المقدسي، الذي زار المدينة في العام 985

الذي زار المدينة في العام985 واستقل منها سفينة لتبحر به إلى الأندلس. لكن وصف البكري الذي تلا ابن حوقل كان أكثر دقة: « إنها مدينة كبيرة بأبنية عتيقة، تحتوي على صروح قديمة وقبب محكمة البناء تبين أنها كانت في وقت من الأوقات عاصمة لإمبراطورية. فيها مسرح (دار الملاعب) مبلط من الداخل بأحجار مختلفة الألوان تشكل ما يشبه الفسيفساء. ونجد في هذا البناء صوراً للعديد من الحيوانات بديعة الإتقان متينة الصنع مما جعلها تقاوم صروف الدهر لقرون طويلة. في المدينة أسواق كثيرة وجامع كبير. كان فيها في الماضي كنيسة فسيحة لم يبق منها سوى سور على شكل محراب يتجه من الشرق إلى الغرب. ويستعمل هذا السور الآن كقبلة شرعية إبان العيدين الكبيرين؛ وهو مزين بألواح ومغطى بالنقوش والصور. والميناء محمي وفيه نبع مياه عذبة يعج بالملاحين من أفريقية وإسبانيا ومن بلدان أخرى.»

ولم يكن الحماديون والموحدون ليجهلوا هذا الموقع الاستراتيجي للميناء، حين بنوا قربه مسجداً كبيراً في العام 1096، ومنحوه بذلك كل أهميته كمركز انطلاق لفتوحاتهم، ومحط استقبال للقوافل القادمة من السودان، وللبلدان المجاورة للبحر الأبيض المتوسط.

وفي حدود أواسط القرن الثاني عشر نوّه مؤلف مسلم ثالث هو الشريف الإدريسي الذي كان يعمل جغرافياً لدى الملك النورماني روجر الثاني ملك صقلية، نوّه بأسواق الجزاير الكثيرة وبمصانعها المملوءة بالسلع، وكذلك بخصوبة أراضيها. ومن الغريب أنه لم يأت على ذكر المسجد الكبير الذي بناه الموحدون في 1096-97 (490 هـ) بعد احتلالهم للمدينة في العام 1082.

كان التجار الأجانب الذين كانت سفنهم ترسو في ميناء المدينة في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر يبادلون الأسلحة والأقمشة بالذهب والقمح. وكان هؤلاء التجار القادمون من جنوة وآراغون يقيمون في الفنادق المخصصة لهم في المدينة السفلى قرب الطريق التجارية. وقد أبرموا معاهدات تجارية مع مختلف الأسر الحاكمة التي توالت على مدينة الجزائر : المرابطين، والموحدين، والزيانيين، والمرينيين، والحفصيين.



منظر لمئذنة الجامع الجديد و ساحة الشهداء

آخر وصف للجزاير قبل السيطرة العثمانية جاء على لسان حسن ابن محمد الوزان، المعروف باسم ليون الأفريقي الذي زار المدينة في 1514-1515 :" جزاير تعني الجزر، لكن الإسبان يسمونها آلجير. وهي مدينة قديمة، بناها قوم اسمهم مزغنّة. ولهذا السبب يطلق عليها في النصوص القديمة مزغنّة. مدينة كبيرة جداً بها ما لا يقل عن 4000 موقد. أسوارها في غاية الجمال والمتانة وبنيت بحجارة كبيرة. يوجد بداخلها بيوت جميلة وساحات منظمة خصصت كل منها لفن بعينه. كما يوجد فيها أيضاً الكثير من الحانات والأفران، لكن من بين الأبنية يوجد معبد جميل(المسجد الكبير) كبير جداً يقع في مكان مشرف على البحر. ويوجد أمام المعبد من جهة البحر ممر بديع مبني فوق أسوار المدينة ذاتها حيث ترتطم أمواج البحر. ويرى المرء حوالي المدينة العديد من الحدائق والبساتين، وغير بعيد من جهة الشرق ينساب نهر بنيت عليه الطواحين. ويستعمل هذا النهر لتلبية حاجات المدينة من توفير ماء الشرب إلى غير ذلك." ثم يضيف:" أرسل الملك الكاثوليكي فرديناند جيشاً كبيراً لغزو المدينة، فبنت فوق الجزيرة الصغيرة المقابلة لها حصناً كبيراً وجميلاً. وقد كان الحصن من القرب بحيث كانت طلقات السلاح تصل إلى اليابسة وضربات المدافع تمرّ من سور إلى آخر."

وهكذا، بقيت المدينة مركزاً تجارياً ومحطة لذهب السودان الذي كان يهود ورقلة يمررونه عبر الجزائر نحو المدن الإيطالية والأندلسية طوال القرون الوسطى إلى غاية القرن السادس عشر.

ولقد ساهمت هذه النشاطات التجارية في صنع غنى الجزائر وملأت خزائنها بفضل الضرائب الجمركية.

غير أن هذا السياق الاقتصادي عرف انقلاباً نتيجة إعادة الفتح الإسباني الذي امتد ليشمل الشواطئ المغاربية. فاحتل الإسبان الجزيرة التي تنتصب قبالة الجزائر (البينون) ليهددوا نشاط الميناء تهديداً مباشراً.

استنجد أهل الجزاير إذاك بالإخوة بربروس القراصنة الذائعي الصيت لتخليصهم من قبضة الإسبان. فنجحوا في ذلك عن طريق طلب مساعدة السلطة العثمانية، أو "الباب العالي".

وبعد القضاء على الزيانيين، اختار خير الدين الجزائر لتصبح



عاصمة وشرع في تطويرها، فبنى لها الأسوار القوية والثكنات والحصون والأبنية العمومية. وتمكنت المدينة من ردع هجوم شارلكان في العام 1541. واكتسبت سمعة المدينة التي لا تقهر.



وما لبثت خزائنها أن امتلأت من غنائم حرب القرصنة ومن التجارة الخارجية. إذ ذكر مارمول دو كارفاجال، الذي كان يعمل نوتياً في إحدى سفن شارلكان، في كتابه" وصف أفريقيا": " تعاظمت ضرائب جمارك مدينة الجزائر بحيث أصبحت تعطي بمفردها ما تعطيه المملكة بأسرها. ولا توجد مداخل اليوم في كل أفريقيا ولا في أوروبا بمثل ثراء تلك الموجودة في أرض وبحر مدينة الجزائر. وبالفعل، فقد جرت العادة، أن يكون ميناء الجزائر غاصاً بالسفن المسيحية التي كان يجلبها القراصنة من كل أرجاء البحر الأبيض المتوسط وهي محملة بالناس والسلع من كل المناطق البربرية ومن نوميديا وليبيا وبلاد الزنوج، وما يجنوه من المال من جراء ذلك يفوق المليون ذهباً كل سنة."

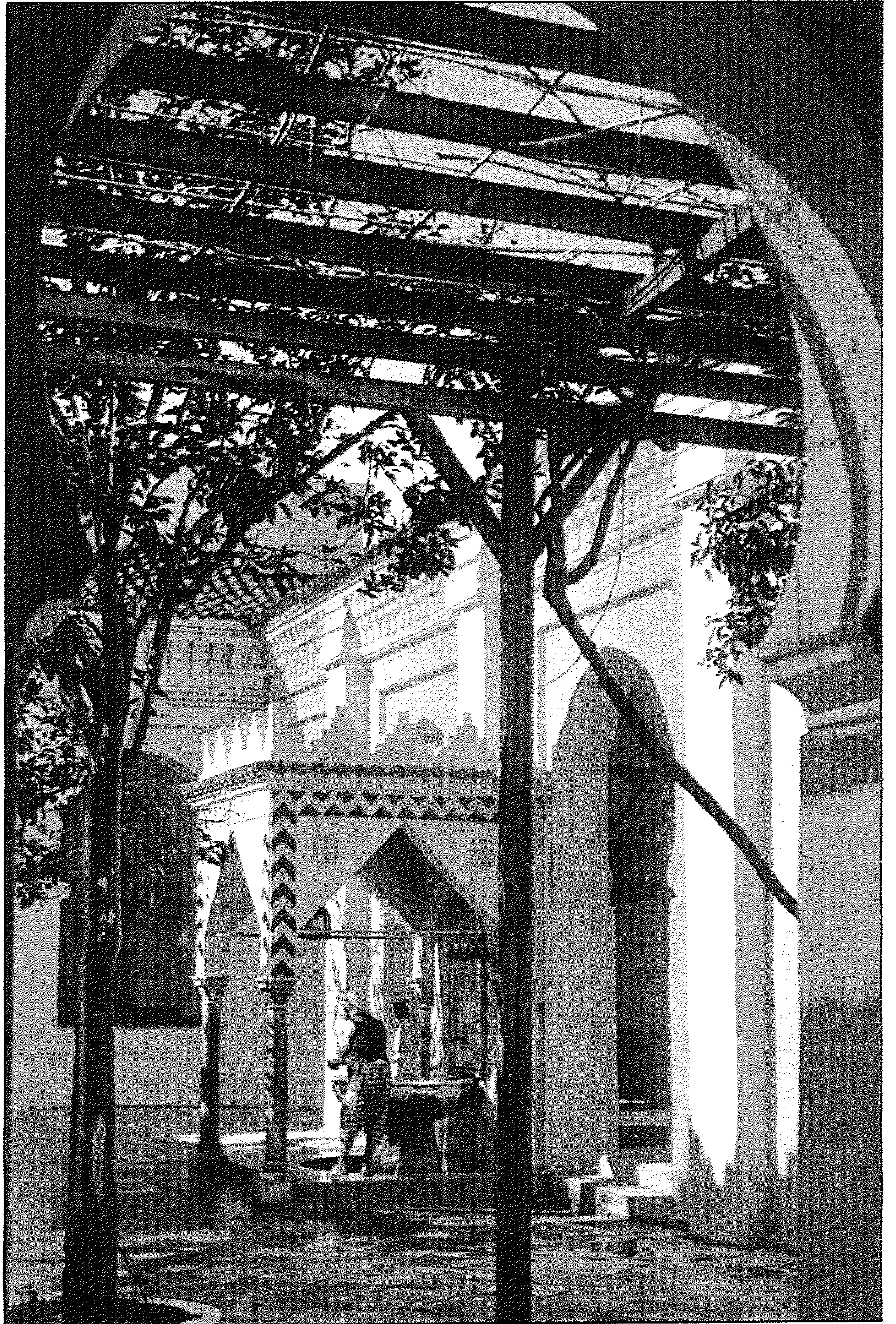
وسارعت الأمم الكبرى إلى ربط علاقات دبلوماسية مع الجزائر، عن طريق إقامة القنصليات ودفع الأتاوات وتوقيع معاهدات سلم وتجارة معها.



ساحة الشهداء والجامع الكبير والقصر القنصلي

"تشبه المدينة من حيث تصميمها ومظهرها ، للقادم من عرض البحر ستاراً من كثيب يهبط جنبه الأكبر إلى البحر على طرفيها..."

جواو ماسكارينهاس (1621)



جلب المسلمون الأندلسيون الذين استقروا في المغرب العربي منذ القرن الرابع عشر، جلبوا معهم تفننهم في الصنعة في المجال المائي والحرفي بشكل خاص. وصارت الجزائر مع بداية القرن السابع عشر في ذروة سلطانها بفضل عوائد القرصنة. ومن الناحية السياسية، أكدت المدينة على استقلالها عن "الباب العالي". ومن ناحية تاريخ العمران، كانت فترة شهدت تشييد أبنية صرحية وخاصة الدينية منها: ضريح ومقبرة مسجد سيدي عبد الرحمن (611)، ومسجد علي بتشين(1623)، وجامع الجديد (1660)، ومسجد السيدة (1664) الذي هدم في بداية الاحتلال الفرنسي... وهي الفترة التي شيدت فيها التحصينات لإعطاء الجزائر صيت المدينة التي لا تقهر. وزودت الجزائر فيها بقنوات المياه(4) لتحسين توزيع المياه، كما شهدت بناء سبل ماء عمومية جديدة.

واليوم، فإن هذا الموقع المصنف ضمن التراث العالمي، لا يحتفظ إلاّ ببعض الأبنية من هذه التركة التي خلفها الأسلاف، والتي تروي تاريخ الجزائر والبحر الأبيض المتوسط.

الصـــروح

الأســـوار

في بداية القرن التاسع عشر، كانت الجزائر محمية بحزام محصن يمتد على مسافة 2500 متر تقريباً. وكان هناك صفان وأحياناً ثلاثة صفوف من الأسوار محاطة بخندق عمقه من 6 إلى 8 أمتار وعرضه 11متراً ونصف، ومحصنة بمعاقل تبعد عن بعضها البعض بمسافات منتظمة. وكانت هذه الأسوار، بحكم تضاريس المدينة، ترسم ما يشبه مثلثاً تتربع على قمته القلعة.

وكانت هناك حصون ومدافع لدعم هذه الترسانة الدفاعية مثل حصن الإمبراطور الواقع في الجنوب الشرقي للمدينة، أو الحصون الموجودة على طرفي المدينة في جبهة البحر.

كانت الأسوار تبني بالآجر غير المحروق يمسكه ملاط يتألف من الجير والتراب الأحمر ورمل المقالع. وتنفتح أبوابها عادة على الأماكن التي تصلها بطرق المواصلات الرئيسية نحو الخارج. أما خارج الأسوار فتوجد المقابر والأنشطة الملوثة مثل مصانع الفخار التي كان مقرها أساساً في باب الوادي.



الجامع الكبير للجزائر (القرن الحادي عشر)

بنى الموحدون الجامع الكبير لمدينة الجزائر في العام 1097 على أنقاض كنيسة مسيحية قديمة لا يزال أحد جدرانها يستخدم كقبلة إبان صلوات الأعياد. واختيار الموحدين لهذا الموقع يدل على أهمية مرفأ الجزائر في تلك الفترة. يحتل المسجد مساحة 2000 متر مربع بأبعاد تقدر 48 متراً على 40 متراً.

تتألف قاعة الصلاة من أحد عشر جناحاً متعامداً مع جدار القبلة، وتنتظم حول فناء عرضه ضعفي طوله، تؤطرها من جانبيها الصغيرين مجموعتان من ثلاثة أجنحة تشكل امتداداً للأجنحة الجانبية للمصلى. يرتكز البناء على 72 عموداً يغطيه 11 سقفاً.

أما المئذنة فقد شيدها في العام 1324 ملك تلمسان أبو تاشفين الأول الزياني حسب كتابة وضعت في الجانب. يبلغ ارتفاعها 15 متراً، ويزين قمتها 24 شرّافة مما يعطي المسجد طابعه الإسباني الموريسكي المربع الزوايا، مثل المساجد الحمادية والمرينية والزيانية.

ضريح سيدي عبد الرحمن (القرن 15)

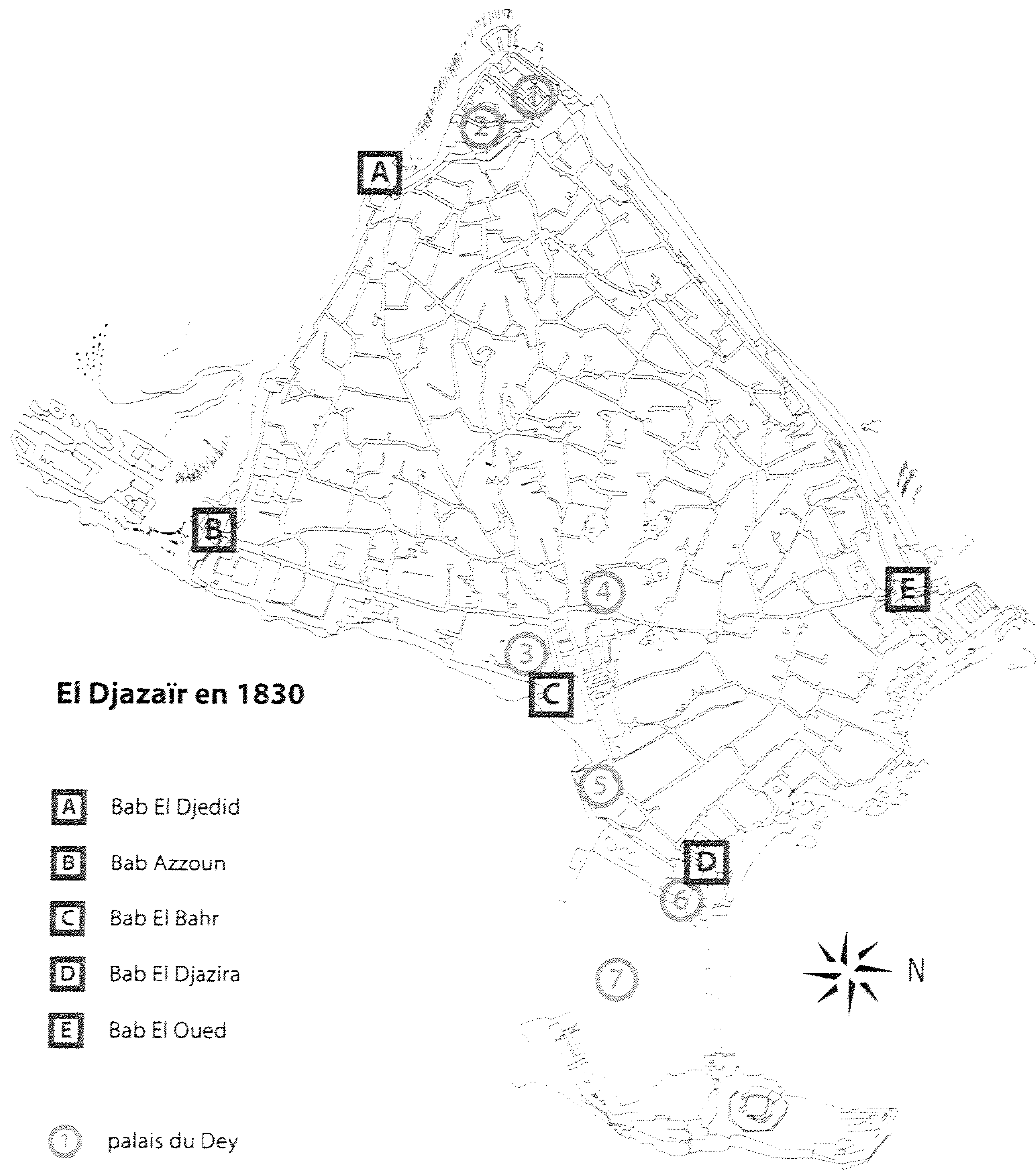
يعتبر سيدي عبد الرحمن ولي أولياء الجزائر الصالحين. وقد دفن في مسجد جميل ذي أعمدة صغيرة. ثم أعيد بناؤه في العام 1696 على شرف هذا العالم والفقيه الكبير الذي ولد في منطقة إيسر في العام 1387. ويعود أصله إلى قبيلة الثعالبة، استقر في مدينة الجزائر لتحصيل العلوم والتفقه في الدين. دفن إثر موته في العام 1471 في ضريح صغير على شكل قبة. وفي الفترة العثمانية دفن العديد من وجهاء المدينة حول هذا الضريح الذي يقع خلف الأسوار مباشرة.

القلعة (قصبة)

إنها رمز الجزاير المحروسة، ونظراً لطابعها العسكري فقد شيدت في أعلى نقطة في المدينة على ارتفاع 118 متراً. تطل من جهة الشرق على باب الجديد. وهي قلعة فسيحة تتربع على 10500 متر مربع تشرف على البحر بحكم



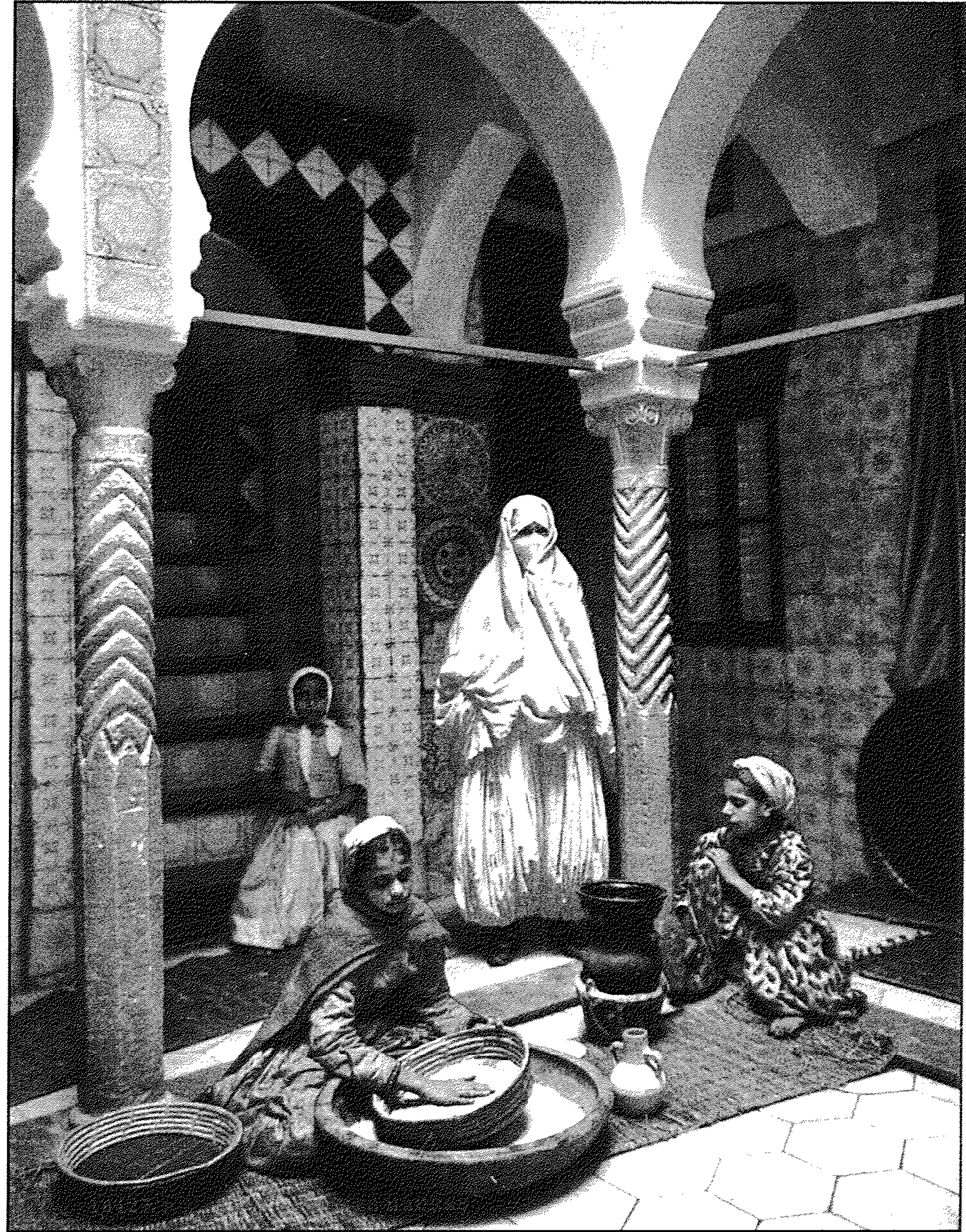
رواق دار حسن باشا



... لكني ما رأيت إلى حد الساعة بلدا
فيه من الحدائق الغناء والفواكه الفيحاء،
و من وفرة الطيبات بأبخس الأثمان ومن كريم ماء السبيل واعتدال المناخ وغنى
الأموال مثل مدينة الجزائر هذه."

جواو ماسكارنهاس (1621-1626)

الجزائر في العام 1830



موقعها وتخندقها. واستناداً إلى اللوحة التذكارية لتشييد هذا الحصن المكتوبة باللغة العربية على يمين المدخل، فقد فرغ من إنجازه في السنة الألف للهجرة، أي في العام 1591م، ليحل محل القلعة التي بنيت في القرون الوسطى قرب سيدي رمضان.

ولم يعاد تهيئة هذه البنى التي كانت أصلاً ثكنات إلاّ بعد العام 1817، حين غادر الداي علي خوجة الجنينة ليستقرّ فيها. وكان الداي حسين من أدخل الجزء الكبير من التعديلات عليها طيلة 12 سنة من حكمه الذي توقف في العام 1830.

كانت مقراً للحكومة والمكان الذي يجتمع فيه الديوان، وفيها أيضاً جرت حادثة "ضربة المروحة " الشهيرة التي اتخذت ذريعة للنزول الفرنسي في العام 1830.

يتألف هذا القصر، المصمم على شاكلة البيوت الموريسكية الجميلة، من عدة أبنية منها مقرات سكنى لبايات قسنطينة ووهران والتيتري.

صنع قوس مدخل القلعة المحمية جيداً من الرخام الأبيض المنقوش. توجد على يساره من الجهة الخارجية مطيرة مغلقة بشبكة خشبية.

وبعد الباب من جهة اليسار تنفتح قبة مظلمة تقطع بهواً تغطيه قبب معقودة تؤدي إلى قصر الداي وإلى بطارية المدفعية الموجهة صوب المدينة. وقد قسمت القلعة إلى نصفين بعد شق طريق يشوه البنية التقليدية للمبنى.

قصـــر الداي

يشمل القصر قاعة للاستقبال والقضاء تتشكل من رواق مزدوج. ندخلها تحت صف من الأعمدة الرخامية البيضاء المربعة من الفناء الذي تطل عليه الخدور. وفي وسط الفناء حوض رخامي من طبقتين تشكل نافورة مياه. كان أحد جانبي الرواق يتألف من صفين من الأعمدة الرخامية البيضاء. وكانت الجدران مزينة بمربعات خزفية ومرصعة بمرايا عتيقة.

في الطابق الثاني يوجد جناح الداي الذي يحتل الجزء الشرقي من الرواق، ومخزن للأسلحة، وورشة لصك النقود، والأجنحة المخصصة للنساء في الرواق المقابل والذي يوجد في مقدمته الكشك الخاص بالحريم. وهناك سلالم مغطاة من الرخام الأبيض ومزينة بمربعات خزفية توصل إلى المسجد.

وفي المستويات العلوية، بعيداً عن الفناء توجد الثكنات العسكرية.

في العام 1830 استقر الجنرال دو بورمون في أجنحة الداي مع كامل هيئة الأركان والمعتمدية العسكرية والإدارة.

كان يوجد على مقربة من القلعة حي جميل تم هدمه ولم يبق منه سوى المسجد المسمى جامع القصبة البرّاني والذي حول إبان الاحتلال الفرنسي إلى كنيسة سانت كروا (الصليب المقدس).

دار حســـن باشـا

من الصعب تحديد وصف مفصّل لهذا الصرح الهام نظراً لما تعرّض له من تحويرات. كان بناء كبيراً شيّد في العام 1791 ويحمل اسم الداي حسن، صهر الداي حسين باشا. ينفتح بابه الرئيسي على شارع السودان الذي ينعطف بزاوية قائمة نحو الشرق باتجاه الجنينة. وينفتح من الداخل على بهو أول كثير الزخرفة تتلوه سقيفة طويلة تلتصق بها سلالم تؤدي إلى الطابق الأرضي. كان مقر سكن الحاكم والمكان الذي ينظم فيه مقابلاته الرسمية حين لا يكون موجوداً في الجنينة.

الفناء الداخلي محاط برواق مسقوف من جوانبه الأربعة يستند على 16 عموداً. والقبو مقسم إلى عدة غرف. ولم يبق سوى صحن الدار للتذكير بما كان عليه هذا القصر من أقواس حادة متجاوزة، وأعمدة مضفورة وحلة من مربعات خزف دلفت.

يتألف القصر من عدة وحدات منها مجموعة مخصصة لجناح الحاكم.

أما الدويرة فكانت مخصصة للضيوف العابرين، وهي مستقلة عموماً ولها مدخلها الخاص في نهاية ردب.

دار عزيـــــزة

مسكن أميري جميل يطل على ساحة ابن باديس. يقال إن الداي بناه في القرن السادس عشر لابنته عزيزة التي تزوجت باي قسنطينة في العام 1719.

يعتبر هذا البناء من أقدم قصور مدينة الجزائر، ويقع خلف الجنينة مقابل مسجد كيتشاوة، وكان يتألف من مبنيين.

يقع باب المبنى الأول في شارع السودان وينفتح إلى الداخل على سقيفة تؤدي إلى بهو بـ 760سم على 375سم، على جانبيه مقاعد تسمى "الدكانة" مزينة بأعمدة تصل ما بينها أقواس.

يتألف هذا البناء من مستويين يتوزعان حسب ما كانت تمليه القواعد المعروفة لهندسة العمارة الجزائرية في ذلك الوقت: فناء مركزي يسمى "وسط الدار"، محاط بأروقة محمولة على أعمدة من الرخام الإيطالي ذات جذوع مضفورة ،



صحن دار عزيزة

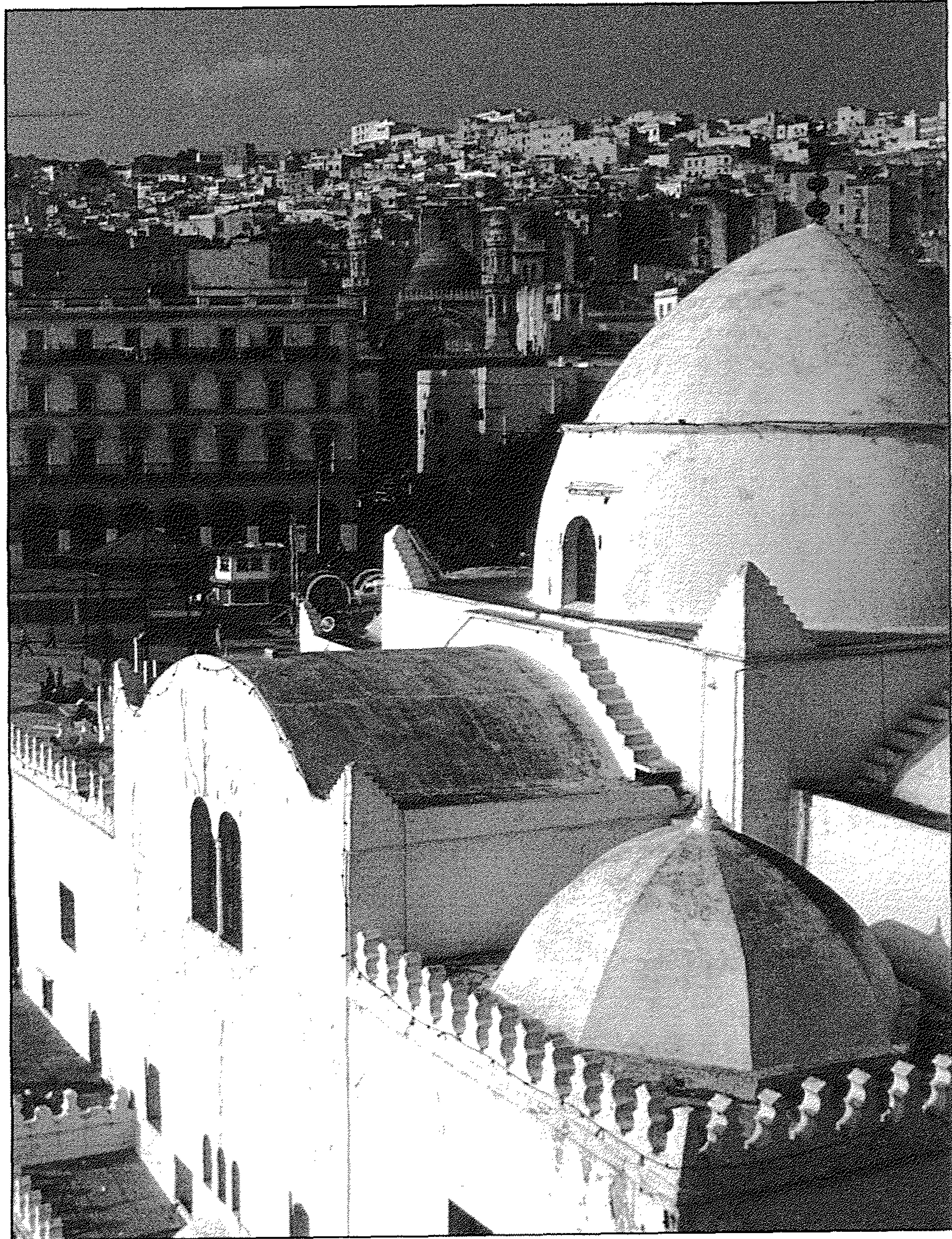
توصل إلى قاعات الاستقبال الفخمة و إلى غرف متعددة الاستعمالات، مثل الحمام، وغرف المؤونة، ودكاكين ونافورة في الزاوية مزودة بماء النبع.
استعملت هذه الدار كمستودع قبل أن تعهد إلى الكنسية لتجعلها مقر الأبرشية.

مسجـــد السمّاكة

شيّدته شرطة مدينة الجزائر في العام 1660، وتصميمه يشبه تصاميم مساجد بروس، على شكل مربع كبير بمساحة 1371 متراً مربعاً، يدخل فيه مربع رباعي الزوايا التي تحددها أربعة ركائز ضخمة. يرتفع فوق هذه الركائز أقواس كبيرة ذات فتحات واسعة ترسم الأضلاع الأربعة للصليب، إذ تقول الأسطورة أن واضع المخطط كان مسيحياً. المحراب مغطى بمربعات خزفية ثمينة تؤطره زخرفات رقيقة من الجبس. والمنبر مصنوع من الرخام المخرم. وترتكز القبة مباشرة على أربعة أقواس تنتصب فوق مستوى مربع وتتصل فيما بينها بمثلثات كروية.
يبلغ ارتفاع المئذنة 30 متراً ليهبط إلى 25 متراً بعد الردم الذي حدث في العام 1830وهي من المآذن النادرة التي تحتوي على ساعة وضعتها الإدارة الاستعمارية في العام 1852.
ويكمن التميز الحقيقي لهذا المسجد في قبته ذات المثلثات الكروية القائمة في وسط فراغ مركزي طولي مسقوف تحده أروقة جانبية تبقي على التقسيم الأساسي للمسجد: جناح مركزي وأجنحة جانبية.

دار خداوج العميـــاء

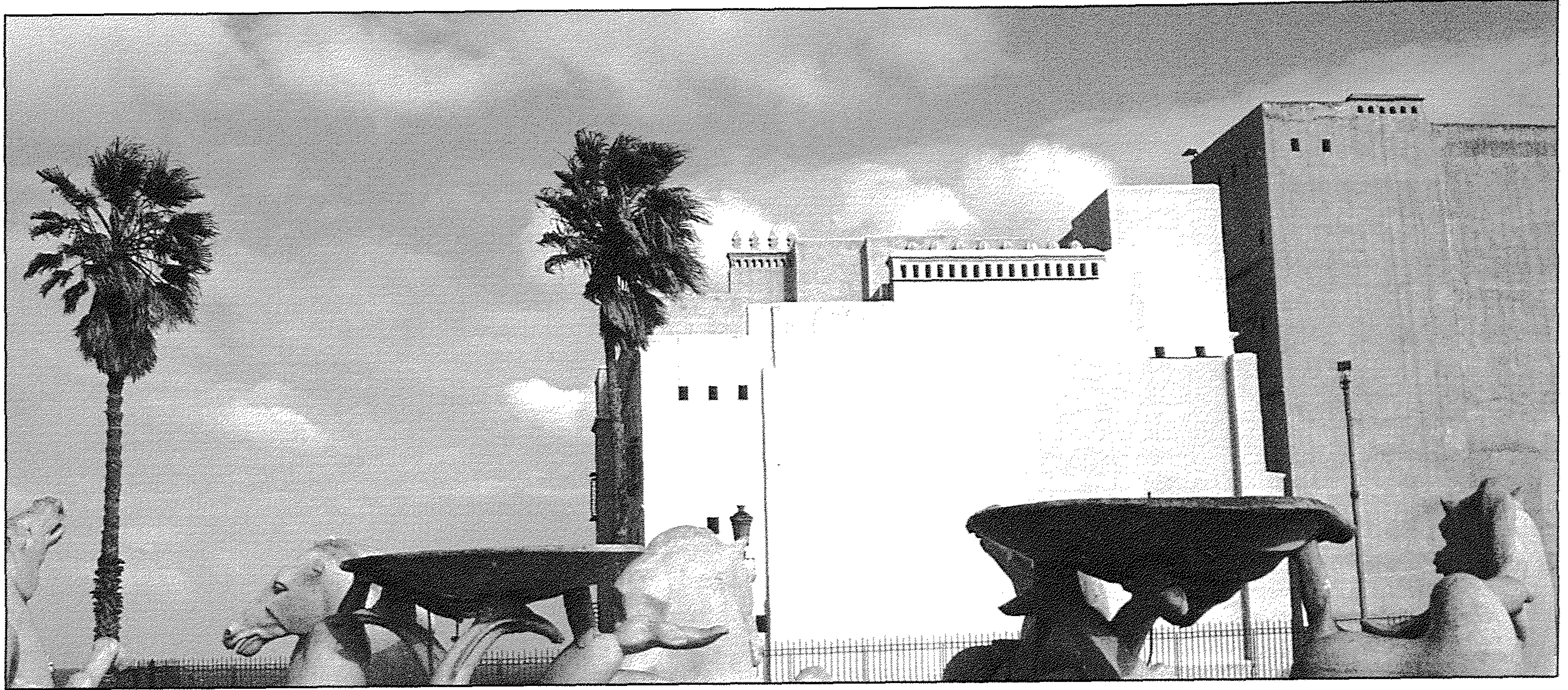
قصر خاص يقع في قلب القصبة، بني فوق زاوية قديمة تعود إلى القرن الخامس عشر. في العام 1789 اشتراه محمد بن عثمان محتسب الداي لابنته خداوج (خديجة الصغيرة) المصابة بالعمى. وتقول الأسطورة إنها أصيبت بالعمى لكثرة ما كانت تنظر إلى نفسها بالمرآة.
يتم الدخول إليه من باب مقوسة بعقد كامل ملبس برخام مسنود ببعض الأعمدة الرخامية، وتسبقه سقيفة تتألف من أقواس مزدوجة



قبة الجامع الجديد (1160)

" مدينة جسورة، مدينة متوثبة،
مدينة بحرية بأزرق بحري مالح
مدينة عرض بحرها يلهج بالمغامرة
اسمها الجزاير..."

أنا غريكي (جزائر عاصمتها الجزائر



قصر الرياس (معقل 23 سابقا)

تغطي كوات جانبية تحدها أعمدة مركبة من ثلاثة أعمدة صغيرة ، مشكلة بذلك مصاطب رخامية. والسقف مزين بقبب ذات زوايا بارزة.
تؤدي هذه السقيفة إلى فناء صغير تحيط به غرف المعيشة التي طرأت عليها تغييرات. ومن جهة اليمين يوجد درج يوصل إلى المستويات العليا المؤلفة من صحن أروقة متعاقبة فوق بعضها البعض ، تصطف حولها ثمانية غرف كبيرة ذات أحجام متفاوتة أعيدت تهيئتها ، بالإضافة إلى ملحق تعلوه قبة يمكن أن يكون مصلى صغيراً أو حماماً.

في الطابق العلوي المصمم بالطريقة نفسها ، توجد غرفة تفتح على الخارج ، تطل على المرسى وعلى الجزء الشمالي للمدينة. وهي نوافذ مكللة بأقواس مزدوجة وبتخريمات من الجبس. والغرفة مزينة بمربعات خزفية من دلفت ، ولها باب بمصراعين. كما يوجد درج آخر يؤدي إلى شرفات السطح وبها غرف خضعت لتحويرات كبيرة.
أقام في هذا القصر نابليون الثالث خلال زيارته للجزائر في العام 1860 ،

ثم تحول إلى متحف للفنون والتقاليد الشعبية في العام 1961.

قصور الرياس

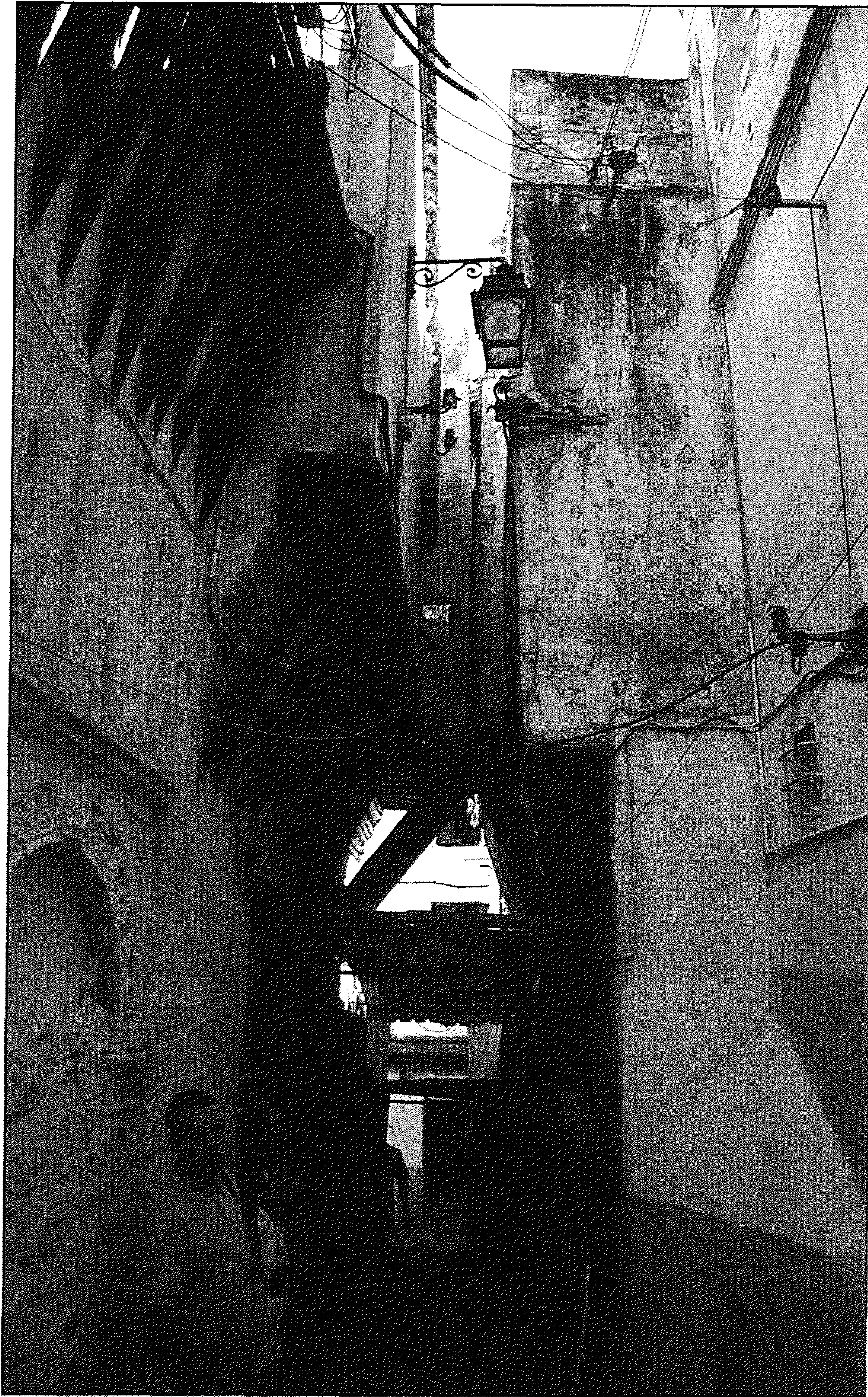
بناه كل من رمضان ومصطفى باشا في القرن السادس عشر. وهو عبارة عن مجموعة من القصور تقع قبالة البحر غرب البينون بالضبط. وقد تم ترميم هذا المجمع السكني في بداية التسعينات. وهو في الواقع الشاهد على استمرارية القصبة إلى غاية البحر قبل تدميرها في الفترة الاستعمارية. وبجواره توجد منازل أكثر تواضعاً قد كانت بالتأكيد ملكاً لبحارة فقراء.

الماء

كان بناء سبيل يعتبر عملاً يمليه الإحسان. وعلى الرغم من وجود السقائين الذين يروون ظمأ المارة مقابل قطعة نقدية زهيدة ، فقد كانت عيون الماء العمومية تمثل التجهيزات الخاصة بتوصيل المياه إلى المدينة. وعلاوة على الينابيع الطبيعية ، زودت المدينة بأربع قنوات تجلب الماء من المرتفعات المجاورة وتوزعها على أحواض وعيون ، على الرغم من أن كل بيت كان يحتوي على بئر وجب.

وقد كان بناء سبيل ما إما هبة أو وقفاً. ولهذا السبب كان عددها كبيراً (أكثر من 160) وكانت موزعة بإنصاف على كل أحياء المدينة. وكان لكل مسجد أو مصلى عين ماء. أسهمت زخرفتها (خزف وكتابة تشير إلى اسم المانح) في تجميل المدينة. كانت تلك المياه تزود أكثر من ستين حماماً عمومياً، منها ما لا يزال باقياً إلى اليوم مثل حمام سيدنا الذي بناه ابن خير الدين في نهاية القرن السادس عشر.

وهكذا، لا يزال المركز التاريخي للجزاير، رغم التهديم والإتلاف المتعاقبين اللذين تعرض لهما منذ 1830 إلى الآن، يحتفظ بآثار معمارية قيمة تتمثل في العديد من القصور والمساجد والأزقة المتعرشة التي تغمرنا بشذا الحنين إلى بحر أبيض متوسط أنيس.



زقاق من القصبة بممر مسقوف

القصبة مركز تاريخي

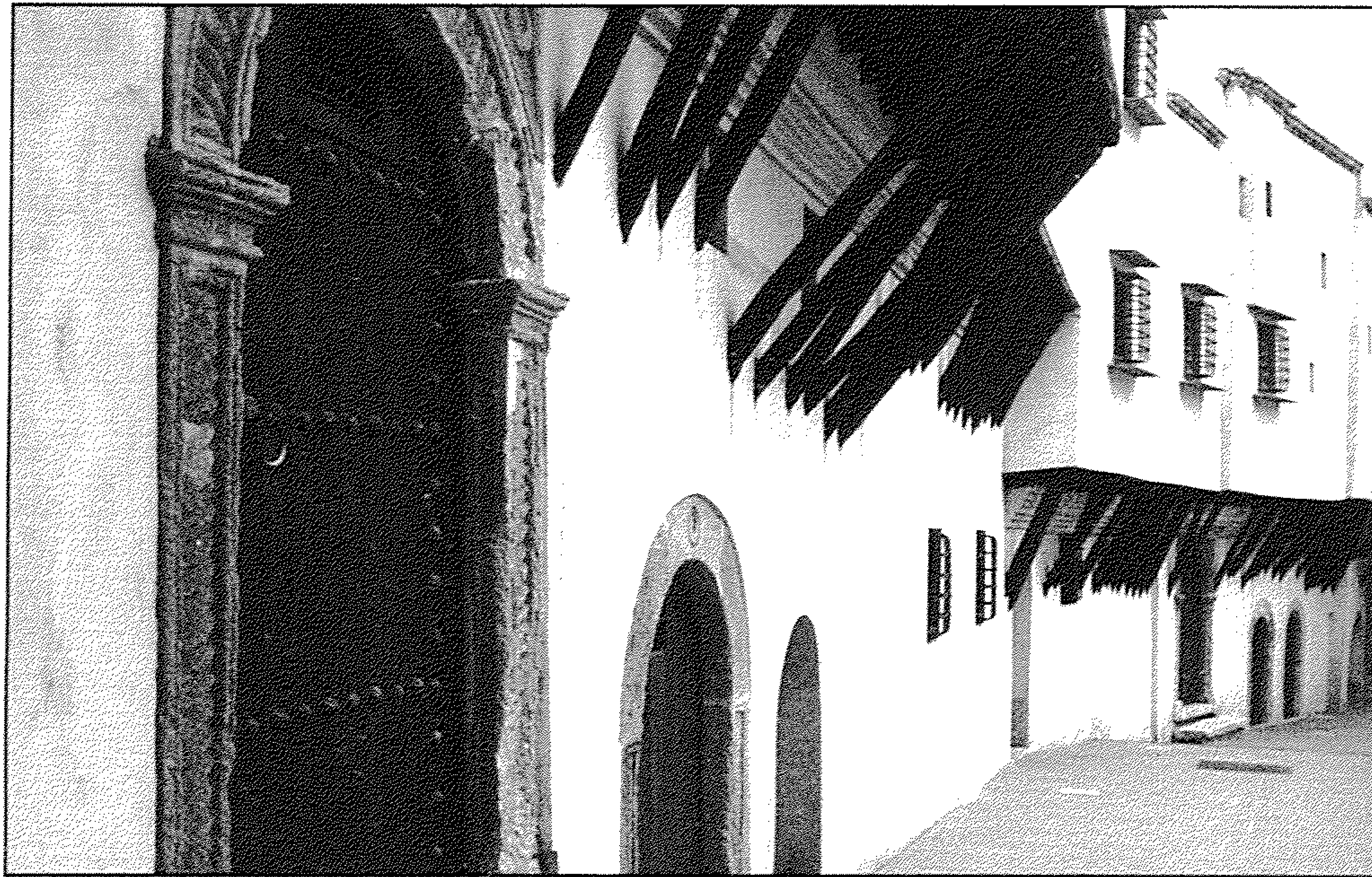
جعفر لسبط

القصبة هي أحد أكثر المجمعات الحضرية أبهة في الجزائر. وهي الجزء من العاصمة الذي يضم أهم الإنجازات المعمارية في مدينة الجزائر. وفيها تكونت وتعززت الهوية الجزائرية باستمرار طيلة فترة الاحتلال الاستعماري. كما كانت البوتقة الأكثر أهمية للحركة الوطنية. تكسبها أبعادها الفنية والثقافية والسياسية أهمية وطنية.

والقصبة اليوم، على الرغم من تصنيفها ضمن التراث العالمي منذ العام 1992، تعطي صورة مؤسفة للجوهرة الحضرية التي كانت تمثلها دوماً. وإن كانت الآثار تكشف بعضاً من مباهج وروعة بيوت القصبة وتاريخها الزاهر، فقلما نجد أو بالكاد آثاراً ظاهرة للعيان حول نمط الحياة والممارسات الاجتماعية التي كانت مركزاً لها طوال قرون.

يعتبر كل من ليسور وفيلد الرسامين السويسريين اللذين تركا أبدع وصف وأجمل شهادات خطية عن القصبة قبل أن تشوهها بصمة الغزاة.

إذ قام عساكر الاحتلال بتخريب وإفساد معالم الجزائر المعمارية لعدم قدرتهم على تذوق نوعيتها الرفيعة. فحاول فنانون أمثال فرومانتان وكلاين وغيرهم الدعوة للمحافظة على العمارة المحلية بواسطة الرسم والكتابة.



قصر الرياس. معقل 23 سابقاً

"بيوتها المجيرة معلقة
كشلال، كقالب سكر
كقشرة بيضة مكسرة
كحليب نور شمسي
كغسيل ناصع حال إلى الزرقة...
آنا غريكي (الجزائر عاصمة مدينة الجزائر)



المدينـــــة

يتألف البيت في القصبة عادة من مستويين أو ثلاثة. والبيت النموذجي يشتمل، مع بعض الاختلاف في درجة البذخ، على مايلي:

- باب الدار: باب المدخل المنحوت؛
- السقيفة: ردهة انتقالية تفصل بين الفضاء العمومي والمجال الخصوصي؛
- وسط الدار: فناء داخلي مبلط بالرخام الأبيض غير مسقوف؛
- الصحين: رواق التوزيع الداخلي؛
- الفوقاني: الطابق الأول؛
- المنزه: الطابق الثاني؛
- السطح: شرفة يمكن الوصول إليها ومكان مخصص للنساء فقط.

وتعكس مساحة البيت على الأرض وثراء زخارفه الداخلية (زخارف الجص، والخشب المنحوت، ومربعات الخزف، والأسقف المنقوشة) مدى يسر حال مالكه.

وغرف المنزه هي الأكثر عرضة للشمس والأكثر تهوئة، ومنها يصعد المرء إلى السطح الذي يطل على منظر شامل الرؤية لميناء الجزائر. وهذا التنظيم المحكم لبيوت القصبة هو نتيجة قانون عمراني شديد الصرامة. ينص على مايلي:

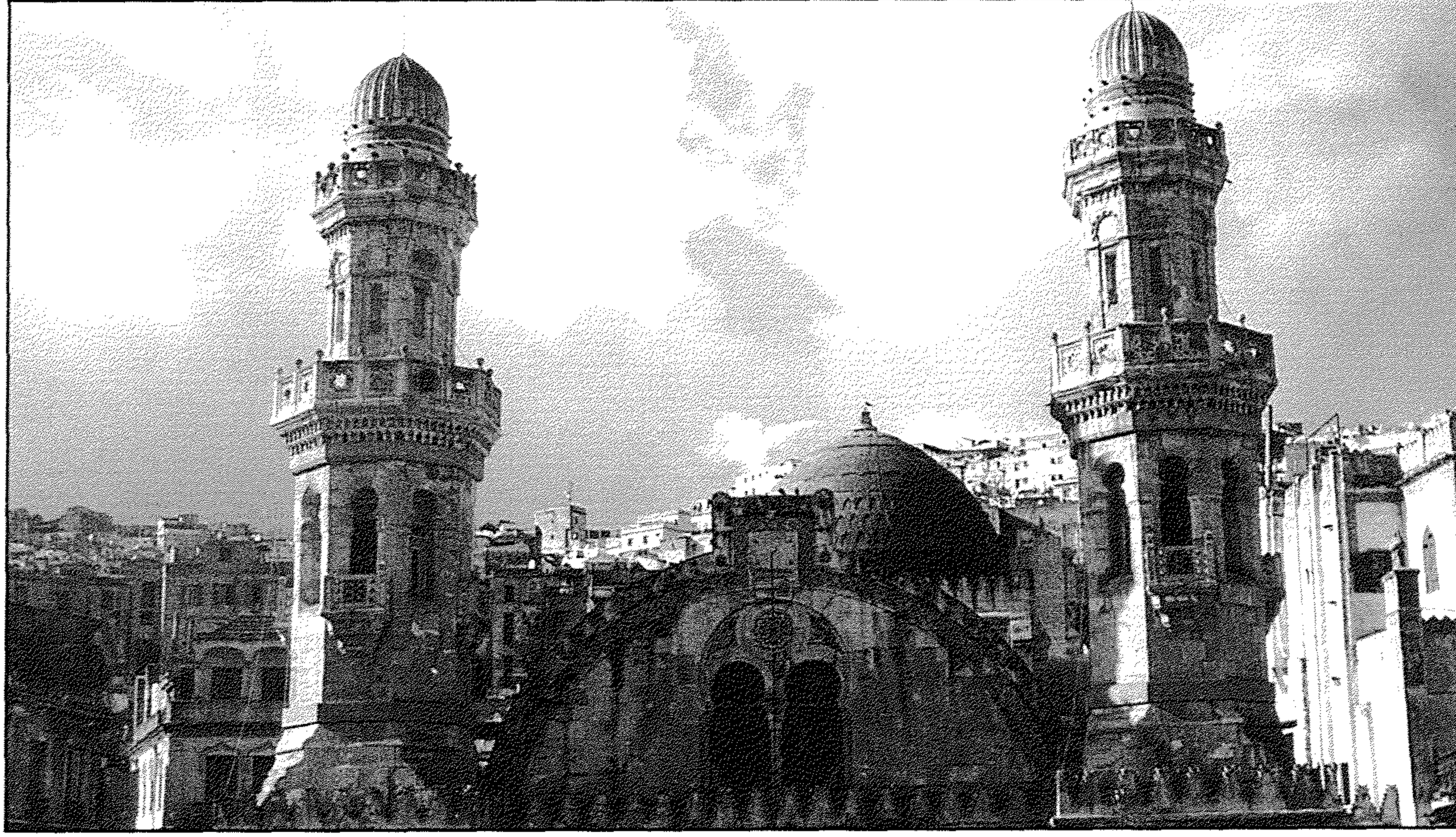
المادة الأولى: تبنى كل البيوت بشرفات في السطوح مطلة على البحر.

المادة الثانية: تشيد كل البيوت في موقع لا يحجب منظر البحر عن الجيران.

المادة الثالثة: يكلف الإنكشاريون بتطبيق هذا القانون. ويقطع رأس كل مخالف له.

وحين فرض الجيش الفرنسي النظام العسكري، مارس المنتصرون كل حقوقهم بلا حدود، وكأن المدينة أصبحت ساحة خالية والبيوت مجرد أحجام فارغة، مما أدى إلى تدمير متلاحق.

تسبب المحتلون الجدد في تهديم أحياء بأكملها ليبنوا مكانها عمارات يتوافق طرازها واستعمالها مع نمط آخر للحياة. وقد عمد سكان القصبة للمكوث في أحيائهم إلى مضاعفة الجهود لتفادي الطرد "الطبيعي"نتيجة لسوء حالة البيوت. وقد ولد هذا الحرص تنظيماً فعالاً كان أساس منهج مبتكر في التسيير.



مسجد كيتشاوة ، صورة مأخوذة من سطح دار عزيزة

طابـع القصبـة المتميز

إن الإنجازات التي تنتمي إلى فترات مختلفة تجعل من القصبة نتاج عمارة وعمران مختلطين.

وقد قسمت التحويرات المتعددة القصبة إلى ثلاثة قطاعات متجانسة إلى حد ما بيد أنها تكتسي أهمية متباينة:

-1 القصبة العليا أو الجبل، أول نواة للمدينة البربرية: ويشمل هذا الجزء على العدد الأكبر من البيوت التي يعود تاريخ بنائها إلى ما قبل القرن العاشر.

-2 القصبة السفلى القريبة من البحر: وهي المنطقة الأكثر اكتظاظاً بالتجار، وكانت الأكثر عرضة لتكالب الأطماع، فمس التحوير من جراء ذلك أجزاء كبيرة منها. وقد كانت القصبة السفلى أثناء الوجود العثماني أغنى منطقة وأكثرها قرباً من السلطة. وفيها يوجد لحد الآن أكبر عدد من القصور.وهي التي تمركزت فيها الغالبية العظمى من البنايات المنجزة بعد 1830.

-3 حي المرسى: حيث لا يوجد سوى مجموعة صغيرة من البيوت حول قاع السور بمعقل 23 ، الذي تم ترميمه في العام 1989، بالإضافة إلى مسجدين: الجامع الكبير والجامع الجديد المصنفين، وبيوت قاع السور هي كل ما تبقى من شواهد على الحدود القديمة للمدينة.

لقد كان للتدهور المعماري رديف آخر يتمثل في نقصان بل في اختفاء النسيج الاجتماعي. وإذا كانت البيوت المحلية التي لا تزال بحالة جيدة، تسمح للمهندس المعماري بأن يستوحي منها أشكالاً وأحجاماً يعيد بها تكوين الفضاءات الفارغة، فإنها تسمح للغريب عن القصبة بالاستئناس بالعلاقات المختلفة التي ينسجها الإنسان مع محيطه، وانطلاقاً من ذلك يستطيع تصور البعد المخفي للقصبة.

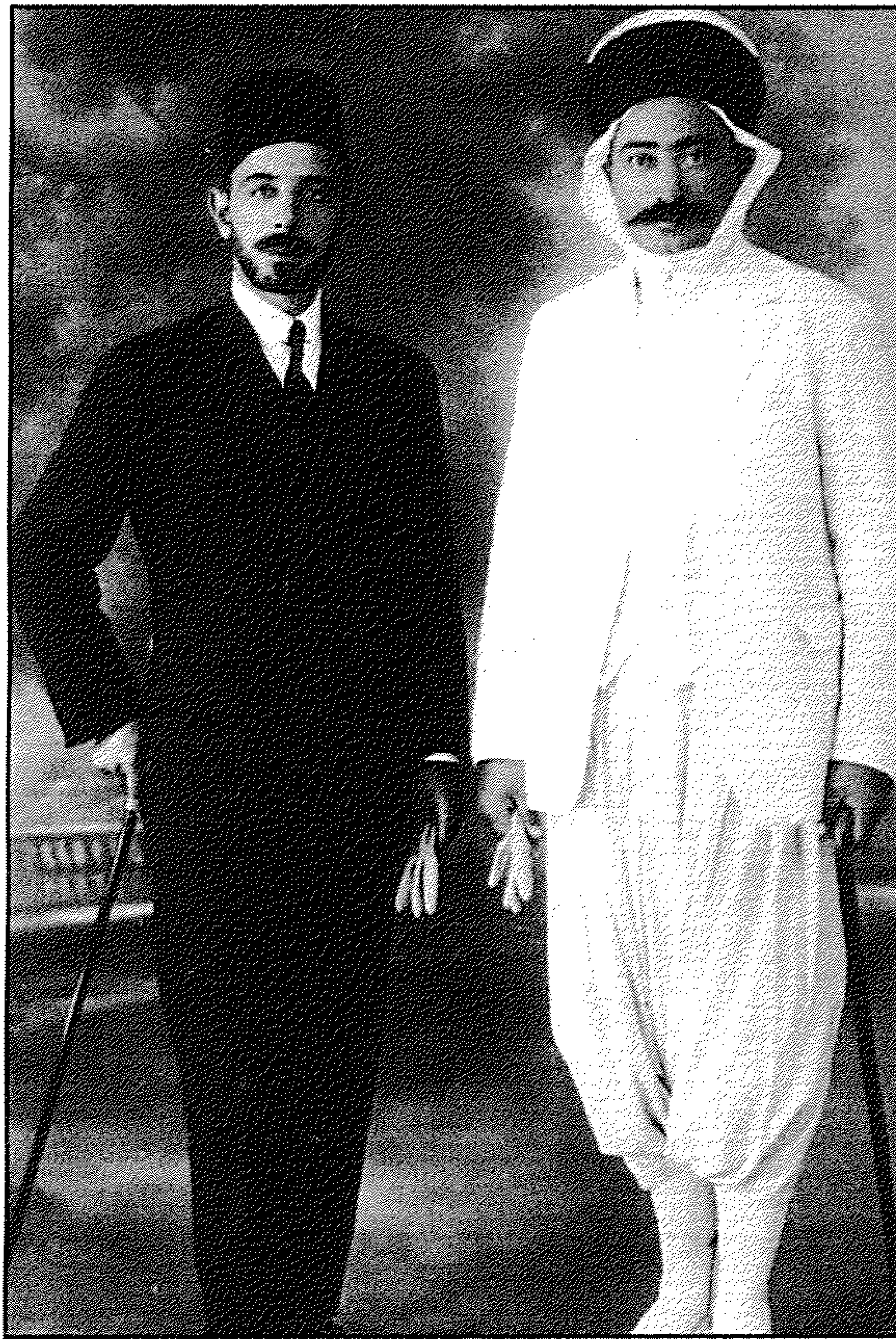
وهناك يقين واحد مفاده أن المحافظة عليها مرتبط باستعادة تلك الممارسات الاجتماعية.

، وقد رافق النزوح الجماعي لأهل القصبة غداة الاستقلال تسارع عملية التلف. فبمجرد التوقف عن ممارسة " الدالة" أو التناوب في الصيانة، تزايد عدد البيوت المهدمة والتي لا تعرف نسبتها لحد الآن.

ومنذ ذلك الوقت والقصبة تشيخ قبل أوانها، وكأنها لم تعد تحتمل هجر أبنائها الذين كانوا يمنحونها بهجة الحياة.

القصبـــة، طراز عمـارة ونمط حياة

إن لم يكن للأمهات غير أسطح الشرفات للتسلية والتبادل، فإنه ليس حال بناتهن. إذ مكنتهن المدرسة والتحولات الاجتماعية الحديثة العهد من توسيع مجال مبادلاتهن إلى ما وراء حدود البيت العائلي.
وطلاء الجدران بالجير ومسح البلاط يومياً يشكل لمسات لا غنى عنها لبيت القصبة للاستمرار في الحياة. واستبدال طبقة الجير الحافظة بطبقة من الدهان البلاستيكي يمنع تنفس البيت ويعجل بتدهور حالته.
إن القصبة كتاب نقرأ فحواه اليوم بالكاد. وعلينا اخذ الوقت الكافي لتهجئة كل صفحة من صفحاته.
والحي الذي يعتبر أداة التقطيع الحقيقية للقصبة يتلاعب بالزوايا القائمة، ويحيل إلى سنن غير سنن التقنيين. ولا يمكن أن تقتصر عملية إعادة التأهيل إلى مجرد عمل ترميمي في البيوت، وإلا فسيكون محكوماً عليها بالفشل الذريع، إذا لم يتم في الوقت ذاته، إقامة نظام يسترجع أو يزيل مجمل الأبنية الفوضوية التي تسهم في تشويه منظور وانسجام الأزقة.



عائلة عاصمية، 1920.
على اليمين زي من الجزائر العاصمة
على اليسار لباس أوروبي بالطربوش

التسيير المحلي الملائم

لقد كانت البيوت منذ الأصول الأولى ملكاً لأشخاص خواص. وينحصر التسيير البلدي لهذا الجزء من المدينة في المجاري والشبكات المختلفة وجمع القمامة.
واعتبرت القصبة طوال الفترة الاستعمارية كوكر للمهمشين، وكحي يتسم بالخطورة. وكان من المفروض أن يؤدي هذا الإقصاء إلى تسارع في تدهور الإطار المبني. لكن حدث العكس تماماً، إذ عزز هذا الموقف الاستبعادي من التضامن، وولّد شكلاً من التسيير الجماعي للأماكن العمومية والخاصة على حد سواء. وكان ذلك الرد الشافي الوحيد الذي سمح لسكان القصبة مقاومة الخطاب المفتري الهادف إلى نشر وتقبل فكرة قذارة هذا المجال الحضري، لكي يتجرّع السكان دون مقاومة علاج "الهدم".
ومنذ الاستقلال ساهم تغيير السكان بشكل كبير في إضعاف نظام التسيير والصيانة والحماية الذي طبقته أجيال متلاحقة من سكان القصبة، في البيت عينه غالباً.
كان يقوم بتنظيف وصيانة البيوت كل قاطنيها بشكل جماعي، طبقاً لنظام تسيير معروف ومعترف به ومقبول من طرف الجميع. النساء يقمن بالتنظيف اليومي، يضاف إليه المساعدة التي تفرضها بعض المناسبات السعيدة (حفلات الزفاف والختان، إلخ...) التي تضبط إيقاع الحياة في بيوت القصبة.

والتنظيف اليومي للأماكن والمرافق الجماعية الخاصة داخل البيت يسمى "الدالة"، أو التناوب على صيانة الأماكن المشتركة.
وبعد الفروغ من عملية التنظيف تمر صاحبة البيت أو ممثلة عنها لتلقي نظرة متفحصة خبيرة على ما أنجز من عمل، ثم تكيل ملاحظاتها بالتلميح بصوت عال. وعند مرورها أمام مكان لم ينظف جيداً تقول زاعمة أنها تتوجه بالحديث إلى المكان المعني:
-آه لو أن أحداً ينزع عنك قذارتك يوماً، لفاز بحج إلى بيت اللّه الحرام!».



وتقول وهي تنحني أمام درج لم يغسل جيداً:
– من ينحني فوقك، سوف ينحني يوماً أمام قبر الرسول عليه الصلاة والسلام."
إن مثل هذه الملاحظات، على ندرتها، تجعل الأنظار تتجه صوب تلك التي كانت مكلفة بتنظيف تلك الأماكن.

في القصبة مجالان، المجال الداخلي الذي تديره وتهتم به النسوة، والمجال الخارجي الذي يراقبه وينشطه ويسييره الرجال.

القاطنون ملزمون بالمشاركة في اثنتين أو ثلاث عمليات صيانة جزئية للبيت في العام. وعلى كل عضو من الأسر المستأجرة أن يشارك في "التلسيس" أوسد الشقوق، ووضع طبقة من الجير الحي إلى ارتفاع نصف الجدران الداخلية للبيت بأكملها.

وعند اقتراب عيد من الأعياد الدينية، أو "الموسم"، أو حتى حين تستدعي ذلك حالة البيت، تجمع صاحبته كل مستأجريه لتحديد يوم أو يومين لعمل الإصلاحات الضرورية للبيت المشترك.

لقد أضفى مجمل هذه الأعمال على القصبة بياضها الأسطوري، ومنح المدينة لقب الجزائر البيضاء.

وكان من الممكن المرور من سطح بيت إلى آخر عبر جدار واطئ يسمى "ستارة".

"يبتسم بديع إنجازه لأفق الدهر"
كتابة منقوشة في مسجد كيتشاوة (القرن الثامن عشر)

سهيلة بلبحار. زيت على قماش. الجزائر.

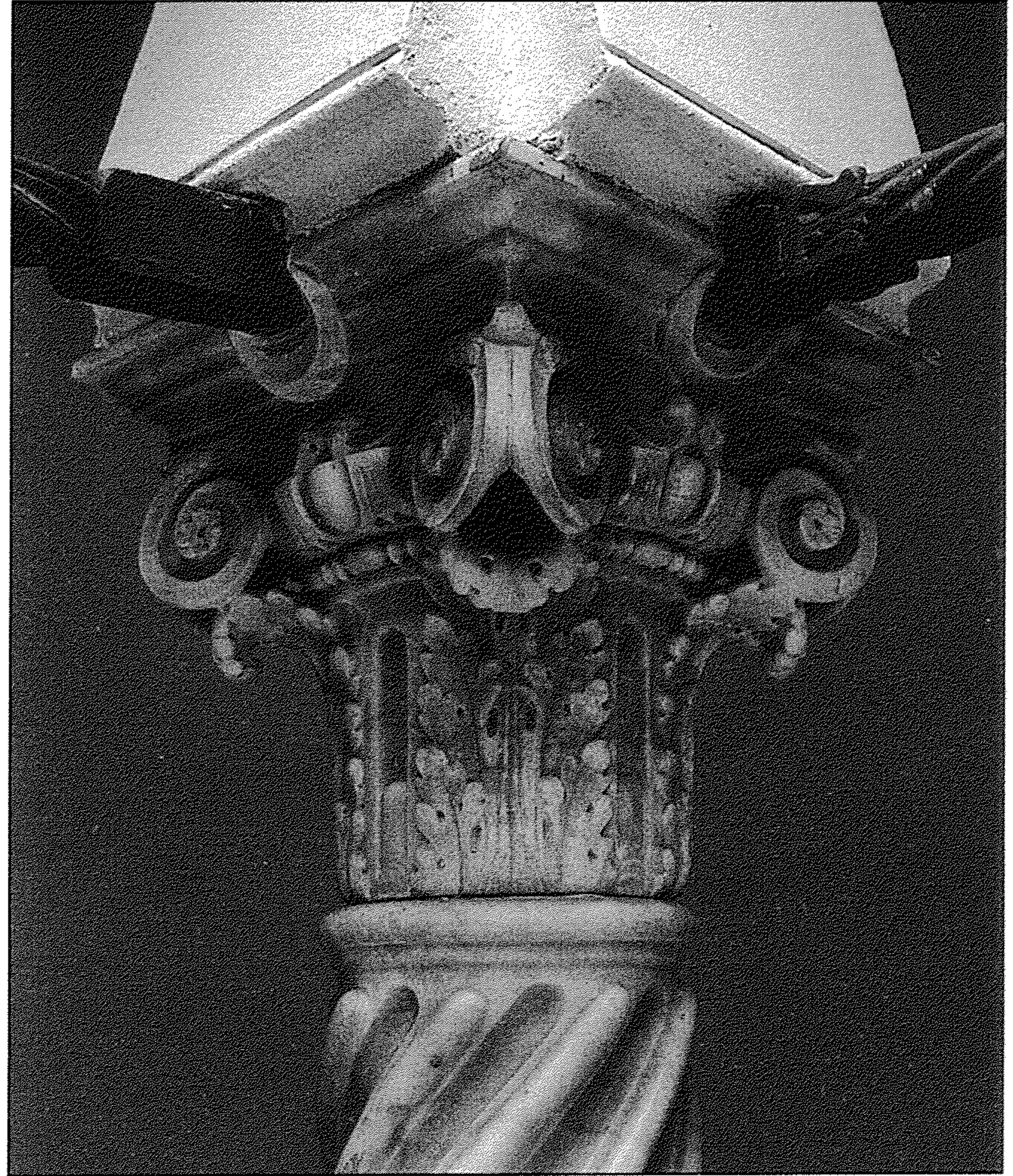
القصبــة، غنيمـــة حرب

صنفت القصبة منذ العام 1992 ضمن التراث العالمي. لكن التمييز الحقيقي هو أن تصنف يوماً كتراث في قلوب كل الجزائريين مع إرادة فعلية للمساهمة في المحافظة عليها.

وحين نتذكر القصبة فإننا لا نشير إلا إلى البيوت الأصلية، وهو أمر لا يخلو من الصحة والخطأ في آن. لقد جعل التاريخ من القصبة مثالاً معمارياً مختلطاً وذلك ما يمنحها سحرها وتميزها. لكن الإسهام المعماري للقرن التاسع عشر والعشرين يستحق أن نهتم به بالقدر نفسه، إذ ينبغي المحافظة على واجهات شوارع مثل شارع "عمّار علي"، و"عرباج"، و"بوزرينة"، وغيرها. فهي جزء من تاريخنا وتراثنا وثقافتنا.

إن القصبة تلخيص لمدينة الجزائر، لأن الجزاير الحالية هي نتاج حضارتين وتعبيرين معماريين منسجمين التقيا في الفضاء نفسه.

إنها غنيمتنا من الحرب، كما قال كاتب ياسين.

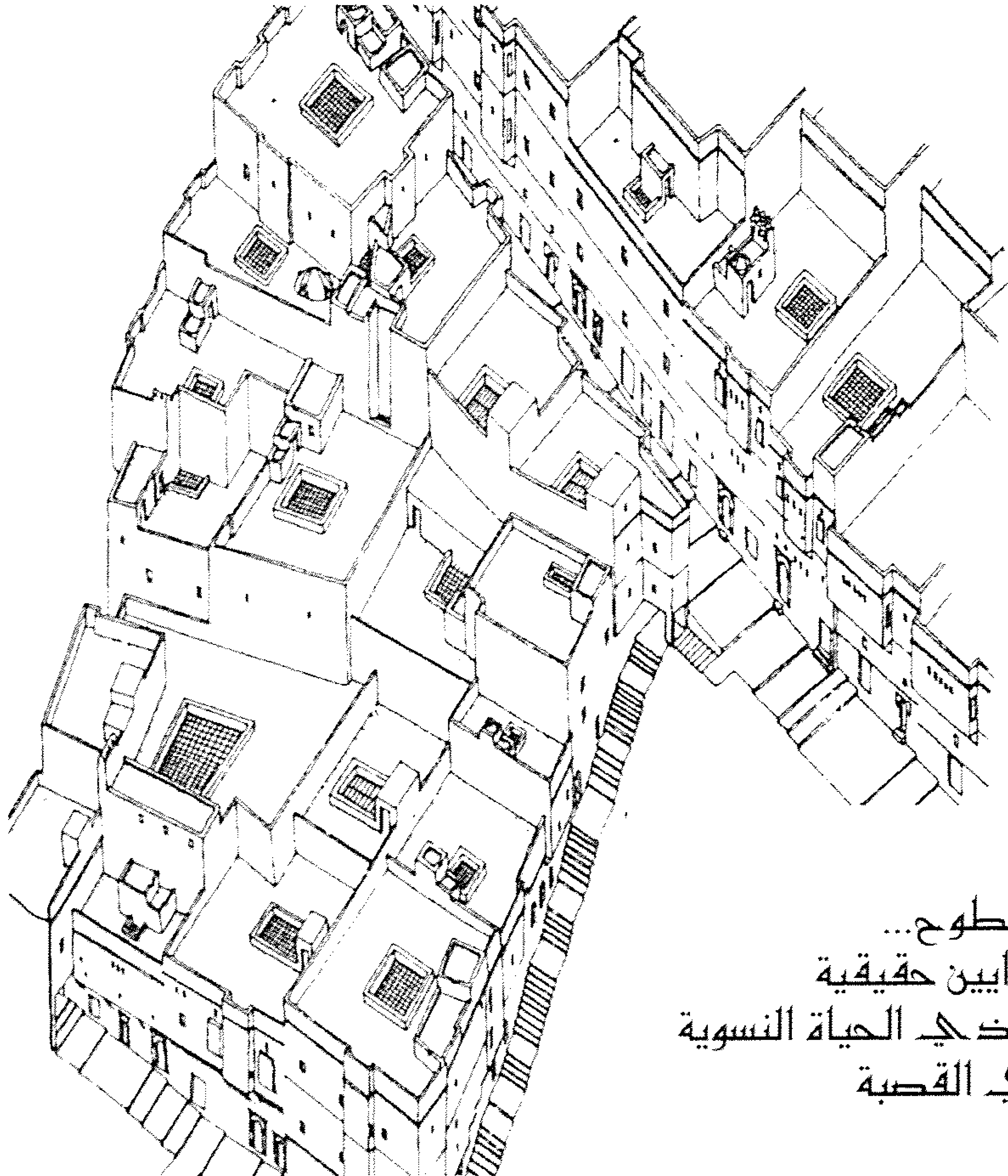


مما شكل شبكة طرق حقيقية معلقة كان لها دور أساسي في الحياة الاجتماعية النسوية بشكل خاص.

الزقاق هو العامل المركزي بالنسبة لحي "الحومة"، ويشكل التقطيع الوحيد المعترف به من قبل السكان الأصليين للحي: "أولاد الحومة".

كل الأحياء متساوية؛ ولكل منها وجهاؤه و"قبضاياته"، وحرفيوه، وفنانوه وحكماؤه. ولكل من هذه المجموعات الرجالية مقهاها، وأماكنها المفضلة للقاء والتبادل.

لكل حي سبيله واسم يدل على جزء من معاشه اليومي: "العطش"، أو"الهجالات" أي الأرامل، "المزوق"، "المالح"، أو"اشرب واهرب"، إلخ. ويعتبر أيضاً مركز انضواء وهوية للحي.



السطوح...
شرايين حقيقية
تغذي الحياة النسوية
في القصبة



إن كل الأعمال التي تنجز حول ذاكرة المكان تساهم في التخفيف من حدّة النسيان الذي راحت ضحيته القصبة، وتزوّد في نفس الوقت بمفاتيح تسمح لنا بفهم أسباب انحطاط قلب العاصمة.

فهذه المدينة هي خلاصة تعابير ثلاثة (العاصمي والعثماني والفرنسي) تتابعت أحياناً وتناضدت أحياناً أخرى، يزيح أحدها الآخر في بعض الأماكن وتتكامل في أماكن أخرى؛ وكلها أنتجت مدينة متميزة جديرة بالمحافظة عليها وتوريثها للأجيال المقبلة.

ولكي يجد اسم "الجزائر البيضاء" كامل معناه، ينبغي أن نعي بأن بيوت القصبة:

- تمثل خياراً معمارياً،
- وهي نموذج للمساكن الجزائرية العاصمية،
- وهي الوعاء الذي يعبر من خلاله عن نمط الحياة المحلية.

وإنقاذ القصبة يعني إعادة الاعتبار لفن العيش في الجزائر العاصمة، باعتباره وسيلة للمساهمة في بناء القصبة من جديد واسترجاع الهوية العاصمية في الوقت ذاته.



تيبازة

أو مجون الربيع والبحر

صباح فردي وفريال جلطي

حين نذكر تيبازة، و« البحر الملبس بالفضة، وزرقة السماء البكر، والآثار المغطاة بالأزهار والنور المعربد في غليانه بين أكوام الحجر، فإن شذا العبير يتخثر في الحنجرة، والمجون السافر للطبيعة والبحر، وزفاف الأطلال إلى الربيع» تستعرضه أنظارنا تماماً كما تجلّى لألبير كامو. يمنح هذا الموقع ما تمزجه الطبيعة من حلم ووقار، ويؤكد بوجوده الصامت في عالم مضطرب وضاج على أن التواصل بين الإنسان والطبيعة لا يزال ممكناً.

يفتح الزائر في تيبازة كتاباً عن تاريخنا. ويكتشف الآثار المعتبرة لجهود أبناء وطننا المغرقة في القدم من أجل التحكم في محيطهم. أي تلك الجهود التي تؤول حسب ابن خلدون إلى "الحضارة".

إن هذه الأماكن الساحرة، الخارجة عن نطاق الزمان والمكان، والمسكونة بالجمال والشعر، تعتبر شواهد منتصبة من حجر، تكشف لنا اليوم عن كامل عظمتها، وتعكس قدرة التعبير الخلاقة لأسلافنا.

تمنح تيبازة، من خلال بقاياها الأثرية، ومناظرها الخلابة، ونورها الساطع، سحابات من الأحلام والرؤى ما لجمالها نظير. فهنا، للزائر أن يرى بأم عينه ما يمكن أن تكون عليه الحياة اليومية في مدينة عتيقة، ويطوف في شوارعها انطلاقاً من حلبة المدرج ليصل إلى ساحة الميدان العظيمة، أو الباحة المعمّدة لمسكن أرسطقراطي، ليمر على المعابد والدكاكين والحمامات والمعابد. ويستمتع بمنظر غار الحوريات، ويمضي لحظات تأمل على مدرجات المسرح.

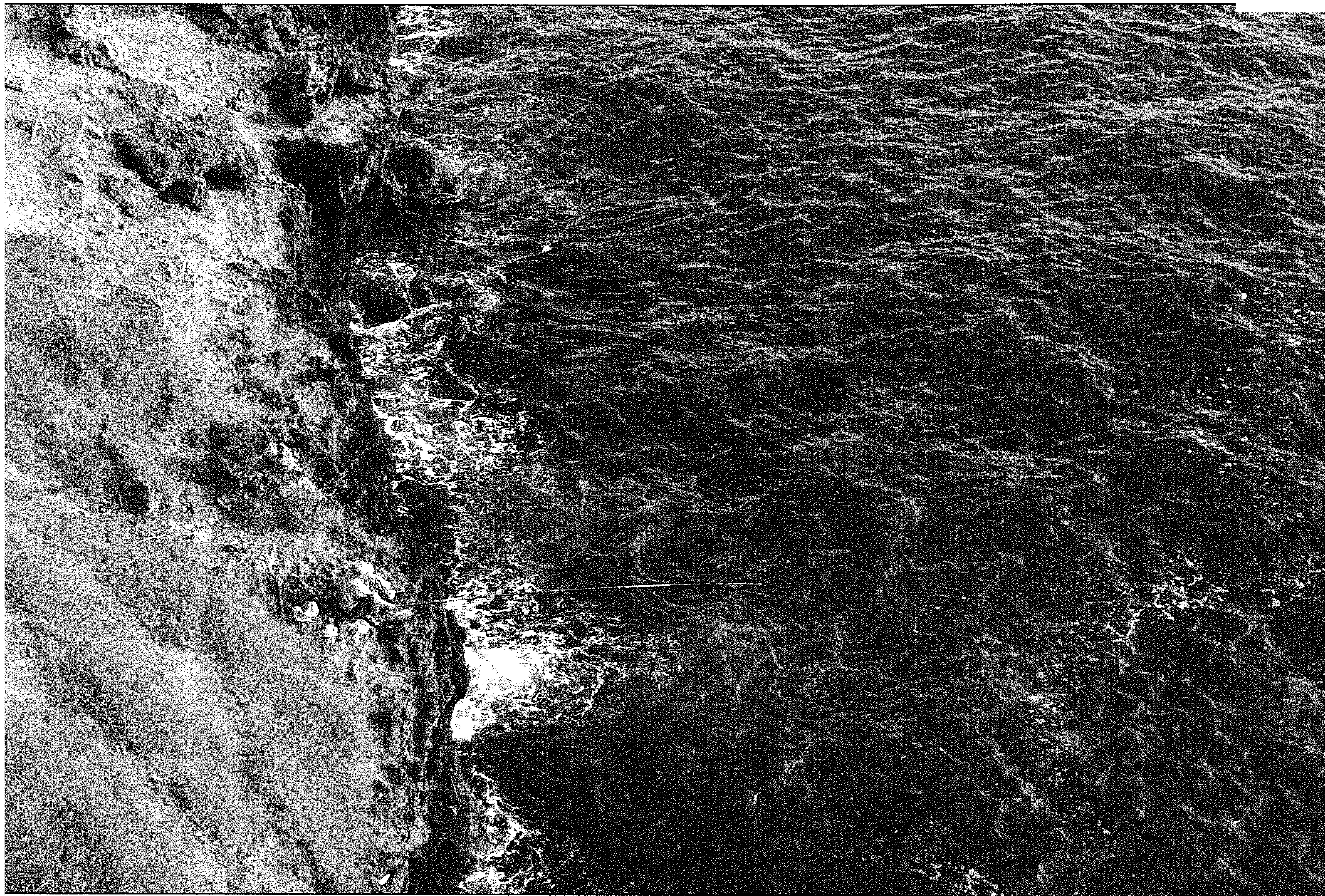
إن كل شيء من هذه الخرائب الأكثر إثارة للعواطف في الجزائر لجدير بالزيارة والتذوق: الباحة المعمّدة والهيكل والمعابد والمقابر..." هنا، ندرك ما يعنيه المجد، أن نحب دون محدّ." (أ. كامو)



نصب ألبير كامو

" هنا، ندرك ما يعنيه المجد، أن نحبّ دون محدّ."

ألبير كامو



" في تيبازة ، أن أرى يعني أن أؤمن ، ولا أتعنت في إنكار ما تمسه يداي و ما تتلمسه شفتاي. لا أشعر بالحاجة إلى أن أجعل منها تحفة فنية ، بل يكفي أن أروي ما هو مختلف."

ألبير كامو

الإطـــار الجغرافي والتأريخي

يتشكل موقع تيبازة من ثلاث مجموعات: المجموعة الشرقية حيث توجد مدينة تيبازة، ممثلة بالأسوار الغربية للساحل ومغطاة بالتشكيلات الأستينية وتلك الخاصة بالعصر الجيولوجي الرابع. تكتسح الشاطئ في هذه المجموعة كثبان متصلبة ترسم خلجاناً وأشنخة منها شناخ الحظائر الأثرية؛ وترتفع الأراضي الداخلية تدريجياً مكونة تلالاً تقطعها وديان والبروز المنتفخ الناتج الذي يسمى المتحدّب.

وتتألف المجموعة المركزية من سهل واد الناضور وهي انخفاض تتكدس فيه مواد الأثاث الحديثة.

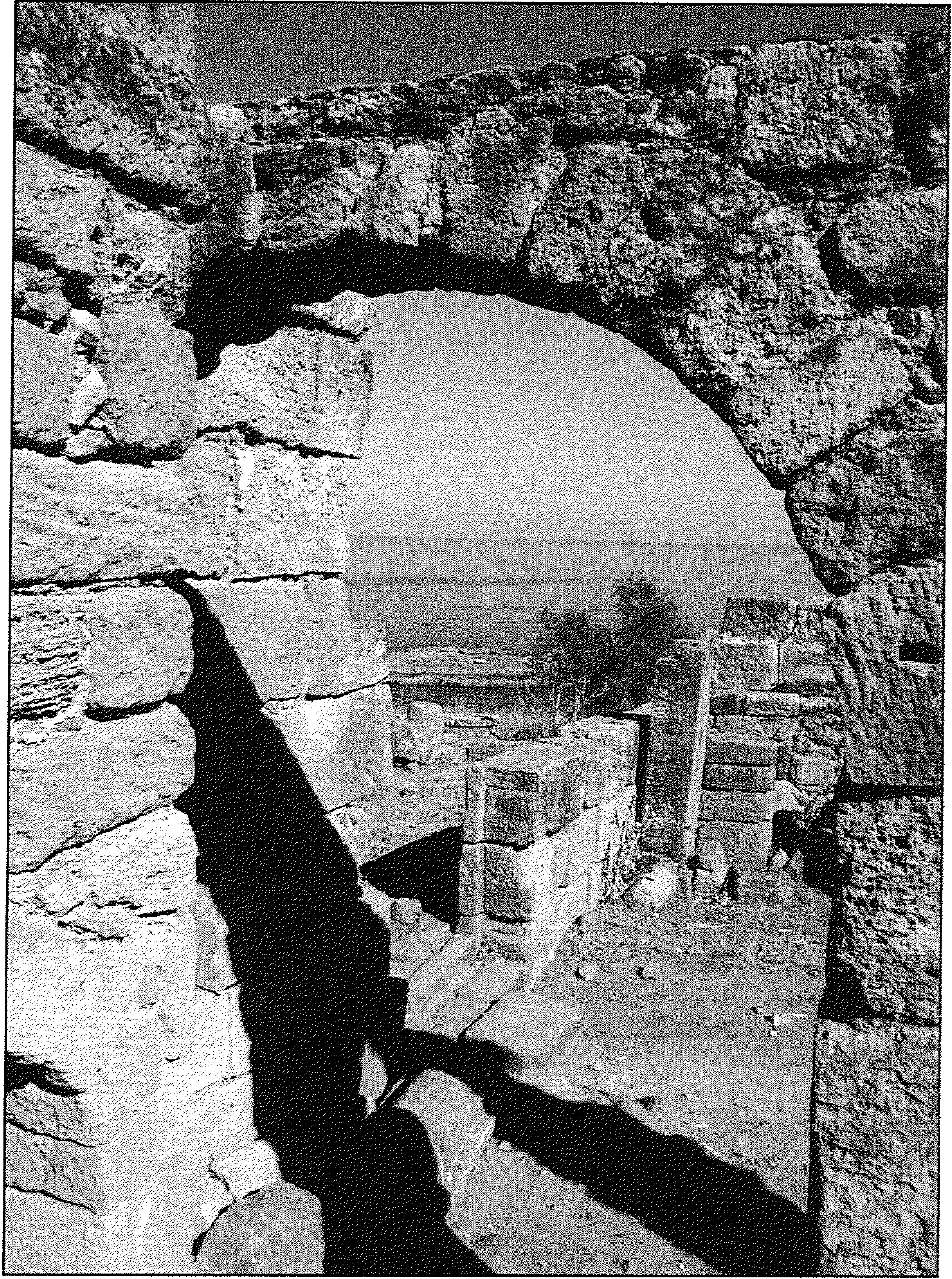
أما المجموعة الغربية فيشكلها جبل الشنوة وقد تعرضت لتشوهات في الطبقات الأرضية، مما نتج عنه الانخفاض العظيم في قشرة الأرض في الشمال وبروز سلسلة جبال كلسية في الوسط وطبقة مائية جوفية في الجنوب.

تضاريـــس الموقـع

تقع هذه المجموعة داخل إطار طبيعي لا يزال يشكل منظراً طبيعياً موحياً:

- ساحل مقسم إلى خلجان وشواطئ وأشنخة تمتد على طول خليج واسع مغلق من الجهة الغربية بالتحصينات المهيبة لجبل الشنوة؛
- ريف أخضر ومشجر يضفي بهاء وقيمة على البقايا الأثرية. والصروح والحظائر الأثرية تشكل جزءاً من هذا السياق المادي والبيئوي.

وصف موقع تيبازة في مذكرة التسجيل بقائمة التراث العالمي لليونسكو في العام 1982، كمجموعة معقدة ومتميزة. إذ يحتوي على حظيرتين أثريتين بهما بقايا عظيمة، كشفت الحفريات عن جزء منها ظاهر للعيان تماماً، توجدان في الشرق وفي الغرب على طول شريط من الأسوار الرومانية التي تحدد الجزء من الشاطئ المحصور بين شناخين. والمتحف يقع على المحور الرئيسي وسط المدينة القديمة قرب المرفأ.



"هنا بالذات، أعرف بأني لن أقترب أبداً من العالم بما فيه الكفاية. علي أن أتعرى وأغطس في البحر بينما لا يزال معطراً بأريج الأرض، وأغسل ذاك في تلك، وأضم إلى بشرتي العناق الذي تتنهد به منذ أمد طويل شفاه الأرض إلى شفاه البحر."

ألبير كامو



ما قبل التـــاريخ

تعود البقايا التي تدل على وجود الإنسان في هذه القطعة من الساحل الجزائري إلى العصر الباليوليتي المتوسط. وتشهد آثار لثقافة مادية هنا أيضاً على النشاط البشري خلال الحقب الآتيرية والإيبيروموروزية التي عثر لها على آثار في مغارة راسل (الشنوة) تعود إلى 12000 سنة قبل عصرنا. وتلت هاتين الحقبتين الحقبة النيوليتية التي خلفت آثاراً قليلة في كوالي ومغارة راسل ومغارة رولان. وفيما يتعلق بالعصر البرونزي فإن شواهده نادرة جداً في الجزائر. لكن عثر في الشنوة أثناء القيام بحفريات في نواحي مغارة راسل على خنجر من البرونز، مما يدل على أن الناس الذين استقروا في المنطقة بعد العصر النيوليتي قد استعملوا المعادن وصنعوها.

والأبحاث الحديثة التي أنجزت حول الساحل التيبازي تنزع إلى إعادة النظر في مخطط دراسة ما قبل تاريخ شمال أفريقيا المعتمد لحد الآن، وإلى إثبات التواصل المثير لتواجد الإنسان في هذه المنطقة منذ 40000 سنة إلى يومنا هذا.

الفترة ما قبل الرومانية

استهلت بدايات التاريخ في تيبازة، مع أولئك البحارة المغامرين والتجار الفينيقيين الذين خاضوا البحر الأبيض المتوسط، لكي يؤسسوا مراكز تجارية على مسافات منتظمة، لبيع بضاعتهم والتزود بالمواد الخام. والأثر الوحيد الذي لا يزال بادياً من تلك الفترة هو سرداب الدفن الكبير الذي يظهر في المرفأ (القرن السادس ق.م).



"البحر الملبس بالفضة، وزرقة السماء البكر، والآثار المغطاة بالأزهار والنور المعربد في غليانه بين أكوام الحجر، إنه شذا العبير يتخثر في الحنجرة، والمجون السافر للطبيعة والبحر، وزفاف الأطلال إلى الربيع"

ألبير كامو

أدت الحفريات التي جرت في تيبازة خلال السنوات الأخيرة للتعمق في معرفة التاريخ البوني للمدينة، إلى تعديل لبعض الآراء التي كانت مقبولة إلى اليوم: بالفعل، فإن المادة الجنائزية المعتبرة التي أخرجتها الحفريات، والتي يمكن تأريخها من القرن الرابع إلى القرن الثاني ق.م، تشهد أن ما كان في تيبازة ليس مجرد مركز تجاري بحري، بل مدينة لا يستهان بأهميتها، خاضعة للتأثيرات السياسية-الثقافية للعاصمة البونية (قرطاجة)، ونفوذة أيضاً للإسهامات الإيبيرية.

فترة الممالك الموريتانية

إن تاريخ تيبازة، ككل مدن موريتانيا، صعب التحديد. إذ لا نعرف شيئاً عن الموطن أو التنظيم السياسي أو الاجتماعي. كل الوثائق المادية التي بحوزتنا تدل على ازدهار المدينة في القرنين الثاني والأول ق.م. والمصادر المدونة النادرة تعلمنا أن بوخوس كان ملك موريتانيا، وأن أقاليمه اتسعت حين منح الثلث الغربي لنوميديا بعد هزيمة يوغرتا.

ونعرف أن هذا الإقليم قد اقتسم في حدود 87-80 بين بوغود في الغرب وبوخوس الثاني في الشرق، وأن مملكة هذا الأخير تمتد نحو الشرق إلى غاية نهر أمبساغا (واد الكبير) ونحو الشرق إلى غاية سيقا (تلمسان)؛ وكانت تيبازة توجد وسط هاتين الدولتين.

والضريح الملكي الكبير الذي يسمى خطأ "قبر المسيحية" يعود في الواقع إلى هذه الفترة.



ناووس محفور في الصخر



إبان الصراعات التي تلت موت قيصر في العام 44 ق.م، خسر بوخوس الثاني كل أقاليمه. وبعد موته أعطى أوكتاف أغسطس إلى جوبا الثاني (في العام 25 ق.م.)، ابن جوبا الأول ملك نوميديا الذي ترعرع في روما وتزوج كليوباترا سيليني (ابنة كليوباترا وانطونيو)، أعطاه إقليماً شاسعاً عاصمته إيول، ثم سميت قيصرية تكريماً لولي نعمته قيصر أغسطس. وعندما أعدم الإمبراطور كاليغولا بطليموس ابن جوبا الثاني في ليون في العام 39 م ،تم إلحاق موريتانيا بالإمبراطورية الرومانية.



تم إلحاق موريتانيا بالإمبراطورية الرومانية.

الفتـــــرة الرومانية

أسبغ الإمبراطور كلود خليفة كالغولا في أواسط القرن الأول للميلاد، في العام 46 على تيبازة مرتبة البلدية عن طرق منحها القانون اللاتيني، وهو امتياز في غاية الأهمية لأنه يعطي رجال قضاء البلدية وذريتهم كل حقوق المواطنة الرومانية. وبعد قرن من ذلك التاريخ، بين العام 145 والعام 147، أصبحت تيبازة "كولونيا آيليا تيبازنسيس" ومنح كل سكانها من غير العبيد حقوق المواطنة الرومانية.

لم يتم بناء المركز الكبير لتيبازة وبعض الأبنية الخاصة مثل "فيلا الفسيفساء" إلا في القرن الثاني الميلادي. وتشهد هذه الإنجازات على الازدهار الذي عرفته تيبازة في النصف الثاني من القرن الثاني.

واعتباراً من القرن الثالث بعد الميلاد ظهرت المسيحية في تيبازة، وتعتبر شاهدة قبر راسينيا سيكوندا المؤرخة في 238 أقدم كتابة مسيحية في أفريقيا. لكن ترسخ هذه العقيدة الجديدة قد تم في القرن الرابع. ولم تقتصر معاناة تيبازة خلال ذلك القرن على الانشقاقات الدوناتية، ولكن كان عليها أن تواجه الهجمات المتعددة والمتكررة لفيرموس الزعيم البربري المتمرد على روما (371 م). وفي نهاية القرن الرابع، عرفت تيبازة ذروة ازدهارها، فقد قدّر عدد سكانها حينذاك بـ 10000 نسمة يشغلون مساحة قدرها 60 هكتاراً، وذلك على الرغم من ضعف السلطة الإمبراطورية في المقاطعة الموريتانية التي كانت مسرحاً للعديد من الانتفاضات الأهلية.

الفترة الوندالية والبيزنطية

سقطت تيبازة في قبضة الوندال في بداية القرن الخامس في العام 430م. وتم تفكيك مركزها وتقسيمه في العام 455م. وفي نهاية القرن الخامس، شرع هونيريك ملك الوندال ذو الديانة الآرية باضطهاد الكاثوليكيين، فقرر الكثير منهم الهرب عبر البحر والهجرة إلى إسبانيا.

في العام 534 م احتل البيزنطيون قيصرية (شرشال) وتيبازة أيضاً، فاستعادة الديانة الكاثوليكية مكانتها مجدّداً؛ ولكن حتى وإن بدا بأن تيبازة قد استرجعت بعضاً من ازدهارها، كما تدل على ذلك عدة ترميمات أجريت على المعبد المسيحي لسانت سالسا، غير أن ذلك لم يكن سوى السكرات الأخيرة قبل أن



جرار المؤن



تهجر تماماً وتغرق في غياهب النسيان.

الفترة الحديثة والمعاصرة

في أواسط القرن التاسع عشر، في العام 1854، قررت الإدارة الفرنسية إنشاء قرية استيطانية في المكان الذي تقع فيه المدينة العتيقة. فخصصت حصة أرض تقدر مساحتها بـ 2672 هكتاراً منحت لأحد الخواص يدعى ديمونشي أوكلت له مهمة بناء حي بـ 50 منزلاً. وفي 27 مارس 1886، تم تأسيس بلدية تيبازة وكان يقطنها 1269 جزائرياً، و230 فرنسياً، و156 أجنبياً. وفي العام 1959 انتقلت تيبازة من نمط النمو المستمر إلى نمط النمو المتقطع وذلك باتجاه الجنوب من خلال بناء



حي يسمى واد مرزوق، الذي يتسم بقطيعة تامة مع المدينة المعاصرة. وانطلاقاً من السبعينات، خاصة بعد أن أصبحت البلدية مقراً للولاية، شهدت المدينة نتيجة ذلك الارتقاء حركة عمرانية جديدة بسبب إنشاء مدينة إدارية وضرورة إيجاد مساكن لسكان غير متجانسين وغريبين عن المدينة.. الجزء الأكبر من الأبنية الجديدة شيد داخل نطاق الرؤية والتصنيف للموقع المصنّف. أي بمعنى آخر، أخذت عملية التنمية المنطلقة تمارس ضغوطاً قوية جداً على الشريط الأكثر حساسية، ذلك الذي يطل على البحر وعلى مكان الاكتشافات الأثرية. والنتيجة الطبيعية لهذا الأمر هي الإنقاص من قيمة المكسب التاريخي والثقافي للمدينة واستنزاف أراضيها بشكل مريع. والتوسعات الجديدة كانت السبب الرئيسي في تهميش المركز التاريخي وتجزئة محيطه.

المتحـــف

" لقد جاءنا كل ما نعرفه عن أنفسنا وعن العالم من الماضي. وكل ما نعرفه بالفعل من الماضي، هو ذلك الجزء الذي بقي ووصل إلينا في صورة أشياء مادية، تشكل المادة الخام للتاريخ. وهي أحداث لا يمكن نكرانها لأنها تنطوي على حقيقة تاريخنا."

كيف نلج إلى ضمير أسلافنا، وكيف نفسر سلوكهم، وكيف نترجم أحاسيسهم وانفعالاتهم، ونتبين معتقداتهم،



برج المراقبة داخل تيبازة

ونفهم حركاتهم إذا لم نحافظ على أعمالهم التي حمّلوها كل ما بأنفسهم، لأنها ترسخ الاحترام والورع تجاه ماضينا. والمحافظة عليها تعتبر عملاً يمليه الإيمان بالمستقبل.

بني متحف تيبازة في العام 1955، ويتألف من ردهة المدخل والبهو وقاعة كبيرة للعرض تحتوي على أغلب المجموعات التي يمتلكها المتحف، بالإضافة إلى قاعة صغيرة تنظم فيها المعارض المؤقتة لآخر المكتشفات. بعد اجتياز البهو، نصل إلى متحف منحوتات حقيقي معروضة فيه مسلات نذرية تمثل حاملي القرابين، ورموزاً بونية (أهلّة ونجميّات)، وكتابات جنائزية وتشريفية مثبتة على الجدران، منها كتابة فيدينسيا التي تروي بطريقة مؤثرة جداً ظروف موتها المأساوية:" سقطت من عل، وماتت إثر سقوطها، افتكتها يد الموت الجائرة وهي في سنواتها الأولى. هنا ترقد فيدينسيا، والدها بنى هذا القبر ليسلوها. من فيدينتيوس إلى ابنته." كما توجد ألواح من الصلصال الرملي مكسوة بالفسيفساء وكتابة باسم المتوفى، ثم يلج الزائر إلى قاعة العرض الرئيسية حيث تقابله مباشرة لوحة رائعة من الفسيفساء تحتل كل الجدار المقابل للمدخل. والتبليط الذي يعود إلى نهاية القرن الثالث للميلاد يزيّن صدر الكنيسة المدنية ويرسم مخططها.



ويمثّل موضوعاً متكرراً في المخيال الإمبراطوري للقرن الثالث الميلادي ألا وهو المسبيون. إذ نرى بالفعل صورة لزوجين من المسبيين مع طفلهما، مهزومين ومقيّدين، تحتل الدائرة المركزية، يتوزع حواليها اثنا عشر مربعاً صغيراً ثبّتت فيها إلى الأبد صور لوجوه من سكان المدينة، معالجة بكثير من الواقعية. وتكتسي هذه الوثيقة التصويرية أهمية من الناحية التاريخية، لأنها تعكس مقاومة السكان الأصليين لعملية الترويم. وعلى طرفي الفسيفساء، داخل إطار عليه كتابة تمجّد النصر جلبت أيضاً من الكنيسة المدنية، مثّلت السلطة الرومانية بمسلات لفرسان الفصائل المساعدة الذين خدموا وماتوا في تيبازة خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد. إذ نرى من اليسار إلى اليمين شاهدة لـ "آلا بريتانيكا" بين حصانين يقابلانه، ورمّاح بتافي، وcurator آلا أولبيا، ونبّال إيتوري، وفارس من الفصيلة الأولى الأغسطسية يدعى «لوليوس غاليانوس، ورمّاح كارنينافاتي (قبيلة من جرمانيا السفلى) يمكسك بيديه « الكونتوس». أرضية القاعة مغطاة بفسيفساء هندسية جلبت من الكنيسة المسيحية الكبرى لتيبازة.

تعرض الواجهات الزجاجية الموضوعة في الأركان الأربعة للقاعة مجموعة هامة من القطع الأثرية؛ من بين أهمها: فخاريات إغريقية مختلطة مع





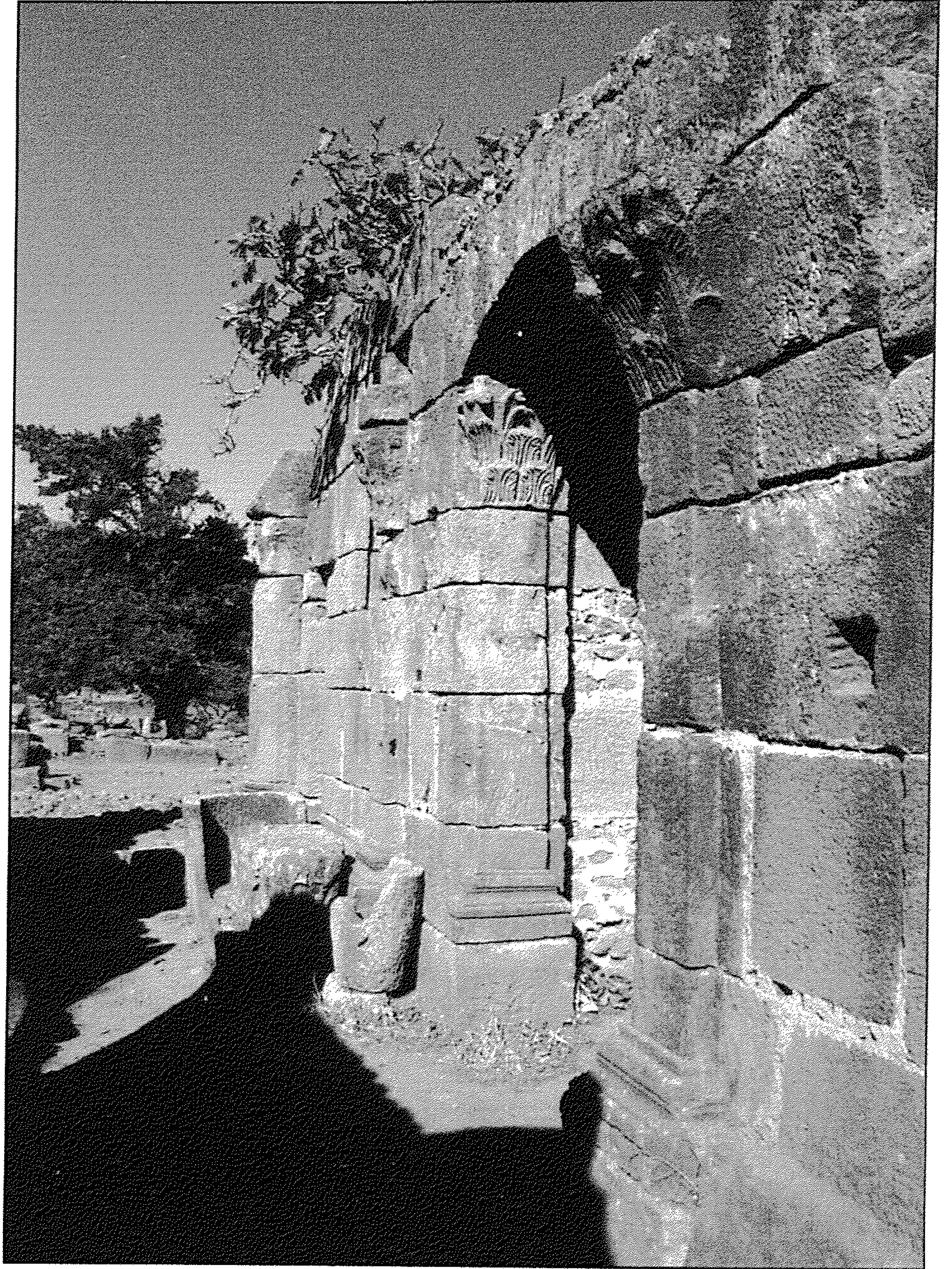
فخاريات بونية ورومانية أو مصنوعة محلياً. ويوجد من بين قطع الخزف بعض المزهريات من نوع «الشوك» المزينة بشرائط وخطوط رقيقة ترجع إلى القرنين الخامس والرابع ق.م.، وقطع من «الأسكوس» بتكوينات حيوانية على شكل كبش أو عصفور تعود إلى القرنين الخامس والرابع ق.م. كما تجدر الإشارة إلى مجموعة القطع الزجاجية الرائعة، التي تعتبر الأجمل في شمال أفريقيا. ومن بينها قطع ملونة، وقوارير عطر (أونغوينتاريا)، ومرامد عديمة اللون كانت تملأ برماد الموتى، ذات جوف منتفخ وعنق طويل، بالإضافة إلى بعض الأكواب. وقد عثر على كل هذه الأمثلة تقريباً في مقابر تيبازة ويرجع تاريخها إلى الفترة ما بين عهد يوليوس وكلودوس ومنتصف القرن الثالث بعد الميلاد.

وما من شك أن أنظار الزائر سوف تنجذب إلى القطع الرخامية المنحوتة ببراعة فائقة، كتلك التي تمثل رأس آلهة بحرية (؟) أو جوبيتر (؟) التي عثر عليها في حفريات المعبد الجديد، وجذع لفينوس صغيرة في حالة سيئة للغاية، وقبرين من الرخام بنحوتات رقيقة ومتقنة، أحدها يمثل أسطورة بيلوب وأوينومايوس، ويمثل الثاني موكباً بحرياً يضم جوقة آلهات الرحمة ونقوشا لكيوبيد المجنح ووحوشاً بحرية.

وفوق القبر النيريدي فسيفساء ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، تدعو الزائر إلى مشاطرة السلام والوئام تحت الحماية الإلهية متضرعاً إليها بهذه العبارات اللاتينية:

"In Christo Deo, Pax et Concordia Sit Convivio Nostro »

عند مغادرة قاعة العرض، يستطيع الزائر أن يتأمل كتابة بالفسيفساء فوق باب



" كل شيء هنا يمنحني براعتي. لا أتخلى عن شيء من ذاتي. ولا ألبس قناعا. يكفيني أن أتعلم بصبر علم الحياة الصعب."

ألبير كامو

الحظيـــرة الأثرية

" إن الجمال الجسدي والغنى بالإضافة إلى القوة البدنية تزول في وقت قصير، لكن إنتاج الفكر الباهر يبقى خالداً كالروح ."

تترجم فكرة سالوست بأبلغ التعابير، الإحساس الذي يغمرنا حين نرى آثار تيبازة. والشواهد الحجرية المنتصبة التي لا تزال تكشف لنا إلى اليوم روعتها، تسمح لنا بالتعرف بشكل أفضل على الأقوام الذين سكنوا هذه المدينة من مدن أفريقيا للبحر الأبيض المتوسط، والولوج إلى أفكارهم، وسبر معتقداتهم، وأخذ فكرة عن أذواقهم. إن هذه البقايا مع كونها أضحت أطلالاً غير أنها لا تزال رغم كل شيء شواهد على عبقريتهم الإبداعية.

تنقسم اليوم آثار تيبازة إلى مجموتين واسعتين:

المقبرة الكبرى الواقعة فوق التلة المسماة سانت سالسا جهة الشرق، والحظيرة الأثرية التي تحتوي على أهم الآثار الصرحية المكتشفة جهة الغرب. وهذه الآثار والصروح التي تشهد على تاريخ طويل، تشكل تراثاً من أغنى ما يوجد في منطقة المغرب العربي، حيث يختلط الماضي بالحاضر في جو يعبق بالتفنن.

قبل زيارتك، مهما كانت قصيرة، إنس الساعة واليوم والتاريخ، وأنصت إلى دبيب العربات، واتبع الحشد وهم يتوجهون إلى الميدان في يوم السوق، وادخل في حميمية الحياة اليومية للأقوام التي سكنت هذا الموقع.

المـــدرج

الآثار التي نلمحها عند مدخل الحظيرة تتراءى من بين أشجار الزيتون والصنوبر هي آثار المدرج، أوسع صرح يبلغ طول محوره 80 متراً ويتجه في مجمله شرقاً وغرباً. نميز فيه حلبة إهليجية تقع داخل مستطيل. ويتم الدخول إلى الصرح من بابين رئيسيين في الشرق والغرب ومن ثلاثة أبواب ثانوية على طرفي محوره. وكانت تجري فيه مشاهد صيد ومصارعة حيوانات مفترسة.

بعد حوالي مائة متر خارج الباب الغربي للمدرج نصل إلى منطقة يتقاطع فيها الشارعان الرئيسيان للمدينة العتيقة، أي المحور شرق غرب، وهو المكان الذي يمر منه الطريق الرابط بين شرشال

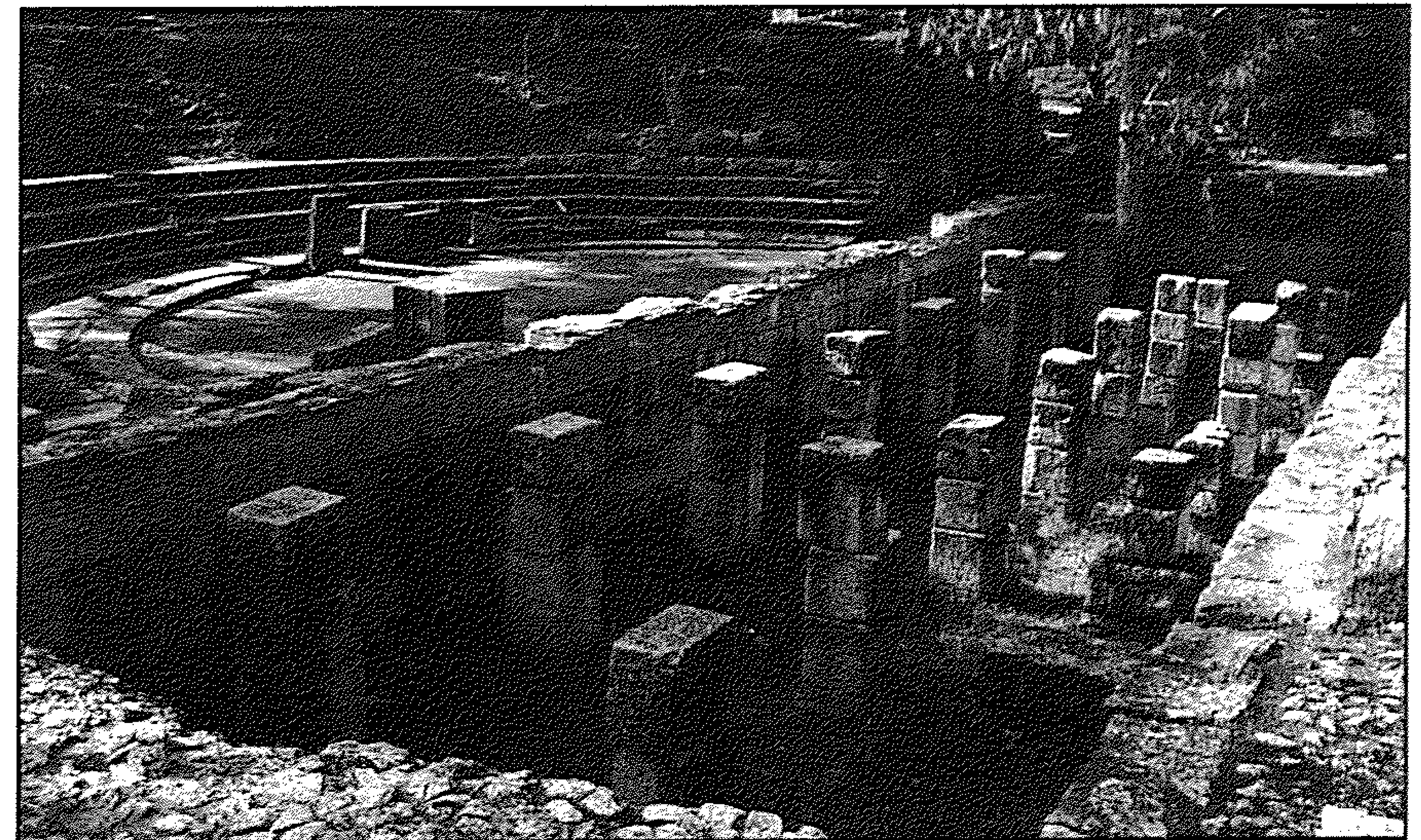
(القيصرية قديماً) ومدينة الجزائر (إيكوزيوم قديماً)، والمحور شمال جنوب الذي يؤدي إلى جبهة البحر.

المعبد المُغْفَل

كان المَقْدس – أي المكان الذي كان يضع فيه الرومان تمثال آلهتهم– الذي لم يبق منه سوى المنصة و جزء من الدرج الموصل إليها، في نهاية باحة مربعة يحيط بها رواق لا تزال قواعد أعمدته قائمة. ولم يتبق من مذبح القرابين الذي يفترض وجوده في مركز الباحة إلا الأساس. كان يتم الدخول إلى المعبد من ثلاثة أبواب توصل إلى رواق الأعمدة الجنوبي على المحور شرق غرب. ولم يعثر على أي إشارة تسمح بتحديد فترته أو وظيفته الثقافية، الأمر الذي حدا بتسميته " المعبد المغفل".

المعبد الجديد

يقع قبالة المعبد المغفل. ولا يوجد مؤشر دقيق يمكن من معرفة أي من الآلهة كان هذا المعبد منذوراً لها. لكن اكتشاف رأس من الرخام في تلك المنطقة، تم التعرف عليه على أنه رأس جوبيتر يرجح فرضية تكريسه له. ينفتح هو أيضاً بثلاثة أبواب توصل إلى رواق الأعمدة على طريق المحور شرق غرب. تحول في الفترة المسيحية إلى كنيسة، واستعمل طرف الرواق المقابل للدرج لتشكيل الجناح الجانبي الأيمن للكنيسة، بينما تجاوز صدرها سور المعبد. وبعد حريق نشب فيه، استخدم هذا المكان حسب ما تشير إليه الدلائل كسوق لا تزال دكاكينه ظاهرة





إلى اليوم.

فيلا الفسيفساء

سميت كذلك لأنه عثر فيها على قطع من زخارف رسمت فوق لياسة مطلية على الجدران. والدخول إلى هذه الإقامة الفخمة التي تبلغ مساحتها 1000 متر مربع يتم عبر باب للعربات يأتي بعده باب للمشاة يوصل إلى رواق "كاردو". نلج إثر ذلك إلى فناء داخلي يحيط به من جوانبه الأربعة باحة معمّدة تتوزع حولها الغرف المخصصة للسكن. وهناك أيضاً قاعات أخرى ملحقة بالغرف الرئيسية كانت تستعمل كغرف وبيت للمؤن وأماكن للخدم. ويعتقد أنه كان لفيلا الفسيفساء طابق علوي على الأقل من الجهة الجنوبية، حيث عثر على بقايا قبور وأشياء تعود إلى نهاية القرن الأول الميلادي.

الكنيسة القضائية

يتألف المبنى المستطيل من ثلاث باحات معمدة يفصل بينها صفان من الأعمدة يبلغ طولها حوالي أربعين متراً و عرضها أحد عشر متراً، وينتهي بمحراب تقع على جانبيه الشرقي والغربي قاعتان تنتصب فيها تماثيل لا تزال آثار قاعدتها بادية لحد الآن على الأرضية. وفي هذا المحراب اكتشفت الفسيفساء المسماة



" فسيفساء السبايا" التي تزين أرضيته. ويتم الوصول إلى الكنيسة بواسطة الدرج على بلاط الديكومانوس أو المحور شرق-غرب في القسم العلوي للمدينة. وقد كان هذا المبنى المغطى يستعمل أيام سوء الأحوال الجوية كملحق للميدان المركزي، ويتخذ كغرفة للتجارة وبورصة ومكاناً للذرع جيئة وذهاباً.

الميدان

يعتبر الميدان القلب النابض لكل مدينة رومانية. ولميدان تيبازة بلاط منتظم، ويبلغ طوله 50 متراً وعرضه 27 متراً. وقد حفر على جانبيه مجريان لجمع مياه الأمطار. ونظراً لاعتباره مركز السلطة في هذه المدينة، فإن المرء يكتشف فيه بعضاً من الصروح التي توجد عادة في الميدان مثل:



الكابيتول وهو معبد مكرّس للثلاثية الكابيتولية التي تضم جوبيتر وجونون ومينيرفا. وهو يحدّ الميدان من جهة البحر ومقر المجلس البلدي. وقد كان مركزاً لعشرات القرون من الحياة الحافلة، ومسرحاً للاحتفالات والأعياد والفضائح و جدل سياسي وديني محتدم. وفي هذا المكان في الماضي، تقرر مصير المدينة الذي كان في الغالب مأساوياً.

مصنع الغاروم

على يسار مسار الزوار لا يزال بالإمكان تأمل بقايا مصنع التمليح أو التقديد المؤلف من أربع أدنان وقنوات تصريف. ويلفت الانتباه من جهة الجنوب أسوار وقبب متداعية: إنها الحمامات الصغيرة، ومن السهل التعرف فيها على مسابح الماء البارد والفاتر والساخن.

الكنيسة الكبيرة

تعتبر هذه الكنيسة أكبر بناء مسيحي في الجزائر، بطول قدره 58 متراً وعرض يبلغ 42 متراً، وقد بنيت دون شك خلال القرن الرابع الميلادي، وأغلب مواد بنائها أخذت من الصروح الوثنية. كانت الكنيسة في الأصل تحتوي على سبع باحات معمدة، ثم قسمت تلك الواقعة في المركز فيما بعد إلى ثلاثة أجزاء تفصل بينها أعمدة. وكان للصرح آنذاك تسعة باحات معمدة وكانت أرضيته مغطاة بفسيفساء تزيينية كبيرة لم يبق منها مع الأسف اليوم شيء يذكر.



" لطالما عرفت أن آثار تيبازة أكثر شباباً من ورشاتنا أو أنقاضنا. فيها يتسربل العالم كل يوم بنور جديد. وأنوراما! إنها صرخة كل الأشخاص الماثلين على خشبة المأساة العتيقة أمام مصيرهم. ذاك الملاذ الأخير كان ملاذنا أيضاً ولقد عرفته الآن."

ألبير كامو



الكنيسة الكبيرة

في الشمال من الكنيسة توجد بقايا أبنية ملحقة: كنيسة صغيرة يتجه محرابها نحو الغرب، وبيت للعماد بقعر متدرج، وحمامات خاصة، ومجموعة من الخزانات والأحواض.ينتصب من الجهة الغربية للكنيسة جزء من السور العتيق بجمال يتسم بالصرامة والكبرياء. يبلغ طول هذا البناء ذو الطابع الدفاعي 2200 متراً، يحيط بمساحة ستين هكتاراً، وكان فيه 37 برجاً. وانطلاقاً من هذا المكان ندخل في فضاء أخضر تملأه أشجار المصطكا ونبات الأرطماسية لنصل إلى منطقة قبور واسعة تلتصق القبور الأولى منها في السور. تحتوي هذه المقبرة على عدة أنماط من القبور: نواويس حجرية، وملاجئ مبنية بالآجر، ومدافن منحوتة في الصخر أو ما يسمى حوانت، وضريح دائري، وغير بعيد منها كنيسة جنائزية أقيمت وسط فضاء رمسي (كنيسة الأسقف ألكسندر)، وأخيراً ديماس صغير(سرداب الأموات).

فلندخل إلى هذا المنظر يلفنا الصمت العنبري لهذه الأحجار المجتمعة كأياد مضمومة من الحجر، وليغمرنا ذلك النور الهادئ والروائح الربيعية العطرة. هنا، تتعطل لغة الكلام. ونلج إلى كنه عالم الأحياء وعالم الأموات.



"تيبازة... هي اليوم شخصيتي، وأخالني إذ أنا لامستها ووصفتها، فلن يكون لنشوتي من نهاية."

ألبير كامو



مدفن أثري

المسرح

يقع في ركن هادئ ومريح، ويعتبر الصرح الأكثر انسجاماً في المدينة. لكن للأسف فقد ضاع مخططه الكلاسيكي تماماً، إذ لم يبق من مدرجاته اليوم سوى الثلاثة الأخيرة، مع أجزاء متفرقة من درابزينه الذي يمكن من خلفه تمييز المعزف النصف دائري، يفصل بينه وبين الخشبة جدار من الآجر. وخلف ذلك الجدار تظهر الحفرة التي يفترض أن تحمل أعمدتها هيكلة وخشب المسرح.

مورد الحوريات

يشكل صرح هذه النافورة العمومية مصدراً للرطوبة والانتعاش ومكاناً للراحة والاستجمام، يلتقي فيه الناس ويجتمعون. وقد كانت الحوريات منذورة للآلهة الأنثوية للمياه المتدفقة التي كان الأقدمون يكرّمونها باسم "نيّاد". ومورد الحوريات في تيبازة على شكل نصف إكليل من المدرجات التي تنغلق على حائط نصف دائري تنتصب أمامه أعمدة. وكانت المياه تجلب بواسطة قنوات تقع في الخلف، وتنهمر شلالات عبر فوهات إلى ثلاثة أحواض تقع في المستوى السفلي. وينتهي مسار الماء تحت البلاط المركزي في قناة موازية لمحور الطريق.

مدافن سانت سالسا

إن أفضل وقت للتمتع برؤية الربوة المسماة سانت سالسا هو المساء، من النقطة التي يحتوي عندها النظر كل الكتلة الصامتة والغامضة لجبل الشنوة، والآثار المهيبة وشساعة البحر.
وحين يلج الزائر إلى المدافن، فليذهب إلى طرف البحر، وليترك نفسه تنقاد وراء روائح الصنوبر، وتناسق الألوان، وتلاعب الأنوار التي سوف تحمله إلى عالم هزمت فيه الحياة الموت. هنا، يرتل الفن والطبيعة صلاة ورعة، ويؤلفان سمفونية شجية.

تشكل هذه الربوة منطقة للدفن تم الكشف عنها بالكامل. وتعتبر من أجمل المدافن في العالم الغربي. وتؤكد الحفريات أن المقبرة قد استعملت منذ الفترة البونية إلى غاية القرن السادس بعد الميلاد. ومع صعود الدروب المؤدية إلى قمة الرابية نصل بسرعة إلى بقايا مقام منذور لشابة سقطت شهيدة في هذه المدينة: كان اسمها سالسا.
"... منذ مائة عام، وبشكل متزامن تقريباً، أخرج علماء بولانيدون من أحد الرقاقاتّ المنسية شغف شابة تيبازية، واجتث معول المنقّب الكنيسة الصغيرة المدفونة فيها والمكرسة لها.
ومن بين الآلاف المؤلفة من الأموات المغفلين، كانت هي الوحيدة التي لم تدخل في التاريخ فحسب، بل دخلت في الأسطورة أيضاً. لها هالة، لكن ليس لها وجه."(س. لانسيل)
تقول القصة حسب تاريخ القديسين:
" كانت سالسا في الرابعة عشرة من عمرها عندما استنكرت على أهلها عبادة صنم من البرونز، فرمت به





بيت العماد

أرضاً، وكسرته ورمت رأسه في البحر. وحين رجعت إلى المعبد لأخذ الأجزاء الأخرى، اصطدمت بهيجان الأهالي الذين رجموها بالحجارة ورموها في البحر... ما إن تلقّف البحر جسد الصغيرة حتى هاج وماج، إلى أن عثر مسافر قادم من بلاد الغول بأعجوبة على الفتاة الميتة... إذاك سكن البحر وهدأت الرياح. ووري جثمان الشهيدة الصبية في كنيسة صغيرة فوق المرفأ بالتحديد."(ج. باراديه).

واليوم تبدو الكنيسة على شكل بناء ذي باحة معمدة واحدة، تنتهي بمحراب بارز يلتصق به رواقان جانبيان، يتناضد فوقهما منبران يتم الوصول إليهما بواسطة درجين يقعان على طرفي المدخل. ويوجد على يسار الباحة المعمّدة الجانبية فتحة حفرت في الحائط تمكن من الوصول إلى فضاء صغير شقت على جدرانه نوافذ. ويحتوي هذا المكان على" منسا".

تتجمع حول الكنيسة مئات القبور كالخراف تحيط براعيها الطيب، وتقف كحرّاس الأمل، ينبعث منها نور يسلط على لامبالاتنا المائجة الحالكة، بصيصاً رقيقاً وهشاً وكأنه نداء يدعونا للأمل. مثل أعلى منقوش على الحجر، مثل شعب برمته اليوم.

هنا، يشع غموض الجمال وسكينة الزمن وتمامه بقوة أكبر من أي مكان آخر، بشكل يجعلنا ندرك ذلك الطموح إلى " المقدس" الذي صنعته السماء والأرض على حدّ سواء.

أوليست كل هذه الآثار ذات الأشكال المتعددة رمزاً للإنسانية؟ كل إنسان هو هذا الحجر الحي نفسه الذي صنعته ثقافة من واجبها بناء عالم اليوم - كما يحلم به كل منّا- عالم أكثر عدلاً وأخوة.



" النسمة عليلة والسماء زرقاء. أحب هذه الحياة بانطلاق وأود أن أتحدث عنها بحرية، فهي تمنحني كبرياء وجودي."

ألبير كامو



الضريح الملكي الموريتاني

" ليس للماضي معنى في حد ذاته، فهو يأخذ المعنى الذي نعطيه إياه في الحاضر."

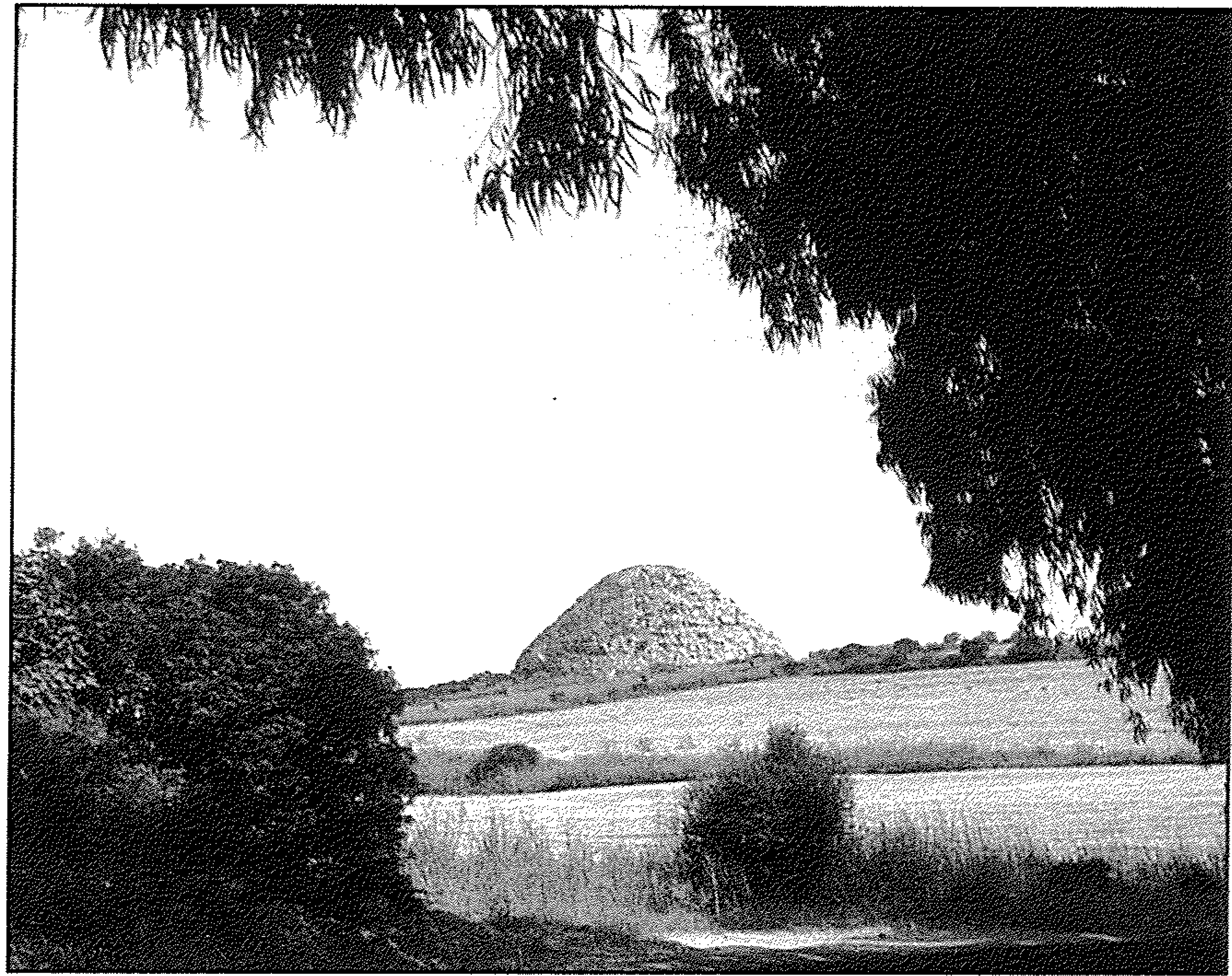
يبدو هذا المبنى الدائري المخصص للدفن عن بعد ككومة تبن، ويقع على الطريق الرابط بين الجزائر العاصمة وشرشال غير بعيد عن تيبازة. وحجمه مدهش من حيث الكبر، إذ يبلغ محيطه 185 متراً و50 سم، وقطره 60 متراً و90 سم، وارتفاعه 32متراً و40 سم، وحجمه يفوق 80000متر مكعب.

يبدو هذا البناء الضخم وكأنه موضوع فوق قاعدة مربعة طول الضلع الواحد منها حوالي 64 متراً. وكل ضلع يرتكز على سلسلة من المدرجات الحجرية المشذبة. ويتألف مقطع المدرجات ذو الشكل المخروطي من 33 درجة ارتفاع كل منها 58 سم تنتهي بباحة مسطحة.

يوجد أمام الصرح بقايا بنية أولية لبناء طوله 16 متراً وعرضه 6 أمتار، لا بد وأنها كانت قاعدة لمعبد أو هيكل صرحي.

في الخارج له 60 عموداً متلازماً من النمط الأيوني، وأربعة أبواب كاذبة (واحدة في كل جهة من الجهات الأربع) تشكل نتوءاتها صلباناً، مما دعا العامة إلى تسميته خطأً " قبر المسيحية".

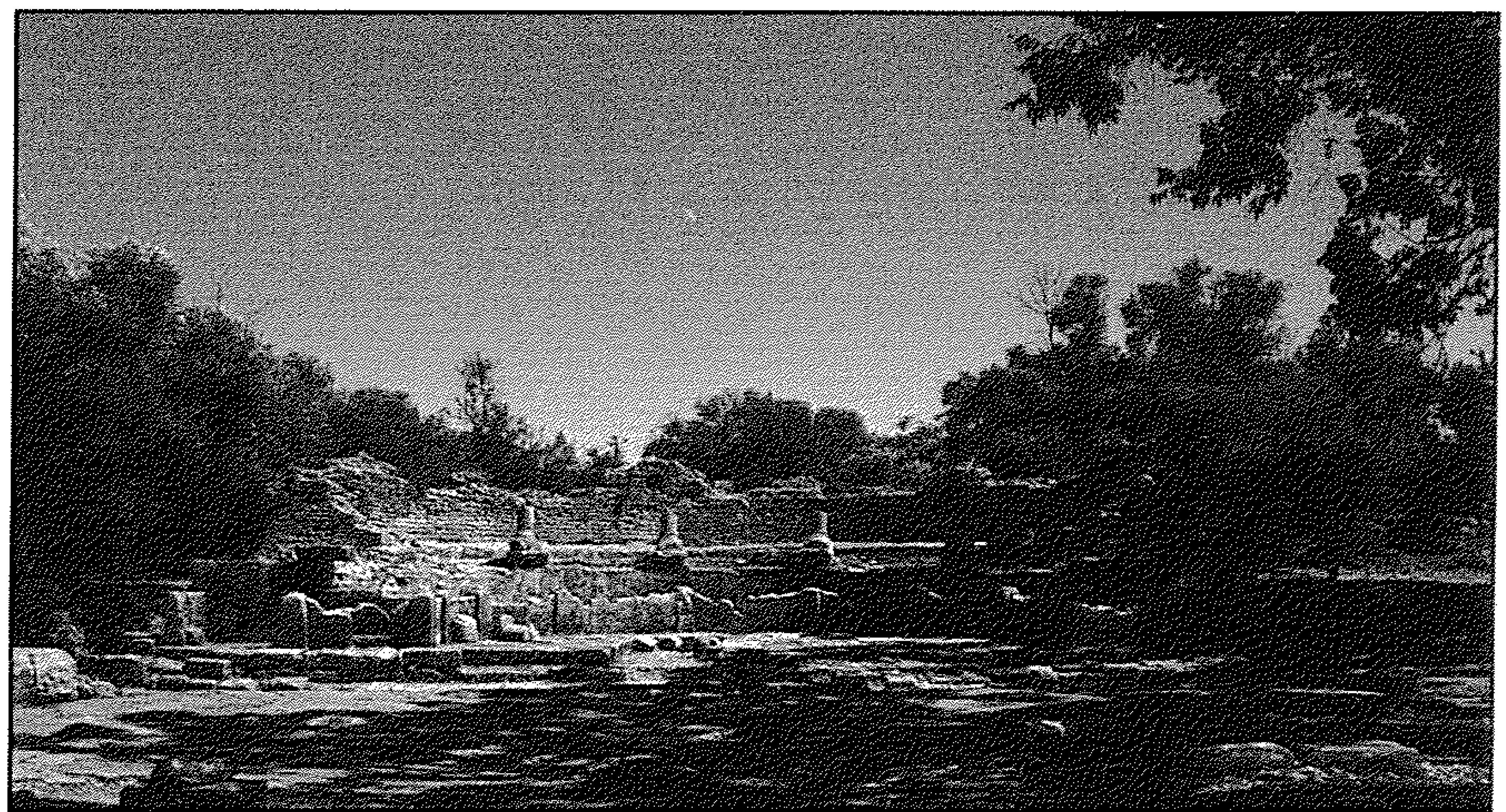
يتم الدخول إلى الضريح من باب واطئ وضيق يقع في المستوى السفلي للصرح تحت الباب الكاذب الشرقي. ونلاحظ



بعد المدخل مباشرة داخل غرفة الدفن الأولى منحوتة لأسد ولبؤة يبدوان وكأنهما يحرسان الصرح.

وبعد تجاوز غرفة دفن وبهو، نصل عبر سرداب دائري مقبب بعقد كامل، طوله 141 متراً وعرضه متران و40 سم، نصل إلى غرفتين للدفن طول ثانيتهما 4.04 م وعرضها 3.06 م، مزينة بثلاث كوات في الجهات الغربية والشمالية والجنوبية.

كل الغرف، بما فيها الغرفة المركزية كانت فارغة، ولا يوجد إلى اليوم



أي دليل من أي نوع كان يؤكد أو يفند مختلف الفرضيات التي صيغت حول هذا المكان. لكن هذا الضريح الذي ينتمي نمط بنائه إلى منطقة شمال أفريقيا، يذكربـ " القبور الأفريقية المؤلفة من أحجار تحفظ قبراً في وسطه صندوق حجري جنائزي لا يتجاوز حجمه حجم التابوت يسمى "باسينا"." وتوجد في الجزائر صروح أخرى صممت على نمط مشابه مثل "مدراسن" قرب باتنة، او الضريح الذي اكتشف قرب "سيق" (تلمسان)، العاصمة الماسيلية للملك سيفاكس.

إن موقع هذا الضريح على بعد 1 كم من الشاطئ، على ارتفاع 290 متراً عن مستوى البحر، وكونه يشكل جزءاً من سلسلة تلال موازية للبحر، يجعل بالإمكان رؤيته من على بعد عدة كيلومترات، كما يجعل الافتراض ممكناً بأن مالكه كان عاهلاً قوياً حكم إيول- قيصرية في النصف الأول من القرن الأول ق.م.

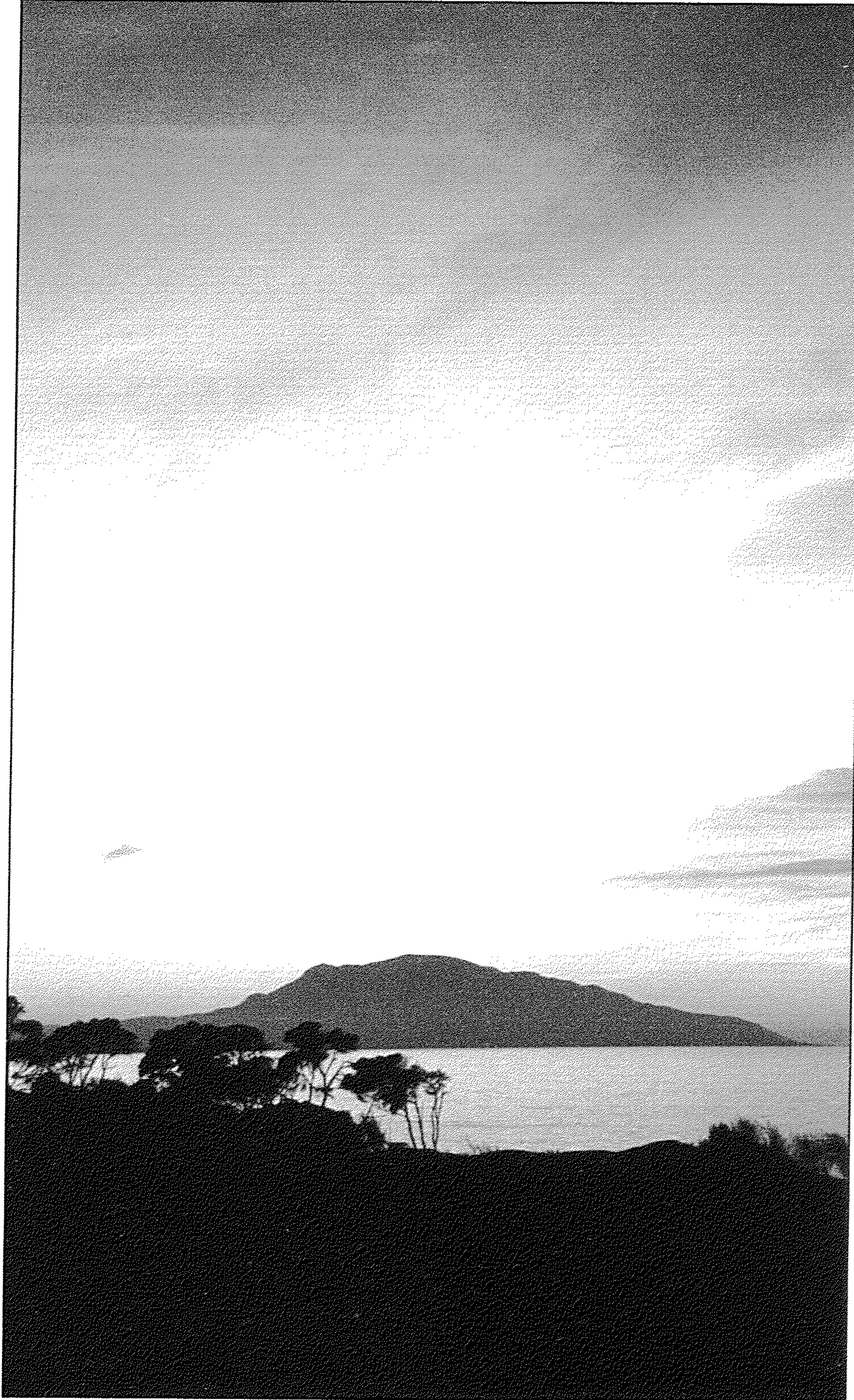
والمعطيات الأثرية تقصي جوبا الثاني وزوجته كليوباترا- سيليني، مما يسمح لنا بالتفكير بالملك الموريتاني بوخوس القديم أو وريثه بوخوس الثاني.

وخلاصة القول

مهما ابتعدنا في أعماق التاريخ نجد أن تيبازة الحضارات قد عرفت تأثيرات أتت من الشرق (الفينيقيون والبيزنطيون...)، ومن شمال البحر الأبيض المتوسط (الرومان، والوندال، والأوروبيون). وقد كانت هذه التأثيرات شواهد على لقاءات ومبادلات وسيطرة وثورات ومقاومة بالنسبة لإحداها. وعلى انفتاح وتبني بالنسبة للأخرى. هي تمثل لأهل تيبازة اليوم أحداثاً من الماضي أصبحت غريبة عنهم، لكنها تشكل بالتأكيد تراثاً موروثاً يعتبر جزءاً من ثقافة جزائر الحاضر.



إن تيبازة، هذه البرهة من تاريخ الجزائر (من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السادس بعد الميلاد) - التي تعود إلى الفترات الليبية-البونية، والنوميدية -الرومانية، والمسيحية - هي رداء فاخر لمدينة شيدت على أرض قوم أغلبهم من الريفيين.



وإن لم يبق منها سوى أطلال ومواقع مهجورة، فذلك راجع، ربما، إلى أن جزائريي القرون الماضية وجزائريي اليوم لم يعرفوا بعد، أو بالأحرى، لم يتعرفوا على سر وجودهم.

وتعتبر هذه التركات الموروثة عن الماضي بالنسبة لنا مصدر إلهام والتزام في البحث عن القيم العالمية وتطويرها.

والمفروض أن يعمل هذا التراث وهذا المتحف على النظر بعين نسبية إلى ثقافتنا. وكما قال بول فاليري: «نحن الحضارات، نعرف أننا إلى فناء.». والإنسانية، بما فيها الجزائر، ليست بما كانت ولكن بما تريد أن تكون. بالتراث نثري تاريخنا ونرجح حاضرنا ونتحرر لبناء مستقبلنا.

إن فهم أنفسنا من خلال ثقافتنا اليوم وثقافاتنا بالأمس، يسائلنا عن المعنى الذي نعطيه للإنسان، والإنسانية، والتاريخ والمصير.

"في تيبازة، أن أرى يعني أن أؤمن."

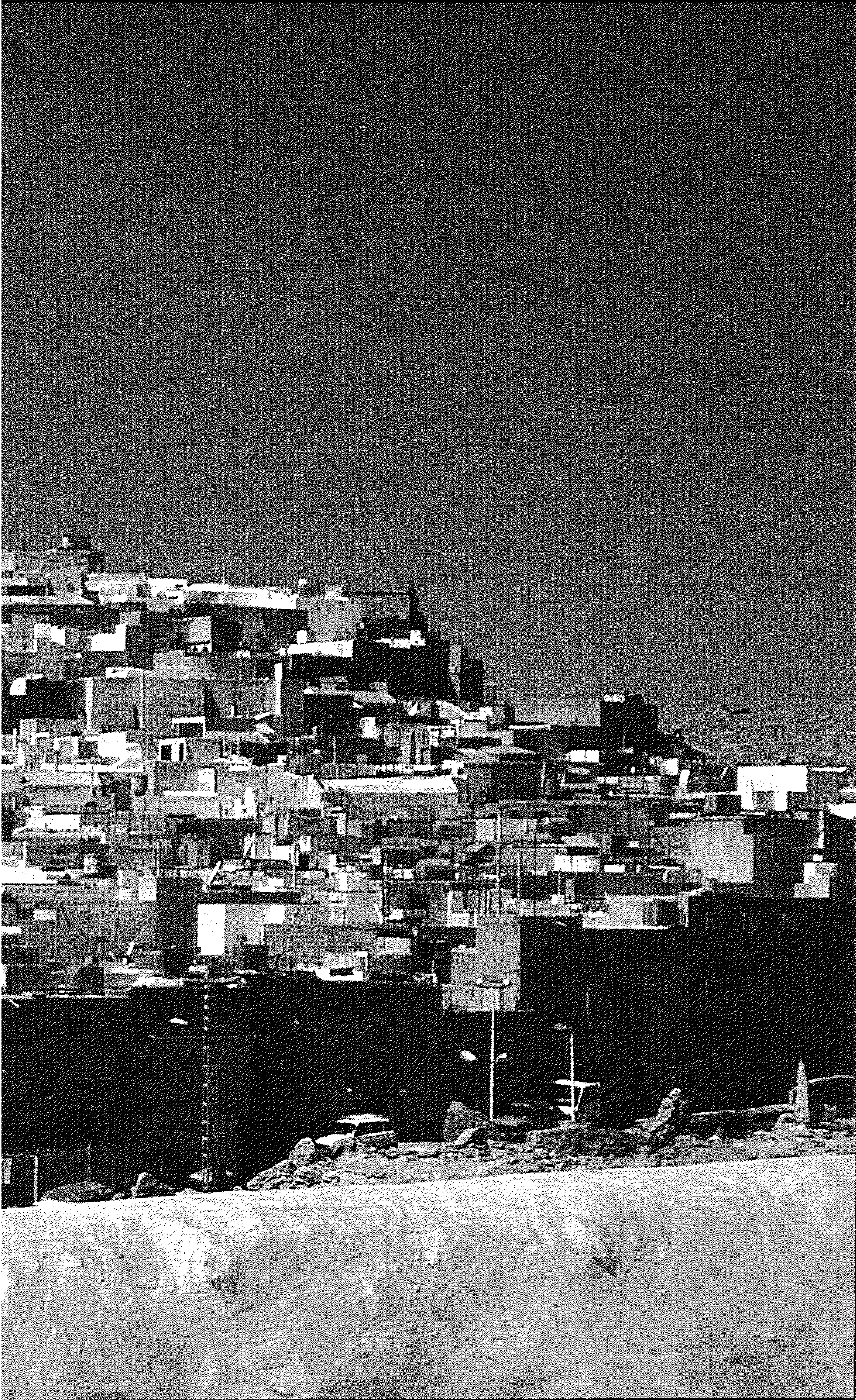
ألبير كامو



وادي مزاب

العمرانية

سعيد دحماني



ما فتئ شمال الصحراء يشكل واحداً من أهم التجمعات البشرية للزناتيين، والمكان الذي يلوذ به الهاربون من الخطر في القرون الوسطى (تمرّد الخوارج بقيادة "الرجل ذي الحمار"، وتمرد بني عبد الوعد...). والمنطقة المثيرة للاهتمام بشكل خاص، تقع في مكان يشبه ممراً متعرجاً إلى حد ما، بين الحدود الغربية للمكثب الشرقي والحدود الشرقية للمكثب الغربي. وهو ممر يسمح لطريقي الشمال-جنوب بربط البحر الأبيض المتوسط بجنوب الصحراء انطلاقاً من الجزائر العاصمة أو قسنطينة.

التضاريس العامة

يحتل واد مزاب المحور المركزي الرابط بين الجزائر العاصمة والجنوب. و يقع على خط العرض 33 و3115 شمالاً، وخط الطول 2 30' و 5 شرقاً، ويغطي مساحة 275000 هكتاراً. يقدر متوسط ارتفاعه عن سطح البحر بـ 500 متراً، بينما يبلغ هذا الارتفاع في غرداية 526 متراً.

يحتل وادي مزاب هضبة ترجع إلى العصر الثاني تحتّت بفعل التآكل الذي سببته الأنهار في الفترة الرطبة لبداية العصر الرابع. وتحابك هذا التحات أعطاها شكلاً أشبه بالشبكة وبه سميت المنطقة. يتألف الشمال من أكمات بارزة، في حين يطغى على الجنوب المساحات المنبسطة، حيث تحتل الوديان المنخفضة لواد مزاب، وواد متليلي، وواد سبسب المساحة وتجري من جهة الغرب إلى جهة الشرق. والتربة فيها كلسية.

المناخ صحراوي، والأمطار القليلة التي تتساقط تستفيد منها أطراف الهضبة الشرقية والغربية، وهي أماكن صخرية ونفوذة لا تحتوي على فجوات لتخزين المياه. ويبلغ المعدل السنوي لسقوط الأمطار50 مم تهطل على شكل عواصف ربيعية أو خريفية. لهذا تبقى هذه الوديان جافة على طول العام تقريباً، وأحياناً لسنوات متتالية، الأمر الذي يجعل من المتعذر أن تزود بالماء الكافي للزراعة، كما هو الحال في بلاد الرافدين على سبيل المثال. أما درجات الحرارة فهي تتراوح بين 42 درجة مئوية صيفاً بذروة تبلغ 50 درجة، و4 درجات مئوية شتاءً. والنباتات من النوع التلقائي نادرة جداً.



ونراها على ضفاف الوديان، مخضرة بعد كل سقوط للمطر، مثل: الرتم، والعناب وأحياناً الفستق البري.

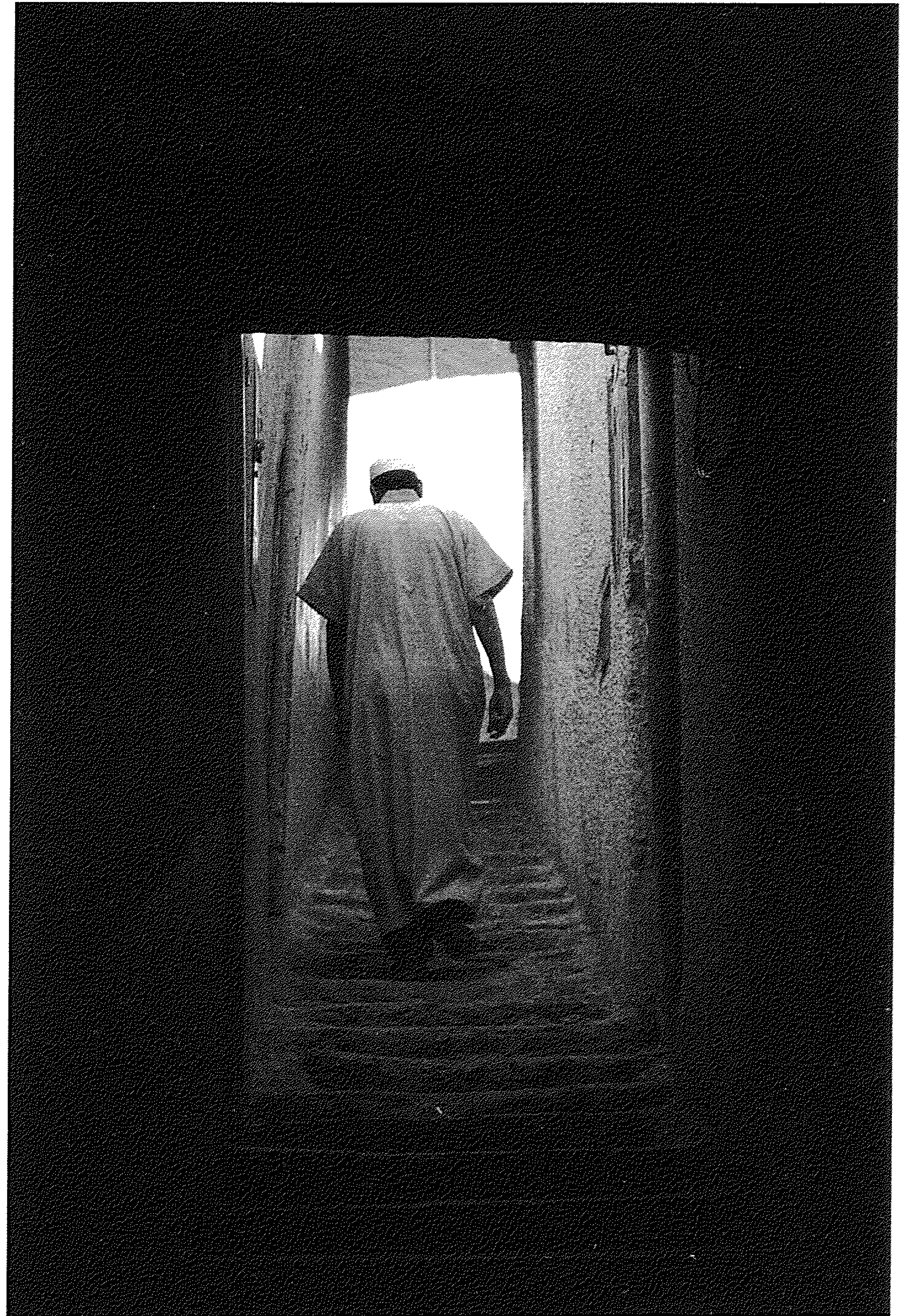
نبذة تاريخية

إنها صحراء في قلب صحراء، حكمت عليها الطبيعة بأن لا يطأها من البشر إلاّ ما ندر، وأن لا يجوبها سوى بدو رحل انكفأوا إليها هرباً أو بحثاً عن الكلأ طوال قرون. ثم تمكن الإنسان من ترويضها. و أسس من نجا من قبائل الزناتة أول سلطة مستقلة للجزائر في القرون الوسطى، التي ورثت مملكة "جدّار" العتيقة. وآل بهم المطاف وهم يبحثون عن الأمن والطمأنينة إلى اكتشاف واد المزاب. وبالفعل، استقر شتات الزناتيين المتحمسين للمذهب الإباضي بقيادة يعقوب بن أفلح من سلالة الرستميين، استقروا في منطقة ورقلة بداية وأسسوا فيها قصر"إيسدراتن" في مستهل القرن العاشر، وهو قصر يقع على المحور الثاني ما بين المتوسط والصحراء مروراً بقسنطينة.

استقروا في ذلك المكان مع زناتيين آخرين، وفيه أيضاً أعادوا خلق الحياة الحضرية التي افتقدوها منذ خروجهم من تيهرت، متأقلمين مع الظروف الخاصة للصحراء، ومتخذين لنمط قصر الريغيين أسلوباً في البناء والتزود بالماء ومثال توقرت من أبرز أمثلته.

انتقل إباضيو إيسدراتن المتأقلمين إلى واد مزاب في بداية القرن الحادي عشر، ونقلوا إليه تكنولوجيتهم القصورية، مع إجراء تحسينات عليها، وذلك لكي يؤسسوا القصور الخمسة للمزاب ألا وهي الخماسية. وهناك عاش أحفاد اللمّاية(الزناتيون)، وهي قبائل اعتمد عليها مؤسسو إمامة تيهرت، عاشوا في عزلة تامة لحماية مجتمعهم المحلي، وللمحافظة على مؤسساتهم الروحية والمادية والسياسية. وأرسوا بذلك دعائم الإباضية بكل أبعادها، مخلدين المغامرة الرستمية في هذا الوادي- الكوكب المنفصل عن العالم المحيط به.

والإباضية هي تيار معتدل من الخوارج، اصطدم بالعداء الشديد ضده من قبل التيارات التي تمثل حركات الفكر الديني الإسلامية، وخاصة منها أهل السنة. فتحتم عليهم البقاء إيديولوجياً. ولهذا الغرض، قام شتات بنو واسن بعد أن اختاروا هذا الموقع الذي تحميه الطبيعة المناهضة لأي استيطان بشري،



"هذا الاسم[مزاب] يطلق على السكان (...) الذين أنشأوا هذه القصور (...) في أرض حرارتها محرقة..."

(ابن خلدون)

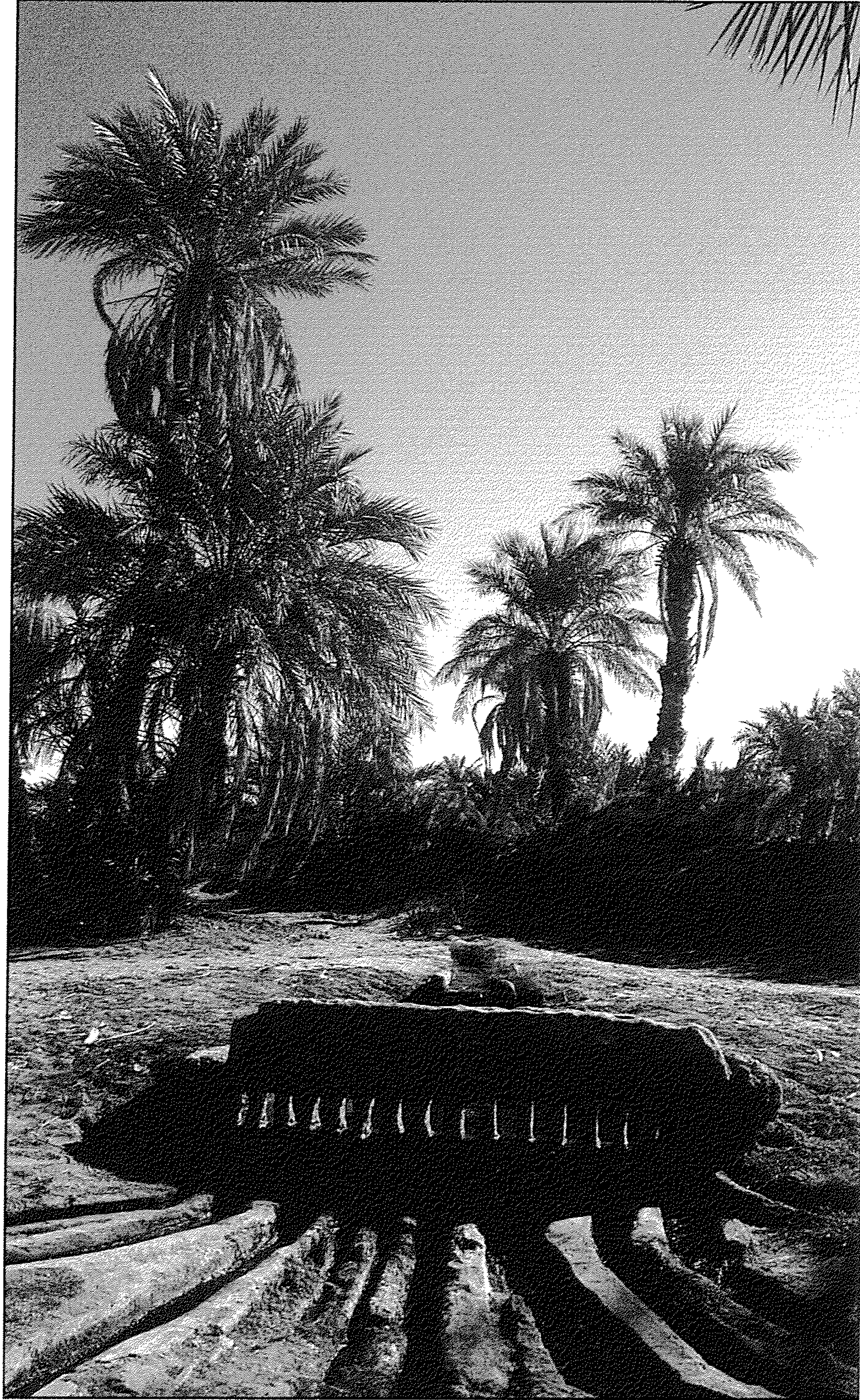
قاموا بإنشاء وتهيئة "قصور المزاب على بعد خمسة أشواط من جبل تيتاري الواقع في الجنوب ما وراء الرمال؛ وعلى بعد ثلاثة أشواط من قصور بني ريغا في الغرب. مزاب هو اسم فصيل من فصائل بني بادين (...) أنشأ قصوره في أرض لا يسكنها أحد على قمة تلال ومرتفعات منيعة (...) ومع أن هذه القصور قد اشتهرت بكونها حكراً على المزابيين، إلا أنها آهلة اليوم [القرن الرابع عشر] بفصائل من بني بعدين، ومنهم بنو عبد الوعد، وبنو تجين وبنو برزال الذين انضمت إليهم فصائل أخرى من الزناتيين." (ابن خلدون، "تاريخ البربر").

وكان عليهم، من أجل بقاء المجموعة، تنظيم مسكن محمي، وضمان تجميع المياه الشحيحة، واستصلاح أراض ليقتاتوا من خيرها.

شيدت القصور، أو المدن المحصّنة، على خواصر المرتفعات المحددة لسفح الواد، محاطة بأسوار تحصر المجال المسكون. وبقدر ما يسمح به الموقع، كان المركز يتواجد في أعلى نقطة منه حيث يبنى عادة مسجد فريد. والمنازل والأبنية الأخرى تترتب على شكل صفوف متراصة لأغراض دفاعية أكيدة. والمنزل بحد ذاته مصمم حسب معايير هندسية دفاعية. بحيث يستخدم الجدار الخارجي كسور واق، تنفتح منه نحو الخارج نوافذ ضيقة جداً يمكن استعمالها ككوّات رمي.

أما الغرض الثاني فيتمثّل في التزود بالماء الذي يشكل المصدر الأساسي لحياة الأشخاص وازدهار الزراعة.

وبالفعل، إنها " تربة صخرية حصراً، بأحواض وديان رملية لا تصلح أصلاً للزراعة، وتتطلب استصلاحها جهوداً جبارة أزلية التكرار. يتميز المناخ بحرارة محرقة في الصيف وتفاوت كبير في درجات الحرارة وبهواء جاف إلى حد كبير. حياة كفاف معلقة على أمطار طوفانية تحدد كل سنتين أو ثلاثة فيضان الواد، وعلى عمل دون كلل أو ملل لافتكاك الماء من الأرض. والسنوات السعيدة هي تلك التي يقال فيها:" الواد حمل" أي فاض. ووجود النخيل يفترض عملاً إبداعياً مستمراً. تسحب الحمير والجمال طوال النهار، على صوت صلصلة السلاسل، القرب الجلدية التي تدفق في أحواض الري المياه المفتكة من قاع الآبار. والتكيف مع هذا الوسط الطبيعي يتطلب تماسكاً قوياً جداً، ضرورياً من بين أشياء أخرى لضمان التنظيم الرائع والعقلاني لنظام الري وتوزيع



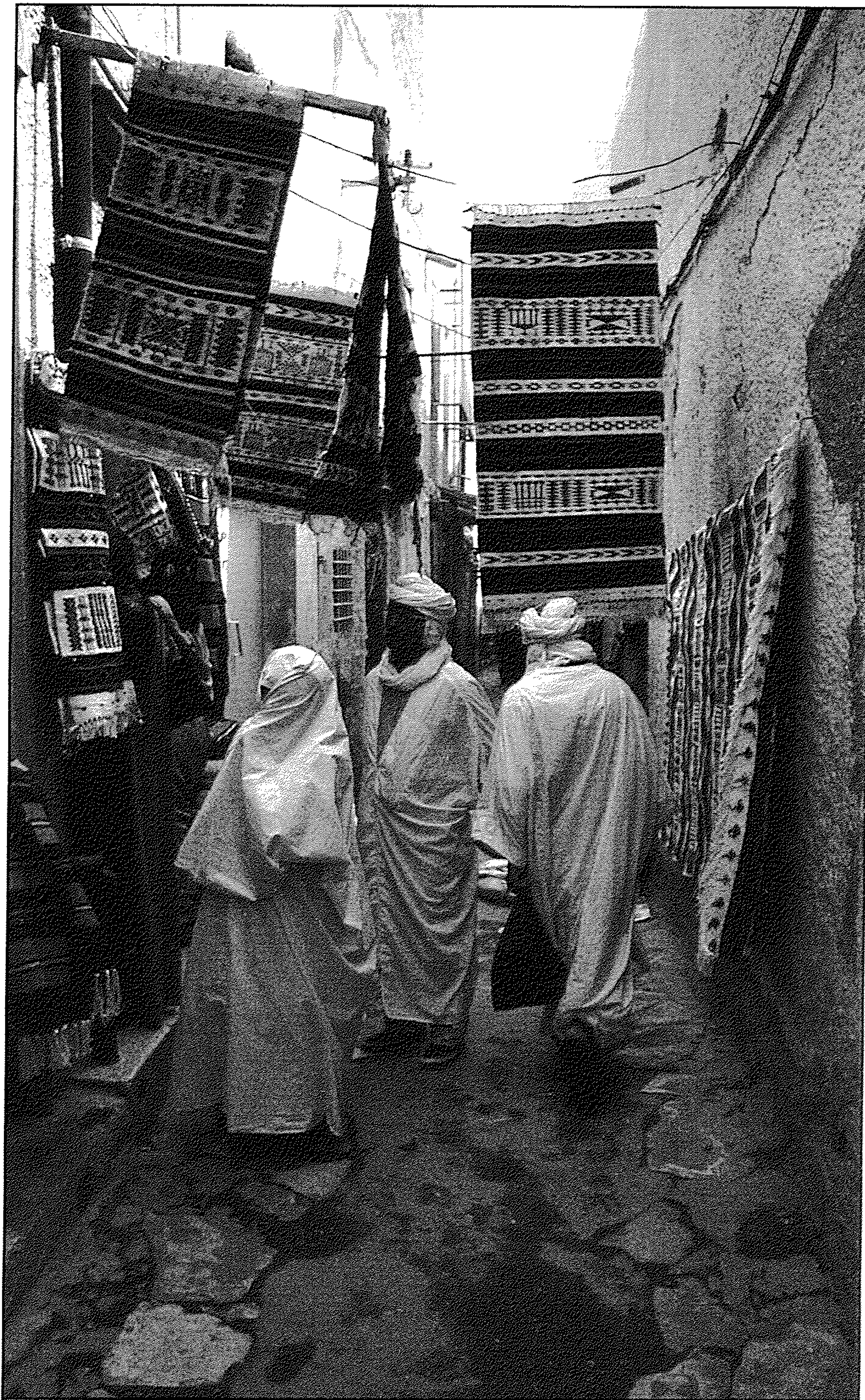
الماء مصدر الحياة

المياه: أحيط الجرف بشبكة من القنوات لتجميع الماء تتلقى المياه الجارية وتوصلها إلى الخزانات؛ ونفس الشيء بالنسبة للسدود التي أنشئت لأغراض استغلال مياه الفيضان." (بيير بورديو، "سوسيولوجية الجزائر").

قامت الزراعة على الواحات، فأحدثت بساتين من النخيل تغطي بمحاذاتها كروم العنب، وأشجار المشمش والخوخ والرمان. ولكل قصر واحة من النخيل بنيت قربها بيوت محصنة أيضاً، تستعمل كمسكن صيفي للتخفيف من حدة الحرارة المرتفعة، وأصبحت فيما بعد مدينة صيفية. إنه مركز حضري وواحة في آن، وقيمته كمجموعة من المؤسسات البشرية لا تكمن فقط في الجهد المبذول لإنجازها وفي مستوى الإنتاج والرفاهية التي حققتها رغم الظروف الطبيعية الصعبة، بل تكمن هذه القيمة في درجة الكمال المطلق الذي تتسم به. فهي تمثل أفضل ما يمكن أن نتخيله ونحققه من زراعة الواحات." (جان برون).

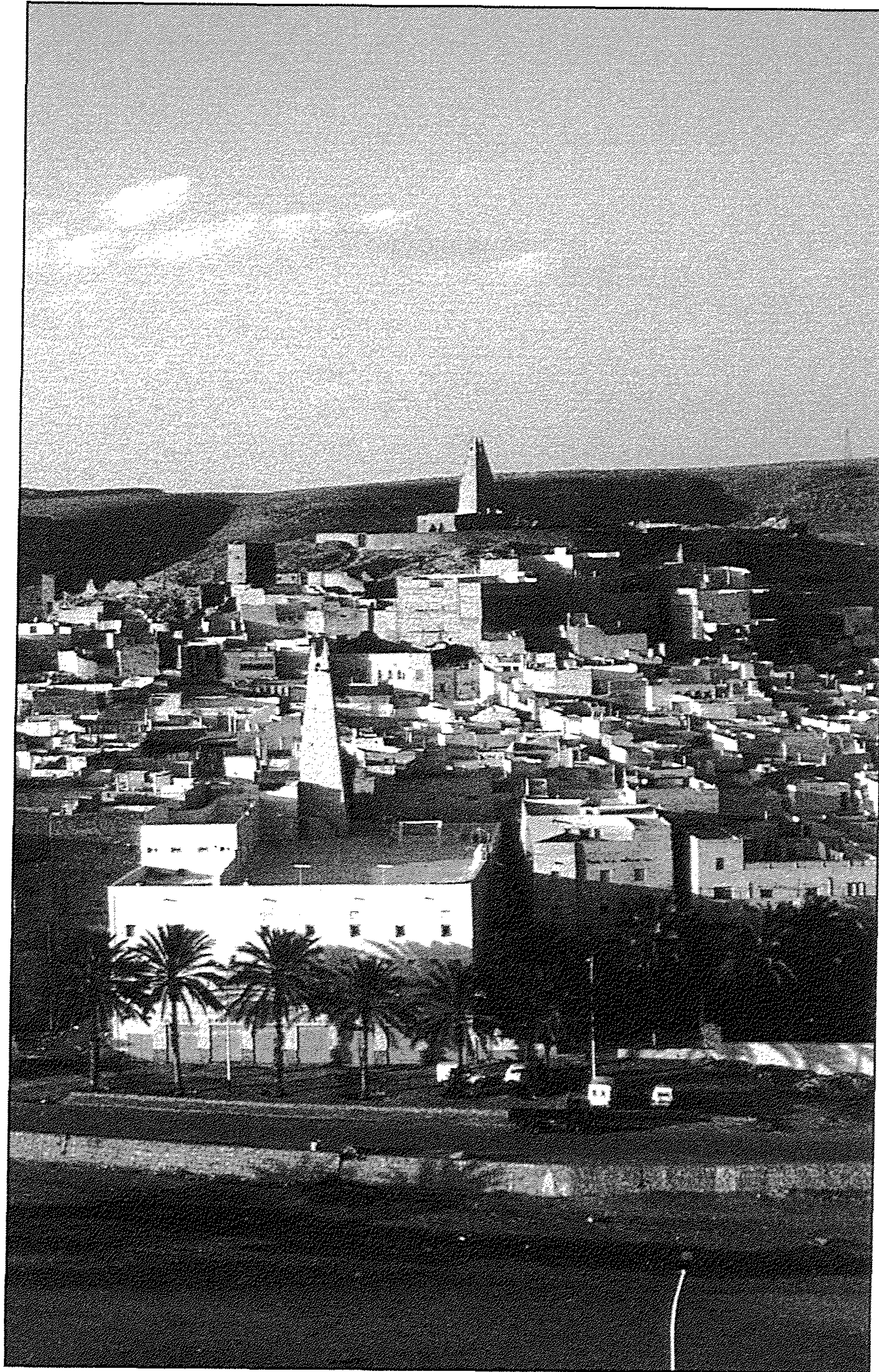
يتم الحصول على مكمّل إنتاج النخيل بواسطة التبادل. نظراً لكون منطقة المزاب قد أضحت " على رأس الخط التجاري حيث يلتقي تجار الجزائر العاصمة و بجاية مع تجار بلاد الزنوج". (ليون الأفريقي، "وصف أفريقيا").

وقد أعيد تنظيم التسيير السياسي والديني. إذ انتقل الإباضيون منذ اندحار السلطة الرستمية في تيهرت (في حدود 910) من الإمامة الظاهرة إلى ولاية الكتمان. فأسس المجتمع الإباضي في بداية القرن الحادي عشر(409 هـ/ 1019 م) من منظور ولاية الكتمان نظاماً لتسيير شؤونه في المنطقة الجديدة التي هيأها في واد مزاب. ويسهر هذا النظام على الاستمرار في اتباع الشرائع الإباضية، والتطبيق الصارم للقواعد الأخلاقية، وضمان حماية الوجود المادي للمجتمع وعلاقاته مع المحيط. ويعتبرهذا الجانب الإيديولوجي والأخلاقي من الصلاحيات الحصرية لحلقة العزّابة. وهكذا فرض نظام الخماسية نفسه في واد مزاب.



شارع تجاري

الخماسيــــة

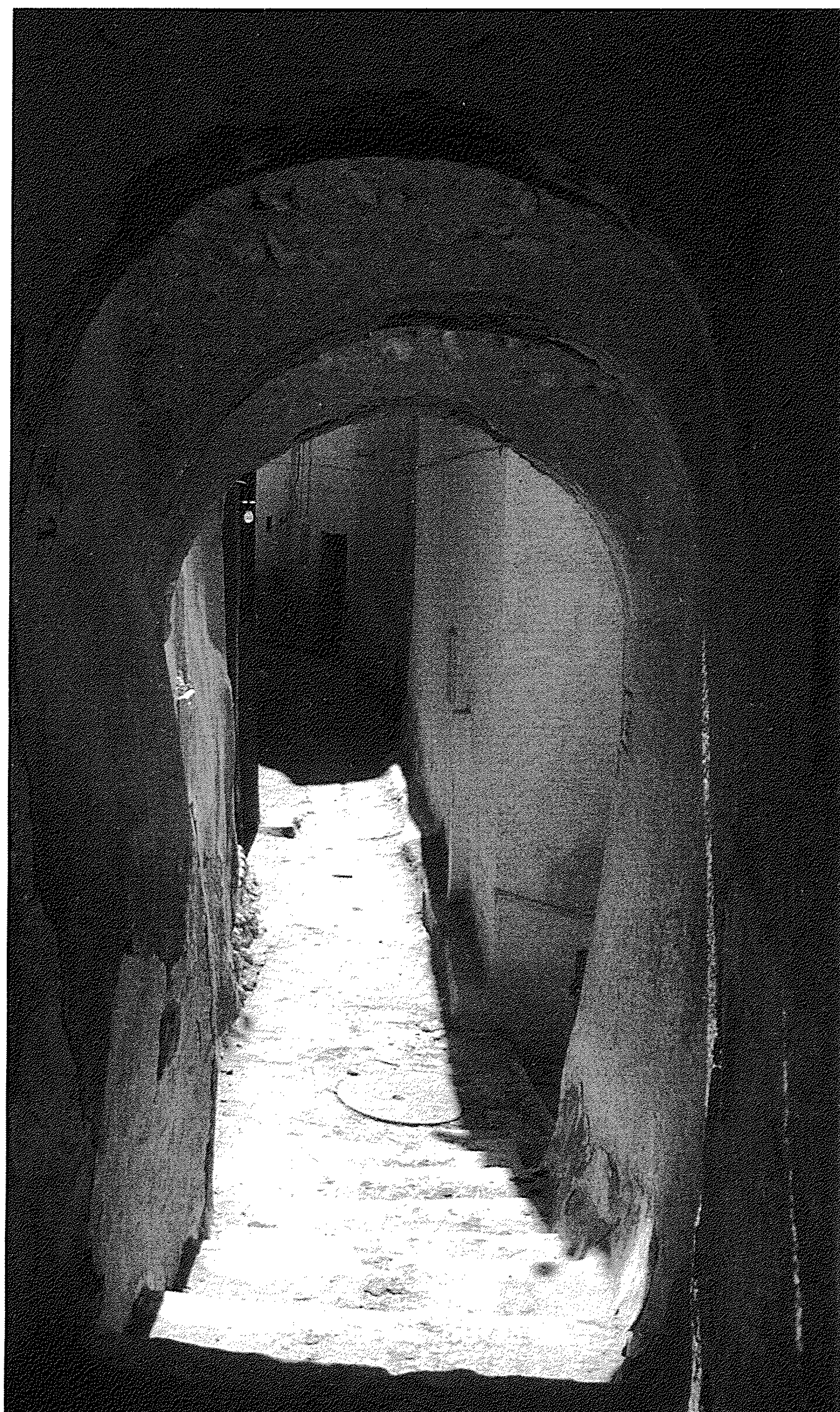


تتألف من القصور الخمسة الأولى وهي: العطاف، وبونورة، وغرداية، ومليكة، وبني يزغن.

العطاف هي أقدم تلك القصور ويرجع تاريخها إلى 1012 م. أسسها خليفة بن عبقون. تبعد عن غرداية وبني يزغن بـ4 كم. تقع في الطرف الأقصى للخماسية وتنفصل عنها من جهة سافلة الواد في الشرق. وكانت نواتها الأصلية تغطي مساحة 15 هكتاراً. لها شكل مخروطي يطل أحد طرفيه على جرف، والآخر يهبط إلى غاية ضفة واد مزاب. وتتميز بمئذنتيها القديمتين. وقد أنقص بعد موقعها عن المراكز الأخرى من أهميتها، خاصة بعدما بدأت تنافسها بني يزغن وغرداية. وتتناثر بساتين نخيلها على طول واد مزاب.

يرجع تاريخ بونورة أيضاً إلى القرن الحادي عشر، إذ أسست في حدود 1046م. يتألف هذا القصر من جزأين يفصل بينهما سور، ولكل منهما مسجده الخاص. خرب الجزء العلوي التابع لبني مثار في حدود القرن الثامن عشر، ثم أعيد بناؤه؛ ويتبع الجزء السفلي لأولاد عبد الله. وكانت المساحة الأصلية للقصر تغطي 15 هكتاراً. وهو يبعد عن غرداية بـ 3 كم. ولا يحتوي على واحات نخيل هامة.

أسس غرداية في حدود العام 1048م، كل من الشيوخ سليمان بن يحيى، وعيسى بن علوان، وأبو جمعة، وذلك على الضفة اليمنى لواد مزاب، في عالية قصور الخماسية الأربعة الأخرى. وهي تقع على خواصر مخروط ظاهر فوق السهل، وكانت تغطي أساساً مساحة تقدر بـ60 هكتاراً تقريباً. يشكل الثلث العلوي منها منطقة مخصصة للأبنية ذات الطابع الديني. كل الطرق فيها تؤدي إلى المسجد الذي يشرف على غرداية برمتها، ومئذنته على شكل جذع هرم ممشوق. تلقن فيه دروس العلوم الدينية، بالإضافة إلى كونه مقر مجلس العزّابة. أما الثلثين السفليين للقصر في قاعدة المخروط، فيشملان الأحياء السكنية والأبنية العمومية، وتأتي على شكل طبقات مدرجة. وقد فرضت غرداية نفسها كمركز اقتصادي



رئيسي للواد، مما ساعدها على الارتقاء إلى مصاف العاصمة الإدارية.

وبساتين نخيلها التي تبعد بـ 2 كم عن عالية الواد تعتبر بحق مدينة صيفية ومن أكثر البساتين وفرة.

أسست مليكة على صخرة بيضاوية ممهدة في سهل تيزرت، ومن المحتمل أن تكون من بين أول القصور التي أنشئت.

تقع في وسط مثلث تتألف قمم أضلاعه من بونورة وغرداية وبني يزغن، وتشرف على وادي واد مزاب. في البداية كان دور هذا المركز عسكرياً؛ وربّما كانت مليكة مرتبطة ببني يزغن، لكن أواصرها مع متليلي الواقعة خارج الوادي كانت أقوى. وبساتين نخيلها محدودة جداً.

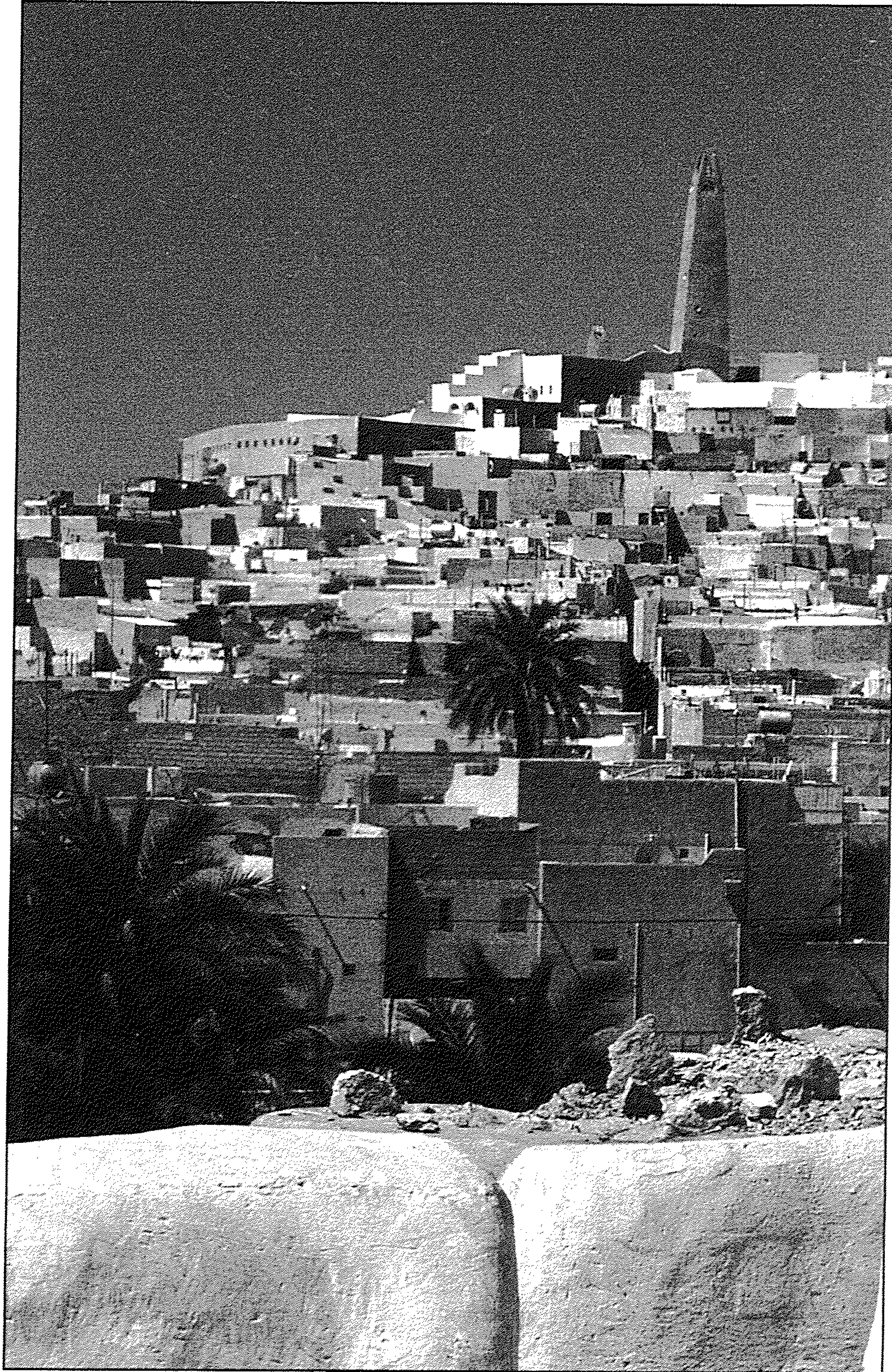
أسست بني يزغن في حدود العام 1347م عند ملتقى رافدي واد نتيسة وواد مزاب، على قمة تلة يحيط بها سهل تيزيرت. كانت قصراً متّواضعاً في البداية، لكنه بدأ يكتسب أهمية اعتباراً من القرن السادس عشر مع وصول مهاجرين من غرداية. وقد تم تفكيك الجزء العلوي لبني يزغن المسمى تافيلاليت لصالح الأجزاء الأخرى. وهي محاطة بأسوار دفاعية لا تزال قائمة على حالها الأول، و كانت تحمي مساحة الثلاثين هكتاراً التي كانت تغطيها آنذاك، وحين تركت الأفضلية الاقتصادية لغرداية، أصبحت المركز الفكري، والمدينة الشريفة للفقه الإباضي. واكتسبت بذلك المرتبة الثانية من حيث الأهمية في الخماسية.

تمتد بساتين نخيلها على طول واد نتسية لأكثر من 3 كم.

إضافة إلى الخماسية التي شيدت بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر، أسس ابتداء من القرن السابع عشر مركزان هامان بعيدان عن القصور الأصلية وهما: القرارة، وبرّيان.

أسست القرارة في العام 1631، على بعد 100 كم شرق غرداية، على طريق القوافل التي تجوب الصحراء شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً. مما يفسر أهمية موقعها المركزي كسوق وكمان للالتقاء. وقد غطت القرارة حسبما كانت عليه مساحة40 هكتاراً، وجزء معتبر من مركزها الأصلي بقي قائماً إلى غاية القرن العشرين.

أما بريّان فقد تأسست في حدود العام 1690م على واد بير، وهو رافد من واد انسا. تقع على بعد 45 كم شمال غرداية، وقد اختفت كل أسوارها الدفاعية. ولها واحة كبيرة يقدر نخيلها بعشرات الآلاف من الأشجار.



عناصر العمران المزابي

إن وادي مزاب يعبر، من خلال العمل الدؤوب للأجيال الإباضية الأولى، عن أحد تعريفات الثقافة، ألا وهو تحويل وإخضاع الفضاء الطبيعي ومكوناته بواسطة طاقة الكائن البشري.

فما هو حال وادي مزاب بعد عشرة قرون من الشروع في عملية التثاقف؟

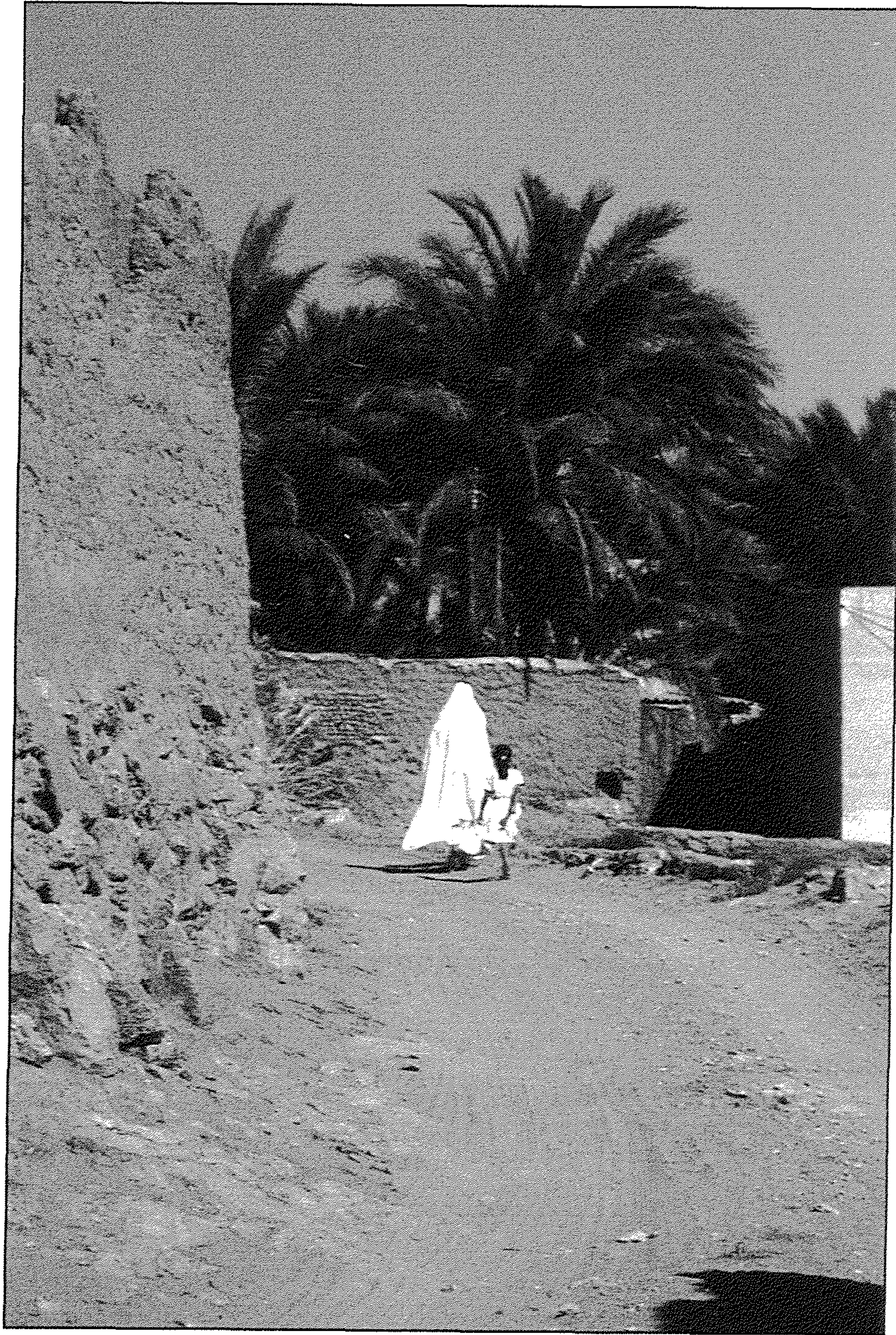
امتد المزاب التاريخي إلى ما وراء الأسوار ليلتصق به المزاب الحديث، حيث يذكر أسلوب العمارة وتقسيم الشوارع بتصميم يعوزه التكيف غالباً، يذكر بطراز العمران في الشمال. وقد نتج عن هذا "التحديث" غير الموفق اتخاذ إجراءات حمائية في السبعينات. يتألف المخطط المشترك العام في القصور التاريخية من المحيط الذي تجسده الأسوار الدفاعية والحامية. وداخل هذا الفضاء كما تم تحديده، يشيد في المركز وعلى أعلى نقطة تسمح بها التضاريس، المسجد وملحقاته. يتميز المسجد الواقع داخل الأسوار بمئذنته المربعة الأضلاع والتي تنتصب على شكل هرم مقصوم الرأس. إنها " تشرئبّ كالظبي نحو السماء الحرة وتوتر المطلق. والعقيرة الرتيبة والمغفلة التي ترتفع خمس مرات في اليوم لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، تضع مدينة الرجال أيضاً في فلك البعد الجديد للتسامي" (مولود معمري). ولا تحتوي أماكن العبادة الأخرى على مآذن. والتوزيع العام للمسجد المزابي يتبع المخطط العام لأي مسجد إسلامي. " وبساطة مساجد المزاب تتمثل في التلاعب الرائع والمضبوط للأشكال في وضح النور، أشكال رقيقة ولطيفة، وأشكال أثبتت فنيتها من الرضى الذي نكتشفه ونحن نراها ماثلة أمام أنظارنا. أشكال تخلق أحجاماً بديعة التناسق، أحجام ظل رطيب وأرزق في القاعات الواطئة، وأحجام هواء برتقالي في الأروقة العريضة والقاعات العليا." (م. روش، "المزاب").

يشرف المسجد على الفضاء الخاص للأبنية السكنية. وبعيداً عن حرم المسجد صوب أسفل المدينة، هيئ فضاء للتبادلات الاجتماعية والتجارية. وهو ما يميز مخطط القصر الإباضي عن المخطط العمراني السني حيث يتجاور المسجد مع الحي التجاري.



بمجرد الانتهاء من إقامة العناصر المكونة، واستكمالها بشق طرق السير، يتم حينئذ الشروع في إنجاز المنطقة السكنية اللافتة للاهتمام بشكل خاص. للبيت الواقع داخل الأسوار شكل مربع أو مستطيل في الغالب يعلوه عموماً طابق واحد. كل الجدران الخارجية عمياء. وإن فتحت فيها نوافذ فإنها ضيقة. باب المدخل ضخم يرتكز عليه قوس حامل، وفيه مدخل متعرض صمم لأغراض دفاعية في حالة التعرض للاعتداء، ولغض أبصار الغرباء. يؤدي إلى بهو تنفتح عليه غرف طويلة وضيقة مخصصة للمرافق (مطبخ، بيت المؤن والأدوات، وورشة للأشغال اليدوية). للبهو سقف به فتحة طول ضلعها متران للتهوية والإنارة. وتوجد على أحد جانبي الطابق الأول غرف تتلقى النور من الداخل، وبالتحديد من رواق معمد على شكل مقابض القفف، أو على شكل قوس كامل. و تشكل الجهة المقابلة التي تعلوها جدران سطحاً. وقد هيئ في الطابق الأول بيت للخلاء. يحتوي البعض من هذه المساكن الحضرية على أقبية حفرت في الصخر، وهيئت على شكل غرف باطنية مهواة لاستعمالها كغرف معيشة في الصيف. وللبيت الواقع خلف الأسوار في الواحات التوزيع نفسه، وتستعمل اليوم كمنازل للصيف، لها حديقة بها بستان نخيل مفتوح على الخارج، وحديقة أخرى يحدها سور عال ومصممة على شكل حديقة خاصة للترفيه.

وبغض النظر عن تصميم القصر كملاذ دفاعي متمركز دائرياً: دائرة تمثل الأسوار المحصنة وسور المسجد، فإن البيت هو الدائرة " حيث الفرد كما كتب مولود معمري ، يحتاج إلى أن ينطوي على ذاته، وكأنه ينغمس فيها. ولهذا هيأ هذه المنازل المنزوية على نفسها يحيط بها جدار أعمى يعزلها عن صخب ما وراء الأسوار، بمقتضياته وأعرافه. حتى بعد تجاوز الباب، يقف الدهليز كآخر حاجز للمدخل المتعرج. إن طول العيش خارجا قد يفقدنا الذكرى، وما يلبث أن يفقدنا كذلك الانشغال بذواتنا العميقة. والجدران السميكة تحصن الاستغراق اليومي في التأمل في هذه الحيوات التي كانت لتذوب، دون ذلك، في لغط السوق العقيم.وهكذا تؤمن الحركة النواسية انسجام الأفراد العميق، الذين ينتقلون من الانزواء في المنازل حيث الرجوع إلى كنه الذات، إلى المواجهة الخصبة للساحة العمومية حيث يتثارى الأنام باستئناسهم.” (م. روش، “المزاب”).



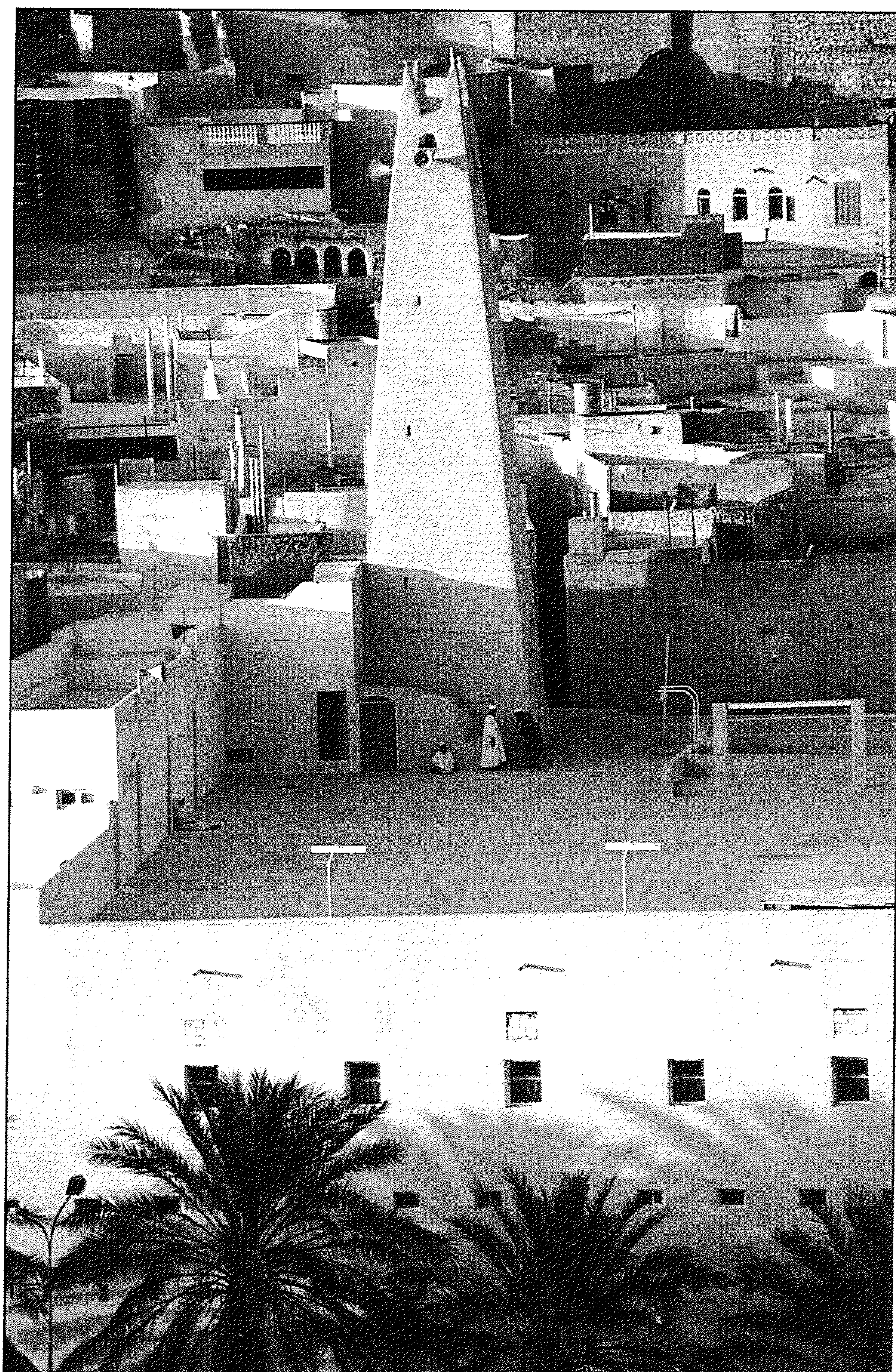
" المزاب... كان وسيبقى مثالاً للقسطاس، ولطائف الأفكار، وسلطان العقل على الأحاسيس."

(م. روش، "المزاب")

إن السوق بمثابة المحل الذي تبرم فيه الصفقات الدنيوية، وتقع بعيداً عن المسجد. وهي على شكل مربع محفوف بدكانين تطل على رواق. وتحتوي ساحة السوق على مصلّى فوق مصطبة في الهواء الطلق. وفي الوقت الذي كانت فيه الجماعة لا تزال قائمة، كانت هناك أحجار موزعة على شكل نصف دائرة تتخذ كمقر لاجتماعاتها. وتدعى"الحويطة". وفي الوقت الحاضر، جعل سوق المواشي بعيداً. وساحة سوق غرداية تمثل النموذج التقليدي للسوق المزابية.

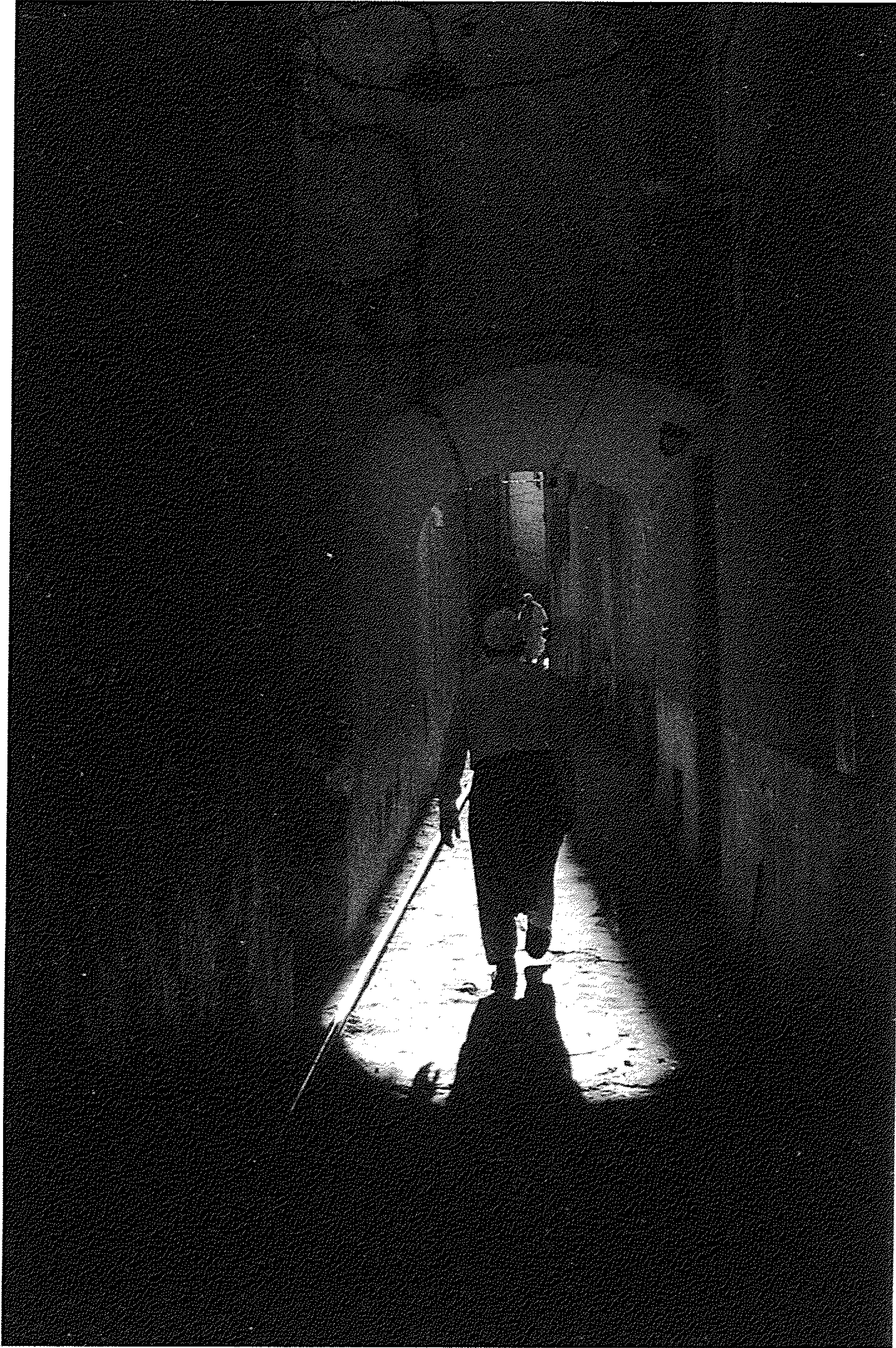
إن الازدهار الزراعي الذي قام على وفرة مياه الفرات، كان أحد أسباب الثورة العمرانية الأولى إبّان تأسيس مدينة وركة "أوروك"،في جنوب بلاد الرافدين، قبل 4000 سنة ق.م. لكن الأمر كما نراه بالنسبة لعمران وادي المزاب لا يشبه ما حدث في وركة، وهنا يكمن التحدي!

إن هذا العمران الأصيل الذي لا يزال جوهره قائماً وبنيته تقاوم الأيام لم يعد معزولاً. فالتقدم والتقنيات ومواد البناء الحديثة قد نخرت هذا العالم وتغلغلت مزعزعة هندسة "الشبكة" المعمارية. كتب مولود معمري قائلاً:" إني أرى بأن كل هذا المهد، خمس قرى يحتضنها وادي المزاب، الذي لم يكن معزولاً إلا في زمن القوافل، وهذه القرى لا يمكنها أن تقاوم ثقل وإغراءات ومطالب حضارة ابتلعت المعمورة. وأهل المزاب أنفسهم يتوقون إلى تغيير كل ذلك، وسيغيرونه لا محالة. ولا يسعنا إلاّ أن نأمل في أن يبقوا أوفياء لما خبروه على الرغم من كل التغيرات السطحية. فلقد أنجزوا ذات مرة وطوال قرون الصيغة المثلى التي ما فتئ الناس منذ آلاف السنين ينشدونها باذلين النفس والنفيس، وبمثابرة لا تعرف الكلل: صيغة امرئ متناغم مع الأشياء ومع ذاته، ومنسجم مع اللّه. ولم يكن ذلك إلاّ بمعجزة صنعتها يداه. فليكن! هل من المستهجن توقع المعجزة ثانية؟" (م. روش، " المزاب").



عنــــاصر ثقافة المزاب

يحتضن هذا الإطار المادي ولا يزال يأوي ثقافة المزاب التي تقوم إديولوجياً على الإسلام الإباضي وعرقياً على العنصر البربري السائد الذي ينطق بلغة الضاد، دون أن يتخلى عن اللغة الأمازيغية في صيغتها الزنّاتية. وقد كانت "حلقة العزابة" والعزابين ما ضمن استمرارية هذه الثقافة. والحلقة هي التي تحفظ احترام الامتثال الصارم بالشرائع الدينية والأخلاقية والاجتماعية والمادية وفقاً للمذهب الإباضي. تتألف الحلقة التي تأسست منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من زمرة من الأمراء، وعلى رأسهم الشيخ ومساعده بالإضافة إلى العرفاء والمأمورين وعددهم ليس بقليل، ويعتمد الشيخ عليهم جميعاً. وتقع على عاتق هذا المجلس مسؤولية التعليم والتربية. وإلى نهاية القرن التاسع عشر كان من بين صلاحياته الإدارة السياسية للقصر. ومنذ ذلك الحين انتقلت هذه الصلاحيات إلى مؤسسات الجمهورية، إلاّ أن تعليم القرآن والمذهب الإباضي ونشره في المجتمع المزابي والتمسك بالعفاف الطاهر، والتنظيم الاجتماعي لا يزال حكرا على العزابة الذين ينشطون في المسجد ومن المسجد تنطلق أعمالهم. ومن ثمّ، يتمتع شيوخ العزابة بنفوذ عظيم في قصور المزاب. فهم يقفون على وفاء الأهالي وإخلاصهم للشعائر الإباضية، وقد يلجؤون إلى التبرئة في بعض حالات الانحراف. يرتقي هؤلاء الشيوخ والعزابين إلى مصاف الوصاة على الإباضيين جميعاً في المزاب، بما في ذلك المهاجرين منهم، حيث أن الحلقة هي بمثابة الهيئة الدينية والمعنوية العليا. تتألف الحلقة عادة من اثنى عشرة عضواً، وحين تضم أربعة وعشرين يكون اثنا عشرة منهم خلفاء. يتم انتقاء العزابين من بين الأخيار المسنين والأكثر تبحراً في العلم من بين الطلبة ويدعون باللغة الزناتية: "آرّو" وجمعها "إيروان". وفي بني يزغن يتم اختيار هؤلاء بعد امتحان عسير. والشيخ هو العلاّمة الذي يلقن الطلبة. أما العرّيف فهو من بين الطلبة المسنين وأعلمهم يسهر على زملائه، وعرّيف آخر توكل إليه مهمة الوجبات الغذائية العامة.



إن تعليم اللغة العربية وتعليم القرآن للأطفال يقوم بهما معلمون يختارون من بين العزابين. ونجد من بين هؤلاء أيضاً الإمام والمؤذن وخمسة غسّالين للموتى. أما عضو المجلس الثالث عشر فهو شيخ منتخب. وفي الظروف الاستثنائية يشكل هذا الشيخ مع أربعة من العزابين المسنين مجلساً خاصاً. كما توجد أيضاً حلقات نسوية ليس لها سوى امرأة واحدة تؤم النساء في الصلوات. إلاّ أنّ سلطتهنّ محدودة للغاية. ومن الجدير بالملاحظة أن أهل المزاب قد أخضعوا أنفسهم إلى متطلبات العالم المعاصر، حيث أهّلوا أبناءهم لتلقي التعليم الحديث. فإلى جانب قسم العلماء التقليديين في العلوم الدينية، هناك فئة من حاملي العلوم الدقيقة كهواة. وقد تدرّب قبل سنة 1962 رجال قانون ومهندسون وأطباء في الجامعات الأوروبية أو الأمريكية بإشراف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. أما اليوم فإن تكوينهم يتم في الجامعة الجزائرية.

وبحكم الانشقاق عن المذاهب الأخرى، وبحكم الاستغراب والنفي التي كانت مدارس السنة تمارسها إلى عهد ما، وبحكم العزلة كذلك، قام أئمة الإباضية بتطوير آداب عرّفوا بها تاريخ الإباضية المغاربية ومنظرّيها وأعلامها المفسرين وقضاتها...

إن أول كتاب من بين المصنفات الرئيسية ألّفه أبو غنيم الخراساني (نهاية القرن الثاني للهجرة/ القرن الثامن للميلاد، أو بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، والمخطوط الوحيد من هذا الكتاب هو الآن في المزاب، وقد حققه وعلّق عليه العلاّمة الشيخ محمد بن يوسف الطفايش (1236/1332هـ/ 1821-1914م)؛ إنّه "المدونة الكبرى" التي تحدد شرائع أصول الفقه الإباضي. كما عرف الأدب الإباضي مؤلفات عديدة منها كتب السير والطبقات وكتب الأعلام الإباضيين، نذكر منها "كتاب السيرة وأخبار الأئمة"، الذي صنّفه أبو زكريا يحيى بن أبي بكر السدراتي الورجلاني، الذي توفي في 471هـ/1078م. ويعتبر هذا المصنّف من أقدم الوثائق التي تروي لنا تاريخ الإباضيين في المغرب العربي. ويعرف بـ" أخبار أبو زكريا".



ضريح سيدي عيسى

غير أنّ الأدب الدنيوي لم يكن غائباً، ومن الأدب المعاصر الشعر الذي عرف به محمد الصالح خرفي ومفدي زكريا. وتحفظ مكتبات المساجد والخواص ذاكرة أهل المزاب، ومن أشهرها مكتبة أسرة الثميني، وعائلة الطفايش.

إن لغة أهل المزاب الأصيلة هي الأمازيغية الزناتية التي كانت تستعمل في القرون الوسطى مع اللغة العربية في المصنفات الإباضية. إلاّ أنّ اللغة العربية هيمنت على أهل المزاب فكرياً وتجارياً. لكن الزناتية تستخدم بشكل واسع في التخاطب داخل الأسر وفيما بينهم. وتستخدم النساء هذه اللغة استخداماً واسع النطاق ومنهنّ من لا يعرفن سوى الزناتية.

ونلمس التعبير الفني برونقه في الهندسة المعمارية، إذ تراه رغم بساطته يجد تعابيره في الأشكال وفي تناسقها. إنّه رمز الحركة الذي عرّفه أندريه رافرو كما يلي: "يبني الإنسان ويهيئ الأصقاع بحركاته الأوابد: في الصنيع والجلوس والاستلقاء... والانتقال من حركة إلى أخرى. ومنضدة العمل، والمقعد والباب أو الزقاق هي الأشياء التي صنعتها هذه الحركات. يالها من هندسة معمارية، وياله من عمران! وحين تكون هذه الأشياء في معرض الحركات التي صنعت من أجله، رموزاً في ذاتها. في المزاب يقترب التعبير عن الرمز من جوهره من باب التجريد والدقة." ويظهر التعبير الفني كذلك في الصناعات التقليدية ولا سيّما في الحياكة والطرز حيث تتجلى فيهما الجمالية البربرية التي تضرب أطنابها في غبر العصور.

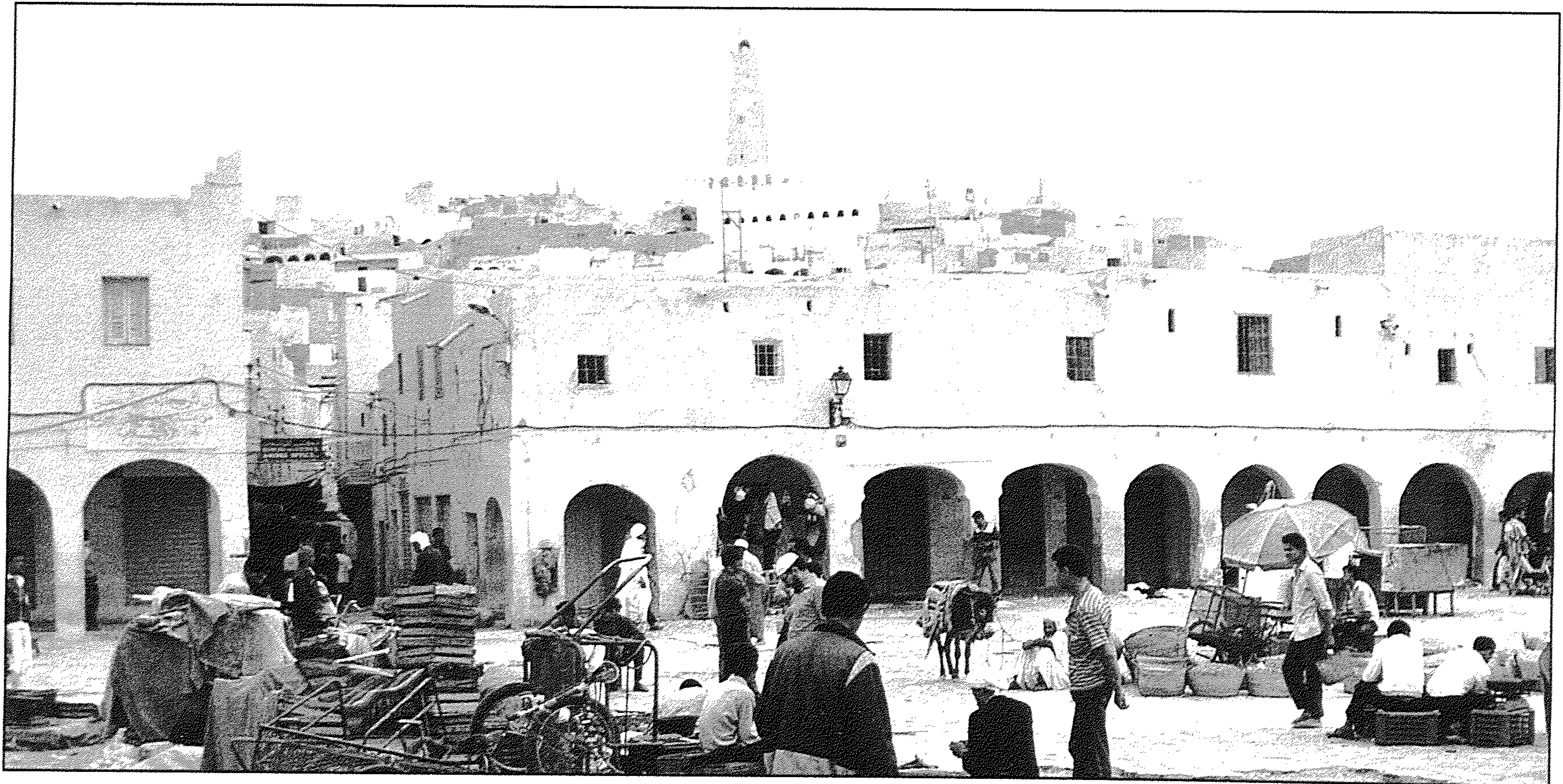
إنّ المجتمع الإباضي الذي هو أكثر تمييزية من المجتمعات الإسلامية السنية أو الشيعية، محبية نساؤه بنوع من التعبير الثقافي الخاص قوامه التطيّر والممارسات الموروثة من الرصيد البربري العتيق الذي يخضع للغة إشارات محددة. وكل ذلك بعيد كل البعد عن المذهب الرسمي الذي هو حكر على الرجال. كما أن للنساء أغان خاصة بهن.

التنظيم الاجتماعي والإداري

تعبرّ هذه الثقافة عن مجتمع على الرغم من كونه حضرياً في الأساس، إلاّ أنه بقي إلى أواسط القرن العشرين متميّزاً بحدة بالنظام القبلي الذي لا تزال مظاهره بادية إلى اليوم. والخلية الأساسية في كل قصر هي العشيرة أو الأسرة الواسعة الشديدة الترابط. و مجموع العشائر التي تنتمي إلى سلف واحد يهبها اسمه تشكل القبيلة. للقبيلة حيها وتراثها ومقبرتها. إذن، فالعرش في القمة يجمع عدداً من القبائل. وفي ظل هذا النسيج الاجتماعي تدافع كل قبيلة بضراوة عن تماسكها وهويّتها. غير أنَّ هذا التنظيم التجزيئي يمتثّل للوحدة الإيديولوجية الممثلة بحلقة العزّابين التي تستمد سلطتها المفروضة على الجميع من الإباضية، حتى عندما كان مجلس الجماعة، إلى غاية القرن العشرين، لا يزال يهتم "بالشؤون الدنيوية" للقصر المزابي.

وبالفعل، فقد أبقت الإدارة الاستعمارية على الجماعة في كل قصر، وهو مجلس يضم ممثلي الفئات المختلفة، منهم عدد قليل جداً من المالكيين (3 في غرداية، وبرّيان، والقرارة). شكلت الجماعة آنذاك ما يشبه المجلس البلدي مسؤول عن الشرطة وعن حراسة أبواب المدينة، وأشغال إصلاح وترميم شبكة الطرقات، وتوزيع مياه الأمطار، وصيانة السواقي أو قنوات الري. كما كان للجماعة أيضاً ميزانية تموّلها مساهمات يحدد مقدارها بعد مداولات. لكن اعتباراً من العام 1951 بدأ هذا النظام يتضعضع. وانطلاقاً من العام 1967، وهو تاريخ دخول تنظيم المجالس الشعبية البلدية حيّز التنفيذ، لم يعد من داع لوجود الجماعة رسمياً. لأن المجتمع المزابي الإباضي اليوم، رغم تمسّكه بالعيش في وادي واد المزاب، وبالأسس الثقافية الأصيلة، فإنه يشكل من الناحية التأسيسية والسياسية والاقتصادية جزءاً لا يتجزأ من الأمة الجزائرية. والمزاب في التقطيع الإداري هو قلب ولاية عاصمتها غرداية.

كتب بيير بورديو يقول:" إن التماسك الشديد القوة للأسرة يشكل، إضافة إلى الشعور بالانتماء إلى مجموعة دينية والوفاء لها، أفضل عائق ضدّ التشتت وضدّ الظرف الذي يسمح بالهجرة في آن.(سوسيولوجية



الجزائر، سلسلة"ماذا أعرف؟"، ص46). لكن نظراً لشحّ الموارد، ولضرورة صيانة وحفظ التراث العقاري وبناء مساكنٍ جديدة، فإن البحث عن تمويل خارجي للوادي أضحى أمراً حيوياً. والهجرة لا مفر منها. وهي هجرة من نوع خاص لا تشبه هجرة الأوراس أو التراراس، أو هجرة القبائل، لأن التبرئة ماعدا بعض الاستثناءات النادرة تمنع النزوح الدائم. إن المزابي الإباضيى الذي ورث المهارة وحنكة متينة في التجارة يسخّر نفسه لتجارة المأكل والملبس والقرطاسية... وفيما عدا بعض المناطق، يهاجر المزابي في ربوع الجزائر كلها، كما يهاجر إلى الخارج. وقد كانت إحدى المكتبات التي اشتهرت بها تونس العاصمة قبل العام 1962، وصارت ملتقى الشخصيات الفكرية البارزة في تونس حينئذ، كانت ملكاً للشيخ محمد الثميني. وحفاظاً على الجماعة، وبالتالي المجتمع برمته، وانطلاقاً من وادي المزاب لا تغادر المرأة الخماسية أبداً، وفقاً للقاعدة الإباضية الأساس التي مفادها أن المرأة توثّق أهل المزاب بأرض آبائهم وماضيهم وتقاليدهم".

وتجدر الإشارة إلى أن إيرادات الهجرة، بالإضافة إلى بروز مهارات وكفاءات من جراء الاقتصاد الحديث، أسفرت عنها في العقود الأخيرة نواة صناعة خفيفة في وادي المزاب.

ونشاهد الآن زحف رأسمالية صناعية في وادي المزاب الذي لم يكن سابقاً سوى مقام وملاذٍ للإباضية السياسية والدينية.

الخصـــــوصيات والوحدة الوطنية

لقد ذكرنا آنفاً أن الحلقة لم تعد تدير أمور المزاب سياسياً. إذ أنه منذ الغزو الاستعماري، وعلى الرغم من مناورات الإدارة الاستعمارية التي حاولت أن تستغل الفوارق المذهبية بين الإباضيين وأهل السنة، غير أن الإباضيين في المزاب اعتبروا أنفسهم أعضاء في المجتمع القومي الجزائري. فقد ناضلوا في الحركة المناهضة للاستعمار، وانضموا إلى الأحزاب القومية وشاركوا في حرب التحرير الوطنية.

ودليل ذلك أن كلمات النشيد الوطني "قسماً" الذي تم تبنّيه منذ بدايات لحرب، من تأليف الشاعر المرموق، والمناضل المزابي مفدي زكريا.



ساحة سوق غرداية



"(المدن والنخيل) تمثل أفضل ما يمكن تخيله وإنجازه من زراعة الواحات."
(ج. برون)

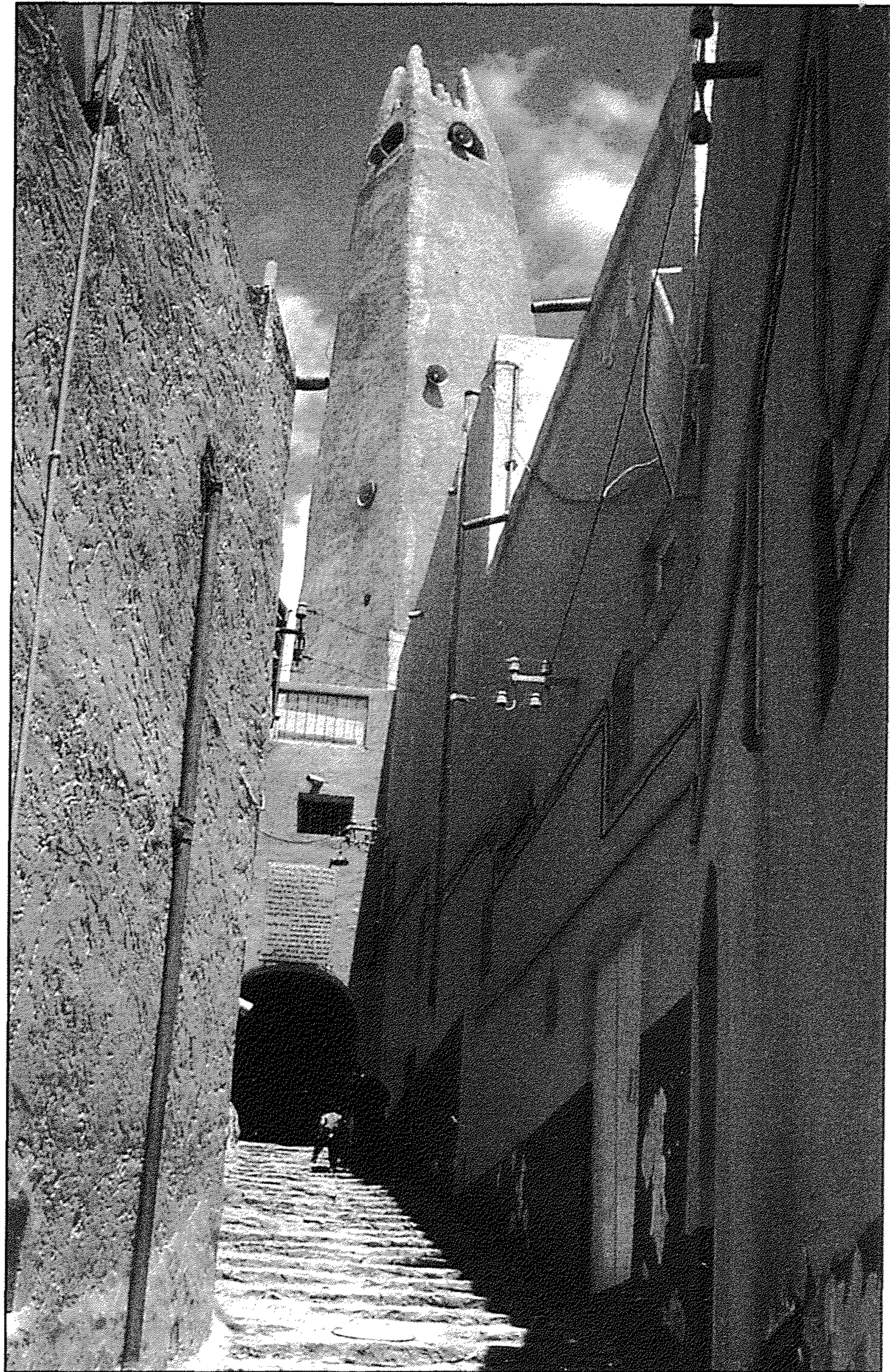
إنّ وادي المزاب، مع أن له هوية خاصة تميّزه، غير أنّه يتصرف كفرد كامل العضوية في المجتمع الوطني الجزائري.

وإلى جانب الأغلبية الإباضية نلاحظ استثناء، حيث أن أقلية مالكية قديمة تعيش في وادي المزاب، وهي قبائل الشعانبة. ويوجد هؤلاء في القصر الذي يحمل اسمهم والذي أسس في القرن العاشر، على بعد 35 كم من جنوب غرداية، على حافة واد متليلي. يقع هذا القصر في واحة طولها 5 كم، تتميز بالخصوبة وترتوي من آبار عديدة و من محتبسات المياه. وتزرع تحت ظلال بساتين النخيل الفواكه والبقول. ويختلف الطراز المعماري لقصر متليلي من حيث هندسة المسجد والمنازل عن بقية المراكز الحضرية في الوادي. وفي القرن السادس عشر، انضم عدد كبير من قبائل الشعانبة إلى طائفة أولاد سيدي الشيخ. إذ أن مؤسسها ينحدر من سفح الجبل الجنوبي للأطلس الصحراوي الغربي. وقد عاش نيفاً من حياته في متليلي، حيث ما زالت توجد زاوية هذه الطائفة.

بين الاستمرارية والتغيّر

إن العفاف الطاهر يسمح للثقافة المزابية أن تقاوم قوى التشتت التي نلاحظها في انعكاسات العالم المعاصر. إلاّ أنّ هذه الثقافة المنسجمة والمغرقة في عمق القرون لا تقف حجرة عثرة أمام تغييرات المعايير والنواميس، بل إنّها تتأقلم مع الاقتصاد التجاري والصناعي الحديثين.

كتب بيير بورديو يقول:" إننا لا نعجب من مجتمع له إدراك حاد بقيمه ولا سيّما بالقيم التي لا يستطيع أن يتخلّى عنها دون أن يُفقد الجماعة هوّيتها. فقد عرف المجتمع كيف يحافظ على أصالته برمّتها. تساءل بعض المراقبين: " بعد ضم وادي المزاب [من قبل الجيش الاستعماري يوم 30 ديسمبر 1882] تساءلوا عن الاصطدام بين الخماسية التقليدية والقوى التقنية والعقلانية للعالم المعاصر، مما جعلهم يتنبأون بالانحطاط السريع لمدن الصحراء. إنّ أهل المزاب بعد أن أصبحوا تجّاراً بارعين واكتسبوا دراية في شؤون المال، يصرّون على ترك أسرهم وبيوتهم في الصحراء، ويتوقون إلى ثرى واديهم ليواروا فيه.(...)



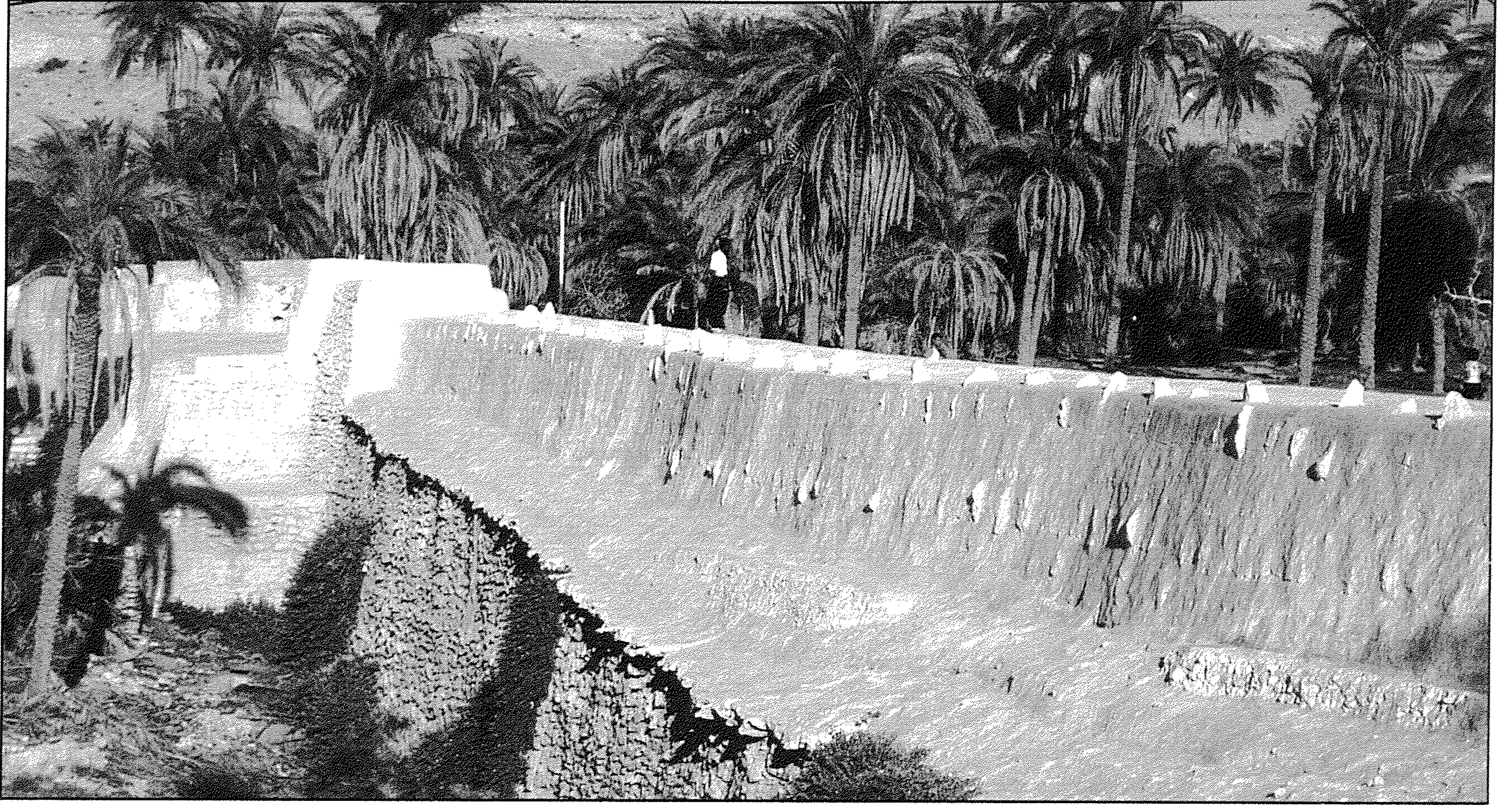
"المزاب هذه المفارقة الجغرافية"
(ديسبوا و رينال)

إن ثراء أهل المزاب وإدارتهم الحضرية البديعة هي التي تجعلهم في مأمن من الشتات. فقد تمكّنوا بفضل تربيتهم من تسخير الأساليب التجارية الحديثة، والممارسات الرأسمالية، مما جعلهم يستثمرون ما يملكوه في اقتصاد قوامه التنافس. ولم تكن مدنهم قط قد احتكّت احتكاكاً مباشراً ودائماً بالأوروبيين. وكل ذلك لا يعني شيئاً لولا التمييز التقليدي بين الهواية والحياة الاقتصادية والبحث عن ما هو مقدّس والحياة الدينية، كل ذلك يقوم على استراتيجيات دقيقة تارة، ومتسترة تارة أخرى، ترمي في مجملها إلى التحكّم في جدلية الاستمرارية والتغيير.(...) وهذا دليل على أن المقاومة الشرسة، والخصوصية الحادة، والوفاء الغيور عن الذات، قد تتعايش كلها مع التطور المحكم، والجهود المبذولة في الصفقات والإعداد الرشيد. وهذه الملاءمات (التي تكمن في مفهوم "التقية" والكتمان تجعل أهل المزاب يتحرّرون من تعاليم الدين عند الضرورة أو الضرر، مما يعطيهم تبريراً مذهبياً) لا بدّ من أن يصحبها ضمير واعٍ أو معتم، وقيم ونواميس يجب إبقاؤها بأي ثمن كان، على عكسَ تلك التي يمكن تهذيبها وإعادة تأويلها لضمان ثبات القيم الإجتماعية.

على غرار المدينة التي تتمحور حول بوتقتين متميّزتين، عالم السوق المدنّس والمبتذل تتلاطم فيه تيّارات الحياة العصرية الكبرى، والذؤابة الدينية بمسجدها الذي يكون عالم أسرارها (...) إن روح وحياة أهل المزاب ينتظمان حول مركزين مختلفين ومتعارضين، كما يتعارض المقدّس والمدنّس. مما جعل التلاؤم ذا النزعة العصرية مع العالم الاقتصادي والتجاري لا يتناقض والنزعة التقليدية للحياة الدينية المحافظة، بل يصونها ويحافظ عليها ويجعلها ممكنة." (بيير بورديو)

" أنعجب من استمرار المعجزة؟ "

أبدى بير بورديو هذه الملاحظات وخلص إلى هذه الاستنتاجات بعد أن شاهد التنظيم الاجتماعي لأهل المزاب في الخمسينات. إلاّ أنّ وادي المزاب كبقية الصحراء الجزائرية تأثر منذ ذلك الوقت بالتغييرات والتقلّبات التي طرأت عليها.



إنجاز مائي

تأثرت الصحراء الجزائرية بعد اكتشاف المحروقات واستغلالها من تقلبات عميقة وكأنه انبجاس. وقد مكّن تطور وسائل النقل الفردي والجماعي براً وجواً من تسهيل حركة الأفراد.

يحافظ وادي المزاب بموقعه المتميّز على المسلك الرئيسي بين الجزائر وفيافي الصحراء الكبرى، "طريق الوحدة الأفريقية"، وكمنطقة عبور نحو ورقلة وآبار البترول. وقد كان يعيش في هذا الوادي منذ حوالي خمسين سنة 49000 نسمة، أصبحوا اليوم 200000 نسمة. إنّ التوسع الضروري للفضاء القابل للسكن يتطلب جهداً مالياً هامّاً لم تعد الأنشطة التجارية التقليدية قادرة على توفيره. ومواكبة ركب الاقتصاد المعاصر بما في ذلك الجانب الصناعي لهذا الاقتصاد بات حتمية ملحّة، نجح فيه أهل المزاب كما لاحظه بيير بورديو. إذ أننا نشاهد منذ 1962 حركة سريعة في العمران وتوسعاته: غرداية التاريخية التي كانت تمتد على 60 هكتاراً في الخمسينات، أصبحت تحتل اليوم مساحة تضاهيها ثلاث مرات.

بفضل توسّع النشاط الزراعي عن طريق استخراج المياه الجوفية وتطوير الصناعة الخفيفة وأنشطة الخدمات، بعد أن أصبحت غرداية عاصمة للولاية، وعاصمة المنطقة كلها، تمكّن المزاب من مواجهة الموارد المالية التي يتطلّبها الحفاظ على العمران وتوسعاته.

إن هذا التطور الذي يحل مشكلة الإيرادات يخلق مشكلة أخرى تهدد التراث الحضري التاريخي للمزاب: العمران العشوائي والمشوه الذي تراكمت آثاره منذ بداية القرن العشرين إلى الستينات. ولموجهته قرر المسؤولون عن التراث التاريخي الوطني بموجب قرار مؤرخ بـ 28 جوان (يونيه) 1968، إنشاء هيئة لتصنيف وادي المزاب من بين المواقع التاريخية. وكان ذلك لا يهم السلطات الاستعمارية التي لم

وادي مـزاب

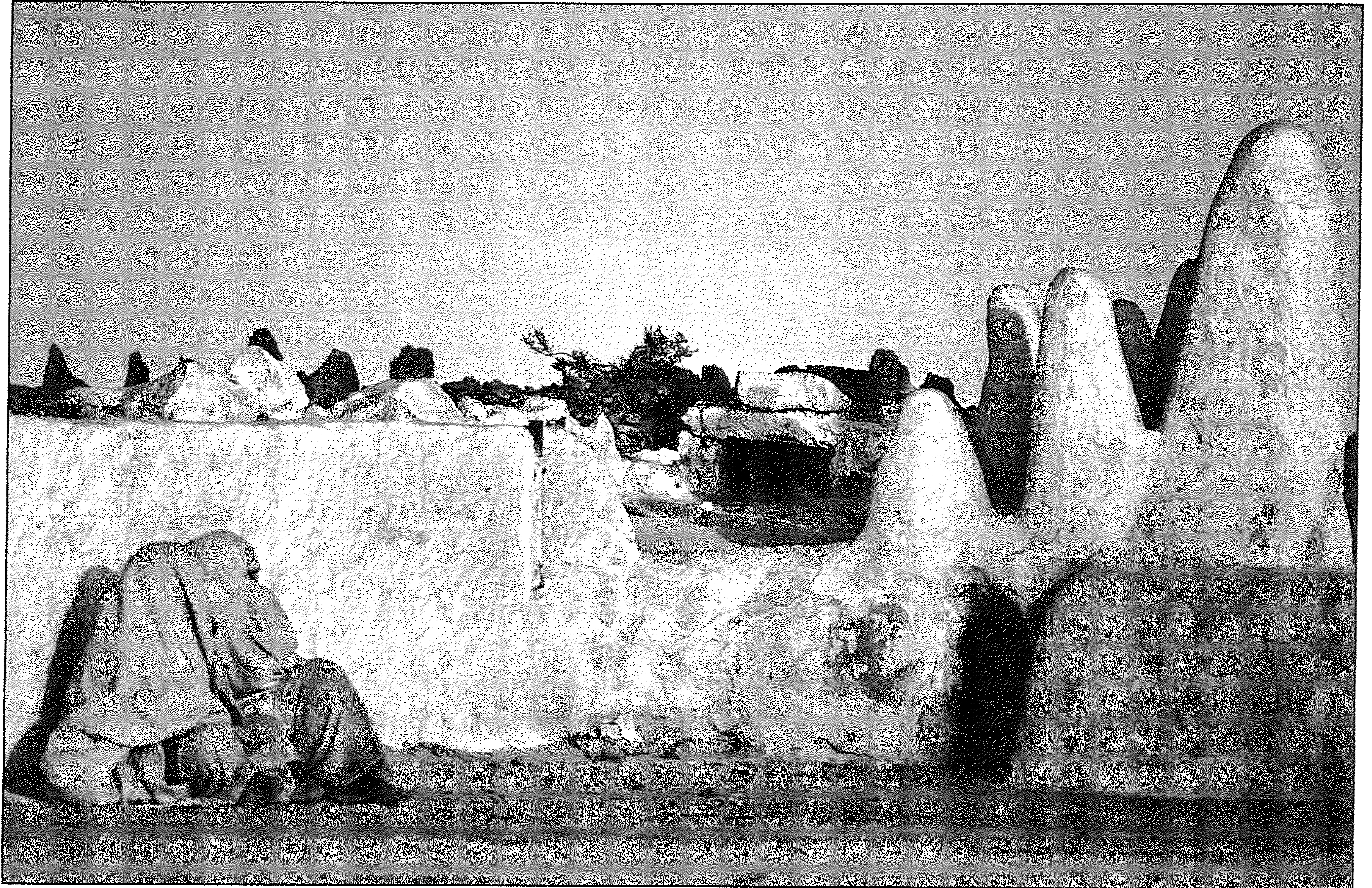


تصنّف في 10 جويلية(يوليو) 1958 سوى أسوار بني يزغن. إذ أن هذه السلطات الاستعمارية عزلت المزاب وجعلته ضمن "أقاليم الجنوب العسكرية" يديرها الجيش الاستعماري وفق نظام خاص. كما حاولت السياسة الاستعمارية استئصال وادي المزاب من الأراضي الوطنية. فسنّت لذلك قانون 10 جانفي (يناير) 1957 أنشأت بموجبه" النظام المشترك للمناطق الصحراوية". وكانت ترمي إلى إحداث دولة وطنية صحراوية منفصلة عن بقية الوطن، إلاّ أنّه باء بالفشل.

وبغية " دراسة تنقيح ووضع خطط إجمالية ومفصلة جديدة للعمران، منها المرافق الخاصّة والإسكان في إطار المحافظة على المواقع وتطويرها وترميمها"ن أنشئت ورشة خاصة بوادي المزاب معنية بالدراسات والترميم، وذلك بموجب قرار وزاري مؤرخ بـ 27 جانفي (يناير) 1970. وقد صنّف وادي المزاب يوم 26 جوان(يونيه) 1971 في قائمة التراث العالمي.

إن تراث وادي المزاب بحكم انتمائه للجزائر وصفته العالمية لم يعد معزولاً. والحفاظ على الخماسية التي ولدت من "طلاق" وضمان مصيرها مرهون بالاعتراف بها وطنياً ودولياً. وكان انعدام الإقصاء نتيجة وضعها كجزء لا يتجزأ من الجزائر، إذ أن دستور الجمهورية يتمسّك بالإسلام، ولا يتمسّك بمدرسة فقهية معيّنة. ولدى انعقاد الملتقيات حول الفكر الإسلامي التي كانت تشرف عليها وزارة الشؤون الدينية، كان علماء الإباضية يشاركون فيها مشاركة منتظمة. وقد ابتعدنا عن الوضعية التي كانت سائدة إلى 1962، إذ نلاحظ اليوم استقرار مواطنين جزائريين من أهل السنة في المزاب، كما نشاهد مهاجرين إباضيين يستقرون مع أسرهم في مدن الشمال.

فتح وادي المزاب صفحة جديدة، حيث المذهب الإباضي لم يعد مهدداً فقهياً، غير أن التراث العمراني والمادي ينطلّب حماية ويقظة دائمتين من قبل أهل المزاب والجزائريين الآخرين.



" المزاب ، منفى المنفى... جاء الإباضيون لاحتلال الشبكة(...) غادروا بدءاً تيهرت ، ثم انتقلوا إلى إيسدراتن (...) للاستقرار في نهاية المطاف بوادٍ ينساه الفيضان لسنوات."

مولود معمري




نصيرة بن صدّيق



جوبيتر وأنتيوب

لا يوجد في أي مكان من البحر الأبيض المتوسط ، ما عدا بومبيي ، مجمع حضري كامل كذاك الموجود في تيمقاد. لكن بومبيي كانت مستعمرة إغريقية أسست في إيطاليا ، بينما تيمقاد رومانية. وقد كتب عنها ج. هانوتو عضو الأكاديمية الفرنسية ، إثر زيارة له للجزائر في ربيع العام 1902 :" كان أثرياء بومبيي ينعمون برغد العيش في قصورهم الفخمة ذات الزخارف الصافية والرائقة والمنتعشة. لكن في الواقع ، كل شيء كان رديئاً وهزيلاً؛ لا وجه للمقارنة له مع جلال ومتانة تيمقاد." فالمنظر بجماله الصارم وبالثراء المنقطع النظير لآثاره يقدح الأذهان ويمس شغاف القلوب.

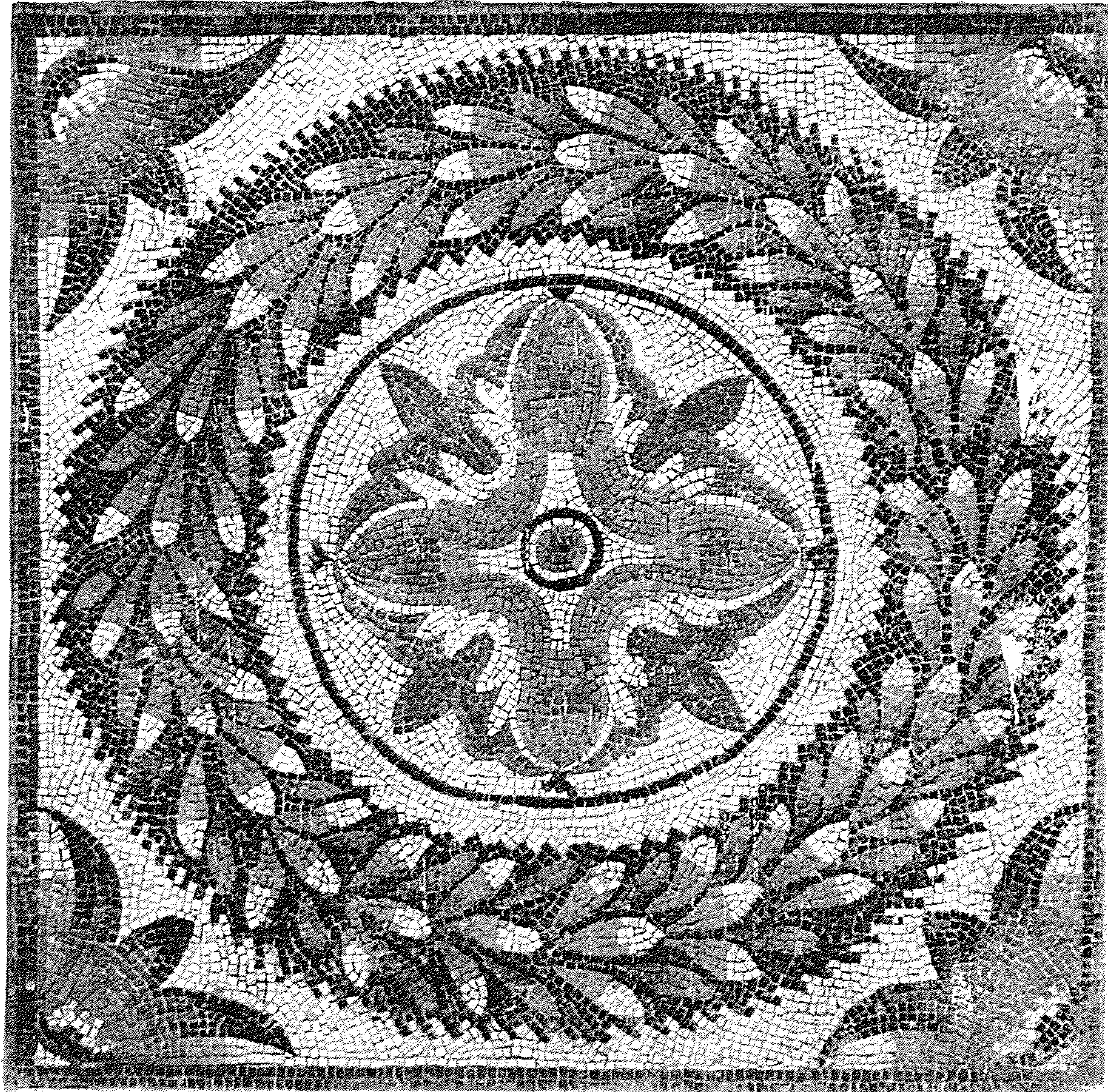
الموضع والموقع

غالباً ما تقطع السهول العليا المحشورة بين الأطلسين سلسلة جبال تقسم هذه السهول إلى أجزاء. ويبرز في شمال جبال الأوراس التي يبلغ ارتفاعها 2307 أمتار ، نتوء صخري طويل. وبينهما يمتد سهل ضيق متوسط ارتفاعه 1000متر ، لا يتجاوز عرضه من جهة الشرق العشرين كيلو متراً ، ولا يشكل من جهة الغرب ، أي من تيمقاد إلى باتنة ، سوى ممر ضيّق. والأوراس جبل كبير تمتد سلاسله الغربية الجنوبية ، والشمالية الشرقية على طول حوالي مائة كم ، ابتداءاً من وادي واد القنطرة إلى واد لبيوض. يبدو في البداية موحشاً وصعب المسالك حسب بروكوب ، لكن البحوث الأخيرة بيّنت أنّه عرف تغلغلاً رومانياً أكثر عمقاً مما كان يعتقد في الماضي. وبخلاف الطرق العديدة التي كانت تقطعه ، فقد أحيط بشبكة من التحصينات الفلافية خلال الفترة البيزنطية: ثابوديوس (ثودة)، باداياس (باديس)، آد مايورس (هر بسرياني) في الجنوب؛ و ميسارفلتا (الوطاية) و كالسيوس هيركوليس (القنطرة) ناحية الغرب. وفي الشمال، تم إنشاء حاجز لحماية الأراضي الزراعية الخصبة لنوميديا يشمل ماسكولا (خنشلة) ، وثاموقادي (تيمقاد) ،



تاريخ المدينـــة

ولامبايسيس (لامبيز- تازولت) حيث يتمركز فيلق أغسطس الثالث، المكلف بتطبيق القانون الروماني في أفريقيا. في مدخل الممر حيث كان يجري في الماضي الطريق الروماني ثيفيست-لامبايسيس، كانت تيمقاد تتحكم علاوة على ذلك في الطرق المؤدية إلى الوديان الأوراسية الكبرى لواد عبدي وواد لبيوض، التي كان ينتهجها البدو الرحل الذين كانوا يجوبون الصحراء ونوميديا الشمالية. والموقع ملائم بهضبته المتموجة، وميلانه الطفيف من الجنوب إلى الشمال، بحيث يشكل خاصرة جبل الأوراس الأخيرة على طرف السهل. ووجود ربوة تصلح لبناء مسرح بسهولة لم تمرّ مرور الكرام. وكانت هناك شبكة مزدوجة للأودية ينابيعها قريبة جدا تلتقي جهة سافلة النهر، وتحدده من الشرق ومن الغرب. وبالإضافة إلى الينابيع العديدة التي اختفت اليوم، لا تزال عين موريس التي تنبجس على بعد 3 كم إلى الجنوب تزود تيمقاد بالماء. والإنشاءات المائية التي عثر عليها هنا وهناك تبين استغلال مياه الأمطار في تزويد المدينة بالماء. ومن جهة أخرى، فإن خصوبة السهل الطمي الذي يوجد فيه الموقع، يضاف إليها وفرة الحجر -الصلصال الرملي في النواحي المتاخمة، والكلس الأبيض أو الأزرق على بعد بضعة عشرات من الكيلومترات جنوباً وشمالاً - وكذلك القرب من الغابة، كل ذلك كان له أهميته في اختيار الموقع. وحسب ما قاله بروكوب فإن الأرياف المحيطة كانت غنية بالحبوب والزيت، وهو ما تؤكده معاصر الزيت التي عثر عليها في النواحي، وأنشئت في المدينة نفسها في الفترة المتأخرة.



تشهد كتابتان لاتينيتان عثر على إحداهما في الباب الشمالي، والأخرى أسفل قوس النصر المسمى تراجان، على تأسيس مستعمرة مارسيانا ترايانا ثاموقادي في العام 100، بأمر من الإمبراطور تراجان، من قبل القاصد الرسولي للفيلق الثالث لأغسطس (الفيلق الثالث الأكبر) ل. موناتيوس غالوس، فوق أرض بكر حسب البعض، الأمر الذي يكذبه اسمها البربري. إن ما نراه كمشروع عمراني متميّز، قائم على اعتبارات استراتيجية واقتصادية في آن، يترجم ارتباطا أكيداً بالتقليد الجمهوري القديم للمستعمرات، ويبين سياسة تطويق الأوراس والإرادة الإمبراطورية في الإكثار من عدد المراكز ذات الطابع الروماني في المنطقة. وقد عرفت ثاموقادي التي بناها أفراد الفيلق، وأحيطت بأسوار محصنة، وسكنها المدنيون وبعض المحاربين القدماء الذين منحوا أراضٍ فيها، عرفت ازدهاراً كبيراً بفضل زراعة الزيتون والحبوب لدرجة أنها توسعت لتتجاوز حدودها الأصلية. نطاقها على شكل مربع طول ضلعه حوالي 350 متراً، له أربعة أبواب ويقوم على زوايا مكوّرة، تحتجز وراءها مجموعة منازل منتظمة تفصل ما بينها شوارع متعامدة، كانت في البداية تغطي مساحة25،12 هكتاراً. وبحكم قربها من المعسكر الفيلقي لـ لامبايسيس، العاصمة العسكرية لأفريقيا الرومانية، أصبحت ثاموقادي مركزاً مدنياً، ومقراً للحياة اللاتينية في عمق بلاد البربر، "مكان للقاء والاتصال"، وللتبادل بين البربر والرومان، بين أهل جبال الأوراس وأهل السفح.



تاريخ ميلاد تيمقاد



انتصار فينوس على بساط من الأقنثة

أصبحت ثاموقادي من بين المدن المتوسطة الهامة في أفريقيا بعد أن آلت إلى تغطية مساحة تقدّر بـ 70 هكتاراً. إذ أن المدينة عرفت توسعاً عاماً إلى ما وراء حدود نطاقها المبدئي (أوربس كادراتا)، بفترتين متألقتين، الأولى في عهد الأنطونيين والثانية في عهد السيفيريين. في العام 167 تمت إزاحة الباب الغربي للمدينة إلى بعد 350 متراً باتجاه لامبايسيس، وفي العام 171 أزيح الباب الشرقي إلى بعد مائتي متر باتجاه ماسكولا بحيث ازداد طول المحور شرق-غرب عن الضعف. مع السيفيريين تعاظمت أهمية الشوارع والأبنية، في حين أن المخطط الصارم لرقعة المربعات لم يعد متّبعاً. وأصبح التضاد كبيراً بين استقامة وتناظر مدينة تراجان وبين ضواحيها. ومثلها مثل العديد من المدن، عرفت تيمقاد توسعاً في القرن الرابع، وهي الفترة التي شهدت فيها أفريقيا الرومانية مرحلة أخيرة من الازدهار الكبير، بحيث مست المباني آنذاك تحويرات عميقة أساءت إلى التصفيف الأصلي. ثم شيدت أحياء جديدة جهة الغرب، وعلى الخصوص باتجاه الكاتدرائية الدوناتية، في حين أن المدافن المسيحية الكبرى الواقعة جهة الجنوب، فيما وراء الحصن البيزنطي، تشكل مؤشراً جيداً على اتساع المدينة في الفترة المتأخرة. كما تشهد من جهة أخرى، فسيفساءات تعود إلى القرن الرابع وعدد معتبر من الكتابات المستلحقية (البلدية)، على أشغال صيانة وترميم للأبنية في الإمبراطورية السفلى. إلاّ أن ثاموقادي قد دمرت بين الأعوام 477 و539، ولم يكن ذلك على يد الوندال، بل على يد موريتانيو الأوراس. يروي بروكوب أن المدينة قد دمرت وأخليت من سكانها وهدمت عن بكرة أبيها. غير أن كتابة مؤرخة في 539-540 تشير إلى أن النبيل سولومون أعاد بناء " مدينة ثاموقادي" في فوندامنتيس؛ لكن علم الآثار حتى وإن كشف عن آثار حريق، إلا انه لم يؤكد تدميراً بذلك الحجم، وقد تكون «المدينة» المعنية هي الحصن البيزنطي الذي لا تزال أسواره منتصبة بعلو 12 متراً عن الأرض.



سوق سيرتيوس

ويشكل هذا الحصن معلماً أساسياً لتيمقاد البيزنطية من حيث اتساعه (112م على 67م)، وقد أنشأ بين عام 539 و400م في جنوب مدينة تراجان فوق بقايا مقام أكوا سيبتيميانا. وفي الوقت الذي توقفت فيه كل أسباب الحياة البلدية، شيد دوق تيجيسيس (عين البرج) ما بين 641 و671 كنيسة مسيحية: كان آخر بناء لثاموقادي.

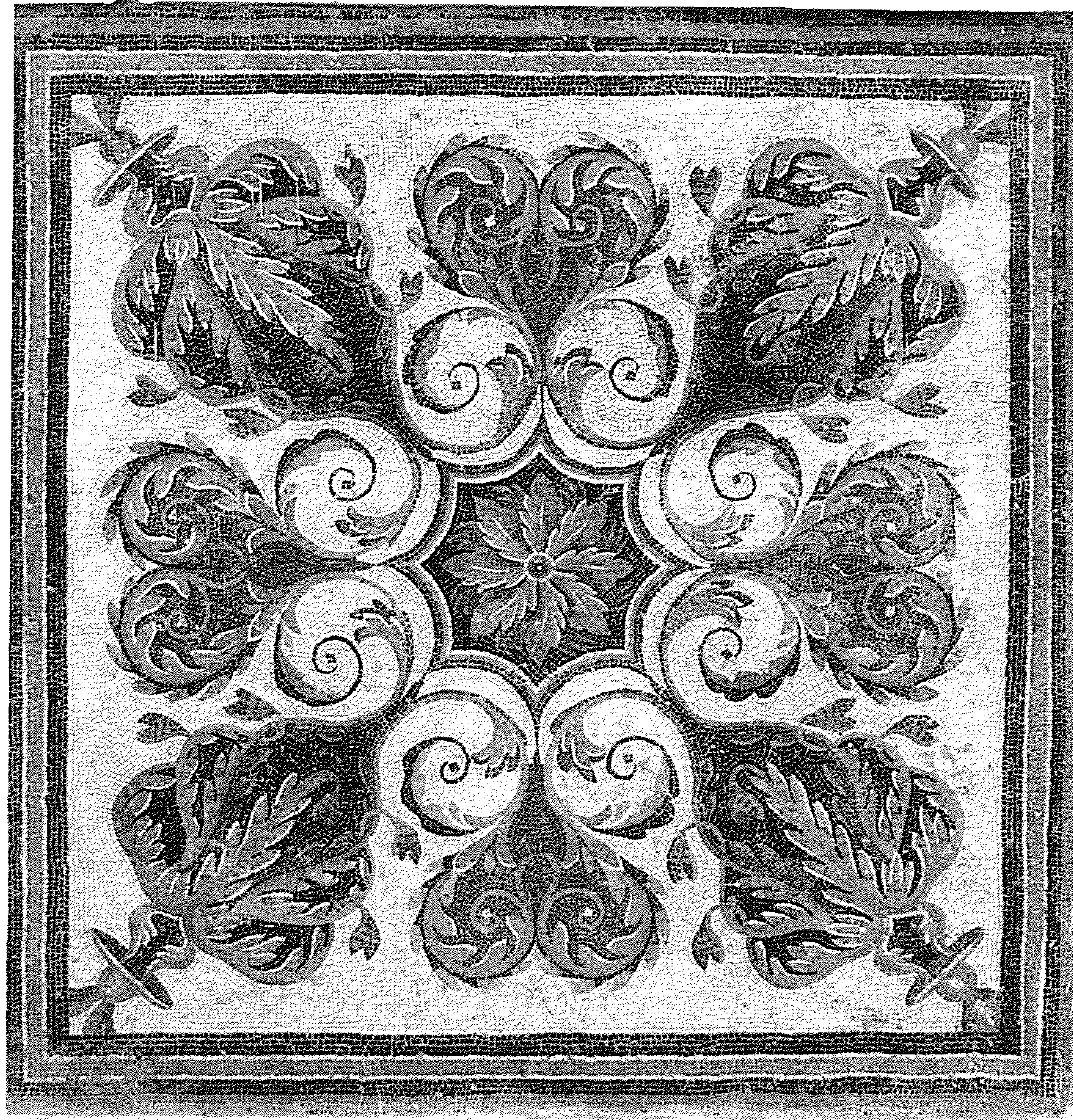
لم يأت ذكر المدينة في مؤلفات أي مؤرخ أو جغرافي عربي على الإطلاق. اكتشفها في العام 1765 رحالة إنجليزي يدعى بروس، ووصف قمة قوس النصر المسمى تراجان، والكابيتول أو مقر السلطة، والمسرح، والحصن، وبقايا جدران وأعمدة هنا وهناك. وقد برزت الأهمية الأثرية للمدينة في فترة الاحتلال الفرنسي لكن انبعاثها ينتظر استكشافاً مفصلاً وشاملاً للموقع. وهو موقع مصنف منذ العام 1900 في القائمة الوطنية للصروح التاريخية، ثم صنفته اليونسكو في العام 1982 ضمن قائمة تراث الإنسانية، ولا بد من حماية تيمقاد من الموت البطيء الذي يسببه زحف الخرسانة.

مدينة رومانية أصيلة

رقعة المربعات

يعود شكل تيمقاد المتميز لشوارعها المتعامدة مع بعضها البعض في النواة الأصلية للمدينة، أكثر مما يعود لصروحها. وقد صمم مخططها العام مهندسو الفيلق الثالث الكبير، وكان عبارة عن مستطيل طول ضلعيه 355م و325م، تم توجيهه بكل صرامة حسب محاور

الجهات الأربعة، ويقطعه شارعان رئيسيان يتبعان منصف أضلاعه، المحور شمال- جنوب، والمحور شرق- غرب. وكل من هذه المربعات المحددة بهذا الشكل مقسم إلى 36 مجموعة منازل مربعة، أو جزر، طول ضلع كل منها حوالي 20 متراً، تفصل ما بينها المحاور شمال-جنوب، وشرق-غرب الثانوية، والأكثر ضيقاً من سابقاتها. وقد تمت ملاحظة بعض الاستثناءات التي لا تتقيد بهذا المخطط الهندسي الصارم: من الجهة الغربية توجد خمسة صفوف من الجزر عوض ستة، وبعض المباني العمومية أو الخاصة تحتل جزيرة أو عدة جزر. ونتج عن ذلك أن تلك الواقعة في الميدان على الخصوص قد أزاحت نحو الغرب المحور الأقصى شمال-جنوب الذي من المفروض أن يكون على طول خط المحور الأقصى الشمالي. وقد جعلت أروقة مسقوفة هنا وهناك للتخفيف من بساطتها المفرطة، بينما تعطيها نوافير المياه الموجودة بكثرة اللمسة الشاعرية التي تفتقدها. كان الدخول إلى المدينة يتم عبر أربعة أبواب تفتح على الطرق الرئيسية. وقد ساهم البلاط المتين المصنوع من الحجر الكلسي الأزرق بالنسبة للمحورين، ومن الحجر الرملي الصلصالي بالنسبة للطرق الفرعية، ساهم في المحافظة على شكل التربيع الأصلي الذي لا تزال صورة رقعته المربعة تخطف الأنظار إلى يومنا هذا.



تتقاطع من الباب الشمالي ذي الخمسة أمتار عرضاً، والمحفوف بأروقة مسقوفة، ستة شوارع ثانوية قبل أن تصل إلى المحور شرق-غرب، المقابل للميدان الذي يعتبر المركز الهندسي للمدينة كما صممه عمرانيو تراجان. وبلاطها الموضوع ورباً والمطبوع بالآثار العميقة التي خلفتها العربات، مرتفع قليلاً عن قناة الصرف الجامعة التي تنتهي ببالوعات يمكن رؤيتها من مكان لمكان. وتتوقف هذه القناة عند الميدان لتنحرف نحو الغرب ولا تستأنف مسيرتها نحو الجنوب إلا بين الجزيرة 3 و4، لتصل إلى الباب الجنوبي حيث لا يبقى منها سوى آثار ضئيلة.

يظهر المحور شرق- غرب على شكل شارع طويل مستقيم محفوف بأروقة مسقوفة، تنقطع في الجهة الغربية عند لامبايسيس القديم الذي استبدل بقوس النصر العظيم المسمى تراجان، الذي بني في الواقع في حدود نهاية القرن الثاني. يبلغ ارتفاعه حوالي اثني عشر متراً ويتألف من مدخل مقوس مركزي للعربات عرضه 3،50 م وارتفاعه 6،60 م عن الأرض التي لا تزال تحتفظ بصوّات عسكرية وبآثار العجلات، ومن مدخلين للمشاة على جانبيه (1،75م عرضاً و 3،8م ارتفاعاً). وينتصب أمام الأعمدة من الجهة الشرقية تمثالا مارس(إله المريخ) والكونكورد(إله الصلح) على قاعدتين ثمانيتي الأضلاع. وخلف شارع لامبايز على اليسار تقع أجمل نافورة للماء في المدينة، التي أهداها للمستعمرة يوليوس ليبراليس. وهي عبارة عن بناء ثماني الأضلاع بقاعدة لها نفس الشكل زُيّنت كتلتها المركزية بأعمدة صغيرة، وربمّا بتماثيل أيضاً. وتنتهي حدود هذه الضاحية الغربية بباب كبير ذي فتحة مقوسة واحدة شيدت في عهد الإمبراطورين م. أوريل، و ل. فيروس بين 166 و169 م. ولم يبق منه سوى القاعدة والأعمدة الرقيقة التي ترى خلف الأفق. كما تنتهي أقصى حدودها أيضاً الواقعة في طريق ماسكولا على المحور شرق- غرب، بقوس نصر عظيم أنجز في العام 146م. ويستمر الطريق وراء الضاحية نحو الجهة الجنوبية الشرقية ليقطع وادا، ثم يمرّ تحت



تراث محلي ثري



باب آخر كبير، بني في عهد الإمبراطور مارك أوريل (161- 180)، وهذا دليل على توسع المدينة من تلك الجهة أيضا منذ أواسط القرن الثاني.

الأبنية العمومية

الميدان

يوصل المحور شمال - جنوب إلى المحور شرق- غرب مقابل باب صرحي مطابق تماما لباب سيرتا الذي لم يبق منه سوى القواعد. وفي هذا المكان بالذات يوجد درج عريض له 12 درجة يقطعها بهو سلم مزين بالتماثيل، يؤدي إلى أكبر ميدان في شمال أفريقيا. وهو عبارة عن ساحة كبيرة مستطيلة (50م×43م) في الهواء الطلق، مملوءة بقواعد تماثيل، وتحدها أروقة



كورنثية مسقوفة، تنغلق على أضلاعها الأربعة تقريباً؛ يتم الدخول إليها عن طريق درجين أحدهما شرق الباب الصرحي، والثاني في الجنوب جهة المسرح. كان يحدها من الشمال أروقة مسقوفة تفتح على صف من الدكاكين. وباستثناء الكابيتول المتميز الذي بني خارج الأسوار، فإن كل الأبنية الرسمية لثاموقادي موجودة في الداخل: على الرواق الغربي يوجد المجلس البلدي، ومعبد مكرس إما للنصر أو لتراجان نفسه، مسبوق بمنبر، ثم صرح للثروة؛ وعلى الرواق الشرقي يوجد بناء الهيكل المدني (المحكمة و القضايا العامة). وقد كان الميدان بمثابة مركز الحياة البلدية وفيه يلتقي أصحاب التجارة وأهل المدينة من الأبيقوريين، كما تشهد على ذلك البلاطات الحجرية المنقوشة بخربشات مختلفة منها ما نقش عليها لعبة غريبة مصحوبة بالعبارة التالية: " الصيد، والاستحمام، واللعب، والضحك، هذه هي الحياة"! وهناك نافورتان إحداهما على الزاوية الشمالية الشرقية، والثانية على الزاوية الشمالية الغربية. في حين تقابل المراحيض العمومية الميدان من الجهة الشمالية الشرقية.

الكابيتول أو مقر السلطة

ينتصب الكابيتول وكأنه تحد أمام جبل الأوراس العظيم، ويشرف بكتلته الضخمة على مدينة تراجان



أحد النصب المتعددة المنذورة للإله زحل



والأحياء الجديدة أيضاً. ويبدو غريباً أن لا يجد بناء مكرس لأهم آلهة المستعمرة مكاناً داخل المدينة الأصلية. لكن روعته كانت قد عوضت بعده عن المركز المدني. يقع في آخر باحة شاسعة مبلّطة (90م×68م)، تحيط به الأروقة ويتقدمه من جهة الشرق صف من الأعمدة الخارجية. وقد جعل المعبد فوق منصة ذات واجهة بستة أعمدة وثمانية على كل جانب من جانبيه. وتتربع في داخل المقدس تماثيل الآلهة الثلاثة الكبرى لروما والإمبراطورية، وهي جوبيتر وجونون ومينيرفا التي كانت في الماضي ملبسة بالرخام. أما الكنز والأدوات الطقسية فقد كانت تحفظ في ثلاث نووايس موضوعة في أقبية. وينتصب مذبح في مركز الباحة أمام المعبد. وتروي لنا الكتابات المنقوشة على عوارض الأعمدة الشرقية أنه في عهد الإمبراطور فالانتين الأول والإمبراطور فالانس، أي بين 365- 367 بالتحديد، تم ترميم الأعمدة الآيلة للانهيار تحت إشراف حاكم نوميديا وهو بوبليوس كايونيوس كايسينا آلبينوس.

معبد الإله الحارس للمستعمرة

في العام 169 تم تكريس معبد للإله الحارس لمستعمرة ثاموقادي، وقد أضيفت إليه آلهة أخرى. يقع أيضاً خارج المدينة الأصلية، في شمال الشارع الكبير الذي يقطع الأحياء الجديدة إلى غاية باب لامبيز، في نهاية فناء معمد، رباعي الأضلاع وغير متناظر، يتم الوصول إليه بواسطة ثلاثة أدراج، ونلاحظ فيه قاعدة لمذبح. وينتصب المعبد فوق سلالم عالية من أربعة عشر درجة يليها بناء تتصدر واجهته الأعمدة الكورنثية، ومقدس تحده غرفتان تنفتحان على فناء الأروقة المسقوفة.

المكتبة

تبرع ببنائها أحد أبناء ثاموقادي وهو السيناتور م. لوليوس كينتيانوس فلافيوس روغاتيانوس، وقد كان عملاً قدّر حق قدره بالنظر إلى قاعدة التمثال الذي نصب له من طرف أعيان مستعمرة ثاموقادي تعبيراً عن العرفان. وتعتبر هذه المكتبة مع مكتبة إفسوس في آسيا الصغرى المكتبتان العموميتان الوحيدتان للفترة الرومانية اللتان بقيت آثارهما. بنيت المكتبة

فوق بيت قديم متجاوزة الشوارع المتاخمة، ولها واجهة فخمة على المحور شمال- جنوب. ندخل أولاً إلى فناء مستطيل تحيط به الأروقة المعمدة من ثلاثة جوانب، ثم نلج إلى قاعة مبلّطة أكثر اتساعاً على شكل نصف دائرة. وتوجد على جدران هذا المكان النصف دائري عوارض بارزة من الآجر تحدها أعمدة بثمانية كوات مستطيلة فيما بينها مما يعطيها شكل رفوف. والكوة المركزية أكبرها حجماً، يؤطرها عمودان عاليان من الرخام، لا شك أنها كانت مكان تمثال آلهة الحكمة وسيدة الدراسات مينيرفا، أو تمثال المانح. وقد كان القراء ربما يجلسون على مقاعد غير مجوفة تفصلها درجتان عن الكوة وكانت تقطع الدرجتين على مسافات متساوية أعمدة تحمل على ما يبدو رواقاً علوياً يؤدي إلى مجموعة من الرفوف. وتنفتح على كل رواق أعمدة جانبي غرفتان صغيرتان كانتا تستعملان كمخزن أو ربما كمستودع. ويقدر م.لوجلاي سعة هذه المكتبة من المخطوطات بالآلاف. وفي أوج روعتها كانت جدرانها ملبسة بالرخام الأبيض والأخضر لتغطية الآجر الذي بني به هيكلها. و لحد الآن، لم يفقد المكان شيئاً من هيبته، ولم تفلح الكتابات المحفورة على البلاط، أو الخربشات النابية التي وصمت بها الأعمدة منذ العهود الغابرة في خدشها.

المسرح

على الرغم من أن بناء المسرح كان مقرراً منذ تأسيس المدينة الأصلية غير أنه لم يشيد إلاّ في العام 160. حفر له مكان في سفح تلة تقع إلى الجنوب من الميدان، يتألف مدرجه من 24 صفاً على شكل نصف دائرة حول ساحة مبلطة (الأوركسترا) تستقبل من 3500 إلى 4000 متفرج. وقد خصصت للأعيان كراسي محمولة كانت تنصب على الدرجات الثلاث العريضة الواقعة أمام المدرج الأول. وكان البناء متوجاً ببروز تحمله أعمدة يمكن الوصول إليه مباشرة من قمة التلة عن طريق مدخل لم يبق منه سوى البنية التحتية. كما اختفى جدار خشبة المسرح، لكن العضاضات التي كانت ترتكز عليها الخشبة،والتجهيزات التي ترفع الستارة لا تزال باقية. وكان يوجد في نهايتي الفناء المستطيل الواسع المحفوفتين بالأعمدة، بهوان متناظران



إهداء للإله مارس (المريخ)



فسيفساء الطبيعة الصامتة (تفصيل

يوصلان إلى الكواليس. وكان الممثلون الصامتون يتحركون فوق الخشبة ويؤدون أدواراً إيمائية وحركات بهلوانية وسحرية. وكانت تعرض أحياناً التراجيديا، وغالباً الكوميديا والمحاكاة.

الحمامات

علاوة على النزهات والنشاطات الفكرية والثقافية، كان الحمام من المتع المفضلة لدى أثرياء تيمقاد. إذ كان الاختلاف إلى الحمام بالنسبة للرجال يعتبر من الانشغالات الرئيسية لحياتهم اليومية. فلم تكن الحمامات تقتصر على أماكن للاغتسال فقط، بل كانت تحتوي على قاعات للرياضة البدنية والمطالعة واللقاءات. وكان التصميم الكلاسيكي يتضمن قاعة لنزع الملابس (آبوديتيريوم)، ومنها إلى قاعة باردة مع حوض سباحة (فريجيداريوم)، ثم إلى القاعة الفاترة (تيبيداريوم)، وبعدها إلى قاعة الأحواض الساخنة (كالداريوم)، وأخيراً قاعة الرغوة (لاكونيكوم). وقد كانت في بعض الحمامات الكبيرة قاعة مخصصة للتدليك بالزيت والفرك الذي تنتهي به مراسيم الحمام (إيلايوثيزيوم). وثراء أهل ثاموقادي وطموحهم الكبير جعلهم يبنون حوالي 14 حماماً عوميا أحصيت لحد الآن، بغض النظر عن الحمامات الخصوصية التي تحويها عدد من المنازل الفخمة التي يستحق البعض منها وصفاً خاصاً.

الحمامات الكبرى للشمال التي يمكن تأمل تصميمها من أعلى الدرج الموجود في الرواق المعمد الجنوبي للقاعة الكبرى، وتحتل مساحة هامة (80م×65م). و لا يوجد مثيل لتناظرها البديع (النصف الشرقي = النصف الغربي) في أي من الحمامات الأخرى في تيمقاد، لكننا نجد نظيره في الحمامات الكبرى للجميلة (كويكول)، أو في حمامات كاراكلا في روما. كانت القاعات معبدة بالفسيفساء والجدران مكسوة بالرخام والجص المنقوش بخربشات بذيئة. وقد عثر المنقبون عن آثار لحرائق.

تقع **حمامات فيلادلفيس** شرق باب سيرتا في الضاحية الشمالية وتصميمها من الطراز الكلاسيكي. يوصل مدخلها الجنوبي إلى فناء محفوف بالأروقة المعمدة ومزيّن بحوض. وقد كانت قاعة أحواضها الساخنة معبدة



بلوحة من الفسيفساء تظهر جوبيتر على نحو هجائي، ومعه الحورية أنتيوب، كتبت عليها العبارة:"فيلادلفيس فيتا".

بنيت **الحمامات الكبرى للشرق** منذ النصف الأول للقرن الثاني، ثم وسّعت تحت حكم م. أوريل في العام 167 لتشمل مساحة معتبرة تغطي أربعة مجموعات سكنية أو ما يسمى بالجزر(إنسولاي). وكانت تغطي قاعته الباردة لوحة من الفسيفساء تمثل الإله نبتون على عربته.

تقع **الحمامات الصغرى للمركز** على المحور شمال- جنوب، ولا تزال تحتفظ بأقبيتها وموقدها و فرن التسخين. وكانت تزين قاعتها المربعة تماثيل متنوعة وفسيفساء تمثل الفصول.

تعتبر **الحمامات الكبرى للجنوب** التي تزينها نافورة في منعطف الواجهة المغلقة، أفضل مثال لتوزيع وتسيير الحمامات الرومانية. بنيت في القرن الثاني، ولا بد وأنها قد وسعت في العام 198، ورممت في القرن الثالث. مخططها غير متناظر ولها مدخلان في الشمال ومدخل في الجنوب كانت بقربه مراحيض يبلغ عددها 28 لم يبق منها أي أثر اليوم، وكانت موزعة على شكل هلال بمجموعتين تتوسطهما نافورة تزينية. أرضيتها مغطاة بفسيفساء نيلوتي عثر على بعض أجزائه، وهي الآن معروضة في المتحف، وجدرانها مزينة بصفائح من الرخام وبالتماثيل. وقد عبدت أرضية ثلاث ممرات تفصل بينها أعمدة تمثل ثيراناً تعدو في اتجاه واحد تحيط بها وتؤطرها شعارات مختلفة. وفي هذه الحمامات عثر على تمثال الحورية ذات الإناء. وقد كان تنظيم التسخين سواء في القاعة الساخنة أو الفاترة وفي الأحواض أيضاً، كان يتطلب مجموعة من الأبنية كالأقبية والسراديب التي نراها بوضوح تام في هذه الحمامات. وكانت المياه تجلب من قناة "آكوا سيبتيميا".

تقع **حمامات الغرب** على طريق لامبيز، وكانت قاعتها الباردة معبدة بفسيفساء تمثل امرأة تستحم، والقاعة الفاترة بفسيفساء تمثل زنجياً بعضو على شكل سمكة.

المساكن

اعتمد بناءو منازل تيمقاد التي يفوق عددها المائة، على مخطط نموذجي واحد، ولجأوا إلى حيل هندسية بارعة حسب نوع الأرض، وثراء المالك، والاحتياجات الخاصة. ولم يكن البيت يكشف من الشارع عما بداخله بتاتاً.

كانت المنازل تتألف من فناء مركزي تحيط به الأروقة المعمدة (آتريوم) التي تنفتح على غرف السكن: توجد مقابل المدخل (أويستيبولوم) الغرفة المركزية (تابلينيوم) وكانت تستعمل كغرفة للاستقبال. في الغالب تتشكل كل مجموعة سكنية من منزلين إلى ثلاثة، لكن المنازل الفخمة قد تحتل مجموعتين، وكان لبعض منها طوابق علوية. وقد أخذت من أحد هذه المنازل الواقعة في زاوية المحورين شمال- جنوب، وشرق- غرب، الفسيفساء التي تمثل فينوس جالسة على عجز وحش بحري. أما الفسيفساء التي تمثل آلهة الصيد "ديانا التي باغتها في الحمام الصياد أكتيون" فقد اكتشفت في منزل يقع في الحي الشمالي من مدينة تراجان. ويوجد في بيت كبير يقع في الشارع الخارجي الشرقي على جنوب المحورشرق- غرب، عدد من الأرضيات الفسيفسائية منها لوحة" انتصار فينوس". وكانت فسيفساء" الأطفال الصيادون" التي يحفظ منها جزء فقط في المتحف، تزين إحدى غرف منزل ناء يقع في الشارع الغربي عند موقع مركز تراجان.
وقد استعمل منزل من المنازل المحاذية للمحور شمال- جنوب، من المجموعة الثانية على اليسار، استعمل فيما بعد ككنيسة مسيحية.



إله النهر



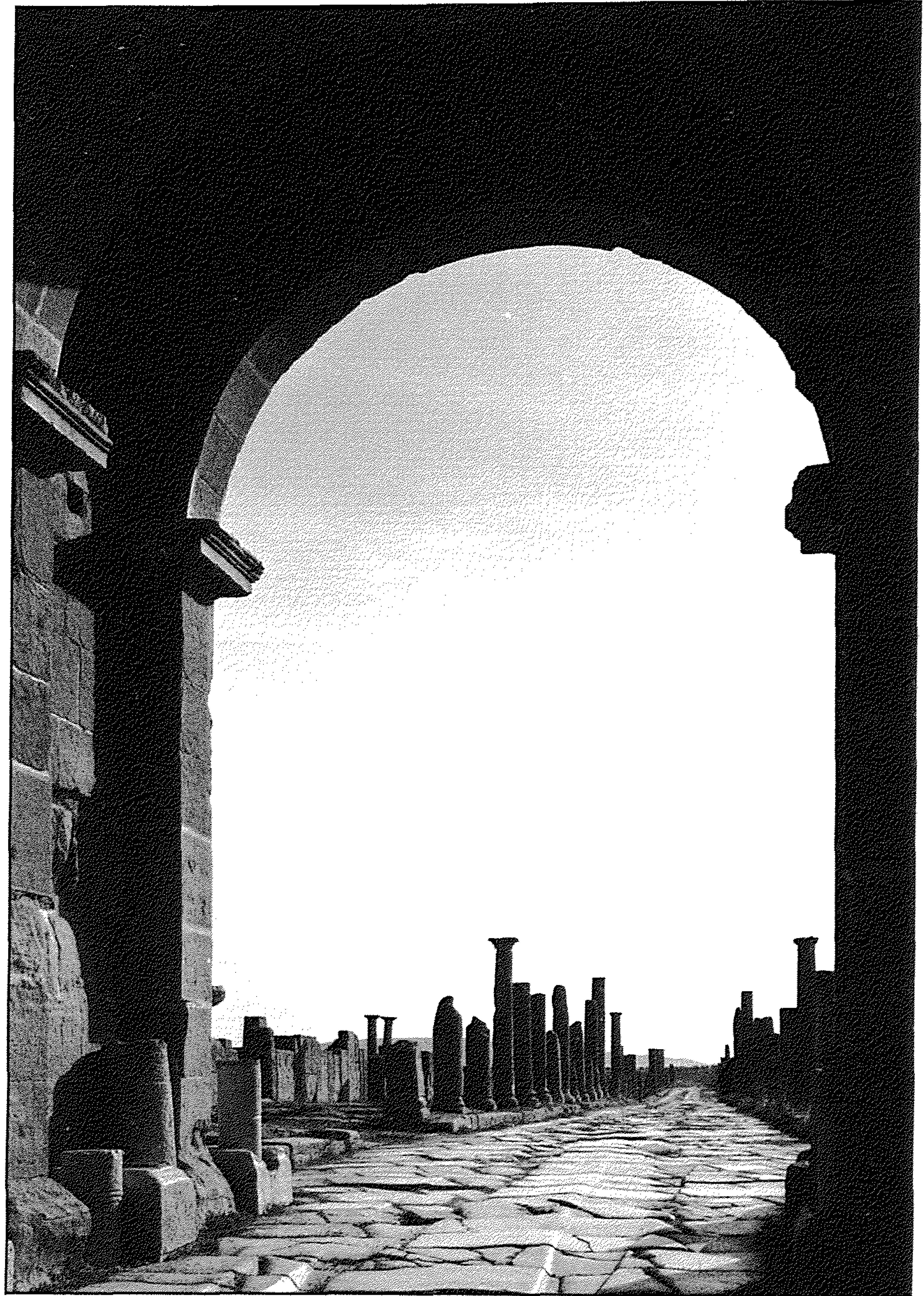
نبتون على عربته

تصميم البيت الواقع على المحور شرق- غرب ، قرب الميدان والمسمى " ذو الحدائق"، من الطراز الكلاسيكي، متناظر ومحوري، وقد كان مخصصاً ربما للشخصيات الرسمية التي تمر بالمدينة. يؤدي بهوه إلى فناء ذي أعمدة عبدت أروقتها بالفسيفساء، ويفتح على غرف مختلفة صغيرة الحجم، منها الغرفة المركزية المعبدة بفسيفساء ذات رسوم نباتية. ويوجد بئر في مركز الفناء المزين بأحواض أزهار نقشت عليها أقنعة.

وفي الربع الشمالي الغربي للمدينة وهو حي سكني أساساً، يوجد بيت كورفيديوس كريمنتيوس ، وهو اسم المالك الذي رممه في القرن الثالث أو الرابع ، لا يزال يحتفظ بمراحيض في حالة جيدة. وإلى جنوب هذا البيت نجد منزل ل. يوليوس يانوآريوس الأنيق والمريح، وبه حمامات خاصة كان يوجد فيها قديماً تمثالا آلهة الصحة: إيسكولاب و هيجي؛ وقد رمم فيه خلال الفترة المسيحية كنيسة أبسيدالية ذات ثلاثة صوامع و قبور في الصحن.

أما الحي الذي يقع في الجنوب الغربي فيعتبر أرستقراطياً بسبب اكتشاف البيوت الشاسعة والفاخرة. ويغطي حي "البيسينا" مساحة مجموعتين سكنيتين ، يفصل بينهما مسلك عند زاوية المحور شرق- غرب والشارع غرباً، بالقرب من قوس نصر تراجان الإمبراطور الروماني. وبعد أن دمرت شمالاً احتفظت بجزئها الجنوبي بصحن محفوف بحوض أنيق من الغرانيت الأزرق ، تعلوه تسعة أعمدة من المرمر الوردي ينفتح على مجموعة من الغرف. والفسيفساء الشهيرة باسم " أفئدة أكانتيس الوردية" التي تعتبر من روائع المتحف كانت تعبد أرضية cecus. بركته

ويعتبر بيت بلوتوس فوستوس سيرتوس و كورنيليا فالنتينا توكسيانا سيرتيا، الذي بني على حدود الحي القديم في الزاوية الجنوبية الغربية، ويمتد على مساحة قدرها 2600متر مربع، عوضاً عن مساحات تراجان التي تقدر ب 400 متر مربع، يعتبر البيت الأمثل والأكمل من بيوت تيمقاد الباتريسية. وفي بداية القرن الثالث كانت هذه البيوت الفخمة والفاخرة التي تبرع أصحابها بسخاء بالسوق الشهيرة، تذكر بالمخطط المعماري لبيوت بومبيي النموذجية، وخاصة ببيوت بانزا. وبعد دهليز مبلط يوجد على يمينه بيت الحارس والحمامات الخاصة، وعلى يساره مرأب، نلج إلى فناء نصف دائري



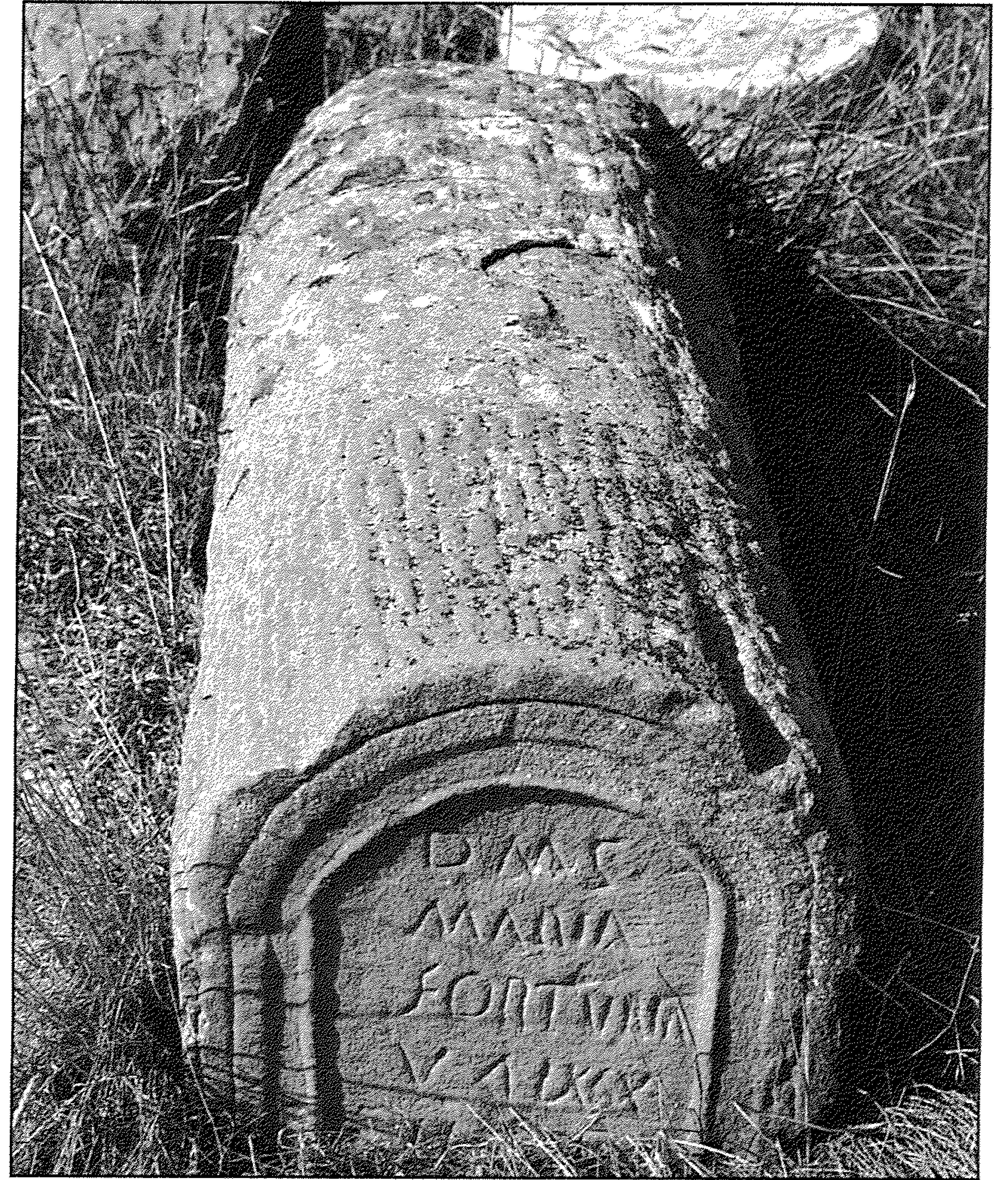
" كان أثرياء بومبيي ينعمون برغد العيش في قصورهم الفخمة ذات الزخارف الصافية والرائقة والمنتعشة. لكن في الواقع ، كل شيء كان رديئا وهزيلا؛ لا وجه للمقارنة له مع جلال ومتانة تيمقاد..."

ج. هانوتو، عضو الأكاديمية الفرنسية



نقش على إحدى درجات الميدان
" القنص والسباحة والمرح والضحك ، لهي الحياة!"

يقع في وسطه حوض محفوف بتماثيل أقيمت على قواعد عليها كتابات يتضرع بها فوستوس وفالنتينا ويتقربا من إلهي الصحة والعافية. وفي وجه الدهليز على يسار غرفة مركزية كمرصعة بفسيفساء زهرية ضخمة ذات خلفية بيضاء، نلاحظ مجموعة من الغرف منها غرفة مدفأة، بالإضافة إلى مكاتب. وعلى مسافة ليست ببعيدة، نجد مرافق البيت المعيشية التي بها فناء ثان نصف دائري يحتوي على بستان وغرف مختلفة منها مخزن ومطبخه. ونلاحظ أيضاً أن حديقة قد تكون احتلت زاوية الشمال الغربي. وبيت هيرما فروديت)الخنثى(مستوحى من بيوت بومبيي، حيث يسبقه صفان من الدكاكين ويواجهه من الناحية الأخرى المحور شمال - جنوب. تقع واجهته على المحور شمال- جنوب وبها رواق مسقوف يوجد مدخله جنوباً على دهليز صغير يؤدي إلى رواق معمد كان يحفه قديماً حوض. وقد كانت



هناك غرف موزعة حول الصحن الكبير المستطيل بأروقة مسقوفة أعمدتها متصلة ببعضها البعض بعوارض بارزة، والأرضية معبدة بالفسيفساءات الشهيرة بـ"طاولات اللعب". وبالبيت عادة قاعتان على شكل حدوة، إحداهما مرصعة بفسيفساء تمثل هيرمافروديت وهي تتزين.

الفندق

نجد وراء سوق الملابس غرباً مبنى شيد طولياً بمداخل ثلاثة، يسبق مدخلين منها أروقة مسقوفة تؤدي إلى ثلاثة أفنية تتخللها قاعات كبيرة متصلة. تحتل الجزء الشمالي الغربي من المبنى حمامات، بينما يحاذيه رواق. إن هذه المجموعة التي يوحي توزيعها تخصيصها لأغراض جماعية وكأنها فندق تضم عدداً من الفسيفساءات: "موكب بحري"، و"طبيعة صامتة" تذكر بمأكولات فاخرة، و" فلومن فاماكورا"، المسماة إله النهر "وذات النعل" على العتبة بين القاعة الباردة والقاعة الفاترة.

الاقتصاد والمجتمع

دكاكين وأسواق

كانت ثاموقادي مقراً حافلاً بالتبادلات التجارية. تعرض في المحلات وعلى الرفوف، وفي أسواق وسط المدينة وعلى غربها فوق مساحات في الهواء الطلق، كانت تعرض مواد من جميع الأصناف يأتي بها مزارعو السهول الخصبة المروية، وكان سكان الجبال يأتون بدورهم بأدوات صنعوها في ورشاتهم. ويتجاذبون أطراف الأفكار والأخبار في النوادي، وفي الأسواق المنتظمة الصاخبة والمزينة، الملائمة للتجمعات البشرية الكبرى. وقاعتان داخليتان محمرابيتان بالإضافة إلى معصرة للزيت، وجدران متناضدة بصفوف آجران، تقع شرق الباب الشمالي، وربما استخدمت لجباية الضرائب عيناً (الحبوب والزيت) من المحاصيل. بالإضافة إلى صف الدكاكين تحت الأروقة المسقوفة شمال الميدان، يوجد في المدينة ثلاث أسواق منها سوقان أصيلتان. تتميز السوق الشرقية بهندسة معمارية بديعة وتطل على المحور شرق- غرب: و ندخل انطلاقاً من دهليز نصف دائري تنفتح من كل جانب منه ثلاثة دكاكين نحو خارج السوق، على فضاء يتشكل من فنائين على شكل نصف دائرة،



مبلطين بالآجر الأحمر، ومحفوفين بأروقة مسقوفة مبلطة، وضعت وراءها 18 دكاناً صغيراً مسبوقة ببسطات حجرية. وتوجد عند التقاء قوسي الدائرة نافورة ماء. وعلى الطرف الغربي الأقصى من المدينة، وبعيداً عن قوس النصر الصرحي على طريق لامبايزيس، نجد سوق سيرتيوس الرائعة والتي بها نعرف انتقال مركز المدينة التجاري إلى خارج الإطار الذي حدده تراجان.

إنه فناء مستطيل نجد في قلبه حوضاً مربعاً يحيط به رواق مسقوف وبه مذبح. وعلى جانبي المدخل ستة دكاكين فيها تماثيل الوهبة منهم: بلوتوس فوستوس سيرتيوس وزوجته كورنيليا فالنتينا توكسيانا سيرتيا، وتماثيل أخرى لهؤلاء الأشخاص تزين أيضاً داخل السوق. و كما نجد حول الميدان النصف دائري تسعة دكاكين أخرى. ولا نجد آثاراً لسور بالقرب من الدكاكين مما يجعلنا نفترض أن السوق بأكمله كان يغلق ليلاً. وبمحاذاته نجد سوق الأقمشة والملابس الذي ضم إليها فيما بعد، وهو عبارة عن قاعة مستطيلة داخلية مبلطة بالجص الأزرق ما عدا مركزها الذي يشكل رقعة شطرنج من الحجر الوردي والجص الأسود. وقد وضع في كوة صدرها الذي يعلوها بدرجتين تمثال الكونكورد.

الأياء الصناعية

نجد في الربع الشمالي الشرقي من المدينة معصرة وعدة محلات للدباغة (وكانت عديدة في تيمقاد) تعرف بصهاريجها الضخمة التي تتم الدباغة فيها بواسطة خليط من الماء والبول. وإلى جنوب منازل سيرتوس وهيرمافروديت، وبعد مدينة تراجان نجد المثلث الذي يرسمه المحور شمال- جنوب والزقاق الذي ينحدر من الكابيتول، ويبدو أن وظيفته كانت صناعية كما يدل عليه وجود مصهرة ومشغل للخزف، حيث عثر فيه على فوانيس مسيحية جديدة. وربما تخللت هذه الورشات دكاكين ومساكن. كما عثر على نوع من النشاط الصناعي جنوب الكابيتول.

سكان ثاموقادي

إن مئات النقوش اللاتينية هي التي تخبرنا عن المدينة وأهلها. وحتى في عصرها الذهبي، بقيت تيمقاد مدينة متوسطة يقطنها حوالي 15000 نسمة،


سوق سيرتيوس (تفصيل)

أي بنسبة 300 نسمة في الهكتار الواحد. وقد كان عدد سكانها الأوائل قليلا جداً ممن انتسبوا لقبيلة بابيريا من المدنيين وقدماء المحاربين في الفيلق الثالث لأغسطس. ويعطينا الألبوم البلدي الروماني، وهو وثيقة مدهشة اكتشفت أجزاء منها في الفترة ما بين 1875 و1940، يعطينا معلومات عن تشكيلة مجلس شيوخ المدينة في العام363، وعن المؤسسات والطبقة الحاكمة في تيمقاد في نهاية القرن الرابع. واكتشاف منازل الأشراف مثل منزل سيرتيوس وهيرمافروديت تعطينا فكرة عن الترف الذي كانت تعيش فيه البورجوازية الأفريقية في القرنين الثاني والثالث. وإذا كان البذخ لا يزال بادياً في الأفنية المحفوفة بالأروقة المسقوفة، وفي الحدائق والنوافير التي تزينها، وفي أرضيات الفسيفساء، وفي الحمامات الخاصة، فإننا لا نعرف شيئاً عن البؤس الذي كان يتاخم هذا الترف. وتذكر مجموعة الأدوات البرونزية والفخارية الصغيرة التي يحتفظ بها المتحف بالحياة اليومية لسكان تيمقاد: تلك القلة كان ينقل بها الماء من النبع الذي جف الآن، وذاك المصباح كان ينير بيوت الأثرياء أو الفقراء، وأقفال وخناجر، وملاعق كلها أشياء متواضعة. والشيء نفسه بالنسبة لعشرات التماثيل الصغيرة المنذورة للإله زحل، إذ على الرغم من مظهرها المعماري والزي الكلاسيكي للأشخاص المنحوتة، إلا أنها لا تمت بصلة للفن الرسمي الروماني، بل ترتبط بتقاليد بدائية غالباً ما كان لها شواهد في أفريقيا تتمثل في تماثيل ومسلات بربرية وبونية أقدم بكثير. وأخيراً تلك المشاهد على المصابيح التي استبدلت فيها المغامرات المشهودة واليومية للرجال والآلهة برموز مسيحية.

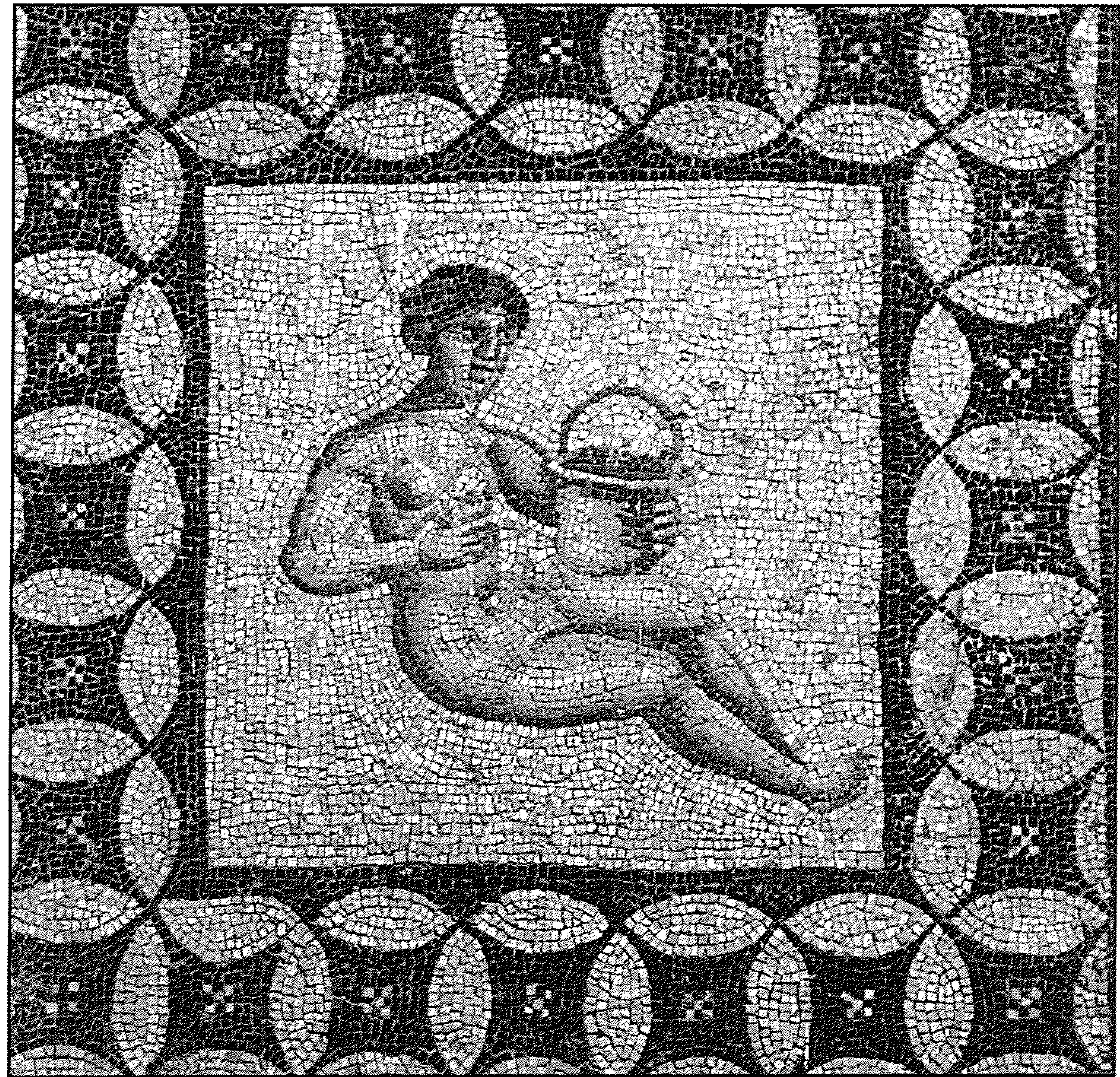
كان لسكان هذه المستعمرة الرومانية- الأفريقية النائية مسرحاً و14 حماماً للترفيه عن أنفسهم. إذ لم يكن فيها سيركاً أو مدرجاً، لكن كان بإمكانهم الذهاب إلى مدرج لامبايزيس على بعد 20 كم منها. إن أسماء مثل مادور و فرونتون و آبوليه، وأغسطين تذكر بأن ازدهار مناطقنا كان فكرياً أيضاً. مع أن الكتب في أفريقيا، كما في غيرها من المناطق، كانت سلعة نادرة ومكلفة، وكان بوسع القليل من الناس اقتناؤها. و من كل المكتبات العمومية التي كانت موجودة في العديد من المدن، لم يعثر في أفريقيا سوى على المكتبة التي أهداها في بداية القرن الثالث إلى ثاموقادي السناتور م. لوليوس كوينتيانوس فلويوس روغاتيانوس الذي كان أصله من المدينة. وقد قدّر هذا الكرم حق قدره إذا ما احتكمنا إلى قاعدة تمثال - اكتشف في العام 1941 في حصن بيزنطي- عليها شهادة مكتوبة تعبر عن امتنان مدينة ثاموقادي لكرم المانح. وفي نفس الفترة،كان ب. فلويوس بودينس بومبونيانوس الملقب بـ فوكونتيوس، والمتحدر من المدينة والعضو في نخبتها، كان من أشهر النحويين، على الرغم من ثقل حياة مهنية عمومية متألقة

العبادات والمقامات

كانت صور الآلهة تزين البيوت الخاصة والأبنية العمومية على حد سواء، والكتابات تدل على مدى تمسك أهل ثاموقادي بالدين.

الآلهة الإغريقية- الرومانية وآلهة الشرق

علاوة على الثلاثية الكابيتولية والإله الحارس للمستعمرة التي تنتصب معابدها خارج المستعمرة الأصلية، فإن الكتابات اللاتينية تشهد بقوة أكبر من الصروح أو التماثيل، على تنوع الآلهة الرومانية التي كان يكرمها سكان ثاموقادي. وقد شيد لإله النصر أو للإمبراطور تراجان معبد على الواجهة الغربية للميدان، وصرح لإله الثروة على مقربة من la Curie . وتحتل ثلاثة مقامات قمة تلة المسرح يقال أن أحدها يؤوي الأسرار الديونيتية، والثاني مخصص لآلهة السيريريين. وفي جنوب الكابيتول، تحتفظ تلة أخرى ببقايا ثلاثة معابد مغفلة، قد يكون أحدها مكرس للإله عطارد. وهناك العديد من التماثيل والنذور التي تذكر إيسكولاب و هيجي، ونبيتون وفينوس وهرقل وديانا. وعبادة الصولأغسطس، وسيبيل وسيرابيس كانت لها مكانتها في بانثيون المدينة.



المستحمة

في مجلس الشيوخ بروما، وقد جمع بين الطلاقة الإغريقية والجزالة الرومانية، حسب كتابة منقوشة على قاعدة في الميدان أهدته إياها مستعمرة النظام البلدي الروماني حرصاً على تكريم ابن المدينة. وقد كان هذا الإهداء بالخط الذي لم يسبق له مثيل إلا في خمس أخرى منها ذلك الموجه لابنة فارس روماني يدعى م. فيرّيوس فلويوس يوغرطا، كان مبشراً لظهور الخط الصغير الكاروليني للقرن التاسع الأوروبي. إذن، فقد ولدت هذه الأحرف الجديدة في ثاموقادي أو في منطقتها، أحرف أكثر حرية من الأحرف الكبيرة الأغسطية النبيلة. ومع تركة فكرية كهذه، يمكننا أن نفكر مثل "م. لو غليه"(Le Glay) بأن قيمة الخلافات في القرن الرابع بين أوبتات و غودينتيوس من جهة وأغسطين من جهة أخرى قد جلبت الشهرة لعاصمة الدوناتية بقدر ما فعلته شخصيات هؤلاء الأساقفة أو العزيمة الصارمة للمتمردين السيركونسليين النوميديين

مقام الإله زحل

كان البانثيون الإفريقي غنياً أيضاً بالآلهة الرومانية من حيث الأسماء والمظهر،لكن الإخلاص بقي في السرائر للأصول.

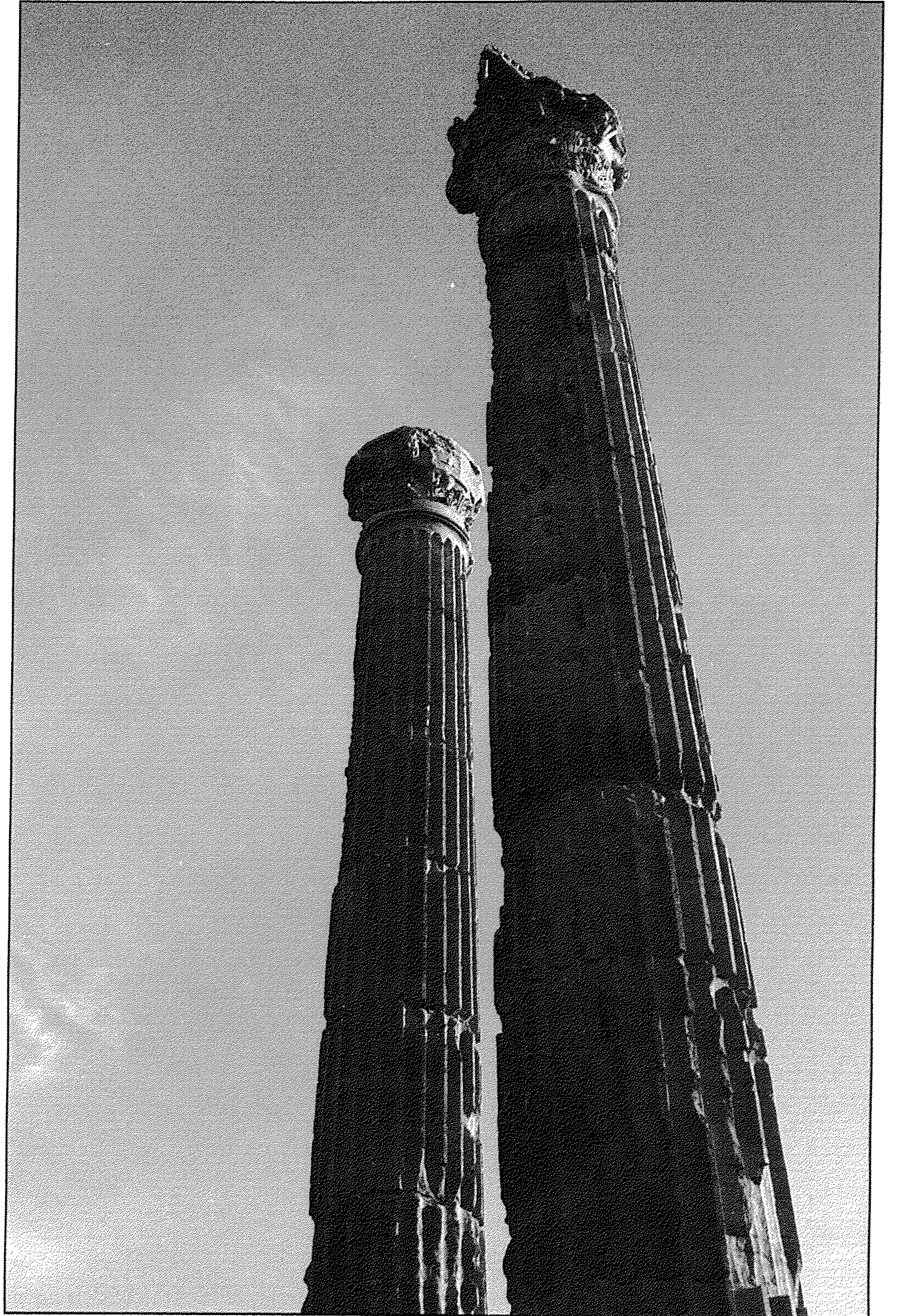


تمثال لساتورن

وهكذا استوعب زحل وهو إله بربري قديم، الإله البوني بعل حامون، واتخذ اسم ساتورنوس الإله الروماني المنسي منذ أمد بعيد. وفي الشمال، خارج المدينة الأصلية لثاموقادي، يكلل بناء أكمة صغيرة على بعد 400 م من حمامات فيلادلفيس. لم يبق منه الآن سوى البنى القاعدية لكن لا يزال مخططه بادياً. يتربع المعبد الموجه شرق- غرب على منصة في آخر فناء مستطيل واسع، يتم الوصول إليه عن طريق ما يشبه البهو بغرفتين على جانبيه، تحفهما أروقة مسقوفة على الأضلاع الثلاثة. ويتألف من ثلاث قاعات مرتفعة، في الوسطى منها هيكل رباعي الأعمدة يتجاوز الفناء الذي نصل إليه بواسطة سلم من تسع درجات. ويوجد في وسط الفناء على محور المعبد مذبح ضخم ذو سلّم، مسبوق بفضاء لتقديم القرابين والأضحيات. كما توجد بمحاذاة الأروقة الشمالية والجنوبية أربع قاعات كانت تستخدم ربما للتعليم ولتناول الوجبات. وقد استخرجت الحفريات أواني قربانية، وتماثيل صغيرة ومسلات نذور، و mensa ، ومصابيح محفوظة الآن في المتحف. إنها شهادات متواضعة ومخلصة لهؤلاء الناس البسطاء الذين كانوا يأتون إلى هذا المكان للتضرع إلى ساتورنوس، سيد الآلهة في أفريقيا الرومانية، وسلطان الدنيا والآخرة.

مقام آكوا سيبتيميانا والحصن البيزنطي

إن هذه الحياة الدينية المكثفة، وإن كانت تعكس مدى ترومن سكان تيمقاد، إلا أنها تمنح مكانة هامة للآلهة الأفريقية لديها، في أماكن لا نشك في أصولها الأهلية. وقد أسفرت الحفريات التي جرت في الحصن البيزنطي في الفترة من 1938 إلى 1956، عن إظهار مجمع ثقافي وعلاجي واسع يرجع للحقبة السفيرية، يتألف من ثلاثة مقادس - في المركز جينيوس باتريا، أي آلهة أفريقيا، وفي الشرق سيرابيس، وفي الغرب إيسكولاب- وحوض كان في الماضي ملبساً بالرخام، ونبع آكوا سيبتيميانا، وصحن واسع تحفه الأروقة المسقوفة من ثلاث جهات، يحيط بها درابزين من البرونز. ونظراً لمساحته التي تبلغ 7000متر مربع، فإنه يعتبر من أكبر المجمعات الدينية في أفريقيا الشمالية، ومن أوسع المقامات في الغرب. وقد كشفت لنا كتابة عن اسم النبع و

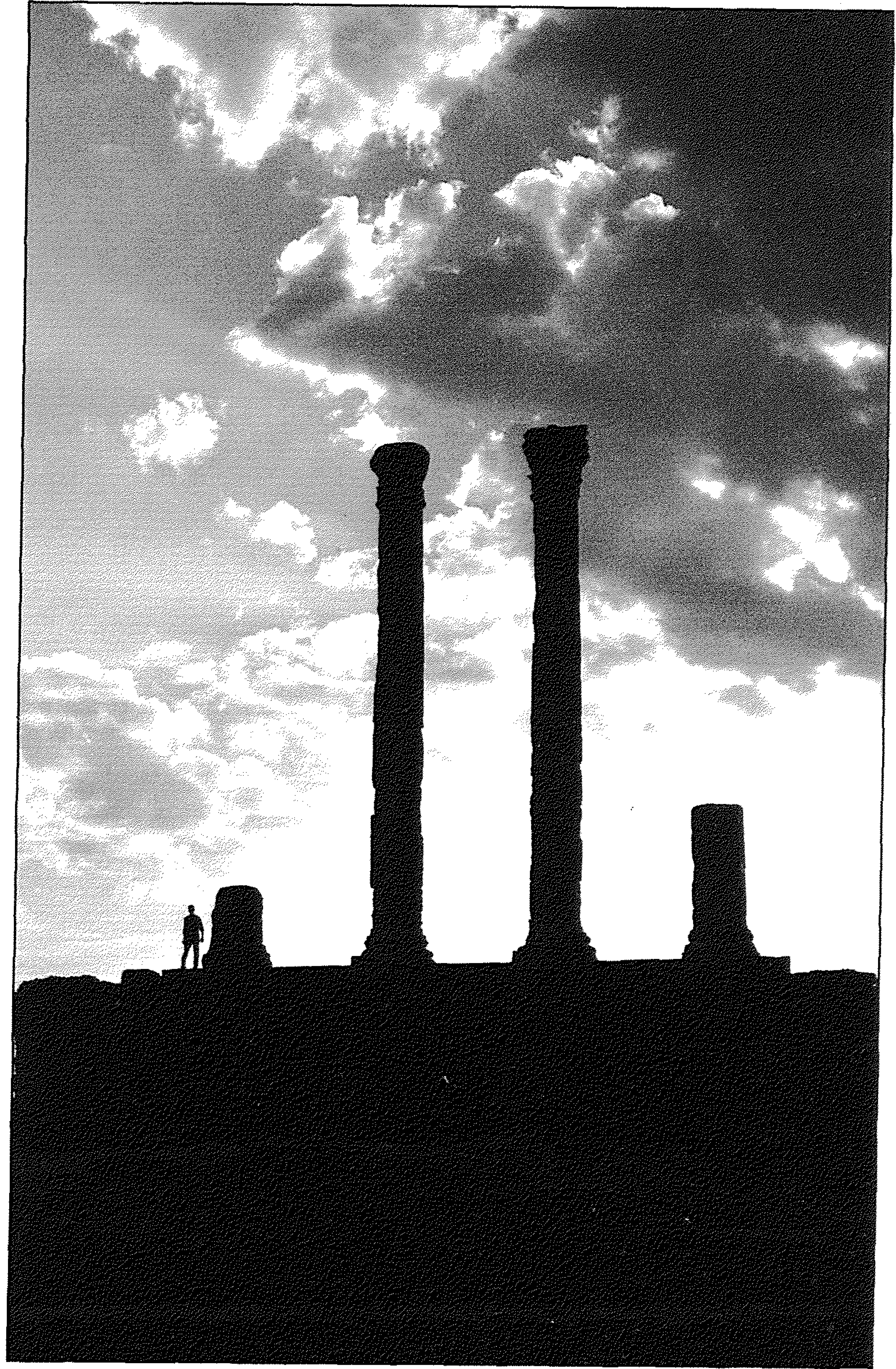


كشفت لنا كتابة عن اسم النبع ووصفت لنا التحسينات الفاخرة التي أقرها الإمبراطور كاراكلا في العام 213.

بني فوق هذا المجمع الديني المهيب في العام 539، بأمر من القائد العسكري سولومون حصن من أفضل الحصون حفظاً في أفريقيا. وهو عبارة عن مربع أضلاع ضخم (112م×67م)، توجد على زواياه الأربع وفي وسط كل واجهة منه أبراج مربعة الشكل، لا يزال يصل ارتفاعها اليوم إلى أكثر من 12 متراً عن مستوى الأرض، ويبلغ سمك أسوارها 2،50 م تقريباً فيما عدا الأبراج. ويكتظ داخل الحصن الذي يتم الدخول إليه من باب واسع ذي عتبتين، ينفتح على البرج المركزي الشمالي، و كان في الماضي محمياً بالحديد المصفح، يكتظ بأبنية متعددة : ثكنات للجنود، وحمامات، وكنيسة صغيرة بباحاتها المعمدة الثلاث، ومذبح له سيبوريوم (عثر فيه على صندوق يحوي آثاراً مقدسة)، ومعمدها الصغير، كما عثر تحت البلاط على ناوُوس بسيط وناووس من الرخام ذي نقوش سينية (حرفS) معروض أمام المتحف. وقد غطي الفناء المركزي بأبنية بربرية.

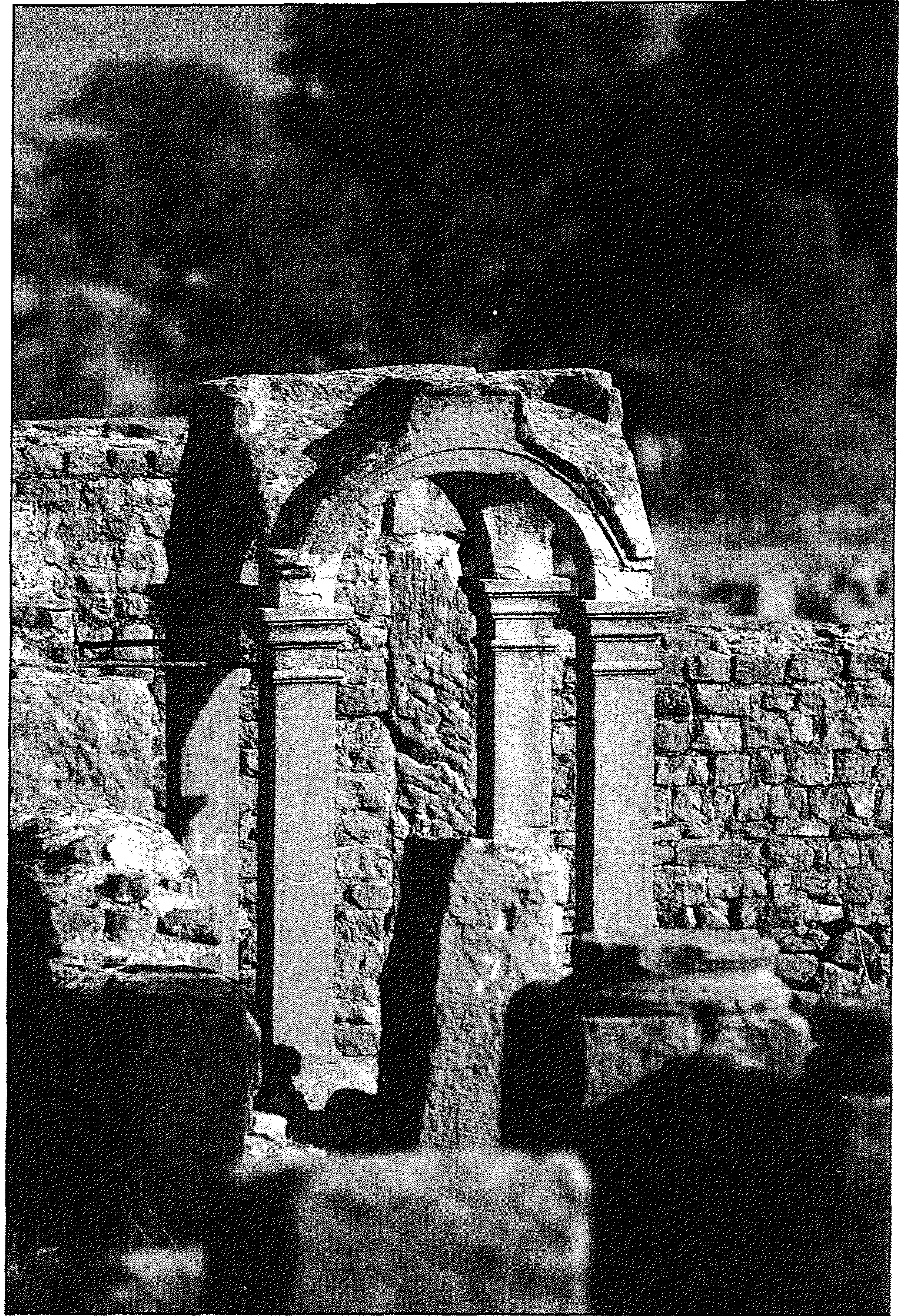
المسيحية

دخل مجتمع تيمقاد في المسيحية مبكراً، وكان له أسقفه منذ العام 256، وشهداؤه بعد ذلك بوقت قليل تحت الحكم الفاليري (253-260) أو الديوكليتي (284- 305). ولا يعرف الشيء الكثير عن هذا المجتمع على الرغم من دزينة الكنائس الصغيرة المشيدة هنا وهناك، بمواد بناء متفرقة أو معاد استعمالها. وقد شيد على مقربة من المقبرة الوثنية في فترة غير محددة كنيسة لها باحات معمدة ثلاث، وملحقات متفرقة، والكل مسبوق برواق ذي ستة أعمدة على جانبيها غرفتان صغيرتان. وفي وسط الباحة المعمدة المركزية حفرة بها ناووس، وتنتهي بكوة مذبح يغطي مدفناً كنسياً. وقد استعمل فناء الكنيسة من الجهة الشمالية كمقبرة. كما تم الكشف على يسار باب الضاحية الغربي عن كنيسة ذات مخطط بازيليكي تتصل باحتها الرئيسية المعمدة بمعمدة. وقد حظيت المدينة بصفتها عاصمة للدوناتية من طرف الأسقف أوبتات(388- 398) بأهم مجمع مسيحي يشتمل على كنيسة ذات باحات معمدة ثلاث، وبيت للأسقف، ومعمدة مزينة



الكابيتول، تحدي روما للأوراس

بفسيفساء لا تزال على حالها. ومن المفيد أن نذكر هنا بالتحالف بين هذا الأسقف وبن جيلدون شقيق فيرموس وكونت أفريقيا المتمرد على روما. وبعد انضمام مجمل الكهنوت الدوناتي للسلطة الكاثوليكية، أضحت تيمقاد آخر معقل للدوناتية لا تجد فيها القرارات الإمبراطورية أذناً صاغية لمدة عشرين سنة بعد موت أوبتات!



تمثال للإله زحل



منزل في تيمقاد



الصناديق والنواويس الثقيلة المنحوتة أحياناً أو التي تعلوها شاهدة. والمثوى المؤثر أكثر من غيره يقع في جنوب المدينة، وهو عبارة عن مدافن مسيحية شاسعة تحيط بكنيستين، تحوي ما ينيف عن 10000 قبر تحت الآجر، منها القبور الفردية أو الجماعية، وأغلبها مغفل الهوية.

المتحف

يقع مبنى المتحف في آخر ساحة تحف بها أروقة مسقوفة جلبت أعمدتها من الموقع الأثري، وله مدخل عظيم جيء بإطاره المنحوت من كنيسة القرن السابع. وقد صمم ليحوي المجموعة الرائعة من الفسيفساء التي كانت تغطي أرضيات المنازل والحمامات. لكنه

عالم الأموات

كان القانون الروماني يمنع الدفن داخل المدن، لذا كانت المدافن تبتدئ على حوافها وتنتشر عموماً على طول الطرقات. لكن في الفترة المتأخرة، لم يعد الناس يحترمون المحظورات القانونية، مما يفسر وجود قبور مسيحية في قلب مدينة تراجان، وفي بيت إيانواريوس على سبيل المثال.ثم أنشئت الضواحي فوق قبور السكان الأولين لثاموقادي. وقد عثر في المقبرة الصغيرة التي تمتد قرب الحمامات الكبرى للغرب على بعض أندر الكتابات المسيحية في تيمقاد، ومنها ما كان بالفسيفساء.

إن مدافن تيمقاد غير معروفة بشكل جيد، لكن المقبرة التي اكتشفت غرب المدينة على بعد 200م تقريباً من باب الضاحية، على طول شارع لامبيز، تعتبر من أهم المقابر الوثنية المعروفة لحد الآن. يوجد فيها قبور لجثث محروقة وقبور لجثث مدفونة، وكذلك تنوع كبير من الصروح الجنائزية، من كومة التراب البسيطة المعززة بالآجر، تقابلها



قوس نصر تراجان



يؤوي أيضاً كل مستخرجات الحفريات التي جرت في الموقع من 1888 إلى غاية الاستقلال، مع أن بعضها قد أخذ إلى متحف اللوفر ومتحف الفنون العتيقة في الجزائر. يرى الزائر على طول الجدران الخارجية وتحت الأروقة وفي القاعات، تماثيل و نذوراً منحوتة تكمل ما نعرفه عن الحياة الاجتماعية والثقافية لأهل ثاموقادي، وكتابات لاتينية تحدد هوية الصروح المستخرجة وتعطي معلومات عن الحياة المهنية لأعيان المدينة، كما يرى كذلك أدوات مختلفة من الفخار والعاج والبرونز، تعيد تمثيل بعض جوانب الحياة الحميمة. إنها مجموعة تعطي فكرة عن ازدهار هذه المدينة الأفريقية وحيويتها الفكرية، وعن مدى الكمال الذي بلغه الفن الروماني- الأفريقي، وعلى الخصوص ذلك الفن الأكثر ابتكاراً وأصالة، ألا وهو الفسيفساء.



قلعة
بني حماد

جمال سويدي

تنصب قلعة بني حمّاد بقايا قصورها وسورها وصومعة مسجدها على الخاصرة الجنوبية لجبل معديد. وتقع على بعد بضعة عشرات من الكيلومترات من مدينة المسيلة التي تأسست في القرن الحادي عشر، وأضحت عاصمة سلالة كان لها دور هام في التاريخ المغاربي.

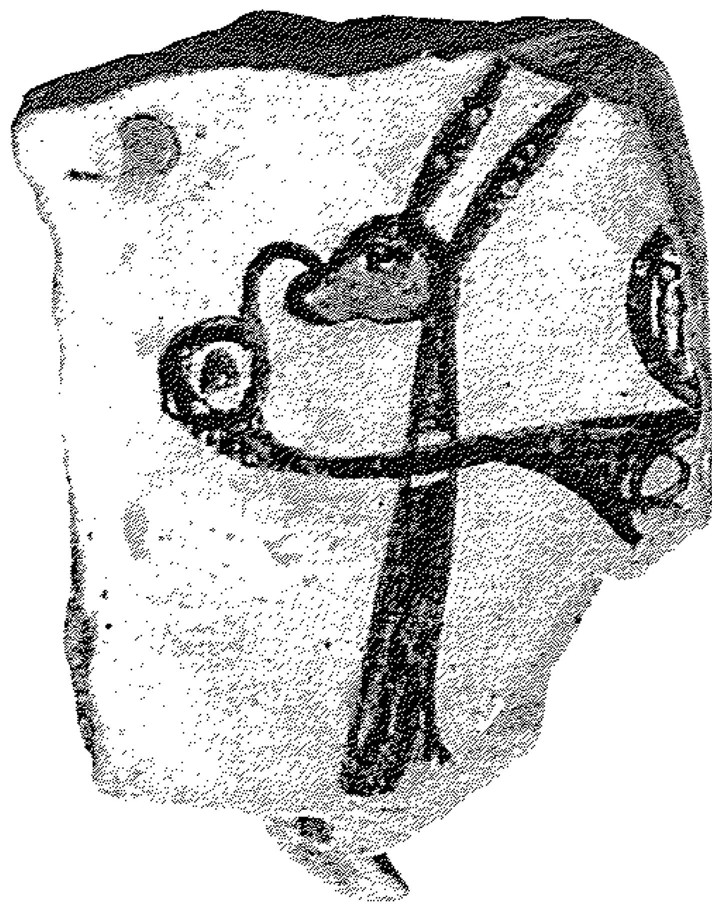


تأسيس القلعة

في بداية القرن العاشر (الرابع للهجرة)، فتح عبيد الله المهدي الذي كان يزعم الانتساب إلى سلالة الرسول محمد (ص) جزءاً كبيراً من البلاد المغاربية، وأسس الأسرة الفاطمية. وما انفك الفاطميون يندفعون بفتحهم نحو الغرب إلى أن امتدت سيطرتهم من طرابلس في الشرق إلى تلمسان في الغرب. وقد اضطر الفاطميون نظراً لامتداد أقاليمهم التي لم يكونوا قادرين على تسيير شؤونها من عاصمتهم القيروان، ونظراً لأطماعهم في غزو مصر ومن ثم الشرق الأوسط، اضطروا إلى تفويض سلطتهم لقوى إقليمية ذات نفوذ. وهكذا انضوى زيري ابن منعد رئيس قبيلة صنهاجة في حدود العام 925، بعد أن احتل المتيجة وجبال تيطري، انضوى تحت لواء الخليفة الفاطمي.

أسس زيري المكلف بمراقبة الجزء الغربي من الأقاليم، أشير وهو مكان محصن على الطرف الجنوبي لجبل تيطري، وأخذ يوسع من نفوذه شيئاً فشيئاً. وفي العام 947 صحب زعيم الصنهاجيين الخليفة المنصور لدى مطاردته لأبي يزيد "الرجل ذا الحمار" الذي كاد أن يقوض حكم الأسرة الفاطمية. وبعد محاصرة أبي يزيد في حصن تقربوست، القلعة مستقبلاً، أصابه زيري بإصابة مميتة. ومنذ ذلك الوقت، ما فتئ سلطان الصنهاجيين يتعاظم، وفي العام 972 عندما استقر الفاطميون في مصر، منح الخليفة إمارة البلاد المغاربية لبولوغين ابن زيري الذي أسس السلالة الزيرية، وحكم إلى غاية منتصف القرن الثاني عشر.

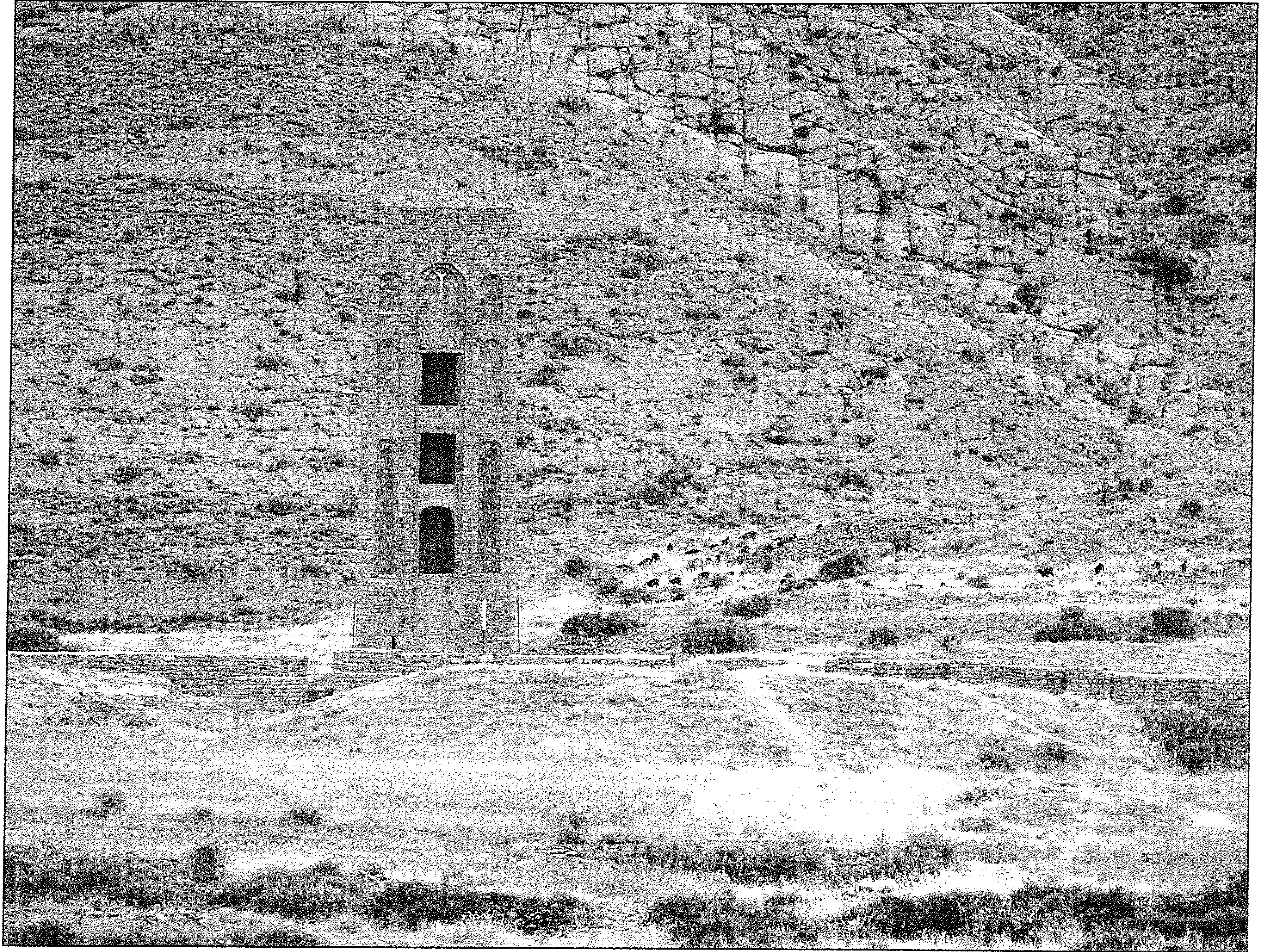
عناصر تزيينية





" ينبغي أن تكون في مكان وعر المسالك شاهق الارتفاع فوق جزيرة أو على نهر لا يعبره سوى جسر. فلا يطرقها طارق من العدو، وتصير حصناً حصيناً."

عبد الرحمن ابن خلدون



المسجد وراء الصومعة

" ما لبثت القلعة أن بلغت شأناً عظيماً من الازدهار (...) و يعود السبب في توافد المسافرين إليها كثرة الخيرات التي تمنحها العاصمة الجديدة لأولئك الراغبين في العلوم والتجارة والفنون."

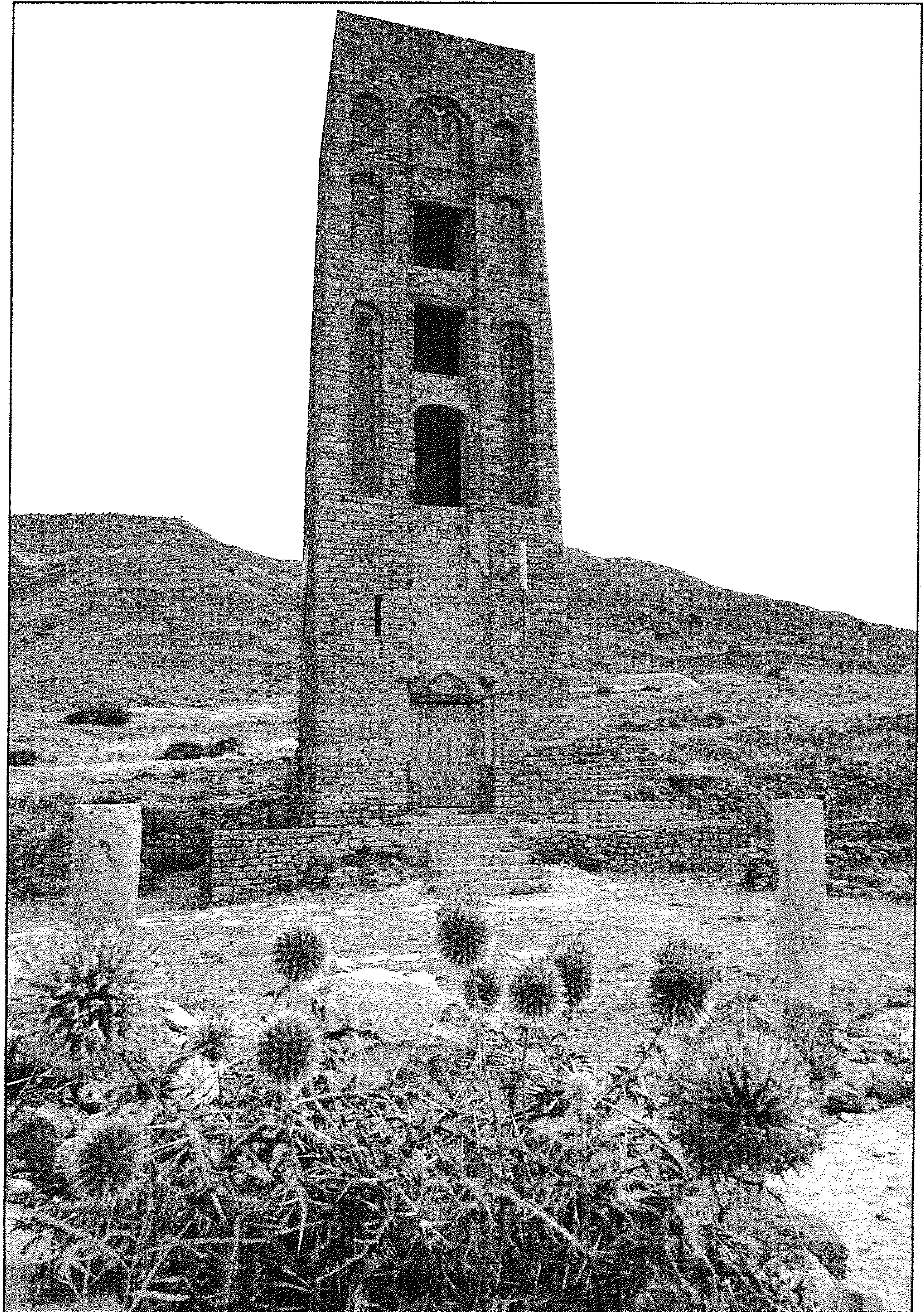
عبد الرحمن ابن خلدون

في العام 996 بعد عهد بولوغين وابنه المنصور، ارتقى بعديس ابن المنصور سدة الحكم وهو لم يتجاوز بعد الثانية عشرة من عمره. وقد عارض أهل الأمير الخلافة أباً عن جد، وطالبوا بالرجوع إلى نظام الشورى في تعيين الزعيم. فالتف معارضو بعديس آنذاك حول أعمام والد الأمير وشب صراع عنيف بين الأخوة الصنهاجيين. فوقف حمّاد ابن بولوغين في صف ابن أخيه، وأشهر السلاح في وجه أعمامه الذين من لم يقتل منهم اضطر إلى النفي في الأندلس.

و قد كان الزيريون، مثلهم مثل أقرانهم الأمراء الفاطميين، يتعرضون باستمرار لهجمات من جهة الغرب، يشنها عليهم الزناتيون حلفاء خليفة قرطبة. واتساع الأقاليم وخطر الإغارة حمل بعديس على تفويض جزء من سلطته لحمّاد الذي كان مكلفاً بمراقبة كل الأقاليم الغربية. وقد قام حماد بمهمته على أكمل وجه بفضل قوة عزيمته وحنكته العسكرية. وبما أن أشير كانت نائية بالنسبة للأقاليم الواجب مراقبتها، والتي تمتد من تيارت في الغرب إلى تبسة في الشرق، فقد أسس حمّاد القلعة في العام 1008، لكي يثبت مركزه وسلطانه. ووقع اختياره على مكان يدعى قلعة أبي طويل، يقع في الناحية الجنوبية من جبل معديد، شمالي شرق مسيلة، كان قد لجأ إليه أبو يزيد، وقاوم فيه لأشهر عديدة جنود الخليفة الفاطمي. فجعله مقر سلطته، وبنى فيه عاصمته التي أصبحت تسمى "قلعة بني حمّاد".

تاريخ الأسرة الحمّادية

كان بعديس قلقاً من تعاظم سلطان عمّه. وبعد أن اشتد عوده وأصبح السيد الآمر، طلب من حمّاد إعادة الجزء من الأقاليم التي يحكمها إلى المنصور ابن بعديس. فأشعل رفض حمّاد فتيل الحرب في العام 1016، وحاصرت قوات بعديس القلعة لمدة ستة أشهر. ولم يكن خلاصها إلا على يد المنيّة التي اختطفت الأمير بغتة. ثم واصل خليفته المعزّ الكفاح، لكن الاضطرابات المناهضة للشيعة التي انفجرت في إفريقية، وتعنّت حمّاد نجحت في إخماد شأوة العداء وتم اقتسام الأقاليم بين الكيانين ذوي القربى. الكيان الأول في الشرق



وعاصمته القيروان، ولا يزال المؤرخون يطلقون عليه اسم الزيري. والثاني في الغرب وعاصمته القلعة التي حملت اسم الأسرة الحمّادية.

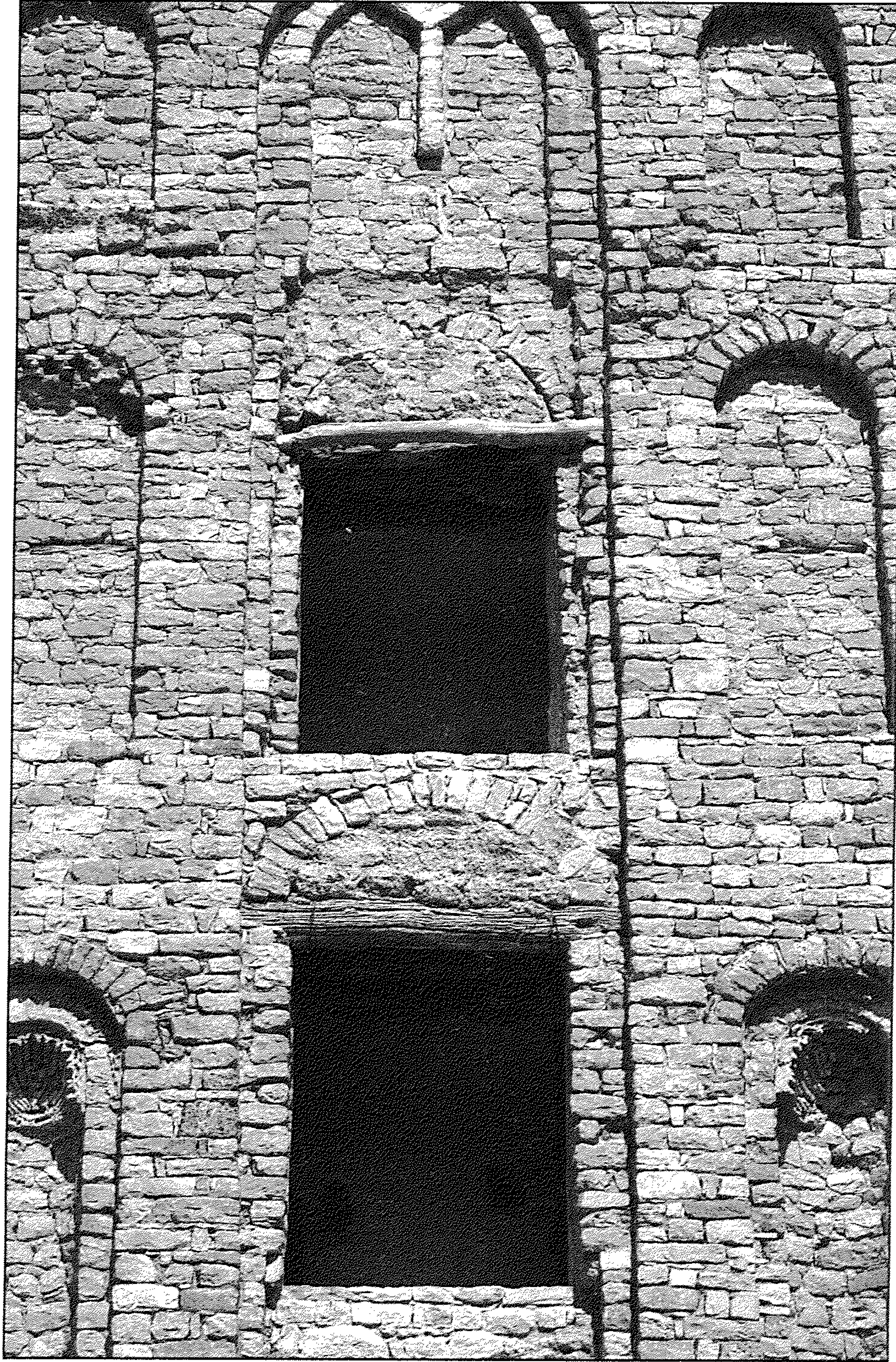
وقد ساهم طول حكم حمّاد (1016- 1029)، ثمّ ابنه القائد (1029- 1054) في استقرار وتعزيز الأسرة الجديدة. فكبرت القلعة وازدانت بصروح جديدة، وما فتئ عدد سكانها في ازدياد يطورون فيها الزراعة والصناعة والتجارة والنشاطات الفكرية. حتى وإن هزت الأسرة بعض مشاكل الخلافة، إلاّ أنّها لم تقف حجر عثرة أمام ازدهار المدينة وإشعاعها. وقد عرفت القلعة عصرها الذهبي، ولبست حلّة من أجمل الصروح في عهد كل من بولوغين (1055-1062)، والنّاصر (1062- 1081)، والمنصور (1089- 1105).

غير أن الناصر أسس في العام 1067 مدينة بجاية، سعياً منه كما يقال لتملك مركز بحري قوي لغزو إفريقية التي استشرى فيها الانحطاط. وأصبحت هذه المدينة بعد وقت قليل عاصمة للحماديين. وما لبثت الأسرة التي أسسها حمّاد أن انهارت، عندما اضطر يحيى وهو آخر أمرائها في العام 1152 على الهرب من المدينة أمام زحف جيش الموحدين. أما القلعة، فعلى الرغم من أفول نجمها بقيت تلعب دوراً عسكرياً واقتصادياً هاماً إلى نهاية القرن الثالث عشر حيث هجرها أهلها على ما يبدو.

موقع القلعة

إن موقع القلعة يذكرنا بموقع أشير التي أسسها زيري ابن منعاد. فمدينة حمّاد هي مدينة جبلية تبعد بحوالي عشرين كم عن المسيلة، وقد استخدمت عناصر تضاريسها لضمان الدفاع عنها وعناصر ثروتها المائية لتأمين تزويدها المنتظم والوفير بالماء.

وقد سكن الإنسان هذا الموقع منذ غابر الأزمنة، وطوال القرون اللاحقة، كما تشهد على ذلك الاكتشافات، وخاصة بقايا سور وفسيفساء تمثل انتصار آمفيتريديا آلهة البحر الموجودة بمتحف العصور القديمة في الجزائر العاصمة. وإلى القلعة التي كانت تسمى كيوانة، لجأ أبو يزيد المتمرد في أواسط القرن العاشر.



" كانت القلعة (بني حمّاد) مقرّ الأسرة ومخزن ثرواتها وكل ممتلكاتها، وترسانة أسلحتها."

الإدريسي

كما عرف هذا الموقع باسم حصن المرآة التي كانت وسيلة لبعث الرسائل في ذلك الوقت.

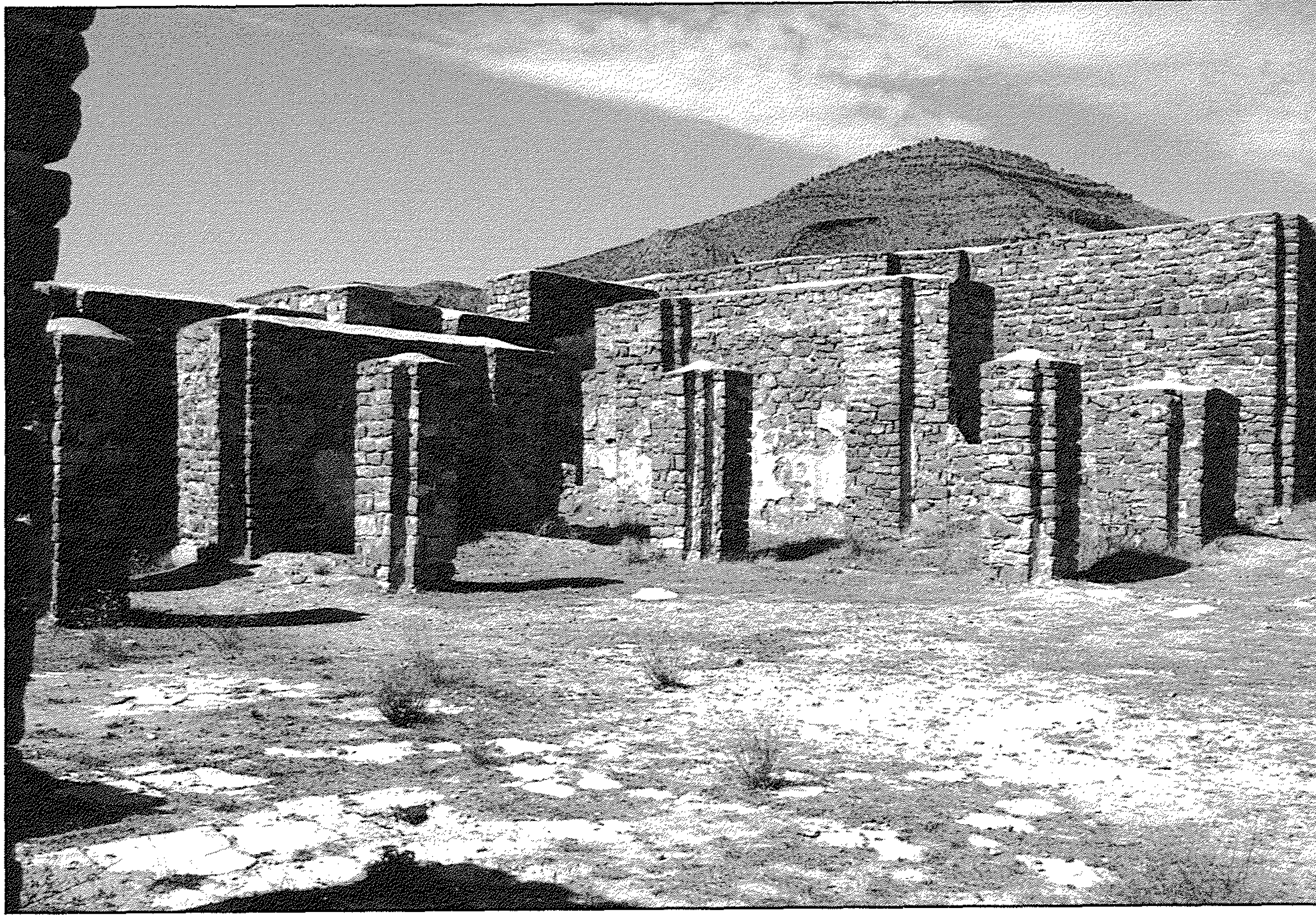
تتمتع القلعة بوضعية استراتيجية من الطراز الأول. فهي تستند على الجانب الجنوبي من جبل معديد، ومحمية من الشمال بجبل تقربوست الذي يبلغ ارتفاعه 1458 م، ومن الغرب بجبل قوراين الذي ترتفع قمّته لـ 1190 م، ومن الشرق والجنوب بالوادي المهيق لواد فرج. ومن هذا الموقع يمكن مراقبة الجزء المركزي من الهضاب العليا، وهي منطقة غنية بالزراعة وتربية المواشي، والأهم من ذلك كونها ممراً إجبارياً بالنسبة للمبادلات التجارية. وبالفعل، فعبر المسيلة تمر الطريق من القيروان فطبنة، فالمسيلة فتيارت فتلمسان إلى أن تصل إلى فاس ثم الأندلس. ومن المسيلة أيضاً تمر إحدى الطرق الرئيسية التي تربط وسط البلاد المغاربية وإفريقية ببلاد السودان، التي يجلب منها ما يشكل الثروة الأساسية لفترة القرون الوسطى ألا وهي الذهب والعبيد.

كل هذه المزايا التي أبرزها أمراء الأسرة ببراعة جعلت من قلعة بني حمّاد من أكثر المدن قوة وازدهاراً في ذلك الوقت. كتب البكري، الجغرافي الأندلسي الذي عاش في القرن العاشر، في وصف المدينة التي يعينها باسمها القديم، أي قلعة أبو طويل، كتب قائلاً:" قصر أبو طويل، تحول من ساحة وغى عظيمة وقوية إلى عاصمة بعد خراب القيروان (في حدود 1050). ومع قدوم كل أهل إفريقية للاستقرار فيها أفواجاً، أصبحت الآن مركزاً تجارياً يجتذب القوافل القادمة من العراق والحجاز ومصر والشام ومن سائر أنحاء الأقطار المغاربية".

ويعود الفضل في أفضل وصف للقلعة بني حمّاد للجغرافي المغاربي الإدريسي الذي ألف كتاباً في القرن الثاني عشر أهداه لروجيه الثاني ملك صقلية:" كانت القلعة مقرّ الأسرة ومخزن ثرواتها وكل ممتلكاتها، وترسانة أسلحتها. وكانت المؤن تخزن فيها لسنة أو سنتين دون أن تفسد، ويوجد فيها فواكه ومنتجات من النخب الأول بأسعار معقولة، كما توجد فيها اللحوم بوفرة. تصلح أراضيها وتوابعها لتربية القطعان وحيوانات السخرة. وتربتها خصبة لزراعة القمح والحبوب، حين يكثر أهلها من حرثها ينالهم الثراء، وحين



درج الصومعة



" ومع قدوم كل أهل إفريقية للاستقرار فيها (قلعة بني حمّاد) أفواجا، أصبحت الآن مركزا تجاريا يجتذب القوافل القادمة من العراق والحجاز ومصر والشام ومن سائر أنحاء الأقطار المغاربية".

البكري

يقلّون يجنون كفاف قوتهم. لا يعرفون الجوع ، وينعمون برغد العيش." وفي موضع آخر، كتب الإدريسي عن القلعة قائلا:" القلعة من المدن التي تملك أكبر الأقاليم، وأكثرها سكانا وأعظمها ازدهاراً وأوسعها ثراء، لها من القصور والبيوت ما ليس في غيرها، كما تملك أخصب الأراضي. قمحها رخيص ولحومها جيدة وسمينة. تتكئ على أكمة مرتفعة صعبة المسلك. وأسوارها تحيط بكل التلال المسماة تقربوست، تشكل قمتها جزءاً من هضبة."

أما ابن خلدون فقد كتب في القرن الرابع عشر حول تأسيس القلعة وتطورها قائلاً:" نقل (حمّاد) إلى القلعة سكان مسيلة و حمزة (البويرة). (...) كما جلب أيضاً الجراوة وهم قوم من بلاد المغرب. وقد فرغ في حدود نهاية القرن الرابع (الهجري) من بناء وتعمير مدينته التي أحاطها بأسوار بعد أن بنى فيها عدة مساجد وفنادق وأبنية عمومية أخرى. وما لبثت القلعة أن بلغت شأواً عظيماً من الثراء، وتزايد عدد سكانها بسرعة، يأتيها الصناع والطلاب فرادى وجماعات من كل حدب وصوب، من أبعد الأمصار و أقاصي الإمبراطورية. و يعود السبب في توافد المسافرين إليها كثرة الخيرات التي تمنحها العاصمة الجديدة لأولئك الراغبين في العلوم والتجارة والفنون."

الأبحاث الأثرية في القلعة

لم يأت ذكر قلعة بني حمّاد ثانية إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وذلك بمناسبة الحفريات الأثرية التي قام بها بول بلانشيه، أستاذ في إحدى ثانويات قسنطينة. فقد مكّنته الحملة القصيرة التي ترأسها في ربيع العام 1897 من إخراج جزء من آثار صومعة المنار إلى النور، وإبراز الأهمية الأثرية للموقع. وبعد بضع سنوات، أي في العام 1908، قام الجنرال بيلييه، وكان رجلاً شغوفاً بالتاريخ وعلم الآثار، قام بدوره باكتشاف آثار قصر البحيرة والمسجد.

التراث الأثري للقلعة

مكنت حملات التنقيب الأثرية المختلفة من الكشف عن وسط القلعة والأبنية الدينية بالإضافة إلى القصور.

وسط القلعة

الأسوار

القلعة، كما يدل عليها اسمها، هي مكان منيع يستخدم العناصر الفيزيائية الطبيعية من تلال ومرتفعات ووديان، ويستخدم كذلك الأبنية كوسط محصن وأبراج لتدعيم القدرات الدفاعية. والأسوار التي يتجاوز محيطها سبعة كيلومترات، وسمكها من 1،20 إلى 1،60 م لها عموماً شكل مثلث – يصفها بوروبية بأنها على شكل فخذ – يحيط رأسه الشمالي بجبل تقربوست، وهي كلمة تعني مقبض السرج ويبلغ ارتفاعه 1418 م قبل أن ينحدر نحو جبل قوراين (1190م) الذي يشكل الرأس الغربي. وانطلاقاً من هذه النقطة تلتحم الأسوار مع خطي واديي واد فرج و واد فاضل وتميل نحو الجنوب مستغلة مرتفعات جروف الواد. أما في الشرق فإن الأسوار تحيط بحي جروانة وتتبع خط الواد لتتوازى مع سور قديم سابق، يعزل هذا الحي، وقد أطلق عليه علماء الآثار اسم"السور الروماني". ثم يكمل السور مساره نحو الشمال ليصل إلى قمة الموقع.

وحسب المؤرخ ابن حمّاد أحد أقرباء أمراء القلعة، فإن وسط القلعة وبقية المدينة قد بناها عبد مسيحي اسمه بونياش.

صومعة المنار

تمت حماية وسط القلعة بواسطة أبراج للمراقبة بالإضافة إلى صومعة المنار التي تعتبر إنجازاً دفاعياً رائعاً يشرف على الوجه الشرقي للقلعة. تتألف الصومعة من برج على شكل مربع طول ضلعه 20 م، ويحتوي هذا البناء الذي تهدم الجزء الأعلى منه، على قاعتين متناضدتين. تغطي القاعة السفلى قبة بأقواس متعامدة تمنحها متانة وصلابة، ويعتقد بأنها كانت تستعمل كسجن، في حين أن القاعة العليا ذات مخطط على شكل صليب ويبلغ طول ضلعها 5م. ويلف حول الصومعة ممر للدورية يرتفع من

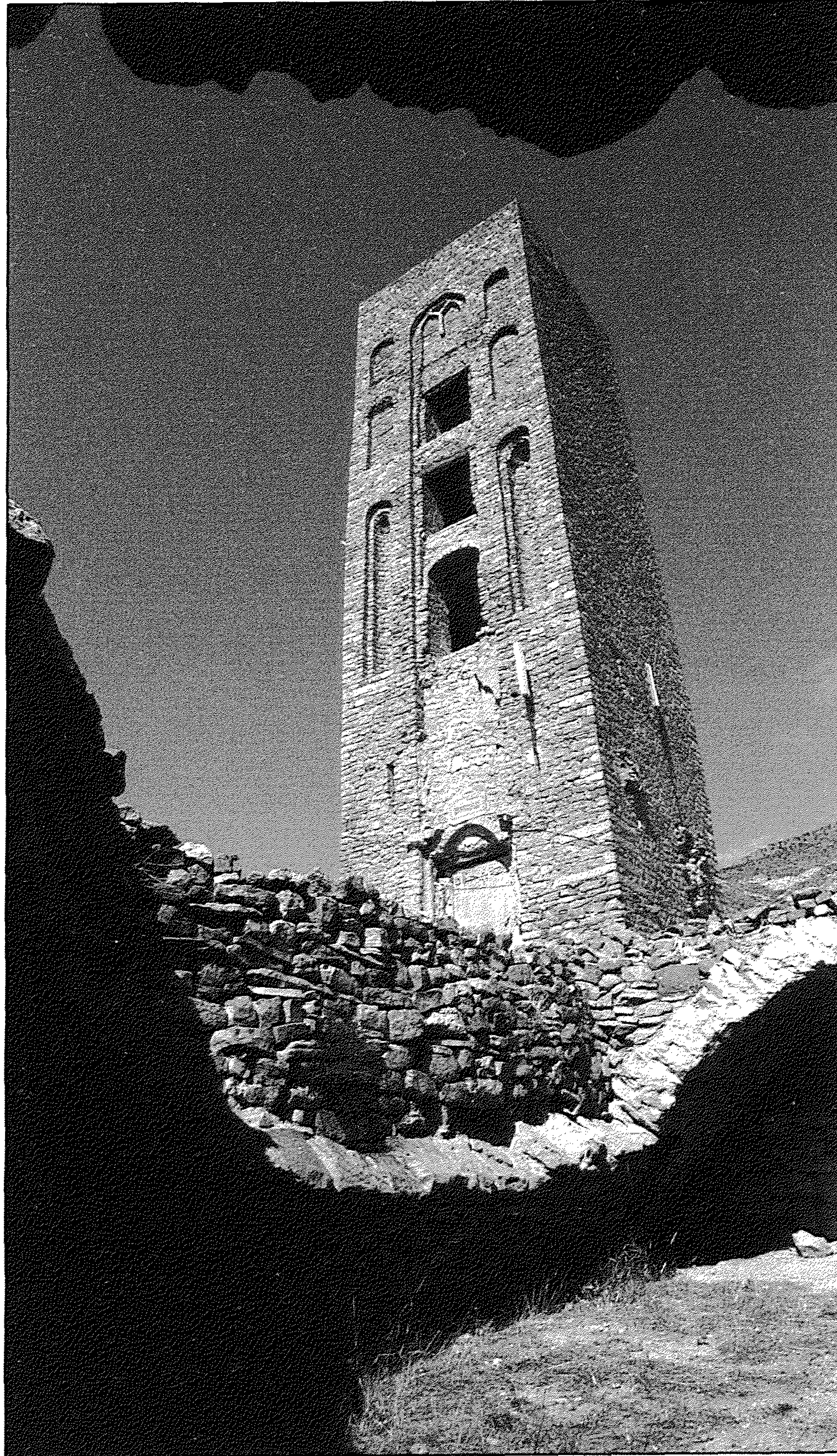


" إن المدن هي الأماكن التي تستعملها الأمم التي بلغت مستواها المرغوب من الترف ورغد العيش."

عبد الرحمن ابن خلدون

أصبحت القلعة ثانية بعد فترة سبات طويل موضوعاً للأبحاث، لكن هذه المرة بشكل أكثر انتظاماً وعلمية من طرف عالم الآثار لوسيان غولفان الذي قام بحفريات في الفترة من 1952 إلى 1956، ثم من 1960 إلى 1962 وذلك في قصر الخلاص وقصر المنار. وقد نشرت نتائج هذه الأعمال الهامة في العام 1965 في كتاب يحمل عنوان" الأبحاث الأثرية في قلعة بني حمّاد".

لكن الفضل في التعمق بمعرفة قلعة بني حمّاد يعود للباحث الجزائري في علم الآثار رشيد بورويبة. إذ تمكن بورويبة بعد عدة حملات تنقيبية قام بها ما بين 1964 و1972، من استخراج المسجد الكبير، والأجزاء الشرقية والغربية من قصر المنار، وكذلك الواجهة الشرقية لقصر البحيرة. وقد نشرت هذه الأبحاث في النشرة الجزائرية لعلم الآثار، وفي مؤلف صدر في العام 1984 عن دار إينال للنشر بالجزائر، تحت عنوان:"الحمّاديون".



القاعة السفلى ليصل إلى قمة الصومعة حيث توجد مرآة منها أخذت الصومعة اسمها.

والكوات الشبه أسطوانية التي تزين واجهات الصومعة مستوحاة من الفن الفاطمي، وهي مطابقة لتلك الموجودة في مسجد المهدية، وكذلك تلك التي نجدها في قصر القبة في باليرمو.

الأبواب والشوارع

توجد ثلاثة أبواب للأسوار تسمح بمرور المسافرين إلى المدينة. باب الأقواس في الشمال يتصل عبر شارع يمتد من الشرق إلى الغرب بباب الجنان. وقد كان على جانبي هذه الجهة دكاكين يبيع فيها الحرفيون والتجار مختلف أنواع البضائع والمنتجات. وفي الجنوب الشرقي باب الجراوة، وهو اسم القوم الذين استقروا في ذلك المكان، يتصل بواسطة شارع يعج كسابقه بحركة تجارية، بالطريق الرئيسي الرابط بين البابين السابقين. ولم يبق من هذه الأبواب سوى باب الأقواس.

الأبنية الدينية

تم الكشف عن بنائين دينيين في قلعة بني حمّاد وهما المسجد الكبير وإيوان قصر المنار.

المسجد الكبير

قام بالكشف عن هذا المسجد تماماً علم الآثار الجزائري رشيد بوروبية. ويعتبر هذا الصرح، بعد مسجد المنصورة في تلمسان، من أوسع الصروح المعروفة في الجزائر بالإضافة إلى تميزه بتزينات مبتكرة.

تستند جدران هذا المسجد الكبير ذي الشكل المستطيل على دعامات سميكة(63،20م على 53،20م). تتألف قاعة الصلاة (53،20 م على 34،20م) من ثلاث عشرة باحة معمدة تتجه نحو الشمال الجنوبي، تتقاطع مع ثماني باحات معمدة شرقية-غربية. والجدار الذي يبلغ عرضه 1،10م، الذي يفصل بين الخمس باحات المعمدة المركزية، والمتعامد مع جدار المحراب، قد أعتبر بمثابة مقصورة من طرف البحاثة الأوائل في هذا



" يتطلب بناء مدينة كبيرة الاتحاد والعدد والتعاون."

عبد الرحمن ابن خلدون

الموقع. وحسب رشيد بوروبية، فإن هذا الجدار لم يبن لكي يفصل الأمير وحاشيته عن بقية المصلين، بل شيد للإنقاص من حجم قاعة الصلاة بعد أن هجر المدينة جزء من أهلها.

ولم يبق من المحراب سوى القاعدة التي بتر الجزء اليميني مما كان كوة موجهة نحو الجنوب، والتي يبلغ عرض قوسها المرتفع 1،80م وعمقه 2،15م. ويستند القوس على عمودين.

للمسجد فناء كبير مستطيل الشكل (53،20م على 26،90م) يتصل بقاعة الصلاة بواسطة عدة أبواب شقت في الجدار، في حين تفتح ثلاثة أبواب على السور الخارجي. وتحيط به أروقة مسقوفة ومبلط ببلاط أبيض، كما يحتوي مركز الفناء على صهريج بحجم معتبر، طوله 11،15م وعرضه 5،40م وارتفاعه 2،80م. وكان المصلون في الغالب يقومون بشعائر الوضوء في الغرف الثلاث الغربية الواقعة في مؤخرة المبنى، حيث اكتشف في إحداها جرة كبيرة. وتوجد في الجهة الشرقية غرفة صغيرة (6،40م على 3،40م) مبلطة بالأحجار ومقسمة إلى جزئين بواسطة قوس مدعم يرتكز على عارضتين، تكون قد استعملت كمكتبة للمسجد الكبير.

أما المئذنة فتعتبر من أشهر المآذن في مدينة بني حمّاد القديمة، وأكثرها قدماً في الجزائر بعد مئذنة مسجد سيدي أبي مروان في عنّابة. وتتألف من برج واحد متناظر الأضلاع يبلغ ارتفاعه 24،70 م وطول ضلعه 6،50م. وكان على المؤذن أن يصعد مائة وسبعاً وعشرين درجة، وهو يدور حول محور مركزي مربع ليبلغ قمة المئذنة وينادي إلى الصلاة.

وهذه المئذنة فريدة من نوعها في العالم الإسلامي، وهي مزينة من واجهتها الجنوبية وتطل على فناء المسجد الكبير بواسطة فتحات على شكل كوات استعمل فيها الخزف المتعدد الألوان. ويصف رشيد بوروبية هذا التزيين قائلاً:" يتألف العنصر التزييني المركزي من لوحة من الحجر المنحوت فوق باب المدخل وقوس خماسي لا يزال يحتفظ ببعض أجزائه بالإضافة إلى ثلاث فتحات فوق بعضها البعض. تأخذ الأولى في جزئها العلوي شكل قفة، والثانية في وسط القوس تماماً، والثالثة مستطيلة ويعلوها مثلث مزين بجزئين من الأقواس. ويوجد فوق الفتحات الثلاث انبعاج به ثلاثة شقوق في مركز القوس المدعوم."

" أما بالنسبة لعناصر التزيين الجانبية ، فهي تتألف من الزخرفة نفسها من الأسفل إلى الأعلى: كوة ذات عمق شبه دائري تعلوها قبة نصفية على شكل محارة، وكوتان بعمق مسطح اختفت منها آثار الزخرفة تماماً."

" ولا يوجد على الواجهات الشمالية والشرقية والغربية سوى شقوق طولية لرمي السهام."



إيوان قصر المنار

اكتشف رشيد بورويبة في العام 1968، جنوب فناء القصر الغربي للمنار إيواناً صغيراً لا يعرف إلا القليل من أمثاله في العالم الإسلامي للقرون الوسطى. إذ يعتبر أصغر إيوان يصلح لصلاة واعتكاف شخص واحد عالي الشأن، من حيث صغر حجمه (1،80م على 1،70م)، ومن حيث ثراء زخرفته بالآيات القرآنية على شكل شرائط في المحراب، بالإضافة إلى الزخارف النباتية المتمثلة في سعف بسيطة أو مزدوجة. ويقارنه علماء الآثار بإيوان قبة الصخرة في القدس الذي يشترك معه ببعض الصفات ويرجع إلى عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان.

القصور

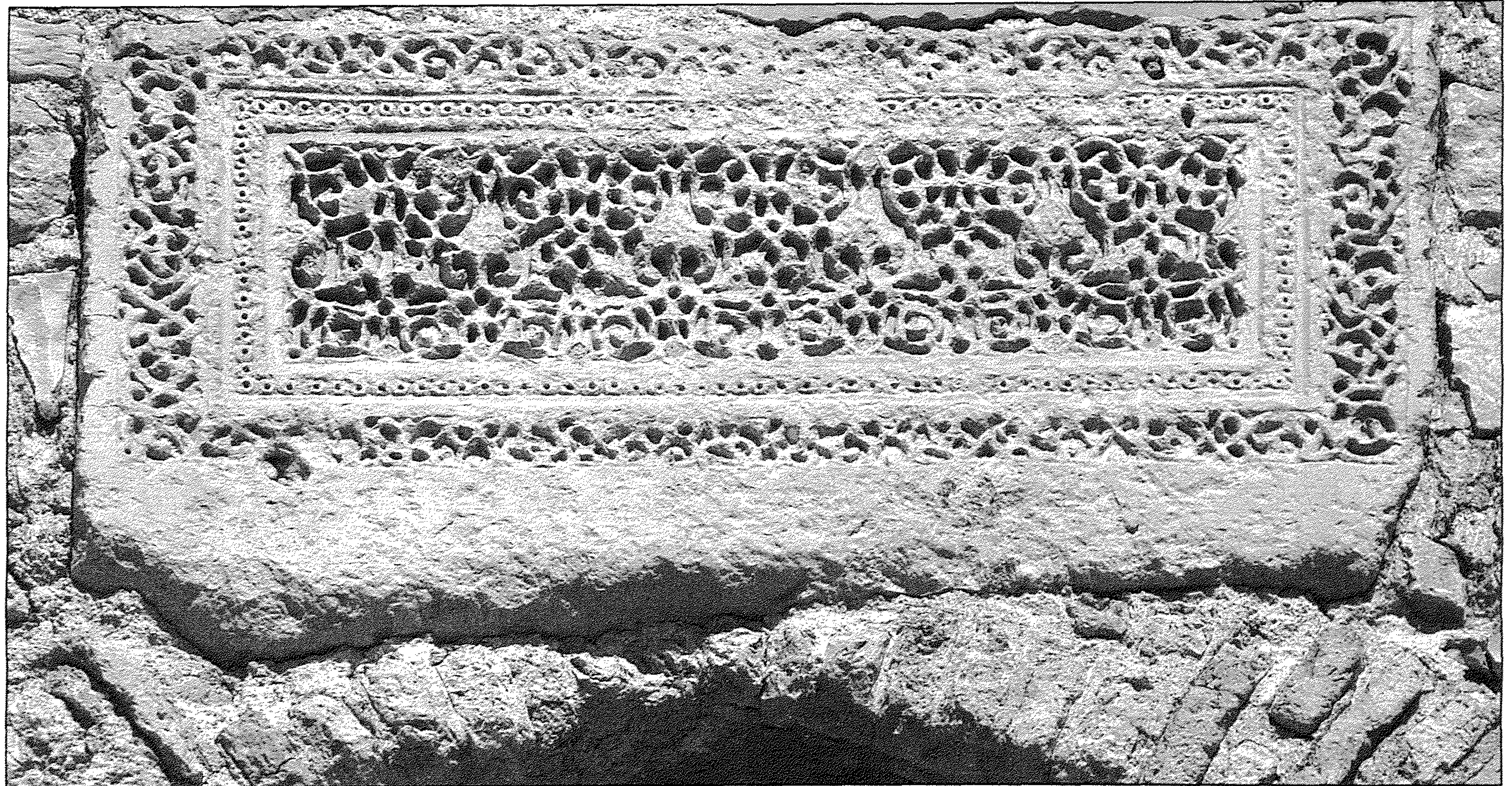
تم النقيب عن ثلاث مجموعات من القصور في قلعة بني حمّاد، وهي قصر المنار، وقصر الخلاص، وقصر البحيرة. وسوف نقوم بوصف العناصر الأكثر تمييزاً لكل قصر.

قصر المنار

على الرغم من أن أعمال التنقيب قد بدأها غولفان وتابعها رشيد بورويبة، إلاّ أنّ هذا القصر لم يكشف بعد عن كل أسراره. تتألف الأبنية التي تم استخراجها في الجنوب وفي الشمال من أربعة أجزاء:

البناء الجنوبي الغربي: مع أنه لم يستخرج كلية بعد، غير أنه البناء الذي يوجد فيه الإيوان الصغير الذي وصفناه آنفاً. يحتوي على فناء مربع مبلط بالرخام، ومحاط من جوانبه الأربعة برواق نلاحظ على جهته الشرقية بلاطاً جميلاً من الخزف تتعارض فيه مربعات ومثمنات باللونين الأخضر والأبيض.

البناء المركزي الجنوبي: وهو بناء ذو واجهة بـ 29،60 م، مدعومة بنتوءات مربعة على طرفيها، ومزينة بست كوّات موزعة على جانبي البهو. ويأتي هذا الأخير



ببروز عرضه 50،7م، مزين بكوات على واجهاته الثلاث. يصل الزائر بعد تجاوز البهو إلى قاعة مستطيلة الشكل (20،10م على 30،3م) يصعد منها درج إلى الطابق العلوي. وتفتح القاعة التالية (20،3م على 80،2م) على فناء محفوف بالقاعات من كل جانب.

البناء الجنوبي الغربي: تم استخراج جزء منه، يتألف من فناء مربع مبلط بالرخام، تحيط به الأروقة من واجهاته الأربع. ويتمثل العنصر الأساسي فيه من قاعة (5،13م على95،5م) يبدو أنها كانت قاعة العرش حيث يعقد الأمير جلساته ويستقبل مدعويه. ويغطي أرضية هذه القاعة بلاط جميل بمربعات خزفية خضراء وبيضاء، تقسمها درجة على جانبيها عمودان بارتفاع 71،3م وبينهما مسافة 10،2م. وكان الأمير يجلس في الجزء العلوي مشرفاً بذلك على رعيّته. ويتألف هذا الجزء من ثلاثة أعمدة يعلو كلاً منها تاج بديع، في حين أن جدران القاعة كانت مزينة بألواح من الرخام وبخشب معشق بمربعات بيضاء وسوداء. كما كان يزين القاعة شريط من الحجر يعلوه إفريز من الرخام مزين بزخارف من الجص.

والبناء الشمالي الذي لم تنته فيه الحفريات بعد، يتألف من ثلاث مجموعات من الأبنية بها غرف، عثر في إحداها على نقوش بالجص.

قصر البحيرة

لم يكشف هذا الصرح الذي لم ينقب إلا سطحياً عن كامل أسراره بعد. وقد أخذ اسمه من الصهريج الدائري الكبير الذي يبلغ قطره الخارجي 75،17م، كان يجري فيه الأمراء الحمّاديين حسب مؤرخ مجهول





" القلعة من المدن التي تملك أكبر الأقاليم، وأكثرها سكاناً وأعظمها ازدهاراً وأوسعها ثراء، لها من القصور والبيوت ما ليس في غيرها، كما تملك أخصب الأراضي."

الإدريسي

للقرن الثاني عشر، ألعاباً مائية. ويشكل بهو القصر بناء أولياً بارزاً تزينه من الخارج ست كوات. كما يحف بالصهريج الكبير عدد من الغرف المختلفة الأحجام.

قصر الخلاص

يتألف من جزء علوي يتكون من وسط مربع من الحجر، مدعم من زواياه الأربعة بأبراج على شكل ثلاثة أرباع الدائرة. وبهو في مقدمة المبنى مزين من الخارج بكوات يسمح بالولوج إلى قاعة كبيرة (17،75م على 2،75م) تنفتح على فناء طوله 16م وعرضه 15م، تحيط به قاعات يوصل إحداها إلى الطابق العلوي.

ويتألف الجزء السفلي الذي لم يستخرج بأكمله بعد من فناء محاط بالقاعات وعدد من مخازن الحبوب.

قصر النجمة

وهو يقع ما بين القصرين الآنفي الذكر، ولم يتم التنقيب فيه بعد.

المكتشفات الأثرية

عثر في موقع قلعة بني حمّاد على مواد أثرية تكتسي أهمية معتبرة.

الخزف: تتمثل أهم الأشياء التي عثرت عليها البعثات التنقيبية المختلفة في قطع من القرميد والآجر العادي والمغمس بالميناء من مختلف الأنواع، وكذلك في أدوات منزلية ممسوحة اللون أو مرسومة بزخارف خطية ونباتية وهندسية . كما أن اكتشاف بعض قطع من الخزف عليها رسوم بشرية لأطفال ورجال وفرسان، لجدير بالتنويه طالما أن هذا النوع من الفن نادر الوجود في الخزف الإسلامي للقرون الوسطى.

القطع النقدية والحلي: عثر في الموقع على العديد من القطع النقدية البرونزية، وبعض القطع الذهبية التي تشهد على الأسر المختلفة الفاطمية والموحدية والمرينية وغيرها التي مرت على المنطقة.

أما الحلي فهي معروضة في متحفي قسنطينة وسطيف، وتتألف من أقراط ودبابيس وخواتم وميداليات وكذلك عقد من اللؤلؤ الفضي، وهي مادة كانت تستعمل في الحلي الأخرى، في حين أن الذهب يدخل في تشكيل قطعة مثلثة الشكل.

وقد مكنت بقايا من الزجاج والزجاج المعشق، وقطع حجرية منحوتة وكذلك منحوتات على الجص وعلى البرونز، من إعطاء فكرة عن الثراء الأثري لهذا الموقع. كما يشبه الأسدان المكتشفان فيه إلى حد كبير الأسود التي تزين قصر الحمراء.

إن هذه المدينة المزدهرة لم تكشف من خباياها إلى يومنا هذا سوى النذر اليسير، مما يستدعي القيام بأبحاث أثرية أخرى لكي نتعرف أكثر على نمط عيش الرجال والنساء الذين سكنوا هذا الموقع من قرون عديدة خلت. لأن قلعة بني حمّاد تعتبر بفضل قيمتها الأثرية والمعمارية والفنية والثقافية مثالاً بارزاً لفترة ثرية وخصبة من تاريخ الجزائر، وتقديراً لهذه القيمة صنفت من قبل اليونسكو ضمن التراث العالمي في العام 1980.





الجميلة

جوهرة البابور

محمد أكلي إيخربان



أسس قدماء المحاربين الرومان في نهاية القرن الأول الميلادي، إبّان حكم الإمبراطور نيرفا (96-98)، مستعمرة كويكول (اسم من أصل محلي لا يعرف معناه التأصيلي) التي تعتبر من أهم مدن شمال أفريقيا للفترة الرومانية. تقع على بعد حوالي خمسين كيلومتراً على الشمال الشرقي لمدينة سطيف، في منطقة سكنها الإنسان منذ غابر عصور ما قبل التاريخ.

سوبالفعل، يوجد غير بعيد عن ذلك المكان منجم اسمه عين لحنش خرجت منه أقدم أوجه الحضارات الليثية: صناعة الحصى المصقول التي تعود إلى فجر العصر الرابع.

واعتباراً من الألفية الثامنة إلى الألفية الرابعة، استقرت في المنطقة حضارة أخرى تسمى الحضارة الكابسية capsienne، وتعرف بأكوام حلزونياتها وبصناعتها الميكروليتية. مما يدل على قدم وجود الإنسان في المنطقة.

تتمركز الآثار اللافتة للنظر إلى حد كبير فوق مرتفع صخري يحف بجانبيه واديان، بحيث تظهر المدينة فجأة للزائر في نهاية طريق طويل ومتعرج، وهو ما جعل جاك هوريه Huré يكتب في مجلة أفريكا:»(...) ثم وصلت إلى جميلة. والطريق إليها من أجمل الطرق في الجزائر، لأنه طريق نحو الانعتاق من صخب المدن، ونحو لقاء ما لا يمكن أن يرى إلاّ هنا.»

تشبه الجميلة من حيث صروحها المدن الرومانية الأخرى، وخصوصاً تلك التي حظيت بلقب مستعمرة الذي ينطوي على نوع من الاستقلال المحلي. غير أنّها تتميز عن باقي المدن بالتوزيع المبتكر للأحجام المعمارية، لأن اختيار توزيع الأحجام في الفضاء لا يتقيد بصرامة وبساطة الهندسة الرومانية، مع الاحتفاظ طبعاً بنوع من الانتظام الملاحظ هنا وهناك عبر المساحة المبنية.

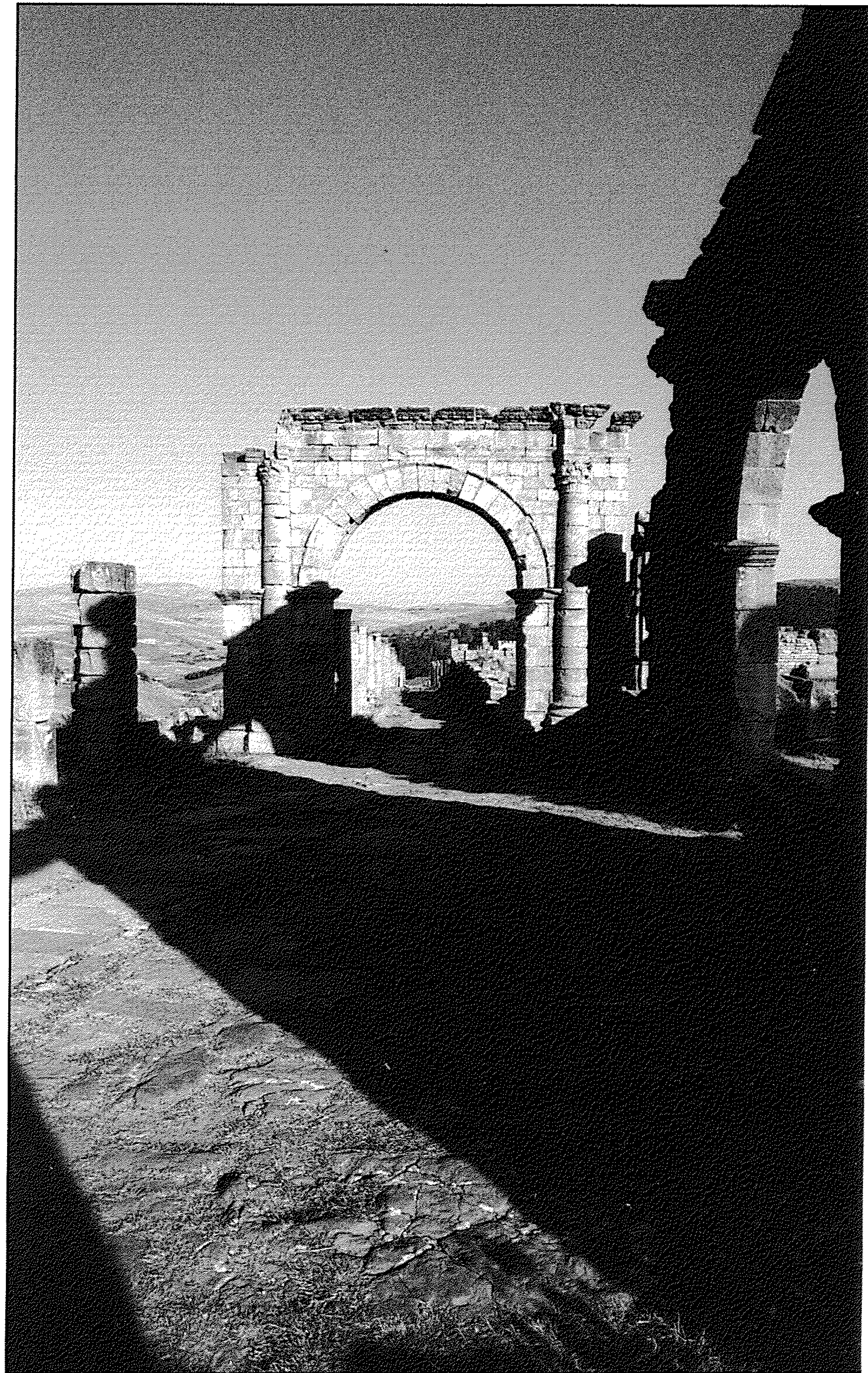
وقد اختار قدماء المحاربين الأوائل في الجيش الروماني، في القرن الأول للميلاد، أن يبنوا أولى



معمدة وحي مسيحي

" تلك الأحجار الممشوقة فوق الجبل، ما عساه يبقى من حضارة ما من دونها."

سانت إيكزوبيري



المحور شمال- جنوب وباب ثانوي

مساكنهم على منبسط القمة، نظراً لتوفر العناصر الطبيعية الضرورية للاستقرار (الحماية الطبيعية، متاخمة مقلع، وفرة المياه، خصوبة الأراضي المحيطة، مركز تلاقي طرقات...) تلا بناء تلك البيوت التي كانت في البداية متواضعة، بيوتاً واسعة فخمة تزين فسيفساءاتها الآن جدران المتحف. وقد اقتصرت الحفريات التي جرت منذ بداية القرن العشرين على نزع الردم وتركيب الهياكل الأثرية حسب الطرق المستعملة في ذلك الوقت.

تتوزع داخل وسط متعدد الأضلاع تقريباً، على مساحة تقدر بـ 400م على 200م، وعلى طرفي شارع واحد بمثابة المحور شمال- جنوب، تتوزع الأبنية الرئيسية العمومية والخاصة، وهي أبنية لا تزال تحتفظ بشكلها عموماً وتسمح بسبر آثاري متماسك ومتتابع نوعاً ما.

تحمل هذه المدينة العتيقة التي كانت مركزاً رومانياً للمراقبة في قلب منطقة جبلية، اسماً على مسمى: الجميلة. ولها كبقية المستعمرات ميدان يقع في وسط النواة العمرانية الأولى. ويمتلئ هذا المركز السياسي ومكان الالتقاء بين الناس، بالكتابات التكريمية المنقوشة على القواعد التي كانت في الماضي تحمل تماثيل الآلهة وأباطرة القرنين الثاني والثالث للميلاد، مما يشهد على روح المنافسة التي كان يتحلى بها المواطنون للتباهي في تشييد الصروح العمومية.

توجد على الجانب الشمالي الشرقي آثار مجلس الشيوخ البلدي، حيث كان أعضاؤه يسيرون الشؤون العامة للمدينة تحت إدارة اثنين من كبار النبلاء. ولم يبق منه للأسف سوى جزء من الأرضية التي كانت في الماضي مبلطة بالرخام الأبيض، والمنصة المخصصة للمسؤولين الأساسيين. وكان الكابيتول يشكل صرحاً مهيباً بالنظر إلى قواعده الضخمة ودرجه العظيم الذي لا يزال قائماً، وكذلك العناصر الضخمة التي تمتلئ بها ساحة الميدان أو تلك المتناثرة تحته. ويمكن مقارنته من حيث الارتفاع (14م) بذلك الموجود في تيمقاد. ولقد عثر في قبو القاعة المتوسطة على جذع جوبيتر الضخم المنحوت من الرخام الأبيض، لا يزال بالإمكان رؤيته في عين المكان، في حين أن قدمه اليسرى معروضة في المتحف.

ولا يزال ينتصب إلى يومنا هذا في مقدمة أدراج هذا الصرح الفخم مذبح ضخم للقرابين قد تم ترميمه ومن ضمنه نحت غائر يصور مشهد طقس الأضحية والحيوانات المذبوحة (الديوك والأكباش والثيران). ويظهر على الوجه الآخر تمثيل لجني مجنّح خارج من مزهرية مزينة بغصنيّات.

وتوجد من الناحية الغربية للميدان العام ساحة واسعة ترتفع كمصطبة وهي البازيليك القضائي المعروفة باسم "جوليا" (رقم 9) والتي بنيت في عهد الإمبراطور فيروس سنة 169، كما تشير إلى ذلك كتابة عثر عليها في عين المكان.

أما من الجهة الشمالية للميدان وبمحاذاة الكابيتول، فقد شيد بناء تجاري يرجع إلى عهد الإمبراطور أنتونان الورع (138 - 161)، وهو السوق المعروف باسم الإخوين كوزينيوس (رقم 12) وهما من أصل قرطاجي.

كان هذا السوق يتألف من ثمانية عشر دكاناً في مقدمة كل منها طاولة أحادية الحجر ترتكز على أعمدة نقشت عليها أشكال مختلفة لمصارعي الضواري بطريقة رمزية. و يوجد على أحد جانبي البناء طاولة للموازين ذات ثلاثة تجاويف وذلك لوزن المواد الصلبة أو السائلة، ووحدة قياس طولية للأقمشة ولوحة حجرية كتب عليها اسم المتبرع بها عشرة ثقوب أسطوانية كي تعلق عليها خطافات الأوزان والموازين التي يراقبها بصرامة نُظّار التموين للمدينة.

ويُفترض أنه كان يوجد على رواق الأعمدة الشرقي كتابة كبيرة موجودة حالياً على الجدار الجنوبي تعلمنا عن كلفة إنجاز البناء التي دفعها كوزينوس بريموس، الذي لم يفته أن يوضح بأنه كان آنذاك والياً تحت أمرة الإمبراطور، مما يشير إلى أن أخاه هو الذي تعهّد إنجاز أشغال البناء.

كما نرى العديد من المنازل الفخمة ذات الحدائق الداخلية تتوزع بشكل منتظم على مدى المجموعات السكنية للمدينة.



رواق أعمدة الكنيسة المسيحية

إن هذه المنازل الرائعة للجميلة المعبدة بالفسيفساء ذات الطابع التزييني أو التاريخي، تجعل من هذه المدينة نظيراً أفريقياً لبومبيي وقد كللتها هالة بديعة من الجبال وأطبق عليها صمت شبه دائم يبعث على الخشوع والاستثارة.

قد يكون من العسير وصفها كلها بدقة متناهية، غير أنه لا يعقل تجاهلها، أو على الأقل تجاهل أكثرها تميزاً سواء من ناحية الحجم أو من حيث الأهمية التصويرية.

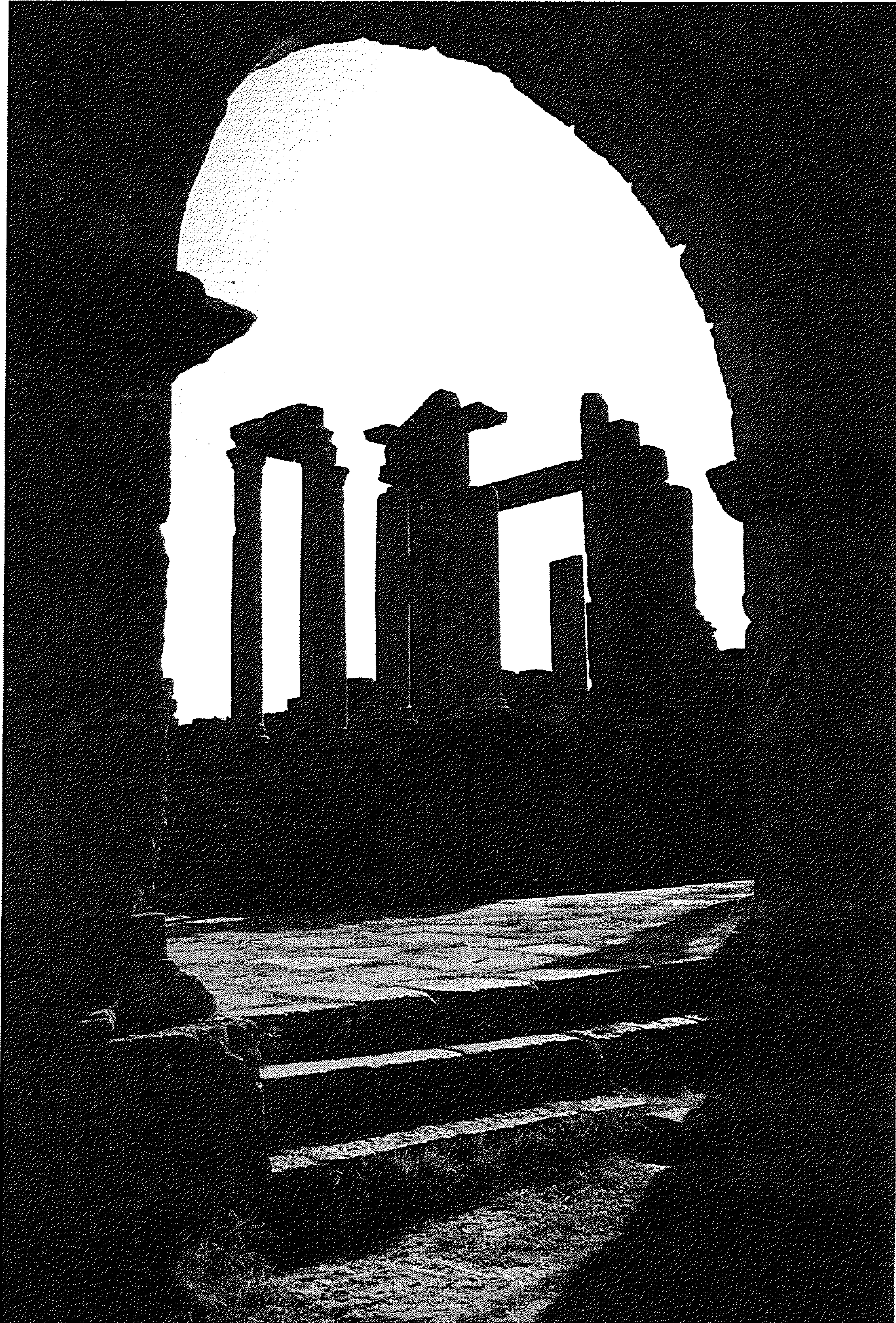
يقع على يمين المدخل الجنوبي للمدينة القديمة مباشرة منزل جميل يدعى "بيت كاستوريوس"(رقم 2)، وهو اسم المالك الذي عثر عليه مسجلاً في فسيفساء ترجع للقرن الرابع، في حين تدلنا كتابة أخرى من القرن الثاني على نصب شرفي موضوع أمام مدخل المنزل أن المالك كان كلاوديوس بروتو. يتميز البيت بفنائين أحدهما داخلي مزين بأحواض لتربية الأسماك وبعدد كبير من الغرف وحمامات لأفراد الأسرة و للخدم على السواء.

وغير بعيد عن ذلك المكان، يوجد بيت (رقم 4) آخر يستعير اسمه من لوحتين رئيستين للفسيفساء بعنوان الحمار المنتصر "آزينوس نيكا". وقد أثارتا العديد من التعليقات بسبب أهميتهما وأسلوبهما المتميز، خاصة وأنهما تعودان على ما يبدو إلى حقبة مغرقة في القدم.

ينفتح هذا البيت ، كسابقه، على طريقين ويحتوي على حمامات وقاعة للاستقبالات الرسمية معبدة بفسيفساء بديع يمثل فينوس وهي تستحم بمعية موكبها البحري المؤلف من مخلوقات ميثولوجية وأسماك متوسطية. تزين الأطراف مشاهد من الحياة اليومية (أعياد، وصيد سمك)، ومشاهد مستوحاة من نصوص من الميثولوجيا الإغريقية الرومانية. تحتوي الباحة المعمدة المنزاحة قليلاً عن المركز على عمودين وأحواض ذات أشكال متنوعة، بالإضافة إلى حديقة داخلية. وأخيراً، وفي الركن الجنوبي الغربي تبدأ أدراج توصل إلى الطابق العلوي.

وعلى الجهة الواطئة للطريق الفرعي يوجد منزل صغير أنيق (رقم 18) يسمى "أمفيتريت"، وهو اسم فسيفساء تمثل زفاف هذه الآلهة مع "نبيتون" إله البحر. وخلافاً للمنازل الأخرى، ليس لهذا المنزل الذي تبلغ مساحته 504 متر مربع سوى مدخل واحد يقع على الجهة الشمالية. وقد احتفظ الجزء المركزي من الفناء ببقايا فسيفساء من الرخام.

ينفتح على الطرف الشمالي للسوق وعلى طول رواق الشارع الرئ منزل مساحته 1366 متر مربع، ويبدو من خلال تنوع أمكنته أنه يمثل الطراز المثالي للمنزل العائلي الروماني (العديد من الغرف، وقبو، ومراحيض، وحمامات، وقاعات للعبادة، وإسطبل، إلخ.)، ويدعى هذا المنزل باسم "أوروبا" (رقم 13) وهي تسمية مستوحاة من فسيفساء وجدت فوق أرضية غرفة الطعام، تمثل اختطاف زوس الممسوخ في صورة ثور لأوروبا ابنة الملك الفينيقي آجنور. وقد اضطر البناؤون بسبب طبيعة الأرض إلى إحداث أدراج تصل بين المستويات المختلفة



معبد السلالة السفيرية



المسرح

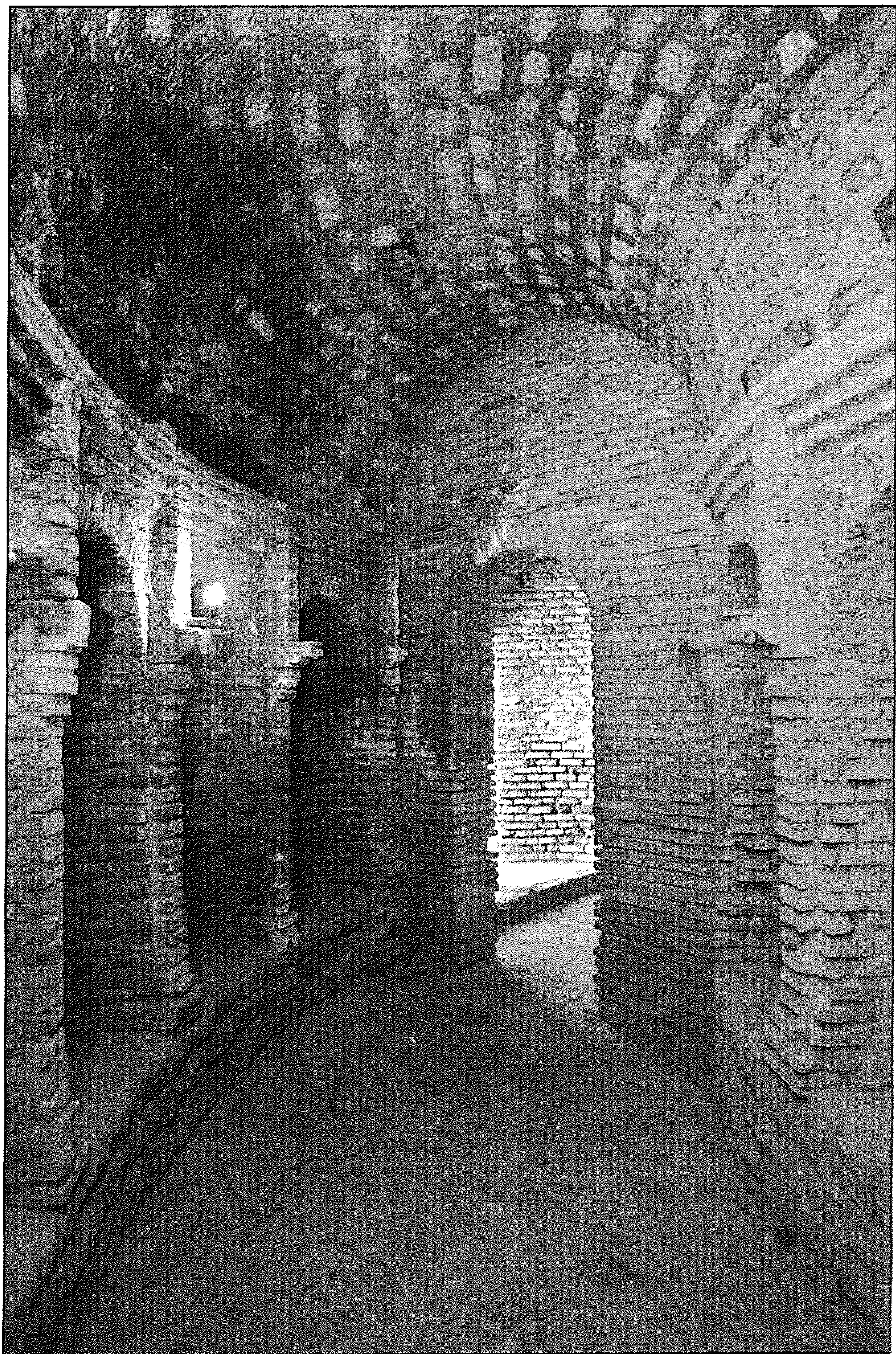
للمبنى. وتدل فخامته على أن مالكه كان من أعيان المدينة. ومن الجهة الغربية أمام بيت "كاستوريوس" ينفتح المنزل المسمي"المنزل ذو الملاط" على باحة معمدة. ويدل تصميمه على أنه حالة نادرة من المنازل التي تسمى منزل ذو أتريوم أي باحة داخلية. والزخرفة التي أعطته اسمها متميزة جداً: الجدران مغطاة بمعجون مطلي مزين بمنحوتات ناتئة غريبة من الجص (بعض النماذج الإنسانية الشكل أوالهندسية أو النباتية معروضة في المتحف).

وعلى مسافة غير بعيدة جهة الشمال، يوجد منزل صغير آخر ينفتح على الشارع الكبير أمام الساحة العامة. وهو بناء تقليدي أساساً كان يصنع فيه اللّباد، وجرت فيه حفريات مستعجلة أثناء فترة الثورة الجزائرية ولم يتم ترميمه كباقي المحلات الواقعة في الجهة الغربية.

كما نجد منزلاً آخر بمحاذاة هيكل القضاء المدني الذي بني في الفترة بين 364 و367 (رقم 23). لكنه مهدّم إلى حد كبير رغم وجود بعض الفسيفساء في أرضية عدد من قاعاته تمثل إحداها اختطاف الشاب المغامر هيلاس من طرف الحوريات إبان سعيه وراء الهيدورة الذهبية (ومنها جاءت التسمية: بيت هيلاس)

ومن بين كل المنازل التي تجعل من الجميلة موقعاً أثرياً متفرداً، فإن منزل باخوس (36) لا يعدّ أوسعها فحسب (حوالي 7000 متر مربع)، بل أكثرها غنى بالفسيفساء. وقد بني حسب التقديرات في نهاية القرن الثاني، ويتألف من بيتين معقدين جمعا معاً، ومن فناءات وحدائق داخلية أضيفت إليها قاعات متنوعة، أكثرها تميزاً تلك التي تحتوي على سبعة محاريب مرتبة حول أرضية كبيرة تنفتح على حديقة. وقد عثر في هذا المنزل على أهم وأقدم فسيفساء معروفة إلى يومنا هذا(نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث) ألا وهي أسطورة باخوس التي منحته اسمها. وهي تمثل بمفردها تحفة فنية رائعة وتشهد على عبقرية الفنان الأفريقي في تمرّسه الشديد في هذا النوع من الفن.

وتقع بين هذا المنزل الواسع الفخم وبين حماماتالكومود فوّارة ماء تسمى "الرُبعيّة" (رقم 34)، لأنه تم ترميمها خلال الولاية الربعية تحت حكم



ممر المعمدانية



الأباطرة الديوكليسيين والماكسمليين. وإلى الأسفل قليلاً، نلاحظ على امتداد المحور شمال جنوب فوارة ماء أخرى جميلة ذات شكل مخروطي ضخم يبلغ ارتفاعه 5 أمتار(رقم 31)، تجلب مياهها من خزانات مجاورة عبر قنوات من الرصاص لتصب على شكل شلالات في حوض الترسيب الدائري.

والظاهر أن كل المنازل ترجع إلى القرن الرابع كما تدل على ذلك الفسيفساءات التي تحتويها، والصروح الأكثر أهمية فقط ترجع إلى القرن الثاني أو بداية القرن الثالث. وقد كانت "كويكيل" كجارتها " سيتيفيس" مستعمرة نيرفية مسجلة بشكل وهمي ضمن قبيلة "بابيريا"، وكان حاميها هو الإله "مارس"، كما يذكر بذلك إهداء مكتوب في ساحة السيفيريين.

ونظراً لغياب الأبحاث المعمقة الخاصة بتلك الفترة، من الصعب الذهاب إلى أبعد من نهاية القرن الأول لدراسة تاريخ هذه المدينة الواقعة في أغوار موريتانيا وعلى مقربة من واد الكبير حالياً، الذي يشكل الحدود الطبيعية والتقليدية بين نوميديا وموريتانيا.

في نهاية القرن الثاني، حين بدأ المكان المخصص للمدينة يضيق على سكانه اضطر أهل المدينة إلى تجاوز الأسوار لاستمرار التوسع العمراني نحو الجنوب. وبالإمكان ملاحظة هذا الجهد بوضوح على مستوى الساحة المسماة ساحة "سيفير" التي تم ردمها وتحويلها باحة كبيرة سميت خطأ بالساحة العامة الجديدة (رقم20). وهي تتميز بتصميم غير منتظم وبميلان كبير يسمح بتفريغ المياه نحو خزان يقع إلى الأسفل قليلاً. وتظهر الأحجام الهندسية المعمارية المختلفة لهذه الساحة أن الجهة الشرقية فقط مستقيمة في حين أن الجهات الأخرى تتألف من خطوط متكسرة.

زيّنت هذه الساحة ذات الأبعاد الكبيرة بصروح ضخمة تهيمن على كل منظر هذا" التوزيع لأوراق اللعب المفتوح على الهواء الطلق" على حد تعبير ألبير كامو في روايته" زفاف".

ولا يزال قوس النصر المكرّس لكاراكلا في العام 216 (رقم 24) قائماً في مكانه على الرغم من أن دوق أورليان قائد الحملة العسكرية الفرنسية في العام 1838 الذي زار الموقع آنذاك، كان قد أمر بنقله كهدية من جيش أفريقيا إلى فرنسا.



فسيفساء بحرية ـ المتحف

يرتبط الإهداء الموجه لوالدي كاراكلاّ وهما س، سيفير و جوليا دومنا، بالإضافة إلى التماثيل التي كانت في الماضي تكلل قمة هذا القوس، يرتبط من الناحية التاريخية بإصدار القانون المسمى "دستور أنطونين" في العام 212، الذي يوسع تطبيق قانون المدينة الروماني (المواطنة) ليشمل كل سكان الإمبراطورية.

ينتصب قوس كاراكلا إلى ارتفاع 12،5 متراً، وهو بناء أحادي القوس مزيّن بأعمدة كورنثية ناتئة أمام طبرين يؤطران لكوة كان يوجد فيها في الماضي تمثال. وقد تم إعلاؤه مجدداً بصفة كاملة في العام 1923. ونلاحظ بمحاذاته تماماً دكّة صغيرة يبدو أنها كانت معبداً استبدل بمنصة للخطابة (رقم 25)، وفوارة ماء ضخمة (رقم 28) تمثل غار حوريات تزييني، كانت أحواضها تستعمل كخزان مياه. ويمكن للمرء أن يتأمل على مقربة منها، في الطريق إلى سيتيفيس، فوارة أخرى رائعة بنيت في عهد الإمبراطور أنطونين الورع، زينت واجهتها بتمثال لرأس "أوسيان".

ينتصب قبالة القوس المبنى الأكثر ظهوراً في المدينة، والمشرف على ساحة شاسعة وأدراج صرحية، والذي كان جداره الشرقي ظاهراً حتى قبل الحفريات (رقم 21) ألا وهو معبد أسرة سيبتيم سيفير المؤلّهة. وقد بني هذا المعبد في العام 229 من أموال الخزينة العمومية كما تدل على ذلك كتابة على أجزاء لوح حجري موجودة في الجهة الجنوبية الغربية.

ينفتح على جانبي الدرج المؤدي إلى المصطبة أروقة لسراديب توصل إلى أقبية كانت تستعمل ربما كمخازن. كما يوجد صف آخر من الأدراج يؤدي إلى المنصة، ومن ثم يمكن الولوج عبر باب ذي درفتين تنزلقان على سكة من الحجر إلى المقدس، حيث كان ينتصب في الماضي تمثالا الإمبراطور وزوجته (الموجودان حالياً في المتحف). ويعتقد أن جدران هذه المقصورة كانت ملبسة بالرخام.

ونلاحظ في الشارع المقابل على الجهة الغربية من هذا البناء الفخم المكرس لطقوس العبادة الإمبراطورية، والذي يعتبر رمز الولاء للسلطة المركزية، نلاحظ هيكلاً مدنياً ثانياً مستطيل الشكل ينتهي بمحراب مرتفع (رقم 22)، بني فوق موقع

معبد قديم مكرس للإله ساتورن فروجيفير، وهو الإله الأكبر الأفريقي الذي يمنح محاصيل وافرة.

يوجد أسفل قوس كاراكلا الذي بني بين العام 364 والعام 367 سوق للأقمشة (رقم 26)، ومراحيض عمومية، وأروقة معمدة ودكاكين تشهد على التطور الذي عرفته المدينة، على الرغم من أزمة السلطة السياسية التي لم تعطل في الظاهر التوسع العمراني.

وعلى الجهة الشرقية، في الطريق التي يبدو أنها كانت تصل بين مدينة سيرتا عبر مدينة ميليف، يوجد مسرح تتسع مدرجاته المستندة إلى تلة حوالي 3000 متفرج. وعلى الرغم من عدم وجود كتابة تشير إلى تاريخ بنائه، غير أنه يعتقد بأنه يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني. يحتوي هذا المسرح على صفين من المدرجات (15 في الأعلى و9 في الأسفل)، ما عدا المقاعد النقالة الموجودة على مستوى الخشبة والتي كانت مخصصة لرجال القضاء.

كما يمكن رؤية بقايا حي على الامتداد الجنوبي للشارع الرئيسي، وعلى الجنوب من قوس النصر كاراكلا. ولم يتم العثور في هذا الحي على فسيفساء جميلة ولا تحف فنية ذات قيمة معتبرة، مما يبعث على الاعتقاد بأنه حي شعبي؛ لكن مع ذلك فقد عثر فيه على فوارة الماء المخروطية المذكورة آنفاً.

وبما أن وجود الماء يعتبر معياراً أساسياً في اختيار الموقع والتطور العمراني، فقد بنى السكان قناة لتوصيل المياه إلى المدينة، لم يبق منها سوى بضعة أحجار متناثرة فوق الجروف المشرفة على القرية الحديثة الواقعة جهة الجنوب.

في مدينة متوسطة نوميدية مثل الجميلة، لا يستطيع المرء ذكر الماء دون الإشارة إلى الحمامات ومراكز الاستجمام فيها، والتي يقع أهمها على بعد حوالي مائة متر إلى جنوب الساحة العامة. وهي أبنية غالباً ما تتشابه من الناحية المعمارية وكانت أماكن للتلاقي وربط علاقات اجتماعية، وأماكن للهو والتطبب مفتوحة للنساء وللرجال على السواء.وكثيراً ما كانت توضع فيها تماثيل لـ "إسكولاب" و"هيجي"، أو قواعد حجرية مكتوبة تذكرهما.

تشكل الحمامات الجنوبية للجميلة التي بنيت في عهد الإمبراطور"كومود"(161- 192)، صرحاً جميلاً وواسعاً لا يزال محتفظاً بخصائصه على الرغم من استعماله لفترة طويلة، كما تشهد على ذلك التعديلات المتعاقبة التي طرأت عليه



تمثال لسيدة رومانية

يتألف من قاعة للرياضة وقاعة باردة وحجرة للثياب وقاعة دافئة وأخرى ساخنة ومقصورة للحمام البخاري وعدد من الأماكن المتنوعة. وقد عثر في مجمع الحمامات هذا على العديد من لوحات الفسيفساء التي لا يزال البعض منها في عين المكان والبعض الآخر معروض في المتحف.

وهناك أبنية أخرى من هذا النوع في الموقع إلا أن أحجامها أصغر قليلاً.

في مجال التجهيزات الاقتصادية، بني بالإضافة إلى السوقين الآنفي الذكر مطامير حبوب عمومية (رقم 19) وذلك في العام 199 حسب ما تدل عليه كتابة معروضة في الحديقة الحجرية، أي في عهد سبتيم سيفير.

وتتوزع في نفس الحي المركزي أبنية دينية أخرى مثل المعبد المنسوب إلى فينوس جينيتريكس (رقم 7) آلهة الجمال والحب وحامية الحدائق والمعبد" المغفل"(رقم 3).

يشغل الحي الواقع خلف الأسوار الذي لا تزال أجزاء كبيرة منه باقية في الناحية الشرقية، يشغله القناة الكبيرة الجامعة للمجاري التي بنيت بعد القرن الثالث، غير أن الحي كان يشكل جزءاً من المدينة منذ القرن الثاني. على الرغم من التضاريس الوعرة فقد شقت الطرقات بطريقة منتظمة. ويتألف هذا الحي عموماً من منازل ذات أقبية، ومن إسطبلات وورشات. ويوجد من الناحية السفلى بقايا معبد "ليبير" وليبيرا"(اسمان آخران لديونيسوس وهرقل) بالإضافة إلى صرح يعتقد بأنه كان يستعمل كقاعة للاجتماعات.

ويمكننا أن نتأمل في الجهة الغربية، تحت مستوى البيوت التي تنفتح على الشارع الرئيسي كنيسة كبيرة (رقم5) لم يعثر على أي كتابة تخبر عن تاريخ بنائها، بالإضافة إلى عدد من المحلات التقليدية.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أنه من المفروض أن تقع المقبرة(التي لم تجر فيها أي حفريات على الإطلاق) فوق انحدارات الجروف، وعلى الجهة الأخرى لواد بطام تحاذيها كنيسة جنائزية تم التنقيب فيها جزئياً.

وعلى الطريق المؤدي للمسرح ينتصب القوس المسمى "قوس كريسنس" (رقم29) المنذور لطالع الإمبراطور "أنطونين الورع" في العام 163.

كما يوجد على مقربة من المعبد المسمى "معبد فينوس" قوس صرحي آخر (رقم6)، وقد أعيد بناؤه كلية بالعناصر التي عثر عليها في عين المكان في العام 1919، وأعيد تدعيمه في العام 1999.

عندما اعترف الإمبراطور كونستانطين بالمسيحية بواسطة مرسوم ميلانو في العام 313، كانت هذه الديانة التوحيدية



فينوس ذات المحارة



فسيفساء مسيحية ـ القاعة الرئيسية للمتحف



منتشرة في كويكول منذ وقت طويل. ففي العام 256 كان هناك أسقف يدعى بودينتيانوس في المجمع الكنهوتي لقرطاجة.

ولقد عرفت من الناحية المعمارية ازدهاراً عظيماً، بحيث كان يمثلها حي أسقفي بأكمله يقع على الحدود الجنوبية للمنطقة التي جرت فيها الحفريات لحد الآن. ويتألف هذا الحي أساساً من كنيسة كبيرة ذات خمسة أجنحة (رقم 42) أبعادها 40×28 متراً، مبلطة بالفسيفساء الثرية بالزخارف. ولا يزال موضع الخورس، الذي دفن تحته كريكونيوس الأسقف المؤسس، بادياً للعيان.

وفي الجهة المقابلة للممر الذي ينتهي بدرج يؤدي إلى الطوابق العليا للكنيستين المتجاورتين، توجد كنيسة أخرى ذات ثلاثة أجنحة (رقم41) يحددها صف من الأعمدة. تغطي أرضيتها فسيفساء مزخرفة بتشبيك من النجوم ورسوم لمصارعي الضواري، بالإضافة إلى دوائر تحمل أسماء المانحين. ويمكن تكهن مكان المذبح في نهاية الجناح المركزي، ينتصب وراءه صدر الكنيسة نصف الدائري والمدفن. وقد كان يتم في هذه الكنيسة على ما يبدو الاحتفال بمأدبة سر القربان المقدس بعد طقوس العماد. ويدل تشابه تقنيات البناء في الكنيستين على تعاصرهما (نهاية القرن الرابع - بداية القرن الخامس).

نجد في الجهة الغربية حوضاً للعماد تعلوه قبة (رقم 40) أعيد بناؤه تماماً في العام 1922 بمواد عثر عليها في عين المكان.

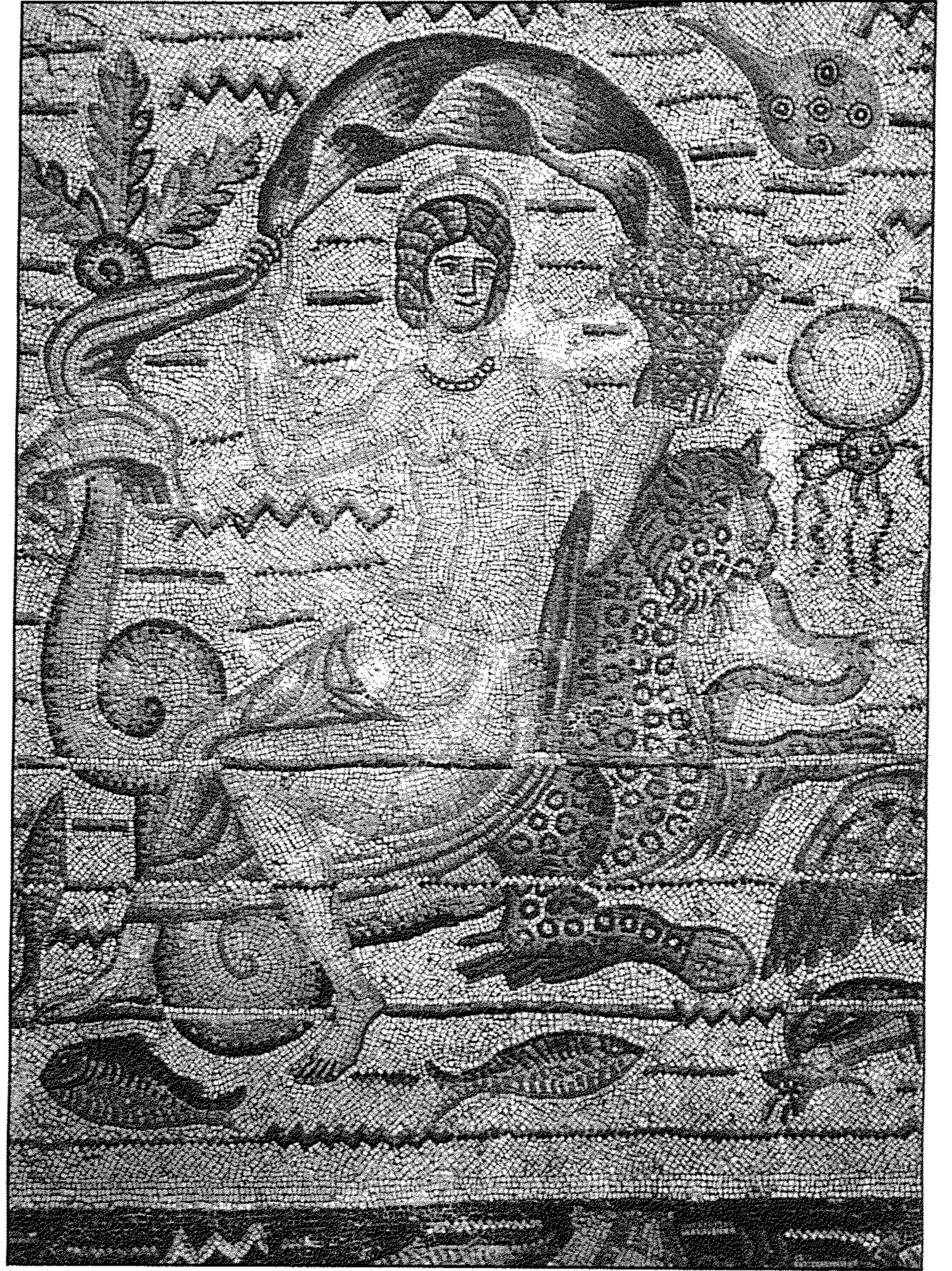
كان الغمر في الماء المعمداني يتم في حوض وسط هذا البناء الدائري. ولا يزال هذا الحوض يحمل كتابة منقوشة على فسيفساء تقول:" سوف يأتي زمن يطهّر فيه كل الوثنيين في هذا الحوض." وللبناء 36 كوّة كانت تستعمل كمقاعد انتظار لمريدي التنصّر. ولا تزال الأرضية مغطاة بفسيفساء عليها رسوم أسماك.

وقد كانت توجد حول البناء حمامات لغسل البدن قبل الدخول في حمام العماد الرمزي، وفي مكان غير بعيد منها توجد كنيسة صغيرة (رقم 39) تعرف من مذبحها ومن مجموعة المحلات التي كانت دون شك تستعمل لإقامة رجال الكنيسة أو حتى لإقامة الحجاج (رقم 38).

ومن المرجح أن هذه المدينة التي أسست في نهاية القرن الأول قد اختفت تماماً في ظروف جدّ غامضة بعد أن ضربها زلزال 419.

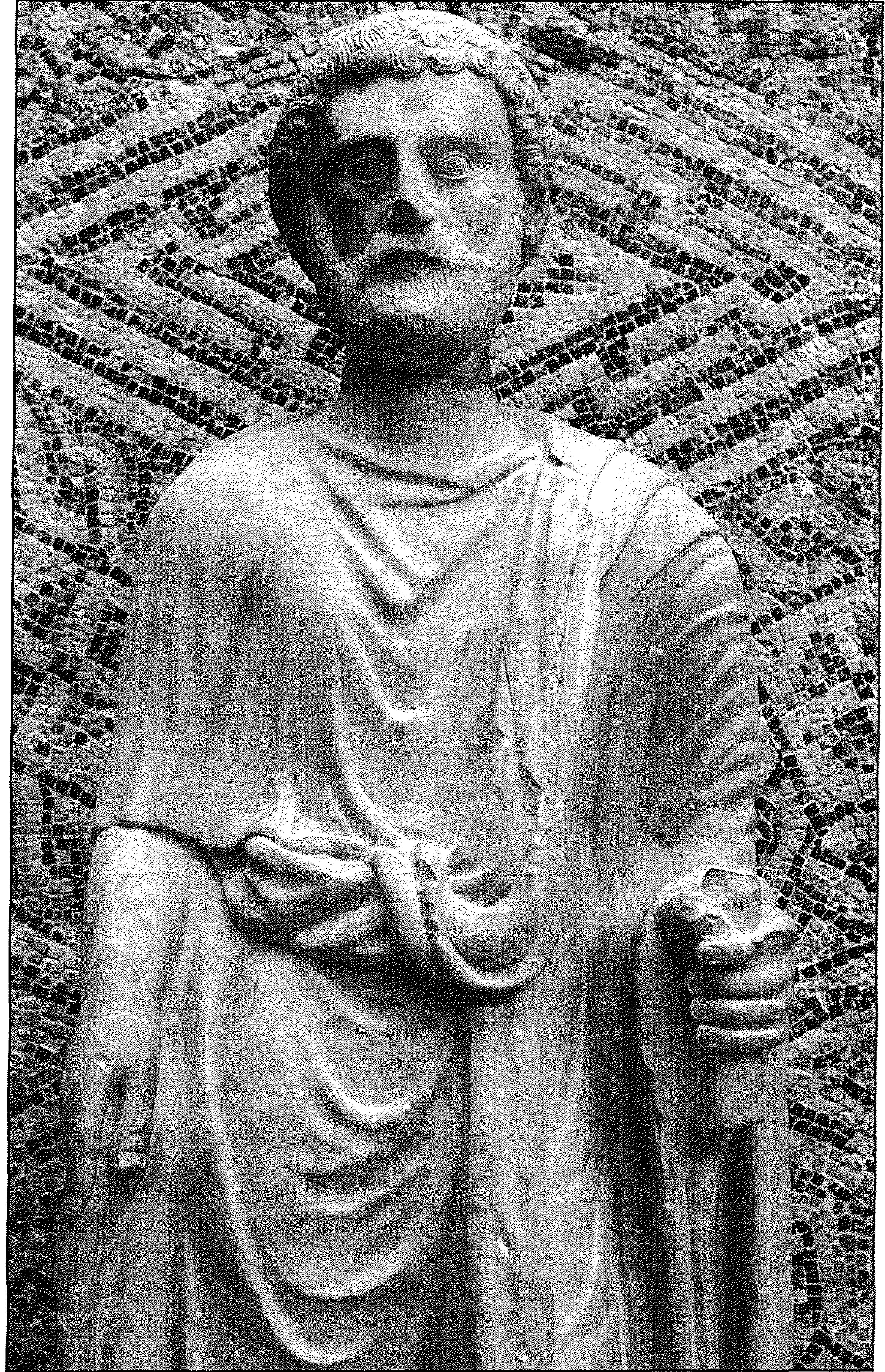
المتحف - قاعة المدخل

وفي الاجتماع الديني الذي دعا إليه الإمبراطور جوستينيان في القسطنطينية في العام 553، والذي ضم دون شك مجموعة أسقفية، قام بتمثيل المجموعة الكاثوليكية لمدينة الجميلة أسقف يدعى كريسكونيوس. ولم يعثر بعد هذا التاريخ على أي دليل ملموس من الناحية الأثرية لإثبات استمرار وجود العنصر البشري في الموقع، فيما عدا بعض الفسيفساءات المتأخرة في الظاهر، والتي عثر عليها في منزل باخوس، بالإضافة إلى مصابيح محلية تشبه تلك المكتشفة في موقع قلعة بني حمّاد بالمسيلة (القرنين الحادي عشر والثاني عشر)، وضريح ولي صالح في عين مكان الساحة العامة قبل حفريات 1910، وكذلك





والظاهر أنها تعرضت إثر ذلك للنهب والحرق. وتدل نقوش كتابية على أن كويكول بقيت تحت سلطة روما إلى غاية أفول إمبراطورية الغرب في العام 476. ويبدو أنه لم تطلها حملة الوندال المدمرة، إذ تدل من جهة، العديد من الفسيفساءات التي ترجع إلى تلك الفترة على استرجاع للنشاط بمنأى عن القلاقل، ومن جهة أخرى فقد كانت المدينة أصلاً تخضع للإمبراطورية البيزنطية منذ 533. فنجت بذلك من الوندال ومن الممالك البربرية التي كانت تسيطر على بقية أفريقيا الشمالية.


تمثال لأحد الأعيان الرومان

بعض المساكن المتواضعة. وهي مساكن تدعو للتساؤل عن استمرار حركة البناء إلى زمن متأخر بعد القرن السادس.

ولقد تم بناء متحف في بداية القرن العشرين على بعد حوالي 20 متراً جنوب الموقع. وتحتل المجموعة الأكثر تميزاً والمتمثلة في الفسيفساء الرومانية والباليومسيحية جل مساحة المتحف سواء على الجدران أو على الأرضية. وتتنوع هذه اللوحات من الزرابي البسيطة إلى النماذج الهندسية، وهي نماذج نجدها اليوم في زرابي بعض المناطق الجزائرية، إلى تمثيلات مصورة أو زخارف تمثل شخوصاً لبعض الأساطير الإغريقية والرومانية، أو مشاهد من الحياة اليومية على خلفية بحرية لا يضاهي أهميتها سوى عظمتها (أسطورة باخوس، اسطورة اختطاف أوروبا، واختطاف هيلاس، وزفاف أمفيتريت، وحمام فينوس، ومشاهد القنص والصيد...). والمتحف زاخر أيضاً بمنحوتات لآلهة أو أباطرة، وأدوات للاستعمال اليومي من الفخار المحلي أو الخزف المستورد، ومصابيح ترجع للفترة الوثنية والفترة المسيحية تعرف بواسطة الزخارف المنقوشة عليها، وأنواع مختلفة من المصابيح الجدارية وتماثيل الآلهة، ونقود مصكوكة، وجرار بعروتين، وأدوات حديدية للحدادة والبستنة، وأجزاء تزيينية من الجص، ومواعين منزلية من البرونز، بالإضافة إلى العديد من الوثائق الأثرية التي لا تقل إحداها أهمية عن غيرها.

ويمكن للمرء أن يتأمل في الحديقة الحجرية المنسقة أمام كتلة مبنى المتحف عدة مجموعات من القطع الأثرية التي تم اجتثاثها إبان الحفريات والمرتبة على شكل صفوف: كتابات جنائزية أو إمبراطورية تعرفنا على العديد من الأحداث، ومعالم عسكرية ، وتيجان أعمدة من مختلف الأنواع، وأحجار رحى ومزهريات، وجرار ذوات عرى بالإضافة إلى العديد من العناصر المعمارية الأخرى. غير أن المجموعة الأكثر تميزاً هي دون شك تلك الخاصة بالتماثيل الصغيرة المنذورة للإله زحل، أكبر إله أفريقي، والأكثر تبجيلاً ورهبة على وجه الخصوص.

يتراءى من خلال هذا المشوار القصير عبر الصروح الرئيسة لهذا الموقع المغروس وسط محيط بديع، يحتوي متحفه على فسيفساءات تفغر لجمالها الأفواه، يتراءى تناسق كبير وواحدية تاريخية لم تغير منها الشيات والتحويرات التي اتسمت بالعشوائية في غالب الأحيان. فقد نجح الأفريقيون الذين تمثّلوا بسرعة قوانين الفن الكلاسيكي،



معبد سيفير

مع إضافة لمستهم المحلية، في أن ينقلوا إلينا ثقافة متوسطية يشوبها التعقيد غالباً وذلك عن طريق صهرها في أساليب فنية محلية.

ومن نافلة القول، أن بإمكان موقع الجميلة الذي يشكل رائعة التراث الثقافي المسجل في قائمة التراث العالمي منذ 1982، أن يكشف عن نفائس غير منتظرة لو تكبّدنا عناء مساءلته بمقاربة جديدة تهدف إلى تثمين مكنونه المكتشف الذي قاوم صروف الزمان وإهمال الإنسان. وهذه الاستمرارية عبر القرون وذاك الشعور بالعظمة الذي ينضح به الموقع هما اللذان ألهما ألبير كامو ما كتبه في "زفاف":" الذهاب إلى الجميلة يتطلّب وقتاً طويلاً. فهي ليست بالمدينة التي نتوقف فيها أو نتجاوزها. مدينة لا توصل إلى أي مكان ولا تنفتح على أي بلاد. إنها مكان نرجع منه."

ولا تنتظر آثار الجميلة التي لا تزال تتمتع بكل أبهتها سوى عشاقها من محبي الجمال والتريّض لإقران الفضول بمتعة الاكتشاف في جو يجمع بين الصمت وبين أصوات الطبيعة ومباهجها.





ساحة سيفير، الجهة الشمالية

" يؤول العالم دوماً إلى دحر التاريخ. أعرف حق المعرفة شاعرية تلك الصرخة الحجرية المدوية التي تطلقها الجميلة بين الجبال والسماء والصمت: الصفاء واللامبالاة، الإشارات الحقيقية لليأس أو للجمال. ينقبض الصدر أمام هذه العظمة التي لا نلبث أن نفارقها."

ألبير كامو (الريح في الجميلة)



تلمسان

مدينة الفن والتاريخ

عبد الرحمن خليفة

المــوقــع

تقع مدينة تلمسان على سفح جبل تيرني، على بعد 140 كم جنوب غرب وهران. وتظهر وكأنها محصورة بين قريتي العبّاد من الشرق والمنصورة من الغرب، واللتين أصبحتا جزءاً من ضواحيها. وتستند المدينة الواقعة فوق منحدر كلسي ارتفاعه 800 متراً من جهة الجنوب على هضبة لالاّ ستي الصخرية. وتشرف على سهول التافنة والصفصاف. وعندما يكون الطقس جميلاً يستطيع المرء أن يلحظ مصبّ التافنة وجبال الترارا. وقد منحها هذا الموقع الدفاعي في الماضي اسم "أغادير" الذي يعني باللغة البربرية"الصخرة الشّماء" أو "القلعة". وتزود الجبال التي تشكل حاجزاً من جهة الجنوب هذا الموقع بالمياه المتفجرة ينابيع تنبجس من النواحي المحيطة لتملأ آبار المدينة، وتفيّض الوديان بفعل ذوبان الثلوج. وقد جعلتها هذه الوفرة تحمل عن جدارة اسم "بوماريا" ("البساتين") كما جعلتها تصمد في العصور الوسطى أمام عدد من الحصارات الطويلة. ويؤكّد يحيى ابن خلدون أخ المؤرخ الكبير، وكان بدوره مؤرخاً لبني عبد الواد، ملوك تلمسان، يؤكد قائلاً: " تنحدر من أعلى الجبل نحو تلمسان أنهر غزيرة توزع مياهها الرائقة، بعد أن تغذي الجداول والقنوات المغطاة حيناً والمكشوفة أحياناً أخرى، توزع على المساجد والمدارس وحجر الماء للمدينة، وعلى القصور والمنازل الفخمة والحمامات؛ كما تستعمل لملء الأحواض والصهاريج، لتسقي بعد ذلك الحدائق الواقعة خارج المدينة ومزارع الأشجار وحقول الحبوب." ويزعم البعض أن اسم تلمسان يعني "الينابيع". يذكر يحيى أن كلمة "تيليمسين" تعني باللغة الزناتية:" تلك التي تقع بين التل والصحراء". وبالفعل، فإن المدينة تستمد أهميتها من موقعها على مفترق الطريقين الرئيسين للمنطقة المغاربية: الطريق شرق - غرب الذي يمتد من إفريقية إلى المغرب الأقصى،



مدخل ضريح ومسجد سيدي بومدين

"أي مكان أروع من تلمسان ليهجع المرء في سبات أبدي."
" الله هو الحق المطلق."

سيدي بومدين

والطريق شمال ـ جنوب الذي كان لزمن طويل طريق قوافل تجارة الذهب. و يقال بإنه عندما علم هارون الرشيد بأن إدريس الأول قد احتل تلمسان قال:" تلمسان هي باب المغرب، من احتل الباب فقد احتل البيت برمته." وأمر بحبس إدريس الأول.

وقد سكن الإنسان الموقع منذ زمن مبكر جداً، بحيث عثر على آثار لمساكن قبتاريخية في النواحي المتاخمة لتلمسان في أوزيدان وعين يوسف (بحيرة قرار)، وعلى عدد كبير من الأدوات (فؤوس، وشظايا حجرية ذات الوجهين...) ترجع إلى بضع مئات الآلاف من السنين.

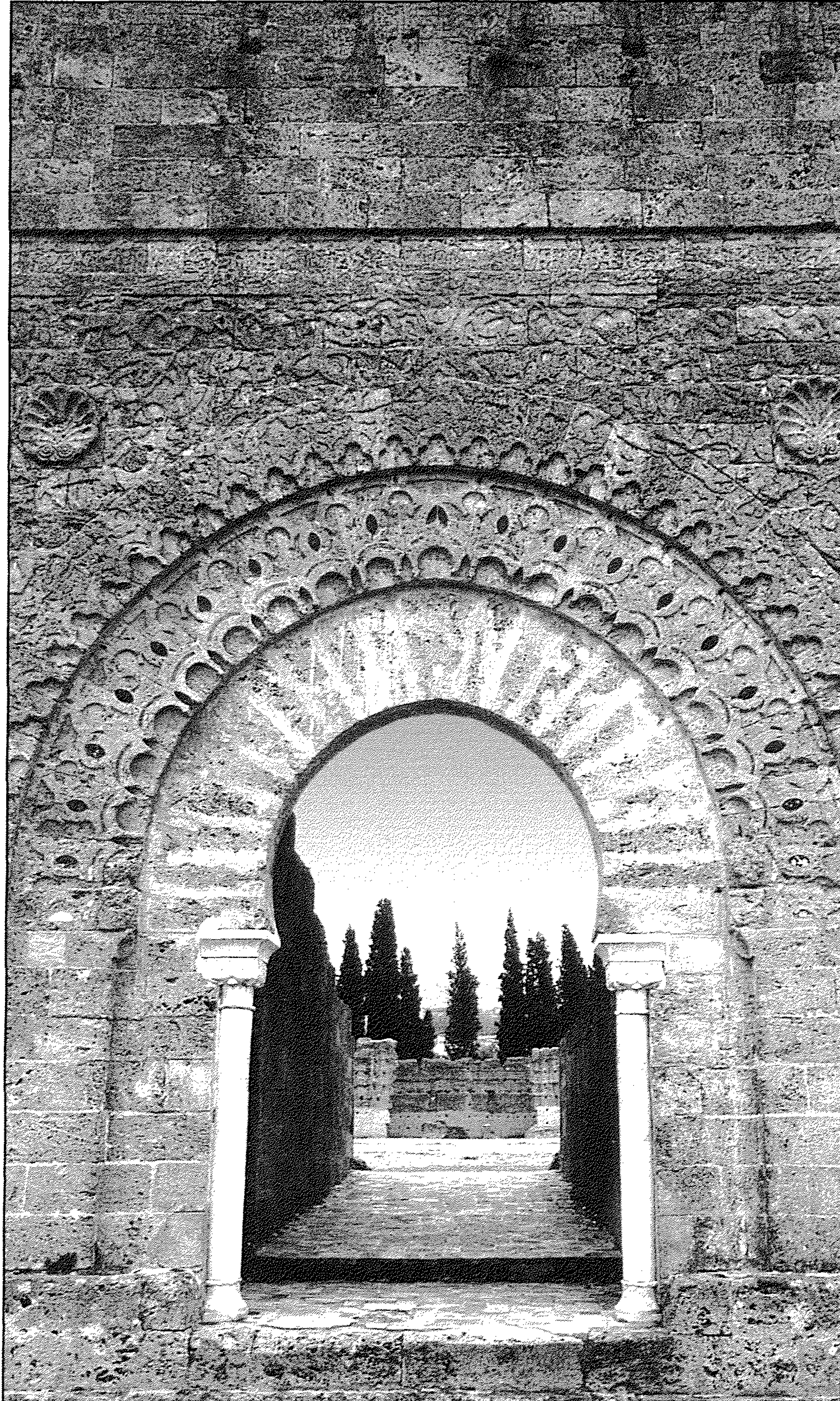
تلمسان في غابر الزمان

لا يعرف شيء عن تلمسان في فترة الملوك الماسايسيليين، عندما كانت سيقا الواقعة على بعد بضع عشرات من الكيلومترات عاصمة لهم.

تلمسان هي بوماريا القديمة، وقد كانت هذه المدينة العتيقة تقع فوق هضبة أغادير، وعثر على اسم بوماريا منقوشاً على العديد من الألواح الحجرية المكتشفة في ذلك الموقع. ويُعتقد بأنها قد أنشئت في العهد السيفيري بالتزامن مع "ألتافا" (أولاد ميمون) ونوميروس سيرورُوم (مغنية)، كما تدلّ على ذلك الكتابات المكتشفة في الموقع والمعالم العسكرية المتناثرة على طول التافنا، على الطريق الرابط بين مغنية وسيقا وتلمسان. استعمل الموقع في البداية لنصب مخيم عسكري، ثم تأسست بعد ذلك مدينة بكل ملحقاتها. وقد عاين ماك كارثي الذي زار المدينة في منتصف القرن التاسع عشر شكل ووضعية "الكاسترُوم" أو محيطها القديم:" لا زال بالإمكان التتبع الدقيق لحدود بوماريا على الأرض، بحيث بقيت الزاوية الشمالية الغربية المبنية بالأحجار المشذّبة على حالها تماماً وسط أبنية الحرم الواسع للزيانيين. مساحتها 16 هكتاراً. حتى أنّه من السهل تحديد شكل وموقع نطاقها القديم." كما تمكّن أيضاً من معاينة

"الجنة يا أهل تلمسان لا توجد إلا في وطنكم، وإن ما خيرت فلن أرضى عن تلمسان بديلا."

ابن خفاقة القرطبي



باب مسجد المنصورة (القرنين الثالث عشر والرابع عشر)

الأحجار المشذبة التي ترجع للفترة القديمة و تشكل ركائز باب العقبة والتي لم يبق لها أثر اليوم. ولا تزال لحد الآن نقوش لاتينية على مئذنة مسجد أقادير منها:

DEO
SANCTO
AVLISVA
FL.CASSI
ANVS PRAE
FEC.ALAE
EXPLORA
TORVM
POMARI
ENSIVM
(SEVERIANA)

ونظراً لكون المدينة قد بنيت في البداية من طرف الجنود الرومان لمراقبة أقاصي موريتانيا، فإنها لم تلعب دوراً هاماً



باب القرمادين، القرن الحادي عشر

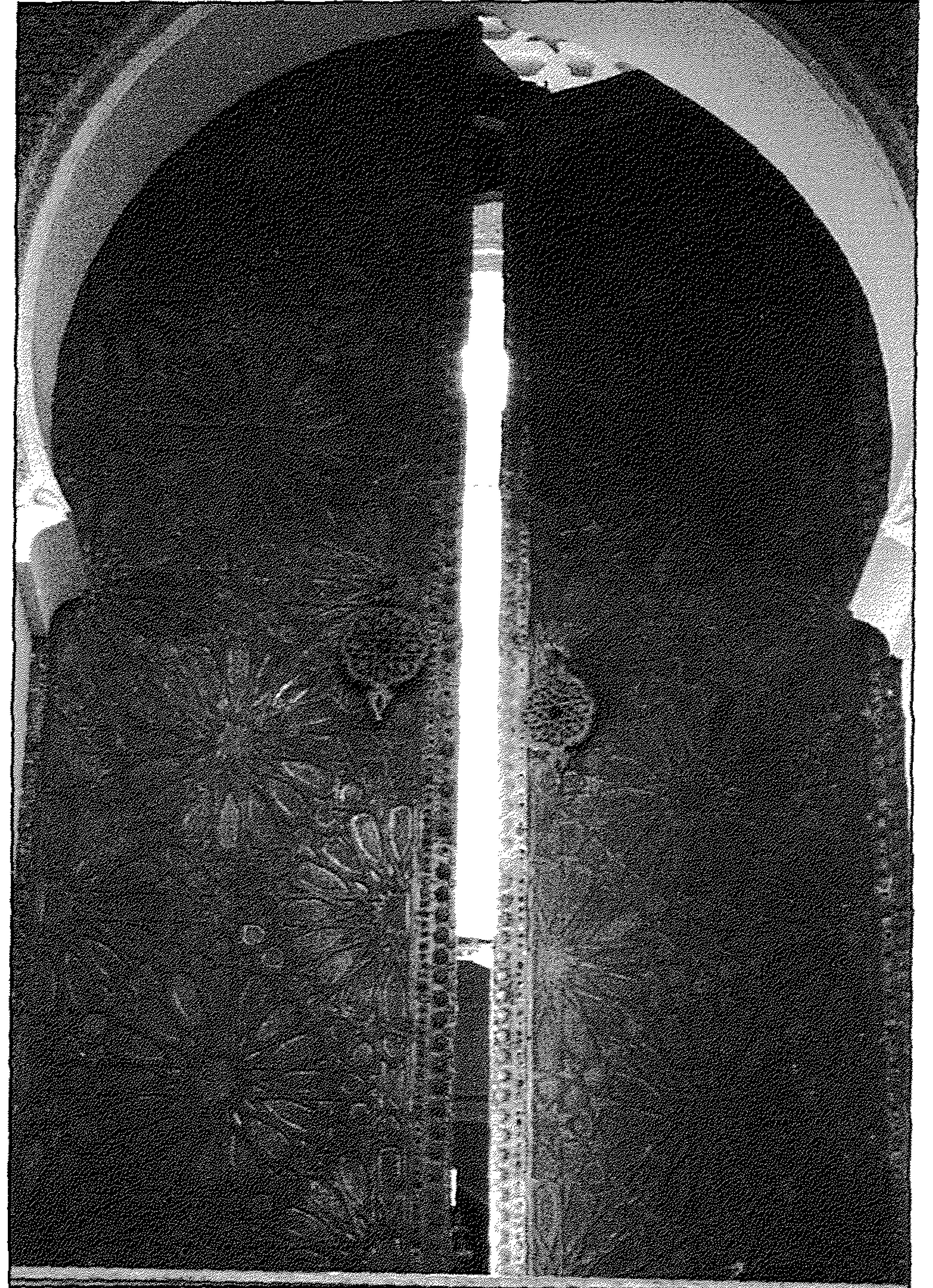
" لقد كانت المدينة محمية بشكل يتعذّر فيه على طيف أو خيال اقتحامها..."

عبد الرحمن ابن خلدون
(على ذكر حصار تلمسان 1299- 1307)

أحد أزقة حي العباد.

طوال تلك الفترة، أي في عهد الاحتلال الوندالي والبيزنطي. ويرجع أهل التفسير التلمودي أصل المدينة إلى غابر العصور القديمة. ولكن حتى وإن كان ابن خلدون يشكك كثيراً في هذه الأسطورة إلا أنه يذكر ما كان يقوله أهل تلمسان عن مدينتهم: "تعود مدينتنا إلى الحقب البعيدة، لأننا لا نزال نرى في حيّ أغادير آثار الجدار المذكور في القرآن في معرض قصّة موسى والخضر."

باب ومئذنة سيدي بومدين



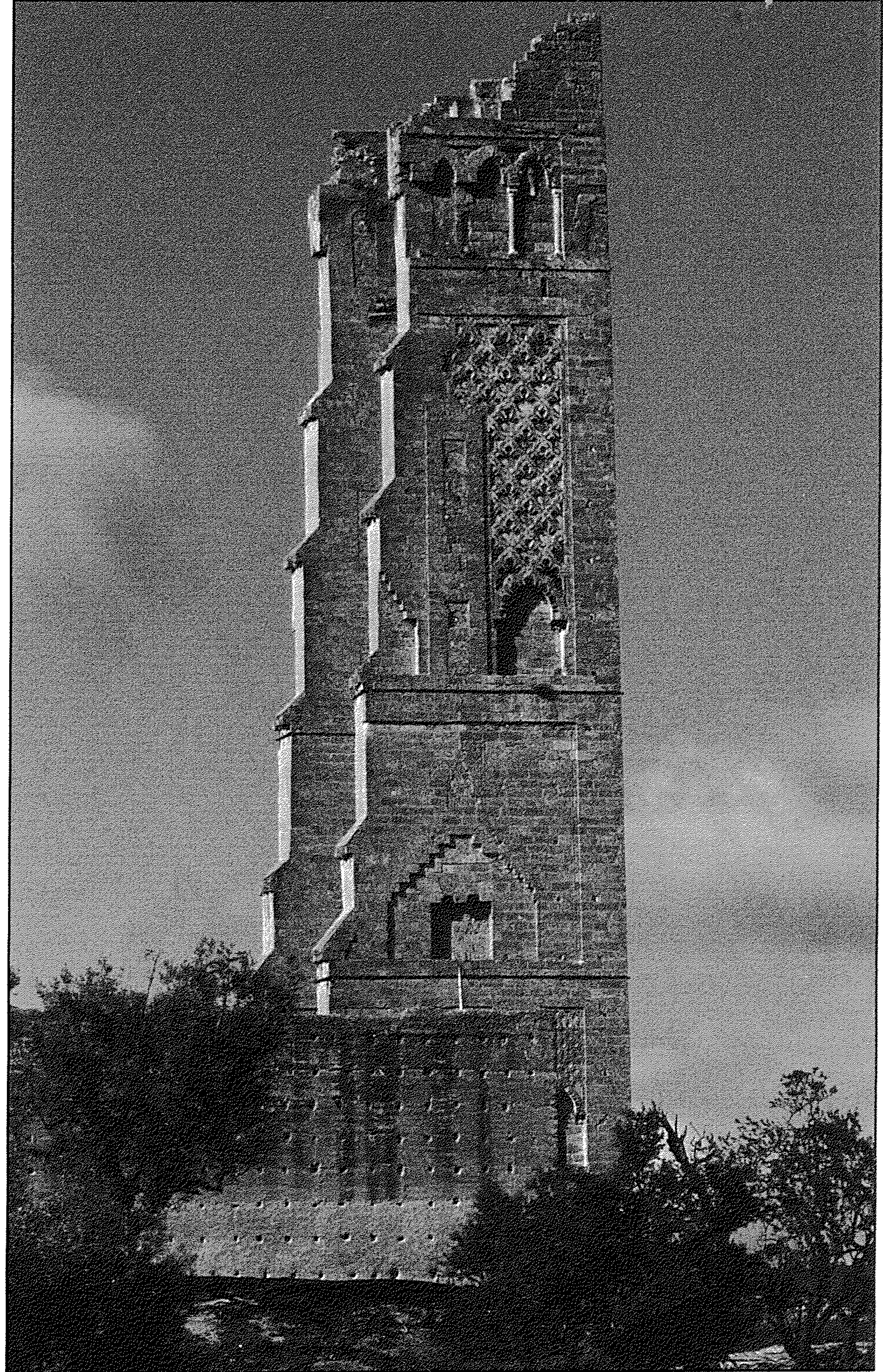
الإسلام في بداياته

ذكر المؤرخون منذ وقت مبكّر اسم تلمسان إبان الفتح الإسلامي. بحيث أفاد عبد الرحمن ابن خلدون بأن أبا المهاجر دينار، خليفة عقبة ابن نافع قد فتحها بعد أن كانت في حوزة ابن الرقيق. وعلى سبيل الذكرى، كان لا يزال هناك في عصر المؤرخ الكبير الذي عاش لفترة في بلاط ملوك تلمسان في القرن الرابع عشر، نبع ماء يحمل اسم عين المجير. حيث كان الناس يجلّون سيدي وهّاب أحد صحابة الرسول الذي جاء إثر عقبة ودفن هناك. وقد لعبت المدينة دوراً هاماً أثناء الحملة على شبه الجزيرة الإيبيرية، والدليل على ذلك أن طارق ابن زياد كان قد احتجز فيها أبناء الكونت جوليان كرهائن.

وفي العام 765 (148 هـ) نصّب أبو قرّة، زعيم الطائفة الصفرية إماماً على القوم واتخذ من تلمسان عاصمة له. فعلا شأنه وتعاظمت هيمنته وصار جيشه يتوغل مع القوات الإباضية في تيهرت وسيسلجامة لشن غارات على إفريقية.

لم يبق في تلمسان من أثر يذكر عن هذه الفترة، اللهم سوى اسم باب يدعى "باب القرّة"، حرّف فيما بعد ليصبح "قرّان".

وبعد هذا الفصل الخوارجي ألحقت المدينة بإمارة بني إفران والمغراوة الذين كان يرأسهم محمد خزار (170/786)، الذي سلّم مفاتيح المدينة دون إراقة الدماء إلى إدريس الأول (789-174هـ). وبنى هذا الأخير مسجد أغادير الكبير الذي نزع الردم عن جدرانه بين عامي 1973 ـ 1976. أكمل إدريس الثاني على نهج أبيه، لكن سرعان ما انقسمت البلاد إلى إمارات توزعت على أبناء إدريس وعلى أبناء إخوته. فعادت بذلك تلمسان وبعض ضواحيها مثل أرشغول إلى شقيق إدريس، بينما بقيت المنطقة الوهرانية التلمسانية تحت سيطرة القبائل الزناتية والمغراوة وبني إفران التابعة لمحمد خزار، ثم وقعت فيما بعد تحت سلطة بني يعلا الذين كانت لهم علاقات جيدة مع أمويي قرطبة في مواجهة فاطميي إفريقية. وقد حكم زيري بن عطية تلمسان باسم أمراء قرطبة. وأسس مدينة وجدة في العام 994- 384. وحكمت سلالته تلمسان إلى غاية وصول المرابطين. وصف البكري المدينة قبل أن تستولي عليها القبائل الرحل الصحراوية قائلا:" تلمسان مدينة كبيرة،



مئذنة مسجد المنصورة

تحيط بها الأسوار وتقع حول جبل غاباته من شجر الجوز. لها خمسة أبواب ثلاثة منها باتجاه الجنوب وهي: باب الحمّام وباب الوهاب وباب الخوخة. في حين تطل باب العقبة صوب الشرق وباب القرة صوب الغرب. يوجد فيها آثار لصروح قديمة عدّة وبقايا من سكان نصرانيين لا يزالون إلى يومنا هذا. وتوجد كنيسة لا يزال يؤمها المسيحيون (...) وتحتوي تلمسان عاصمة المغرب الأوسط على أسواق ومساجد وجامعة ومزارع للأشجار المثمرة وسواقي تدير عدداً من الطواحين وتشكل نهر صتافصيف. وبالإضافة إلى كونها عاصمة الإمبراطورية الزناتية ومربط خيل القبائل البربرية، تعتبر تلمسان مركز تلاقي التجار من كل حدب وصوب (...) ولم تكفّ تلمسان عن أن تكون مقرّاً للعلماء في الفقه والحديث."

تلمسان ـ تقرارت في عهد المرابطين (1080- 1143)

برزت حركة المرابطين فجأة في منتصف القرن الحادي عشر، في الوقت الذي كانت تفتقر فيه منطقة المغرب إلى سلطة قوية تنضوي تحت رايتها السياسية القبائل برمّتها. شرع يوسف ابن تاشفين بفتح المغرب الشرقي ثم فتح تلمسان في العام 1081- 474. ويقول ابن خلدون بهذا الصدد:" كان يريد أن يجعل من هذا المكان أحد روافد إمبراطوريته ومحطة لجنده، فأسس فرقة مرابطية تحت أمرة محمد ابن تينامار المصوفي". ويضيف المؤرخ بأنه اسس مدينة تقرارت على المشارف الغربية لمدينة أغادير التي أصبحت ضاحية للمدينة الجديدة. وتعتبر تقرارت السلف الفعلي لتلمسان الحالية. ثم توغل نحو تنس ووهران ليصل إلى الجزائر التي فتحها في العام 1082-483.

لقد جعل المرابطون من تلمسان بفضل ازدهار التجارة الصحراوية الغنية بالذهب، أحد مقاصدهم المفضلة. إذ شيدوا فيها العديد من الأبنية العسكرية والدينية، منها القصر القديم قرب المسجد الكبير، وأحياء



قاعة الصلاة ـ المسجد الكبير (القرن الثاني عشر)

" وهي أشبه بعروس شابة على سرير زفافها"

يحيى ابن خلدون



مثل حي درب مسّوفة، وحمامات مثل حمّام الصبّاغين، وأسوار وأبواب مثل باب القرمادين. ولم تكن تلمسان المدينة الوحيدة التي استفادت من تجارة الذهب، إذازدهرت في نفس ذلك الوقت مدن أخرى مثل ندرومة وهنين وتنس والجزائر تقع على نهايات المحاور الكبرى للتجارة بين الشمال والجنوب.

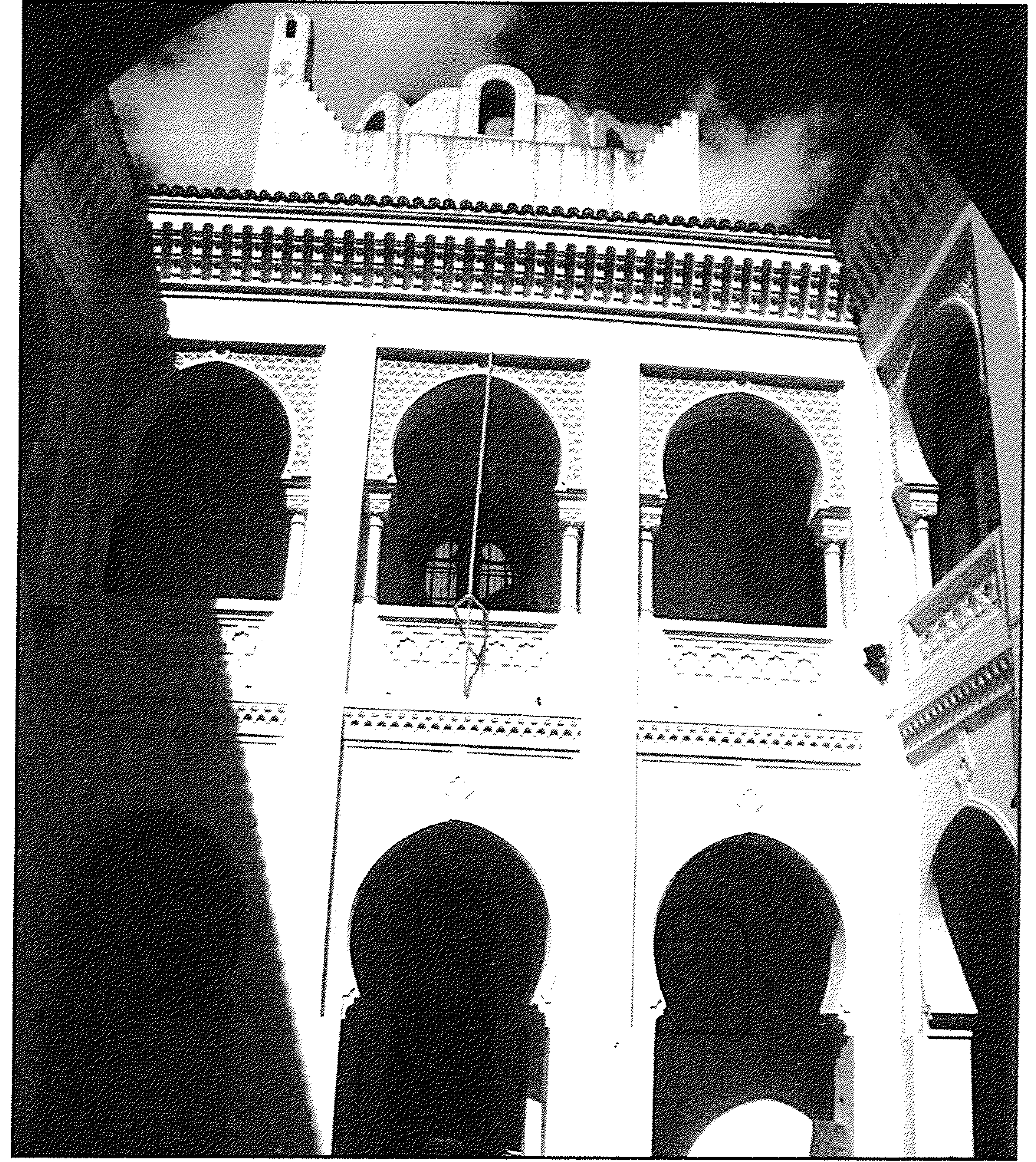
وهكذا حظيت كل من ندرومة والجزائر وتلمسان بمسجد كبير. ويعتبر المسجد الكبير لتلمسان الذي أسسه علي ابن يوسف من أهم الصروح المرابطية. وهو بناء يبلغ بعداه 60×50 متراً يتقدمه فناء مربع طول ضلعه 20 متراً. تتألف قاعة الصلاة فيه من 13 جناحاً لكل منها ستة صفوف. وترتفع في المركز قبة محززة مباشرة أمام المحراب الذي تتشابه زخارفه إلى حد كبير مع زخارف محراب مسجد قرطبة.

" تّجار تلمسان ذوو مال، وميسورو الحال، العدل عندهم من شيم الرجال، والولاء والأمانة في تعاملهم من أبرز الخصال. ولا يألون ابتهاجاً في إلباس مدينتهم حلة من الجمال..."

ليون الأفريقي



محراب المسجد الكبير (القرن الثاني عشر)



يا تلمسان ، يامدينة أجمل الفرسان. بمائك وهوائك وحوفي نساءك ، أنت زينة البلدان."

سيدي أحمد بن يوسف

تلمسان في عهد الموحدين (1143-1248)

كتب الإدريسي عشية سقوط المدينة في يد الموحدين:" إنها مدينة قديمة جداً تحيط بها أسوار متينة، وتتألف في الواقع من مدينتين يفصل بينهما جدار. استقرّ فيها المصموديون بانتظار استسلامها(...) محاصيل الفواكه والحبوب وفيرة والرفاه فيها عام(...) مدينة جيدة من حيث رخص المعيشة ، و رواج التجارة ووفرة الأرباح. وفيما عدا سكان أغمات وفاس لا يوجد أناس أكثر غنى وثراء من أهل تلمسان."

عبرت منطقة المغرب في بداية القرن الثاني عشر حركة دينية واسعة النطاق. كان يقودها مصلح ديني اسمه ابن تومرت وقائد حربي يتمثل في شخص عبد المومن المتحدّر من "تجرة"، وهي دشرة صغيرة من ضواحي هُنين القريبة من تلمسان. وبعد احتلال المدينة، حكمها ابن وانودين وهو شيخ موحدي، ثم خلفه السيد أبو حفص ابن الخليفة الموحدي. وقد كانت تلمسان، حسب ابن خلدون، مدينة مزدهرة تجتذب الكثير من المسافرين. وأصبحت مركزاً لورشة هامة لصك النقود الذهبية (الدينار) والفضية (الدرهم) وذلك قياساً بعدد القطع المصكوكة باسم المدينة.ويخبرنا ابن خلدون بأن الأمراء الذين كانوا يحكمون تلمسان، " لم يكفّوا عن صيانة وتحسين أسوار هذه المدينة، وجلبوا الكثير من الناس لزيادة عدد السكان، ولم يألوا جهداً في جعلها حاضرة من الحواضر، فبنوا الحصون والبيوت الكبيرة والقصور التي بذلوا لتزيينها الغالي والنفيس." وفي عهد الخليفة الموحدي الثالث أبي يوسف يعقوب المنصور، وافت المنية سيدي بومدين على مشارف تلمسان، بينما كان في طريقه إلى مرّاكش، ودُفن في حيّ العبّاد. و قد شيّد له النصير ابن المنصور ضريحاً. وهو يعتبر منذ ذلك الحين ولي المدينة الصالح.

تلمسان في عهد الزيانيين أو بني عبد الوديد (بين القرنين الثامن والعاشر)

بمجرّد ظهور بوادر الضعف على الإمبراطورية الموحدية، انقسمت منطقة المغرب إلى ثلاثة أجزاء: الحفصيون في الشرق، والمرينيون في الغرب، وبنو عبد الوديد في الوسط. وبالفعل، ومنذ 1235 أصبح يغموراسن بن زيان مستقلاً، مع أنه كان حليفاً لآخر سلالة الموحدين، وبسط نفوذه على كامل الأراضي التي كان قد أوكلها إلى عهدته هؤلاء. وبفضل قوة شخصيته وشجاعته وطول مدة حكمه (1235-1283)، استطاع أن يفتك مملكة تمتد من المولوية إلى الصومام. وقد اضطر لهذا الغرض إلى الخروج باثنين وسبعين غارة ضد



القبائل العربية الرابضة في الجهة الغربية من أقاليمه. وأصبحت تلمسان عاصمة للمملكة الجديدة. وعلى الرغم من أطماع جارتيها اللتين وضعاها في حالة حرب دائمة معهما، إلاّ أن تلمسان مافتئت تشكل مقصداً للتجار الأوربيين الذين كانوا يبحثون أساساً عن الذهب القادم من السودان، وعن العاج والعبيد أيضاً. وطالما أشاد كل المؤرخين والجغرافيين القدامى بثراء المدينة التي شيّدت فيها أبنية عدّة مثل المشور، والمدارس (التشفينية والعبّاد)، والمساجد (سيدي بلحسن، ولاد الإمام، سيدي ابراهيم...). كما عرفت المدينة نشاطاً فكرياً مكثّفاً. وقد أقام فيها عبد الرحمن ابن خلدون ودرّس في مدرسة العبّاد. وكان شقيقه يحيى مؤرخ ملوك تلمسان.

قاومت المدينة أول حصار دام ثماني سنوات (1299-1307). وبنى المرينيون أسواراً لتطويق تلمسان، وأنشأوا مدينة جديدة إلى الغرب مباشرة من باب الخميس وهي المنصورة التي لم يبق منها سوى الأسوار والمسجد. وكما قال ابن خلدون:" لقد كانت المدينة محمية بشكل يتعذّر فيه على طيف أو خيال اقتحامها..." غير أنها استسلمت في الحصار الثاني في العام 1337. وسقط السلطان أبو تاشفين وأبناؤه الثلاثة وسلاحهم في أيديهم تحت ضربات المرينيين بقيادة أبو الحسن. دام الاحتلال 25 عاماً، قام خلالها المرينيون بتوسيع وتجميل المنصورة، وبنوا قصوراً ومساجد مثل مسجد العباد وسيدي الحلوي، كما رمموا ضريح سيدي بومدين.

استرجع بنو عبد الوديد عاصمتهم بقيادة أبي حمّو موسى الثاني (1359-1389)، وبمساعدة القبائل الزناتية والعربية. وقد عرفت تلمسان خلال فترة حكمه ازدهاراً لم تشهده فيما بعد، لكن ابن موسى الثاني خلع أباه عن العرش وأرداه قتيلاً.

لكن توالى على مملكة تلمسان بعده فترات حكم تميّزت بالقصر والقلاقل وانعدام المجد، إذ كانت تابعة لفاس تارة ولتونس تارة أخرى. ثمّ اضمحلّت سلالة الزيانيين التي واجهت خصوماً كثراً منهم الإسبان، وتوارت بعد احتضار طويل تحت ضربات العثمانيين (1554).



حضارة وفن بنو عبد الوديد

لا تزال آثار أعمال يغموراسن مؤسس السلالة بادية من خلال مئذنتي المسجد الكبير لتلمسان والمسجد الكبير لأغادير. وهما صرحان يتميزان بالأناقة ويعبران عن الفن المغاربي لتلك الفترة. ويشرفان على المناطق المحيطة من ارتفاعي 34م و40م. وتعزى إليه الثريا المشهورة للمسجد الكبير التي لا تزال بقاياها معروضة في متحف تلمسان. وقد أرسى يغموراسن دعائم المشور، وهو القصر المحصن الذي كان مقر الإقامة الرسمي للأمراء الزيانيين. ومن المعروف أن أبا حمّو موسى الثاني كان يقيم مآدب باذخة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي. ولم يبق من هذا المجمّع سوى المسجد. وقد بنى فيه العسكريون في بداية الاستعمار الفرنسي ثكنات لقوات الاحتلال. واستخرجت الحفريات الأخيرة التي أجريت في الموقع قاعات مزينة بالزلّيج كانت بالتأكيد هياكل تابعة للقصر.

وقد زودت المدينة مبكراً بحرم دفاعي كما يشير إلى ذلك كل من اليعقوبي وابن حوقل في القرن التاسع. وتم توسيع هذا الحرم مع بناء تقرارت، لكن الزيانيين هم الذين قاموا بمضاعفة الأسوار التي لا يزال البعض منها قائماً داخل المدينة وحواليها. مما جعل للمدينة عدة أبواب لم يبق للأسف منها سوى ذكراها: باب الجياد الذي يفتح على حي سيدي بومدين، وباب سيدي الحاوي، وباب الرباط، وباب السويقة، وباب زير، وباب كشّوط، وباب تويتة، وباب تقرقارت... وبنى ملوك بني عبد الوديد الخزّان الكبير المسمى "صهريج النبدّة"، وهو من الأشغال المائية البارزة، لجمع المياه الآتية من هضبة لالاّ ستي، وبنوا أيضاً زوايا مثل زاوية سيدي بلحسن ابن يخلف التنسي، التي تشكل تحفة من تحف الفن الأسلامي الغربي. كما يجدر ذكر مسجد أولاد الإمام (أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى اللذان توسطا بنجاح لدى أبو موسى الحسن المريني لمنع نهب المدينة)، ومسجد وضريح سيدي ابراهيم، ومسجد سيدي السنوسي في درب مسوفة، ومسجد سيدي لحسن الواقع بين تلمسان وأغادير...

وقد اختفى الكثير من هذه الصروح التي تمثل الفن القروسطي مثل المدرسة التاشفينية الواقعة جنوب المسجد الكبير، إذ بنيت فوقها دار البلدية في الفترة الإستعمارية.

وقد كان سلاطين بنو عبد الوديد يحبون مجالسة الفنانين والعلماء، حيث يؤكد ابن خلدون الذي أقام فيها زمناً طويلا :" ازدهرت فيها العلوم والفنون، وشهدت بروز علماء ورجال أجلاء ذاع صيتهم في الأمصار والأرجاء." كانت تحتوي المدينة على خمس مدارس تلقن فيها دروس رفيعة المستوى. ودفن فيها العديد من الأولياء الصالحين منهم سيدي داوود(المتوفى عام 1011)، وسيدي إسحاق الطيار، وسيدي بومدين، " مولى البلاد" الذي يجتذب ضريحه حجاجاً من كل أصقاع منطقة المغرب. وقد أورد يحيى ابن خلدون قائمة طويلة بكل هؤلاء العلماء الذين سكنوا المدينة.



منظر القصر والمئذنة ـ العباد (القرن الرابع عشر)

تلمسان في بداية العصر الحديث (1517-1845)

كانت مملكة تلمسان في بداية القرن السادس عشر مهددة من ناحيتين في آن: الإسبان الذين احتلوا وهران لتوهم، والأخوان بربروس اللذان استقرّا في مدينة الجزائر لخدمة مصالح العثمانيين. ولّما وضع السلطان أبو حمّو الثالث نفسه تحت حماية الإسبان في العام 1511، طلب وفد من سكان تلمسان تدخّل عرّوج من الجزائر، فخرج هذا الأخير بحملة إلى عاصمة المغرب الأوسط. وعاد إلى الجزائر بعد أن قص رقاب جزء كبير من الأسرة الحاكمة. وقد أكمل مهمته ابن خير الدين بربروس الذي ارسل حسن قورصو لاستعادة الأقاليم الواقعة غرب الجزائر إلى غاية المولوية وأقام حامية في تلمسان، مما حد من التدخلات الإسبانية في الأقاليم الداخلية بين وهران وتلمسان. واعتباراً من العام 1555، ألحقت عاصمة المغرب الأوسط بمملكة الجزائر، وخضعت المدينة لحكم الحامية التركية الرابضة في المشور. استبدلت هذه الحامية في العام 1837 بقوات الأمير عبد القادر طيلة فترة مقاومته. ولم تترك هذه الفترة أي صرح يذكر.

وقد تم تدمير ومسح صروح وأحياء بأكملها لتوسيع المدينة خلال الفترة الاستعمارية. والأحياء النادرة، أو ما يسمى بالدروب، التي نجت من الهدم لا تسمح بإعطاء فكرة واضحة عن العظمة التليدة التي وسمت الحياة السياسية والاقتصادية والروحية للمدينة، والتي جعلتها تحمل عن جدارة اسم "لؤلؤة المغرب الكبير".

" بلد أعارته الحمامة طوقها. وألبسه الطاووس ريشه".

شاعر أندلسي



الأهقار
موطن الرجال الزرق

جينيت أوماسيب



في غرب التاسيلي آزجر، يحتل الأهقار أو الهقار، بمساحته التي تبلغ 480000 كم مربعاً جل الهضبة الصحراوية الوسطى. يقطعه مدار السرطان الذي يمر على بعد 85 كم شمال عاصمته تمنراست. ولم تكن تمنراست سوى مكان يقام فيه سوق قرب واد به ماء عندما قرر شارل دو فوكو الاستقرار وبناء برج فيها. وقد أدى اعتدال مناخها المائل إلى البرودة بفضل ارتفاعها (1360م)، وموقعها إلى تطورها الذي تسارع خلال العشرية الفارطة ليصل عدد سكانها إلى أكثر من 50000 نسمة. ويتمتع الهقار، مثله مثل التاسيلي آزجر، بموارد طبيعية هامة، وبحياة نباتية وحيوانية متنوعة رغم هشاشتها، بالإضافة إلى الثراء الثقافي الهائل المتمثل في آلاف الرسومات والنقوش الصخرية.

عالم معدني

هكذا يظهر الهقار: مساحات شاسعة مترامية إلى ما لانهاية، صمت مطبق على الأرجاء، وجبال عظيمة، وأشكال سريالية، وألوان معدنية. تمتد الأراضي الأرخينية المسوّاة في انخفاضات التاسيلي آزجر على مدى مساحات واسعة قليلة التموّج ومغطاة بشواش صخري. وقد نتج مظهرها عن تآكل سلسلتين جبليتين: الأقدم والمسماة بالسلسلة السوقارية التي تشكل محور الهقار وتعود إلى 3 مليارات من السنين، والحديثة العهد من الجهة الغربية والمسماة بالسلسلة الفاروزية وترجع إلى 2مليار سنة. تشرف شعَف مدببة على السهول الواسعة مشكلة جزراً من الجبال الوعرة التي تمتد أحياناً على طول مئات الكيلومترات، مثل تيفيدست أو الطرحة، ويرجع ذلك إلى الاختلاف في صلابة الصخر وصموده أمام التحات الذي خلّف نتوءات على الصخور الغرانيتية. وقد منع نشاط الحمم عند إنتاجه لهذه الصخور الغرانيتية من مرور خبث المعادن البدائي للكرة الأرضية.
آتاكور هي سلسلة جبال بركانية ضخمة تقع في مركز الهقارذا ارتفاع متوسط يبلغ 1000م. للجزء الأعلى منها والمسمى كوديا ذؤابات يتجاوز ارتفاعها 2500م. ويعتبرالتاهات وهو نتوء صخري مكون من حجارة مصداءة، أعلى نقطة في الجزائر بارتفاع يبلغ 3003م. وتشكل هذه الزوائد البركانية هضاباً وقبباً وشعفاً تخلق منظراً مشرّماً مدهشاً تختلط فيه الحمم البركانية اللزجة والسائلة. وقد خلّفت تدفّقات بازلتية موشورات كتلك التي يمكن رؤيتها قرب إيدلس أو في الطريق إلى أسكريم عبر إلّامان،

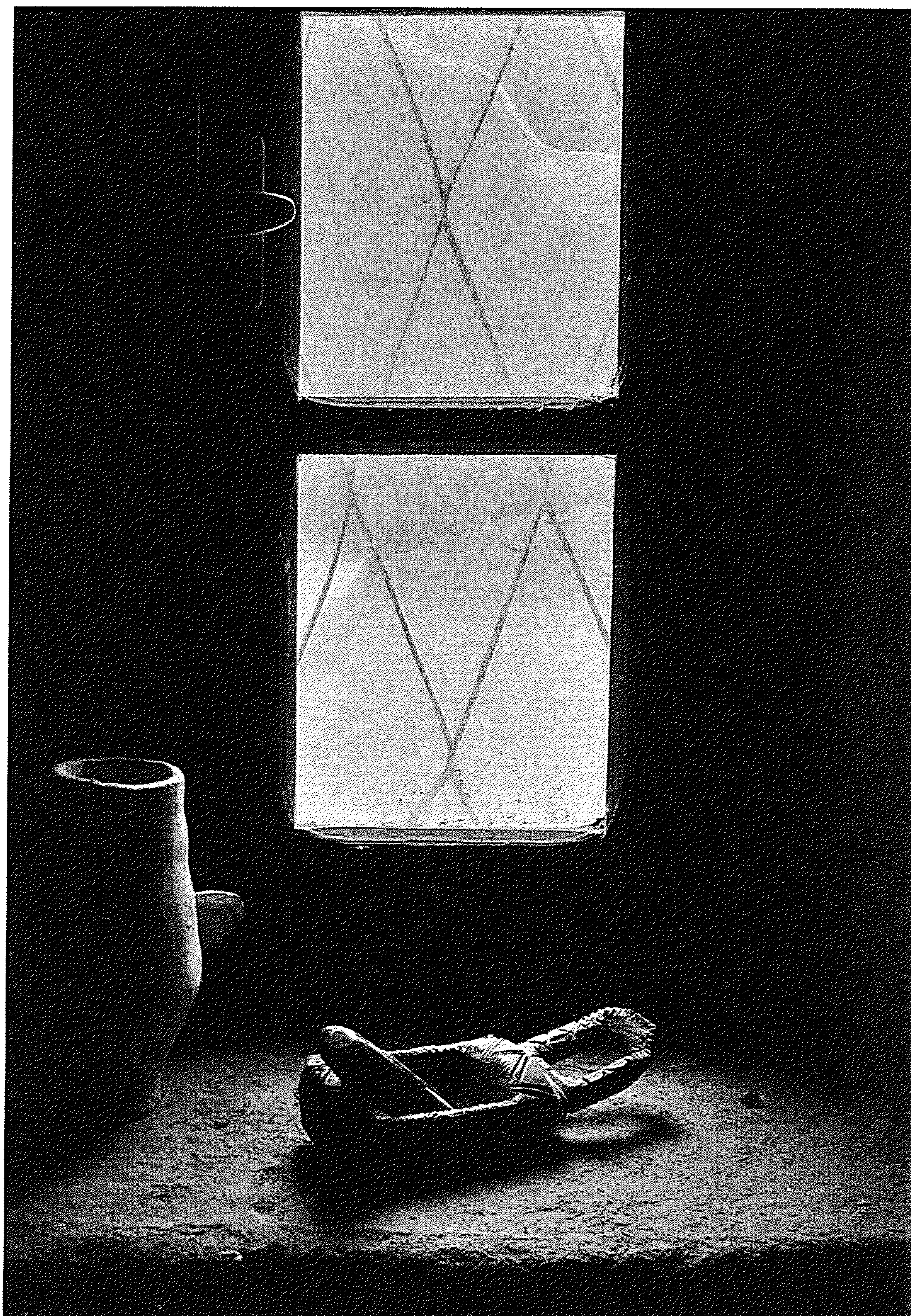


كما أنتجت هضبات شاسعة مثل هضبة أسكريم الشهيرة بالمنسك الذي اعتكف فيه الأب فوكو. وهناك فوّهات تفجيرية مثل فوّهة "تغيتن إهري" يصل قطرها إلى حد 1000م. ويجاري هذا التنوع في الأشكال كثرة في العدد أيضاً: إذ تم إحصاء 300 بركان في مساحة تقدر بـ 40×20 كم! فقدت شهدت المنطقة حركة بركانية نشطة ما بين 35 و 25 مليون سنة خلت، كما نشطت هذه الحركة قبل 5000 سنة.

تشكل الكتلة الجبلية الغرانيتية لتيفديست في الشمال موقعاً مفضلاً لرياضة تسلق الجبال نظراً لتعدد جدرانها الملساء. لا يزيد عرضه عن 40 كم بينما يبلغ ارتفاعه المتوسط 1100م؛ وتقع أعلى نقطة لجبل مرتوتك في إن إركولو بارتفاع 2355م. وتنتهي سلسلة تيفديست من الشمال بجبل صغير يسمى أودان تشرف عليه قمة "غارة الجن" التي تغطيها السحب غالباً بارتفاع يبلغ 2327م، وهو مكان يرهبه السكان المحليون إلى حد بعيد. تشابك لوهاد ونتوءات قد يبلغ الفرق بين مستوياتها 800م. لكن في العام 1936 تمكن كل من ر. فريزون - روش، و ر. كوش، وف. شاسلو - لوبا من تسلقها. ويرى فيها علماء التاريخ، سلسلة الأطلس التي وصفها هيرودوت:" جبل ضيق ومستدير، من العلو بحيث يتعذر رؤية قمته لأن الغيوم لا تفارقها البتة. ويطلق عليه سكان البلاد اسم عمود السماء".

أصبح الجنوب مشهوراً بفضل مناجم الذهب. إذ تم اكتشاف منطقة غنية بالذهب في العام 1970، وفي العام 1998 تم الشروع باستغلال موقعين هما: أمسمسا، وتيرك. ويقدر الاحتياطي من الذهب الخالص الموجود في أمسمسا بـ 50000 كغ، وذلك الموجود في تيرك بـ 20000 كغ. كما تحتوي هذه المنطقة أيضاً على مناجم التنغستين والفولفرام.

يحد الهقار من كل جانب الثلم التاسيلي التحتي وسهوله ويليها إكليل الصلصال الرملي للتاسيلي. وفيما عدا التاسيلي آزجر، فإن أهمها يقع في الشمال بمنطقة إيدمير(أو مويدير) ذات المضائق المهيقة، وفي الجنوب التاسيلي وان أهقار الذي انشطر بفعل عوامل التعرية إلى آلاف الأعمدة والذؤابات المسننة المنغرسة في الرمال. وهذه المناطق، مثل كل مناطق التاسيلي آزجر، غنية إلى حد بعيد بأشكال الفن الصخري. في الشمال، يشغل جل الثلم التاسيلي التحتي رق أمادرور، وهو أرض لينة متسعة لا نبات فيها، تتناثر



معتكف الأب شارل - أوجين فوكو (1858-1916)
مكتشف ورجل دين فرنسي ، استقر بالهقار بين الطوارق ، ليعيش حياة تأمل وإحسان.



" أظنني قد ذكرت هذه الحكاية الطرقية التي لا يعرفها الكثيرون: في غابر العصور والأزمان، حين كان البحر يغطي الأرض وكانت حرارة الشمس من القوة بحيث تجفف الصخور والكثبان. وقع كثيب في حب الشمس من شدة فرحه بدفئها. كان يبتهج كل صباح بوصولها فيدور ويتلوى ويلف نفسه بأشعتها. ويحزن ويبكي كل مساء عندما تتركه. توسل إليها كي تبقى معه، حتى أنه حاول ذات مساء احتجازها، لكن ذلك كان مستحيلاً. كان حبه من العظمة بحيث أقنعها بفكرة. وكانت النتيجة أن أنجبا طفلاً جميلاً له أطراف طويلة ويغطي بدنه بقع من الظل والنور، كتلك التي كانت أمه الشمس ترسمها على أبيه المكثب. ذات يوم، أرادت الشمس أن تأخذه، لكن الكثيب رفض التخلي عنه وشده إليه بكل قواه. إلا أن الشمس أخذت تشد وتشد وتشد. وهكذا طالت رقبة الزرافة إلى حد غير معقول."

(أسطورة طرقية دونها سيد أحمد كرزابي، مدير الديوان الوطني لحظيرة التاسيلي)





فوقها كتل من الغرانيت واشتهر بمناجم الملح منذ غابر العصور. وهي مناجم نتجت عن ثورة بركانية لجبل إيجير اعترضت مجرى واد أمادرور وولدت بحيرة ترسبت فيها عند جفافها كميات هائلة من الملح.

يشكل الأهقار بالنسبة لعلماء الجيوفيزياء الذين يدرسون حركات الأرض موضوعاً في غاية الأهمية. ذلك لأنه يستجيب في الواقع للتقارب بين أفريقيا وأوروبا عن طريق ترقيق القشرة الأرضية التي لا تتجاوز الثلاثين كيلومتراً، في حين أنها وإن كانت منخفضة إلى 10 أو 20 كم تحت أعماق المحيطات، فهي تبلغ حوالي 60 كم تحت القارات. وينتج عن ذلك عدد من الخاصيات منها عدم انتظام الجاذبية، وهو ما كان وراء إنشاء مرصد في تمنراست.



مياه نادرة

ليس الأهقار اليوم، مثله مثل باقي الصحراء، سوى وديان جافة تنعم بعض أجزاء من مساراها أحياناً بدفق ماء تسببه عاصفة. تؤدي هذه الندرة في المياه إلى ضبابيه ضعيفة جداً، يعزى إليها سطوع المنطقة الخارق للعادة. كما يمنحها الارتفاع الذي يفوق ارتفاع التاسيلي مناخاً أبرد. وفي الشتاء، الليالي فيها باردة إلى درجة الصقيع، ولا يستبعد تهاطل الثلوج، خاصّة في أتاكور؛ أما في الصيف فلا تتجاوز درجات الحرارة القصوى 35 درجة، مما يجعل النهار أقل حراً والأمسيات عليلة النسيم.

بالإضافة إلى ندرة الأمطار، هناك ندرة في المياه الجوفية التي تشكل جيوباً جانبية صغيرة من الصلصال الرملي، لكن في الجبل المتبلّر لاتسمح الصخور المنيعة من تسرب الماء الذي يمكن أن يكوّن حقولاً مائية ذات عمق معتبر. وبهذا تنحسر الموارد المائية إلى القلتات والبرك الجوفية التي تتحرك ببطء في ثفل الوديان وترتبط أهميتها بشكل صارم بالمعدل المحلي لسقوط الأمطار. والقلتات هي عبارة عن محتجزات مائية تشغل تقعر الصخرة أو الأجزاء العليا من الوديان. وتوجد بكثرة في أتاكور بسبب ارتفاعها الذي يشجع سقوط الأمطار، وصخورها النفوذة، مما يجعل من هذه المنطقة خزان ماء حقيقي للأهقار برمته. تتوزع من حواليه المراكز الزراعية الرئيسية مثل تمنراست، وتيت، وإن أمقل، وهيرافوك، وإيدلس، وتازروك، وتاهيفت. كما توجد هناك قلتات شهيرة مثل قلتة أفيلال، وإيملاولاوين، وإيساكاراسين، وتاغمارت وغيرها... وقد صنفت معاهدة رامسار كل من قلتة أفيلال وإيساكاراسين ضمن القائمة الخاصة بالمناطق الرطبة ذات الأهمية الدولية من حيث كونها مسكناً للطيور المائية.

لم يكن الأهقار دوماً منطقة قاحلة، فهو يحتفظ بآثار شبكة نهرية معتبرة. إذ يمكن للمرء أن يرى بوضوح الأودية الجافة الواسعة لأربعة وديان كبيرة وروافدها من على هضبة الأسكريم. ومنذ حوالي مليون سنة، كان واد إيغرغارن يتجه نحو الشمال ليغذي بحيرة تقع في مكان ما تحت رمال المكثبة الشرقية الكبرى، إلى أن جاءت فترة قحط شديدة القدم وحالت دون صرفه للطمي إلى ماوراء منطقة جوّة. فشكل هذا الطمي حاجزاً لم يتمكن من اجتيازه أبداً. فآلت مياهه إلى تزويد بحيرة تقع في مكان مكثب إيسّاوان. وفي الغرب تبددت مياه واد تمنراست في رمال تانزروف. وفي الجنوب، كان واد آزاواغ الذي نشأ في أناهيف، وغذته مياه تين ترابين وإيغرغار الجنوبي أحد روافد نهر النيجر. وصوب الشرق، يطرح واد تافاساست مشكلة عويصة، وقد يكون نهر"جر" الذي ذكره بطليموس. فقد اعتقد من الآثار التي تؤدي إلى تينيري بأنه يصب في بحيرة تشاد، في حين أنه حسب الطوارق، ينحرف أثناء عبوره للتاسيلي أزجر نحو الشرق ليصبح رافداً لنهر النيجر. والنزعة الآن تميل إلى الرجوع إلى هذه النظرة، فقد اتضح أن ما كان يفترض أنه مجراه، ليس سوى شق غير مكتمل، كسر قوي في القشرة الأرضية أسفر عن إحداث بحيرة تشاد والبحيرات الواقعة في المناطق الجنوبية.

الحياة الحيوانية شبيهة بتلك الموجودة في التاسيلي أزجر، لكن الحياة في الأهقار أغني لاحتوائها على 900 نوع نباتي. والنباتات المتوسطية أكثر انتشاراً نظراً للارتفاع الذي يميز المنطقة. والفستق الحلبي "إيجر" المسمى بالعربية المحلية "بيتوم" (البطم).



الذي لم يعد ينبت في التاسيلي موجود هنا بوفرة. وقد ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن وجود هذه النباتات المتوسطية يعود إلى امتداد نباتات المناطق المتوسطية المتبوع بانعزالها نتيجة المد الصحراوي. لكن دراسات حديثة أثبت خطأ ذلك الاعتقاد. وقد نتجت الفرضية عن تحليل فضلات حيوان الزلم (حيوان ثديي نباتي من ذوات الحافر) عثر عليها في فجوة جرف يبلغ ارتفاعه 20 متراً ولا يمكن الوصول إليها إلاّ بواسطة حبل. وهذا الترسب الذي يبلغ سمكه 50 سم وطوله 3 أمتار معروف لدى الطوارق الذين ينظرون إليه باحترام ويعزونه للبطل الأسطوري الياس، ويسمونه "زبيب الياس". ويحكى أن الياس ابن أخ آما ـ ملَن كان بطلاً في زمن الإيزاباتن [1]، سكان الأهقار القدامى، و تنسب له مآثر عدّة. ويقال بأنه حزّ الأدريان الذي يمكن رؤية الفجة التي صنعها فيه من تمنراست، كما يقول البعض بأنه اخترع الفن الصخري، بينما يذهب آخرون إلى أنه مخترع التيفيناغ (الكتابة الطرقية). وقد أظهرت نتائج تحليل عينة من الترسب قام بها علماء نبات في العام 1990، أن التحاليل الأولى كانت قد أجريت على الأجزاء العلوية التي كانت ملوثة دون أن يعرف سبب ذلك. بحيث أظهرت النتائج أن نباتات التايسة قد فقدت تنوعها في الفترة بين 3000 و2500 سنة قبل الميلاد.

[1] اسم يطلق عموما على سكان الأهقار الأقدمين.



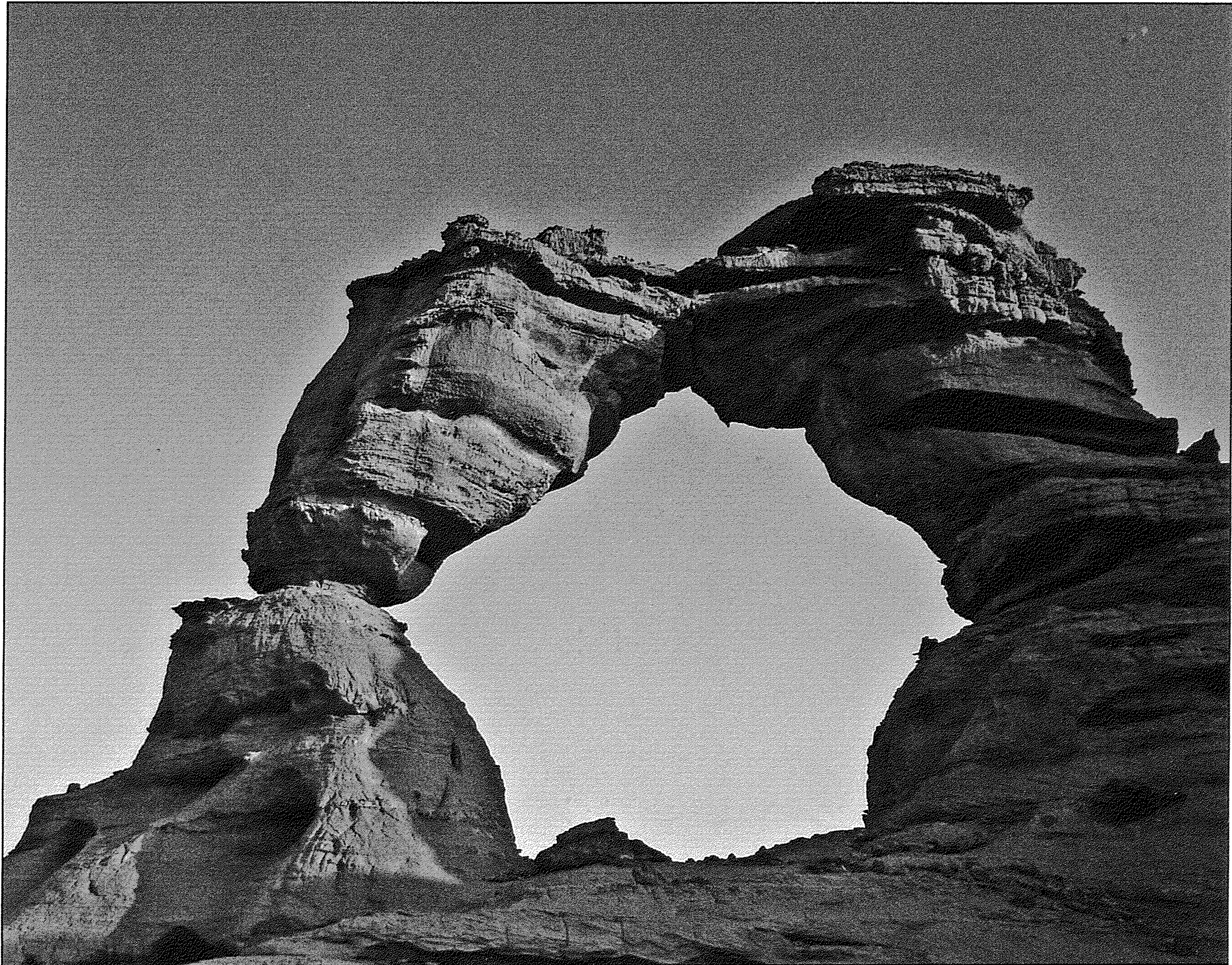
وطغى على المنطقة نبات "أوليا لابيريني" أو "أليو"، والفستق الحلبي أو "إيجر"، ولا تختلف عن الحياة النباتية الحالية إلا بوجود نبات الخلنج أو "إيريكا أربوريا".
لم يبق من النباتات القديمة لمنطقة تيديكلت سوى الذكرى المتمثلة في الأشجار الصخمة المتحجرة الموجودة في مواقع إن غار، وفوقارت، وإزّوا، وأغبات.

الرجال الزرق

يقطن الطوارق المرتفعات الوسطى الصحراوية، وقد أطلق عليهم اسم الرجال الزرق لأنهم يصبغون ثيابهم التقليدية بالأزرق فتترك على بشرتهم آثاراً لا تمحى. وقد كان نظامهم إلى غاية منتصف القرن العشرين قائماً على عاملين قويين هما: المرأة والجمل، تدور حولهما أساطير التأسيس التي تحدد كيان القبيلة. يرأس كل قبيلة "أمرار" أو الحكيم، وتجتمع القبائل في نوع من الفيدرالية التي تخضع لسلطة "أمنوكال". ويتشابه هذا التنظيم في كثير من المواضع مع النظام الإقطاعي أو نظام الطبقات.
تحتل الحكايا والأساطير في هذه البيئة الشاسعة مكانة كبيرة. وكل الطوارق ضليعون في فنون الشعر، ويقضون سهرات طويلة ينصتون إلى بعضهم البعض على أنغام الإيمزاد. وتبقى داسين شاعرة لا نظير لها حتى بعد مرور قرن على وفاتها، فقد طبعت مع ابن عمها الحكيم موسى آخ أمستان ذاكرة وتاريخ الطوارق. وهناك أسطورة روّجها الأوربيون ونالت نجاحاً كبيراً. تحكي هذه الأسطورة عن وصول امرأتين على ظهر الجمال إلى الأهقار وهما تين هينان وخادمتها تاكاما، قادمتين من تافيلالت المكان الديني المعروف. وجدتا البلاد شبه مقفرة، لا يقطنها سوى قوم إيزاباتن [1]، وهم أناس يتكلمون بنباح كالكلاب، ولا يعرفون الجمال، ويتقاتلون بالحجارة. يعيشون في منطقة تايسا التي تشكل جزءاً من أتاكور الوعرة الولوج، ويعبدون السهل الأبيض لأغوينّار الذي يسترسل تحت أقدامهم ويخشونه. ويقال بأن تين هينان أنجبت بنتاً اسمها كيلَلا التي هي سلف قوم كيل غيلّلا، وهو ما يفسّر حقهم في الزعامة. كما يقال بأن تاكاما أنجبت بنتين كانتا أصل القبائل الأكثر قدماً وهي: داغ رالي، وآيت لواين، وكيل أنهيت. وقد ألهمت هذه الأسطورة التي تعرّف عليها الجمهور الأوروبي في بداية القرن العشرين، ألهمت بيير بونوا الذي استوحى منها روايته الشهيرة "الأطلانتيد".
يزعم الطوارق بأنهم ينتمون إلى قوم لاهم بالبيض ولا هم بالسود، بل قوم حمر. وهي الصفة التي استعملها المؤلفون القدامى لتعيين الأقوام "الإثيوبية" التي تشمل فيما تشمل قدماء المصريين. وعلم الآثار لا يفنّد هذا الموقف. إذ يظهر عدد من البحوث بأنه يمكن إدماجهم مع ليبيي العصور القديمة المعروفين من خلال تمثيلهم في الفن الصخري للصحراء الوسطى وفي الصروح المصرية. إنهم يمثلون حالة خاصة لقوم لهم كتابة قديمة وهي التيفيناغ، لكن ليس لهم تاريخ مدوّن. والتيفيناغ فرع صحراوي من اللغة الليبية وتعتبر إحدى أولى الكتابات الأبجدية التي لا تزال تستعمل لحد الآن. لاتحتوي على حروف صائتة ولا يوجد فيها فصل بين الكلمات. يمكن كتابتها في كل الاتجاهات، وفتحة بعض الحروف هي التي تحدد التوجيه. من المتعذر فك طلاسم الحروف الأكثر قدماً خاصة تلك المرتبطة بالحصان، بينما يمكن فهم تلك المتعلقة بالجمل جزئياً. لايعرف لها أصل لكن يسود اعتقاد بأنها قد تكون مستقلة عن باقي الكتابات رغم العثور على أصول ليبية أكثر فأكثر في رصيد محلي قديم من الأوشام والعلامات الدالة على الملكية. وكلها تؤكد على أهمية المرأة في عالم الطوارق، لأنها ناقلة هذه المعرفة إلى أبنائها.

[1] من الازاباتن تحدر الداغ رالي، وهم شعب قديم من الطوارق يقال أيضاً أنهم تحدروا من تاكاما.





السكان القدامى

دفعت رواية "الأطلانتيد" إلى القيام بأبحاث أثرية في الأهقار، فجرت حفريات في العام 1924 على ربوة تقع في أباليسا قرب تمنراست. فاستخرجت قواعد لصرح غريب لا يزال النقاش قائماً حول استعمالاته، أهو قبر؟ أم حصن صغير؟ يأخذ المكان شكل شبه المنحرف بني نطاقه بأحجار جافة وضخمة في الغالب يتجاوز طولها وعرضها 25م، وينقسم إلى 12 قاعة، ويحتوي على قاعة تحت الأرض. وقد عثر في ذات المكان في العام 1926 على هيكل عظمي مزين بشكل ثري جداً بحلي من أساور ثقيلة من الذهب والفضة وأطواق من اللؤلؤ. كما كان مرفوقاً بعدد من الأدوات للبعض منها تأثيرات متوسطية



وسواحلية في البعض الآخر. تم تأريخه إلى القرن الرابع للميلاد بواسطة قطعة نقدية ترجع إلى تلك الفترة، ثمّ تأكد هذا التأريخ بعد إجراء الأشعة الكربونية. وقد أعزي الهيكل العظمي إلى تين هينان مما أعطى سنداً مادياً للأسطورة؛ على الرغم من عدم وجود أي دليل يؤكد هذه الهوية. فحسب عالم الأنتروبولوجيا الذي درسه، فإن الحوض يدل على غياب الولادة ومجمل الخصائص تشير إلى أن الأمر يتعلق بهيكل رجل.

وقد كان لهذا الاكتشاف أن يشجع الدراسات القبتاريخية في الأهقار. إذ يمكن لنا اليوم أن نقرأ من خلال الآثار العديدة والأحجار المشذبة أو المصقولة، وكسيرات الفخار، وصروح المدافن التي لا تحصى والأصلية غالباً، والعديد من النقوش والرسوم التي تغطي الصخور، يمكننا أن نقرأ تاريخ شعب قبتاريخي مطابق تماماً لتاريخ التاسيلي أزجر.

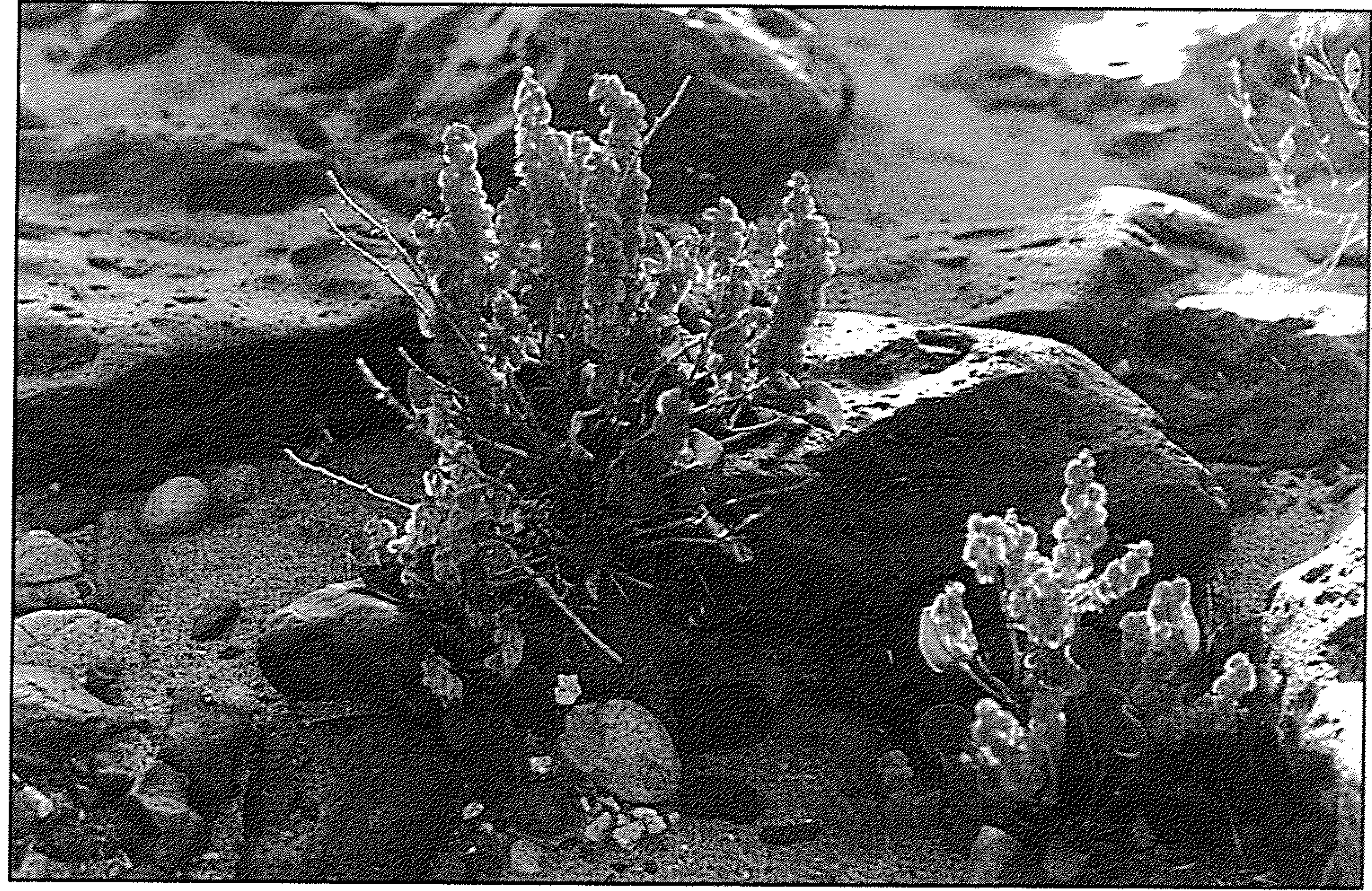
إن الشهادات على وجود الأقوام الأكثر قدماً في التاريخ متوفرة بشكل خاص، إذ تم العثور على حقول أثرية هامة في أولف ورقّان، وأخرى معروفة في حاسي الخنيق، وتاكومبارت، ومينيت، وأراك، وتين زاواتن. ولها عمر تلك الموجودة في التاسيلي أزجر، أي ما يقارب 2مليون سنة. أما آثار الأقوام القبتاريخية الأخرى فهي نادرة إلى غاية الحقبة النيوليتية، لكنها لا تخلو من أهمية. كتلك الأدوات الضخمة التي عثر عليها في أراك وتين تامات وغيرها، من ذوات الشفرات البالغ طولها 30 سم والتي لم نعهدها في مكان آخر، و تعزى إلى الرجال الأخوليين. وهناك العديد من المواقع التي تنتمي إلى الثقافة الموستيرية المعروفة في الصحراء فقط من خلال موقع منطقة ورقلة، والتي ساد الاعتقاد لزمن طويل بأنها غير موجودة في أفريقيا. لكن في العام 1964 تم اكتشاف فخاريات قديمة قرب قلتات أفيلال، أعادت تجديد مفاهيمنا حول الأزمنة القبتاريخية؛ فقد كانت تبدو أكثر قدماً من تلك المكتشفة في الشرق الأوسط الذي كان يعتقد بأنه مصدر كل الابتكارات النيوليتية مثل الزراعة وتربية المواشي وصناعة الفخار. وقد ولّد اكتشاف مركز الاختراع هذا في أذهان علماء ما قبل التاريخ فكرة ظهور اختراعات متطابقة في فترات متقاربة بأماكن مختلفة.

تزخر الصخور بالنقوش القبتاريخية، لكن الرسوم تتمركز في المناطق الرملية الصلصالية وفي منطقة تيفيدست. وكانت الفترة الرعوية هي التي شهدت أوسع التطورات في هذا المجال. ونجد آثارها في كل الأهقار بنقوش تم إنجازها بواسطة تقنيات مختلفة، والأغلب بواسطة التخطيط بالأوتاد. والحيوانات الأكثر تواتراً في الرسوم هي البقر سواء كانت منفردة أو ضمن قطيع. تتسم رسومات تيديفيست بدرجة عالية من الفنية، وتختلف أساليبها عن رسومات التاسيلي

مرتوتك يبلغ طولها 7 أمتار، رسمت على وجهين لصخرة صفّاحة تمثل قطيع حيوانات هائج انفلت زمام أمره من أيدي الصيادين؛ أحد الفيلة المجروح يدير وجهه لأقرانه الذين يدوس أحدهم على صياد بينما يرمي الآخر صياداً في الهواء. ويبدو أن للفيل مكانة خاصة في سركوت حيث كانت المساكن تقام فوق ركام ضخم يغطي سنم التلال في نقطة تقاطع الوديان، وتكون في مكان يسمح برؤيتها من مسافة بعيدة جداً. ولم يسجل في الأهقار أي شيء غير عادي بخصوص أثر أقدامها كما حدث في تادرارت، حيث غير مشي الناس القبتاريخيين فوقها من تموضع الأطراف واختفى بذلك أثر الهملجة، مما يدل على أن بعض الأقوام لم تعرف الفيلة.

تحتفظ إحدى هضبات تين غيغو بشاهد أساسي لتقدير تاريخ الفن الصحراوي: نقش لحيوان من ذوات الأربع مخفي تحت طبقة سميكة لّماعة من الزنجار الأسود، متقشّرة عموماً. تحمل الصخرة المجردة المطلية بالرمادي الغامق والحائل، نقوشاً للفصيلة الكبرى للحيوانات البرية التي تسمى الحيارم. وعليه فإن الظروف الضرورية الملائمة لتكوّن الزنجار تطرح مسألة وجود فن قديم في الصحراء قدم الفن الموجود في أوروبا، كما تعيد النظر في صانعيه الذين يتم إدراجهم أكثر فأكثر ضمن الشعوب الآتيرية.

وقد خلفت الحقب الحديثة للجياد والجمال العديد من الأعمال الفنية. ونراها غزيرة جداً في إمّيدير وقليلة جداً في سيركوت. وكثيراً ما تصوّر الجياد في المناطق السهبية الواسعة. ولكنها نقوش صغيرة بخطوط خرقاء بها من التفاصيل ما يكفي لنتعرف على تمثيلات لأحصنة البارب. وقلّما نجد رسوماً تمثل جياداً تخبّ في الهواء، وتلك الموجودة في في تي ميساو تتسم أكثر بالطابع الغربي، يظهر فيها فرسان يقودون حصانين يخبّان في الهواء تجعلنا نخمّن بأنها مشاهد ترويض جياد بغرض تسخيرها لجر العربات، التي ارتبطت لزمن طويل بالغزاة. ويعتقد بأنها جابت طرقاً عابرة للصحراء مغرقة في القدم. لكن تزايد الاكتشافات يلغي هذه الفرضية ويفتح المجال لفرضيات جديدة.



أزجر، من حيث أن الأشكال أكثر حدية والأطراف أكثر نحولاً لكنها لا تقل أناقة في تصوير القرون وتنويع البوص. وكانت ممارسة تطويق الشكل مألوفة. إلاّ أن هذا التنويع لا نجده في رسم الشخوص سواء كانوا من الرعاة أو الرماة. فهي عبارة عن خيالات مسطّحة بلون أمغري ومطوقة بالأبيض ذات قوام ممشوق تظهر بصورة جانبية يتقدم فيها الصدر إلى الواجهة، ولها نفس الرأس المتطاول بشعر أو بتسريحة. ويكمن كل السحر والانسجام في هذه الرسوم في حركة الأذرع البعيدة عن الجسد دوماً والتي تضفي وضعياتها المختلفة تنوعاً ثرياً.

للفن الأكثر قدما والمسمى الفن البوبالي حضور دائم، ونراه في تيديفيست على الصخور الضخمة التي تملأ حوض الوديان وعلى جدران الجروف. وقد تكون أكمات الصلصال الرملي في التاسيلي المعزولة بفعل عوامل التآكل مغطاة بهذه النقوش. يوجد بعض منها في يوف أكت أو "ظهر الحوت"، وهي قمة كثيب قديم جداً تحول إلى صلصال رملي احتفظ بألسنته المنبجسة من الأرض. يحتل الفيل والزرافة مكانة مرموقة بينما نجد أن النعامة وفرس النهر أقل تواتراً مثلها مثل الضواري والبقريات. الرموز والإشارات متعددة وتأخذ أشكالاً انسيابية وحلزونية شديدة التنوع مما يشكل إحدى خاصيات المنطقة. وقلما يتم تصوير الإنسان وإن حدث فإنه يُقزّم. ويمكن أن يرافق الحيوانات المعزولة غالباً شخوص صغيرة أو إشارات. إلا أن هناك لوحة معروفة لمشهد صيد في واد



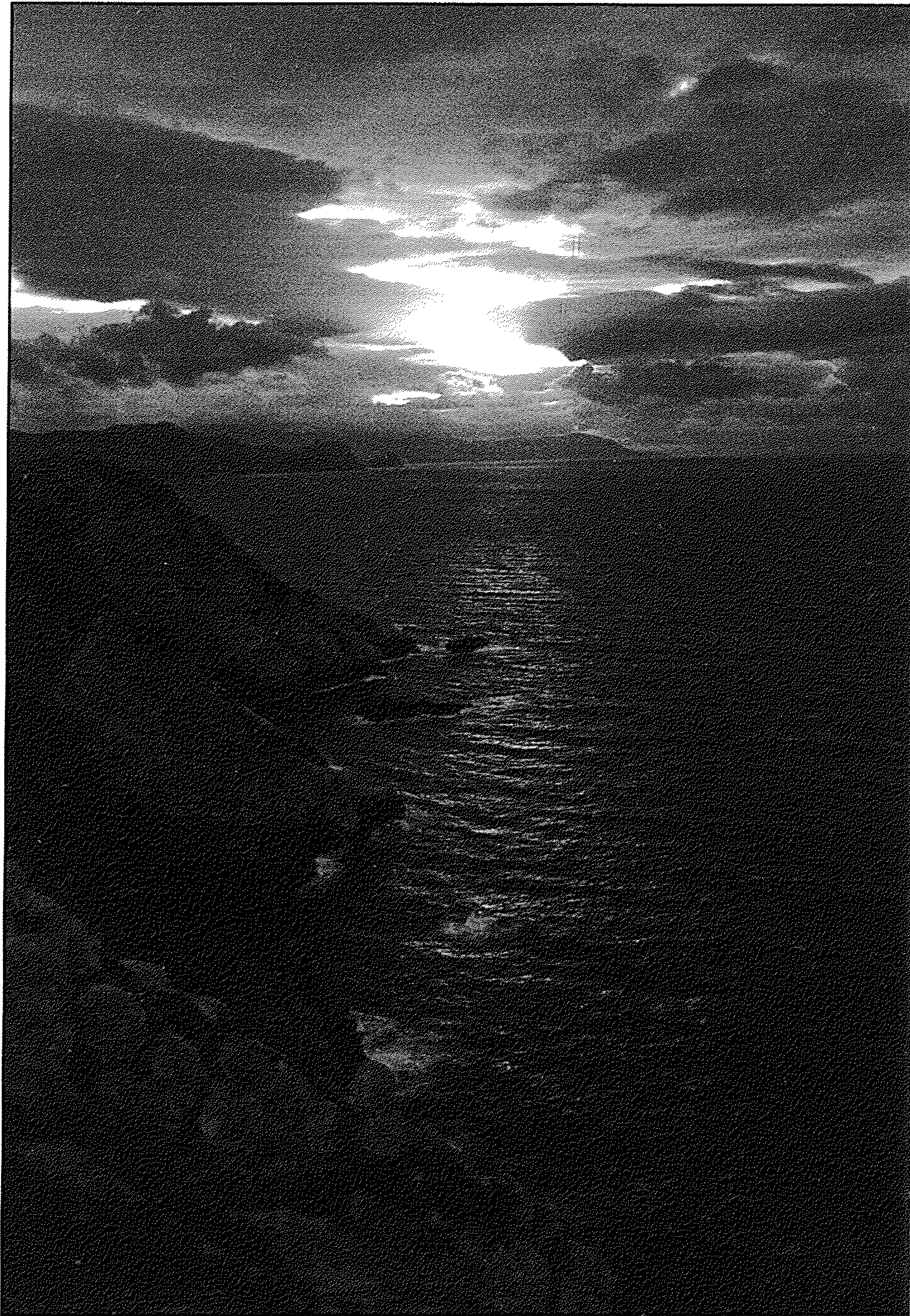
إن هذه الثروات المحفوظة منذ ألفيات خلت تجتذب اليوم العديد من السياح الذين ينقصهم الوعي غالباً بهشاشتها. ولهذا صدر مرسوم بتاريخ 3 نوفمبر 1987، يضمن حمايتها وتثمينها عن طريق جعلها منطقة محمية.

تغطي الحظيرة مساحة 380000كم مربع تحدها حظيرة التاسيلي والحدود مع النيجر ومالي، وتحدها من الشمال توات وهضبة تادمايت. وسوف يسهل هذا التصنيف حمايتها ويضمن المحافظة عليها وتثمين الآثار الثقافية الموجودة فيها، بالإضافة إلى حماية الحياة الحيوانية والنباتية. لذا فمن الضروري أن تستعمل هذه الثروات استعمالاً عقلانياً يتواءم مع التطور الاقتصادي والاجتماعي للمناطق المعنية خدمة لمصالح سكان المنطقة. كما يجدر القيام بجرد مفصل لهذه الثروات، وهو أمر في غاية الأهمية لتسييرها، وإصدار المنشورات وتنظيم المعارض لتوعية الجمهور بأهمية هذا التراث.



هيبون
ذاكرة جزائرية وعالمية

سعيد دحماني



"آفير سوم/ أنا أفريقي."

(القديس أغسطين)

تحتل هيبون في تاريخ العمران في الجزائر مكانة خاصة. لأن اسمها بقي مطبوعاً منذ الأزل. كان اسمها بونا في القرون الوسطى، وعنابة في الفترة الحديثة والمعاصرة. وهي من بين المدن النادرة على الخارطة القديمة لمدن أقصى الشرق الجزائري التي عبرت القرون إلى يومنا هذا.

نبذة تاريخية

يبدو موقع هيبون المنفتح على خليج عنّابة كما لو كان يستند من جهة الغرب إلى منحدرات جبل إيدّوغ، وينفتح من الشرق والجنوب والغرب على سهول عنابة. علاوة على أن الخليج يحتضن على مشارف المدينة واد سيبوس الذي يبلغ طوله 255كم ويعتبر بذلك ثاني واد في الجزائر.

تحصر هذا الموقع من الشمال الغربي تلة "القديس أغسطين"، ومن الغرب تلال "بو حمرة" (وتسمى أيضاً بوخضرة)، ومن الجنوب الشرقي تلة "غرف العطران" حيث يوجد بناء المتحف. وقد تطورت المدينة خلال العصر القديم والعصور الوسطى داخل المساحة المنبسطة التي تؤطرها هذه التلال، على ضفاف واد "بجّيمة" القديم من الشمال، وضفاف واد"الذهب" من الغرب. بالإضافة إلى أن المدينة تقع في منطقة من أكثر المناطق ارتواءً في الجزائر(معدل الأمطار السنوي 800 إلى 1000 مم). وعليه، فقد تأثر الموقع بشكل ظاهر بوفرة المياه وارتفاع نسبة الرطوبة، مما يطرح عدداً من المشاكل بخصوص المحافظة عليه.

عرفت هيبّون - عنّابة ومنطقتها الوجود البشري منذ غابر الأزمنة. فقد عثر على آثار لهذا الحضور البشري القبتاريخي في منطقة "رأس الحمرا"، وفي جبل "إيدّوغ"، وعلى ضفاف بحيرة "فزّارة"، وكذلك في تلال "بوحمرة". واكتشفت في كل هذه المناطق آثار خلفّها العصران: الباليوليتي والنيوليتي.



مئذنة مسجد سيدي بومروان

تحددت العناصر المكوّنة للثقافة الأمازيغية في هذه المنطقة في سياق تاريخي شامل، بمعنى تاريخ المجتمع واللغة والدين والتعبير الثقافي...إلخ.

ولم تظهر بوادر التطور في منطقة المغرب عموماً وفي منطقة هيبّون على وجه الخصوص، إلاّ في حدود منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد مع نشوء الحضارة النوميدية. وكانت منطقة هيبّون - عنّابة تنتمي إلى المجموعة النوميدية الشرقية، لكن وجودها الفعلي تأكّد إبّان اندلاع الحروب البونية في القرن الثالث قبل الميلاد.

ومن المرجّح أن ترجع أصول هيبّون إلى نفس تلك الألفية.

شهد الموقع منذ القرن الثاني عشر ق.م. تقريباً إنشاء أول مركز تجاري فينيقي. وعندما أسس الفينيقيون المستقرون في قرطاجة إمبراطوريتهم التجارية أدمجت فيها هيبّون في حدود القرن السادس ق.م.

لكن بعد سقوط قرطاجة أثناء الحرب البونية الأولى، استرجعت المملكة النوميدية التي أسسها الماسيليون (أمازيغيو الشرق) هيبّون ومنطقتها.

وحين اشتدّ عود الأسرة الماسيلية، ضمّت هيبّون إلى مناطق النفوذ الملكي لأكثر الملوك شهرة في نوميديا: ماسينيسا (206 - 148 ق.م)، وابنه ميسيبسا (148 - 118 ق.م)، وابن أخ هذا الأخير يوغرطا (118 - 105 ق.م). فارتقت هبون إذّاك إلى مصاف المدينة الملكية، نظراً للمكانة المرموقة التي احتلتها في مملكة الماسيليين.

غير أنّ الصراع الذي التهب بين الأطراف النوميدية والقرطاجية والرومانية المتنازعة انتهى بتكريس هيمنة روما. وألحقت هيبّون ومنطقتها بالإمبراطورية الرومانية في العام 46 ق.م.

وقد ازدهرت هيبّون اقتصادياً وثقافياً إلى غاية بداية القرن الخامس بعد الميلاد. واحتفظت ذاكرة المدينة على الخصوص «بالعصر الذهبي الأغسطيني». إذ جعل استقرار أغسطين في هيبّون من هذه المدينة جسراً لم يسبق له مثيل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

لمحـــة عن التـراث الأثـري



داخل مسجد سيدي بومروان

مكّنت الأبحاث الأثرية التي تم الشروع فيها بشكل منتظم منذ عشرينات القرن العشرين من استرجاع 25 هكتاراً من الأراضي الأثرية المحمية، كما مكّنت من استخراج بقايا آثار هيبّون القديمة للقرن الأول والعاشر. والجدير بالذكر أن الموقع القديم قد ظل مأهولاً طيلة القرون الثلاثة الأولى لدخول الإسلام، اعتباراً من نهاية القرن السابع.

وبما أنّ الرومان ليسوا من أسس هيبّون، فقد احتفظت المدينة بتصميمها وأسلوب عمارتها المتميز لما قبل العهد الروماني. حتى اسمها كان سابقاً للرومان، وربما كان اسماً مركباً، فمن المحتمل أن تحمل "هيبّو" معنى يتعلق بخليج أو بوفرة المياه، ويبدو أنّ اسمها في القرون الوسطى "مدينة العنّاب"، وهو في الواقع صفة أكثر منه اسم، كان سارياً منذ العصر القديم، لأن خلفية فسيفساء الإله "أيون" مزينة بزخارف لنبات العنّاب. غير أن الحضور الروماني قد ترسخ منذ القرن الأول بعد الميلاد بإنشاء عدد من الأبنية حسب الطراز العمراني الروماني، تخص الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية.

تعتبر الساحة العامة التي ترجع إلى 78م، من أوسع وأقدم الساحات الرومانية في منطقة المغرب بأكملها (74م×43م)، وفيها يقع المركز السياسي والإداري لهيبّون إبان فترة السيطرة الرومانية. وقد تم استخراج العديد من بقايا العناصر المكونة للساحة (بقايا معبد، وبقايا محاريب، وبقايا مجلس المشيخة، وكتابات منها الإهداء الضخم الذي يحتل عرض الفناء ويحمل اسم "باكسيوس" الحاكم الذي بنى الساحة، ونصب تذكاري ضخم من البرونز معروض حالياً في المتحف...).

يشكل السوق مركزاً اقتصادياً هاماً، وهو بناء يرجع إلى نفس الفترة. يتمثل في جزء مفتوح للعموم (دكاكين وأجنحة دائرية مقببة للبيع بالمزاد)، وجزء خاص بالتخزين. كما يوجد مصنع لحفظ السمك في الجهة الشرقية الموازية للسوق، به ورشة لصنع



"الغاروم"(أسماك مملحة ومعطرة بالبهار تستعمل للتتبيل).

ومن نماذج الأبنية ذات الأهمية الاجتماعية أو الثقافية للفترة الرومانية، نجد الحمامات الكبرى في الشمال، أو حمامات سيفير التي ترجع ربمّا للقرن الثالث، وكذلك حمامات الجنوب. ويرجع المسرح الذي يشكل أحد بقايا الفضاء الثقافي إلى بدايات الوجود الروماني، ويستند من الجهة الجنوبية الشرقية إلى تلة "القديس أغسطين". وهو بناء مستوحى من النماذج الهلينية الكلاسيكية لا تزال بعض آثاره باقية رغم صروف الزمان.

يتميز التعبير الفني بنوع من الثنائية، حيث تقاطع التأثيراالروماني مع التركة السابقة له. ففي التماثيل كما في الأبنية المذكورة آنفاً، تتميز وسائل التعبير الفني الروماني بطابع الضخامة يضاف إليها نزعة حداثية خلابة من حين لآخر. لأننا إذا ما استثنينا تمثال أفروديت المحجبة المفعم بالرقة والأناقة والمنحوت في اليونان، أو على الأقل طبقاً للقواعد الهيلينية على طريقة النحّات "براكسيتل"، فإن التماثيل الأخرى لهرقل، ودوريفور، أو لمينيرفا تفتقر إلى الأناقة كليةً. وكذلك يختلف التعبير الذي يميز فن النحت في عدد كبير من التماثيل الصغيرة المنذورة للإله ساتورن، إذ تشدنا الملامح بجاذبيتها، وتبهرنا طريقة الصنع التي تنهل قوتها من التركة السابقة للعهد الروماني.

تظهر الحياة اليومية من خلال الأبنية والأدوات التي تم استخراجها بواسطة الحفريات. يتألف المسكن من بيوت بعضها فخم، تتوزع حول باحة داخلية. ولا تخلو الفيلات الفسيحة المطلة على البحر من مظاهر الترف، حتى أن بعضها يحتوي على حمامات خصوصية. وقد عثر في هذه البيوت على مجموعة من الأرضيات الفسيفسائية الجميلة ذات النوعية الرفيعة. وتمنح هذه الفسيفساءات تدرجات لونية غنية وطبيعية لأنها مصنوعة بمكعبات من الرخام و حجر السّماق. نذكر من بين هذه اللوحات الفسيفسائية: فسيفساء الصيد وهي لوحة جدارية ضخمة، تمثل مشهد صيد الضواري وتظهر التنوع الحيواني والنباتي للمنطقة؛ والفسيفساء التي تمثل منظراً عاماً لهيبّون، حيث ثبّت الفنان صورة المدينة والكورنيش في القرن الثاني أو الثالث على الأرجح، وكذلك الفسيفساء التي تمثل مشهد صيد بحري في الخليج. وتضاف إلى الفسيفساءات المعروضة في المتحف، تلك التي لا تزال في الموقع: فسيفساء "آيون" (إله السنة)

حيث يظهر الإله وهو يمسك دولاب الأبراج مصحوباً بمجموعة من ربّات الفنون بكامل طولهن ووراءهن خلفية من نبات العنّاب المجرد، وفسيفساء تمثل جذوع ربات الفنون، وتغطي هاتان اللوحتان أرضية فيللتين في الشارع المطل على البحر، وكذلك فسيفساءات شواهد القبور في كنيسة السلام.

ويضاف إلى ديكور هذه المنازل أدوات الاستعمال اليومي مثل الصحون الخزفية المختومة، والمصابيح الخزفية والبرونزية وكلها مزخرفة بصور بشرية ومشاهد ميثولوجية، وغيرها.

وقد خلفت الديانات التوحيدية بعض الأثار القليلة المتمثلة في وثائق مادية تشهد على وجود الديانة اليهودية: مصباحان زيتيان مزينان بالشمعدان السباعي الأطراف. في أن الشواهد المادية للديانة المسيحية أكثر عدداً: أماكن العبادة وأدوات كنهوتية. وتعد البازيليكا ماجور أو كنيسة السلام من أهم الآثار المسيحية. وتشكل جزءاً من مجموعة تقع في الحي المسيحي وتتألف من الكنيسة وملحقاتها ومن الدير، ومن مساكن رجال الدين.

أما بالنسبة لآثار الفترة الإسلامية لهيبّون، فلم يتم تحديدها بدقّة، لأن الحفريات التي أجريت في القرن العشرين قد "دمّرت" على نطاق واسع المؤشرات التي تمكن من تأريخها والتعرف عليها. ولم يسلم سوى عدد محدود من المصابيح، وبعض أجزاء من صحون مرسومة ترجع للفترة الزيرية والحمّادية (القرن التاسع والقرن العاشر). من المؤكد أن الأحياء السكنية للحقبة التليدة قد استمرت تستعمل كأحياء سكنية، إلاّ أن الأبنية البارزة مثل المساجد والحمامات وغيرها مما ذكره الجغرافيان العربيان ابن حوقل والبكري في القرنين العاشر والحادي عشر لم يتم تعيينها بشكل قاطع لحد الآن.

هيبّون، قطب عالمي

تتميز هيبّون بالإضافة إلى تراثها المادي بتركتها الأغسطينية. وبالفعل، يا لقدر هذه المدينة المتميز، التي دعيت من خلال الصفة " ريجيوس" لسكة مصير سياسي وإداري تحت طيف الملوك الماسيليين. وواصلت مسيرتها بعد سقوط جوبا الأول، كمدينة للتواصل في البحر الأبيض المتوسط، عن طريق إقامة علاقات اقتصادية على وجه الخصوص مع الضفاف



نصب من البرونز - متحف هيبّون

"نادى الشاعر سيليوس إيتالكيوس المدينة قائلا: هيبّون، أيتها العزيزة على الملوك القدماء".

(القديس أغسطين)



الأخرى البحر. لكن تضاؤل الثقافة المادية الذي بدأ يظهر منذ بداية القرن الرابع، والذي ترجم بتطور حجم المدينة، كان مؤشراً لانغماس هيبّون ـ كمدن كثيرة غيرها ـ في الغياهب المنسية للتاريخ. إذ أخذ إشعاع ساحتها العامة و"قانونها" ومسرحها العتيق، و"ثقافتها"، ودور السوق، ووظيفة الحمامات، أخذ في الاضمحلال مع تقدّم القرن الرابع. و أصاب الأعمال التشكيلية والجمالية للعصر القديم الكلاسيكي التصدع والتفتت. لكن هيبّو ريجيوس السياسية والإدارية التي آلت للأفول تحوّلت إلى هيبّو إيبيسكوبوس أو هيبون الروحية. وأصبحت هيبون، من بين أشياء أخرى، مقراً لأسقفية. مما يدل على مدى انتشار المسيحية لدى سكان المدينة ومنطقتها. وحين يستعرض الزائر آثار هيبّون، فإنه يتأمل ويحاول ذهنياً استعادة "الأجواء" التي سادت في نهاية القرنين الرابع والخامس. ويؤول به المطاف إلى تقدير تطور هيبون التي مرت من مرحلة كونها مركزاً مزدهراً ومترفاً من الناحية المادية، بعد رحلة طويلة عبر الشرائح الثقافية المتوسطية (النوميدية، والبونية، واللاتينية...) التي بادت مؤقتاً، إلى مصاف مركز يسعى إلى الخلود الروحي، ونجح في ذلك. وبالفعل، حين يتوقف الزائر في حي كنيسة السلام، فلا يصادفه سوى البساطة بكل تجردها. بساطة مواد البناء، وبساطة الكنيسة وملحقاتها، والمصلى النفلي الشكل، والمساكن المحيطة بها (الأرجح أنه دير أغسطين؟)؛ وبسيطة أيضاً الزخرفة الباقية التي يبدو أنها تقتصر على فسيفساء الشواهد في كنيسة السلام. لايوجد هنا مكان للترف المفرط

للأبنية الرخامية، ولا المنحوتات التزينية الهامة أو زرابي الفسيفساء البديعة. ستكون "المغالاة" الجديدة مغالاة روحية!(س. دحماني، "هيبو ريجيوس ـ عنابة، جسر روحي بين ضفتين")

الخلود الروحي الذي اكتسبته هيبون كان من صنع أغسطين؛ حتى في القرن الحادي عشر كانت المدينة تعتبر "مدينته". كما كتب البكري، الجغرافي الأندلسي، في معرض وصفه لهيبون في حدود عام 1050: "بونة (اسم المدينة في القرون الوسطى) مدينة قديمة، وهي مدينة أغسطين حبر من أحبار الديانة النصرانية"("المسالك والممالك" ص 54).

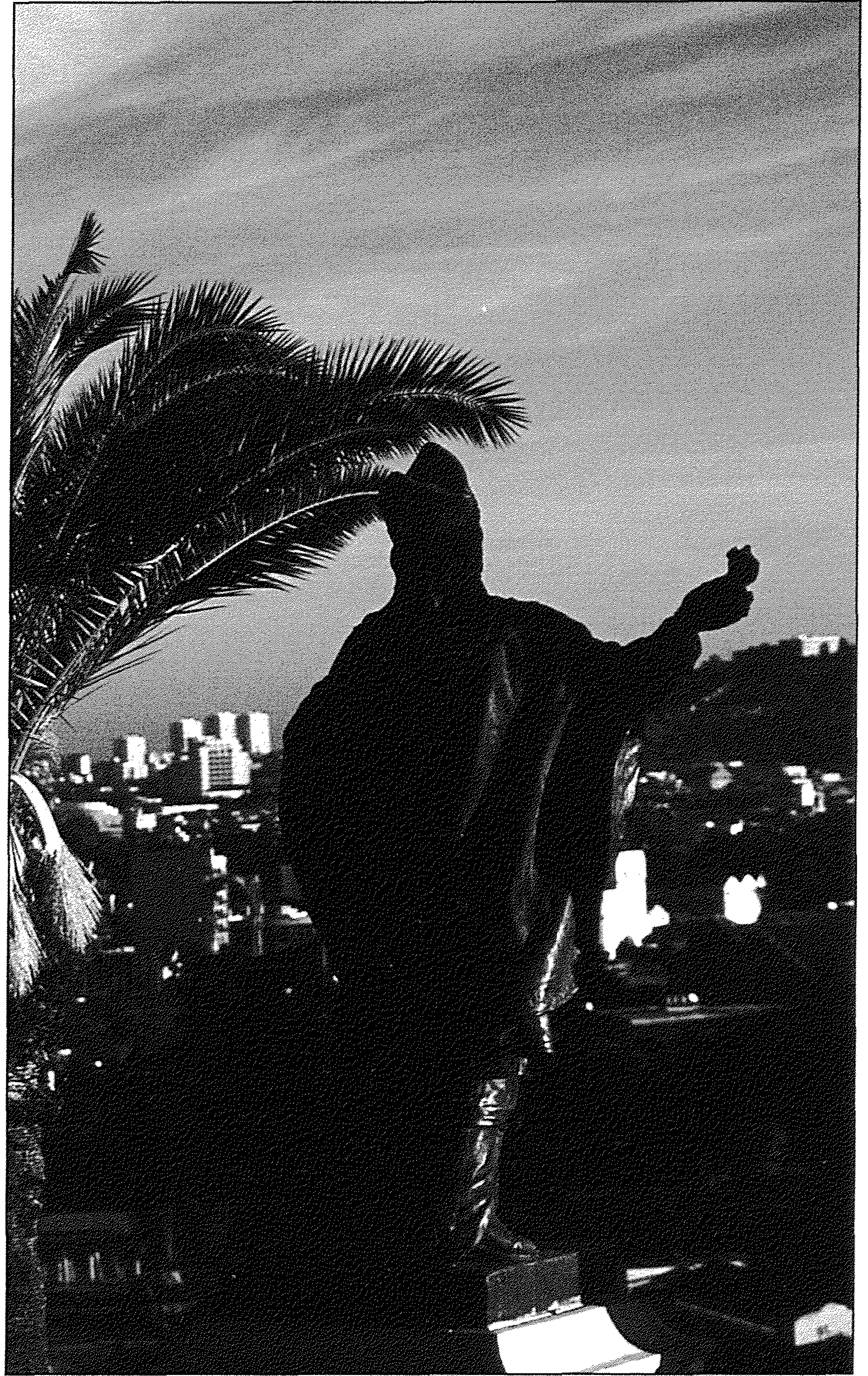
كان أغسطين المولود في "ثاغاست" (سوق أهراس) والذي احتضنته هيبّون، أحد صنّاع النهضة الأمازيغية التي ظهرت بوادرها في أواخر القرنين الرابع والخامس، مع اضمحلال الثقافة الرومانية. وكان من بين هؤلاء الصناع مؤسس الدوناتية، دونات المتوفى في حدود 355، أي بعد سنة من مولد أغسطين 354. والدوناتية هي انشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية لنوميديا. وتقوم على اللوم الذي وجّه إلى بعض الأساقفة لما اعتبر خيانة والمتمثل في تسليم الكتب المقدسة إلى السلطات الرومانية إبان اضطهاد المسيحيين في العالم 303. وقد حكمت الدوناتية على هؤلاء الأساقفة الملقبين "بالخونة" بعدم أهليتهم لتقديم القرابين المقدسة. وأدى هذا الموقف إلى إحداث قطيعة بين أنصار الدوناتية والكاثوليك.

كان والد أغسطين واسمه باتريسيوس أحد أعيان مدينة ثاغاست، لا يملك ثروة وبقي طوال حياته متمسكاً بمعتقدات أسلافه، ولم يعتنق المسيحية إلا سنة قبل وفاته في العام 371. بينما كانت أمه مونيكا شديدة التدين تتحدر من عائلة نوميدية متنصرة.

تمكن أغسطين بفضل التضحيات المادية لوالديه من الاختلاف إلى التعليم الأساسي في ثاغاست، حيث تعلم اللغات و نحو اللغتين اللاتينية والإغريقية. ثم تابع دراسته في مادور حيث درس الأدب والبلاغة الخطابية. وبعد انقطاع عن الدراسة لفترة كان خلالها والداه يجمعان المال الكافي لتمكينه من متابعة دراسته "العليا"، استطاع أغسطين الالتحاق بقرطاجة في نهاية العام 370. وفيها برز بفضل نبوغه وتعطشه للمعرفة في مدرسة البلاغة حيث بذل قصارى جهده للحصول على أفضل النتائج.



"هيبّون الملكية/ هيبو ريجيوس كانت إحدى أماكن إقامة ملوك نوميديا الماسيلية."


منظر لمدينة عنابة من كنيسة القديس أغسطين

ثم رجع إلى بلاده في العام 373 أو 374 ليدرّس البلاغة. لكنه عاد إلى قرطاجة بعد ثلاث سنوات بفضل المساعدة المادية والدعم الذي قدمه له صديقه رومانيانوس. وقام في العاصمة، بالتوازي مع الدروس التي يعطيها، بتعميق دراسته لمؤلفات الفلسفة والهندسة والموسيقى والحساب...

في العام 383، قرر الذهاب إلى روما للتدريس بعض الوقت على الرغم من تعنيفات أمه. ثم سافر في العام 384 إلى ميلانو حيث حصل على منصب أستاذ في البلاغة. وقرر تحت إلحاح أمه التي التحقت به، إلى طلب يد شابة للزواج، إذ ظلت مونيكا تنمي الأمل في رؤية ابنها المفضل عالي الشأن رفيع المنصب. وفي ميلانو بالذات تحدد مساره الديني تحت تأثير مواعظ الأسقف أمبرواز، و دراسة وقراءة النصوص المقدسة مع مجموعة شبه رهبانية كوّنها ابنه أديوداتوس، وصديقه الثاغاستي ألبيوس، وأخوه وأبناء أعمامه... فقد كان أغسطين يحمل معه وطنه ويعيش في ذاته حتى في إيطاليا. وشهدت ميلانو أيضاً بلوغ الذروة: تعميد أغسطين في عيد الفصح من طرف أمبرواز في 25 أفريل 387.

قرر بعد ذلك مع أصحابه العودة إلى الوطن في العام 388. وفي طريق عودتهم توفيت أمه في أوستي، ولم ترجع مع ولدها. انغمس أغسطين مع أصحابه في ثاغاست طيلة ثلاث سنوات في حياة معتكفة وأسسوا فرقة من النسّاك. لكنه استقر نهائياً في هيبون بعد أن توجه إليها قاصداً زيارة صديق له، فقد سبقته سمعته إليها. دخل أغسطين في البداية في سلك الكهنة في العام 391، ثم عين أسقفاً في العام 396. وتوفي في 28 أغسطس سنة 430 في هيبون التي كانت ترزح تحت حصار الوندال.

وفي غضون تلك الأربعين سنة، أسس أغسطين ديراً في هيبون، وفرغ من بناء حياته وإيمانه بعد بحث طويل عن الحقيقة.

كانت حياته تشبه حياة إنسانٍ عادي. والطفل الذي بقي ساكناً فيه حتى عندما أصبح راشداً، وظل ما بقيت أمه على قيد الحياة، قد تأثر إلى حد كبير بعلاقته بها. لأن مونيكا كانت تبذل ما في وسعها لمرافقته في عملية بناء مستقبل. وعندما ذكرها أغسطين، في معرض اعترافاته إلى الرب كتب قائلاً:" 33- ثم عدت شيئاً فشيئاً إلى أفكاري الأولى بخصوص خادمتك، كنت أتمثلها شديدة الورع تجاهك، بطيبتها العظيمة، وقداسة



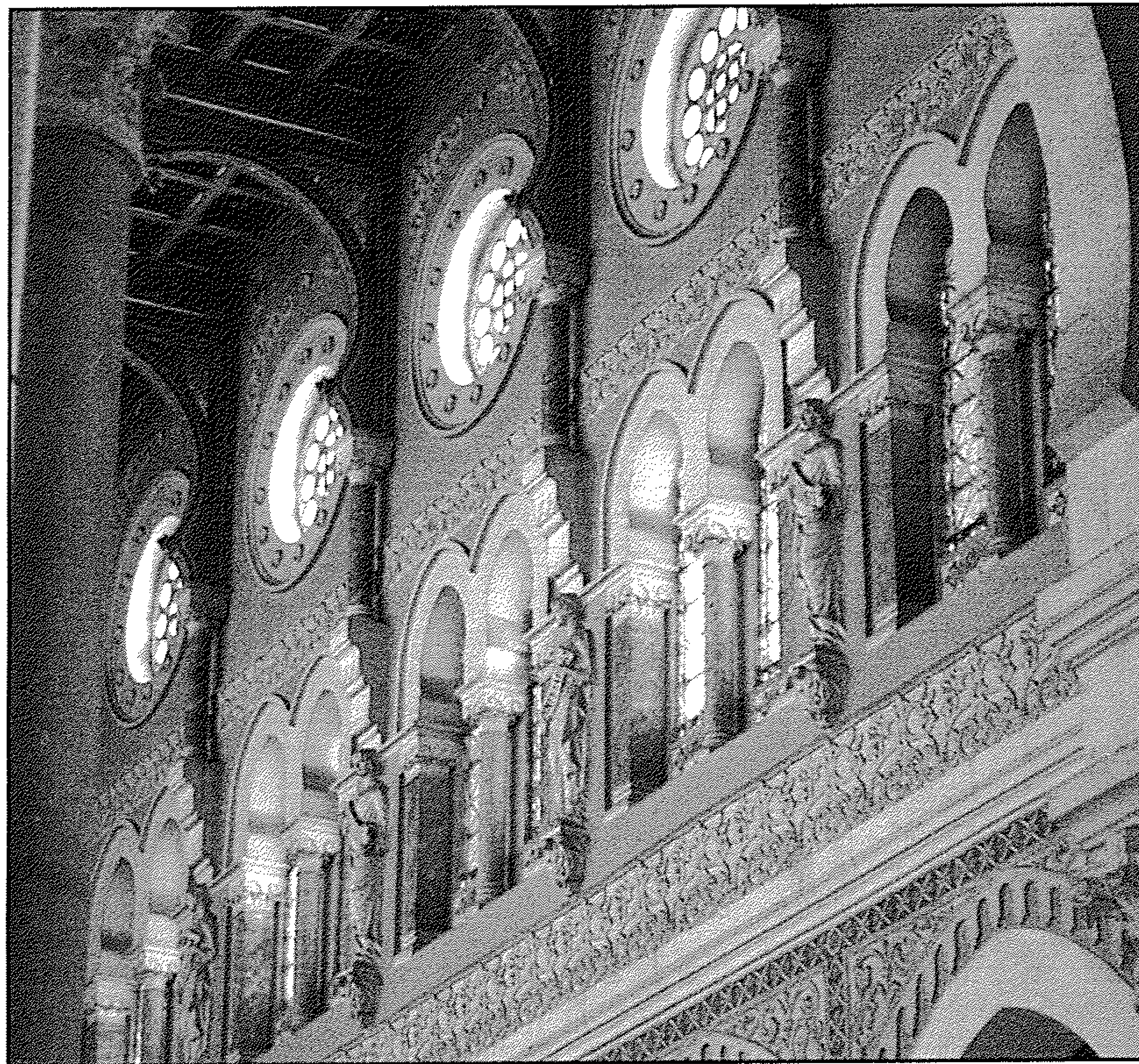
منظر لآثار هيبّون. تظهر في الخلفية كنيسة القديس أغسطين

" فامهل الخطو إن ذاك الثرى من أعين ساحرة الاحورار"

تساهلها تجاهي. وها أنذا قد حرمت منها فجأة! أحسست بعذوبة البكاء، في حضرتك، على أمي ومن أجلها، على نفسي ومن أجلها."(القديس أغسطين، «الاعترافات»، ترجمة: د. دو لابريّول؛ الجزء2، ص 234، باريس، 1969) ولم يحاول أن يخفي كونه بشراً«عاديا» ، إذ يصرح بأنه« يعتلج بشبقية جهنمية» لدى وصوله إلى قرطاجة: « صار أن أحبّ وأن أحَب أكثر عذوبة حين أتمتع بجسد المحبوب. » كما كان شغوفاً بالمسرح. وربما، في خضم محاولته الاستقلال عن أمه، عاشر لمدة طويلة محظية أنجبت له ابنه أديوداتوس.

انكبّ هذا الرجل الذي ما فتئت تتنازعه محبة أمه ورغبته في شق طريقه المخالف لما رسمته أمه له، «وشبقيته الجهنمية»، انكبّ بكل كيانه على دراسة أمهات الكتب في عصره، واحتك في بحثه الدائم عن الحقيقة بالمانوية (مذهب يقوم على تعايش قوتين متضادتين، الخير والشر، كان قد طوره فارسي يدعى "مانيس" في القرن الثالث الميلادي). يقرّ أغسطين وهو في التاسعة عشر من عمره، بينما كان مستغرقاً في قراءة مؤلّف فلسفي لشيشرون:" غيرت هذه القراءة من حساسيتي." وفي نفس الفترة، أخذ يهتم بالنصوص المقدسة " للتعرف عليها"، وخاب ظنّه إذ كتب فيما بعد:" لا يستحق هذا الكتاب أن يقارن بعظمة مؤلّف من أعمال شيشرون."(الاعترافات) فعاد إثر ذلك إلى أمهات الكتب الفلسفية مثل" كتاب الفئات" لأرسطو.

لم يكن تعدد الآلهة يستجيب لمسعاه نحو الحقيقة من الناحية الروحية. من المؤكّد أن أمه حاولت تعميده عندما أصيب بحمّى شديدة، لكنه سرعان ما شفي. وفي التاسعة عشرة من عمره، أخذ يستهويه "إله" المانوية وكتب عن ذلك بقوله:" خلال تلك الأعوام التسعة ـ من التاسعة عشرة إلى الثمانية والعشرين ـ بقيت هكذا مغوياً وغاوياً، مغفّلا ومحتالاً، على مهبّ أهوائي المتنوعة؛ وهذا جهراً،



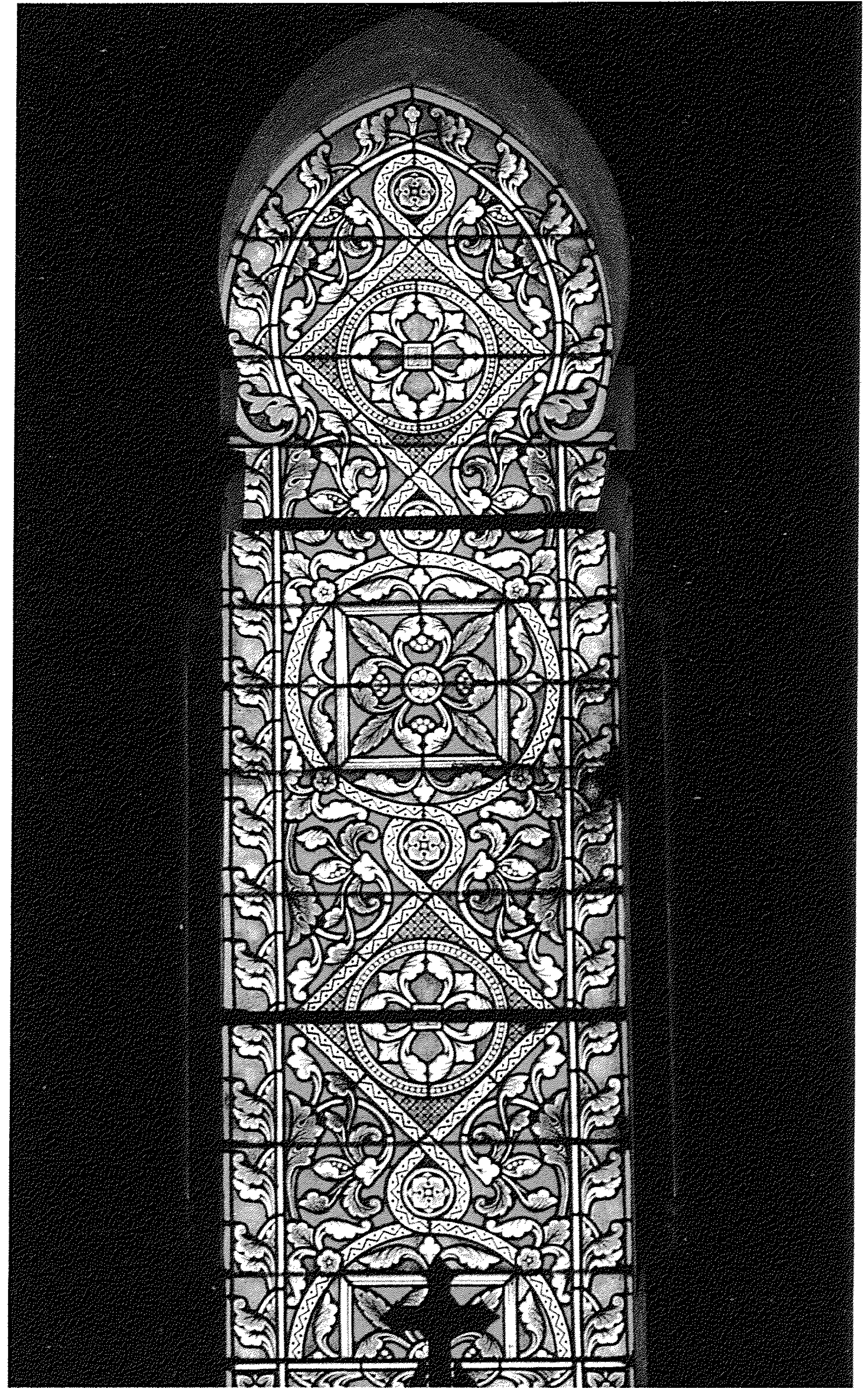
من خلال تعليم العلوم المسماة "متحررة"، وخفيةً، بحجّة الدين الكاذبة؛ ضارباً هنا على وتر الكبرياء، وهناك على وتر التطيرّ، وكلاهما هباء. (الاعترافات)

ولكن مع تعمّقه في قراءاته الفلسفية وقراءة النصوص النصرانية، أخذ يبتعد عن المانوية التي لم يجد فيها أجوبة تشفي غليله. ووجد ضالّته أخيراً في ميلانو، حيث استطاع أن يشذّب إيمانه من خلال مطالعته لكتب مثل كتب بلوتين، ودراسة النصوص المقدسة وكل ما يتعلق بها، ومن خلال جلسات التأمل الجماعية واختلافه إلى مواعظ الأسقف أمبرواز. وأقر بذلك في اعترافاته قائلاً:" كنت أقول بالفعل في قرارة نفسي: ها قد جاء وقت الخلاص، حان الأوان لتقول "نعم"." واعتنق الكاثوليكية عن قناعة في أفريل سنة 387. ومنذ ذلك الحين، وفي عمر التلقي الطوعي والمتمعن للنعمة والوحي، ارتسم النهج الأغسطيني.

إذّاك، نصّب أغسطين نفسه مدافعاً عن الكاثوليكية ومحارباً للمذاهب المسيحية الأخرى ومن ضمنها الدوناتية، التي كانت ملّة مسيحية بربرية بحتة، وذلك بصفته مؤسس الفكر الفلسفي اللاهوتي الكاثوليكي، وبصفته أيضاً الراعي الروحي لإخوته في الدين في هيبّون والعالم أجمع. فكان من نتائج دراساته وأبحاثه وتأمّلاته الدفاع والتنظير الفلسفي اللاهوتي، وهما يشكلان جوهر عمله الميداني ومؤلفاته التي أنتجها من العام 386 إلى 430

يغطي هذا الإنتاج مواضيع فلسفية وبلاغية مثل: " مبحث لمناهضة الفلاسفة الأكاديميين"، و "المناجاة"، و "حول الموسيقى". كما ألف كتباً في المناظرة ضد المانوية (387 إلى 400)، وضد الدوناتية (400 إلى 430)... وألف أيضاً في البداغوجيا. لكن أهم أعماله هما: "الاعترافات"، و "مدينة الله".

كتب أغسطين "الاعترافات" بعد ترقيه إلى مصاف الأسقفية. وحسب مؤرخه وتلميذه بوسيديوس: " لقد أراد أن يقدم هذه الشهادة العلنية، خشية أن يعنّ لأحدهم، على حدّ تعبير الحواري بطرس، أن يقدره أكثر مما يعرف من قدره، أو أكثر مما تفصح عنه أقواله؛



زجاج معشّق بزخارف نباتية في كنيسة القديس أغسطين





متبعاً سبل التواضع المقدس، دون أن يخدع أحداً، لكن سعياً منه إلى إحقاق مجد الرب وليس مجده الخاص من خلال نعم الخلاص والرحمة التي تلقاها منه، وطالباً دعوات إخوانه للأفضال التي لا يزال يطمع بها." ويؤكّد أغسطين ذلك في رسالة إلى أحد مراسليه: " ها أناذا أرسل لك "اعترافاتي" بما أنك تهتم بها، أنظر إلى جيّداً في هذا الكتاب، حتى لا تغدق عليّ الإطراء بأكثر مما أستحق، وهنا أهيب بك أن لا تؤمن بما يقوله الآخرون عني، بل بما أقوله أنا عن نفسي، أدرسني جيداً، وانظر إلى ما كنت عليه بكامل حقيقتي، عندما كنت أركن لقواي بمفردها." (نص مأخوذ عن دو لابريّول في مقدمته لترجمة "الاعترافات") يعرض الكتاب سيرة متسلسلة لأغسطين إلى غاية وفاة أمّه. والبقية تعالج موضوع الشر، ومسائل فلسفية، وتهتم بالتصوّف.

أما كتاب " مدينة اللّه" فإن أغسطين يعرضه كالتالي:" مدينة اللّه المجيدة نراها من جهة، خلال العصور الدنيوية، حيث تعيش على الإيمان، وتحج وسط الكافرين، ثم نراها من جهة أخرى، في استقرار الدار الآخرة، التي تنتظرها الآن بصبر إلى اليوم الذي تتحول في العدالة إلى حساب، والتي سوف تستحقها بفضل قداستها، وإحراز النصر المبين في تمام السلام." (مقتبس عن ر. شوفالييه، "قاموس الأدب اللاتيني"، لاروس، ص 68-69) يرمي أغسطين من خلال هذا التحليل العقائدي الشامل للرد على الوثنيين الذين كانوا يحمّلون المسيحيين مسؤولية سقوط الإمبراطورية الرومانية.

وخلاصة القول، أن هيبّون، باعتبارها من أقدم الشواهد العمرانية في الجزائر، ونظراً لأنها كانت الإطار الأساسي لتكوّن جلّ الفكر الأغسطيني، تشكل دون منازع جزءاً من تراث الإنسانية.

« إنها مدينة أغسطين المتبحر في علوم الديانة النصرانية.»

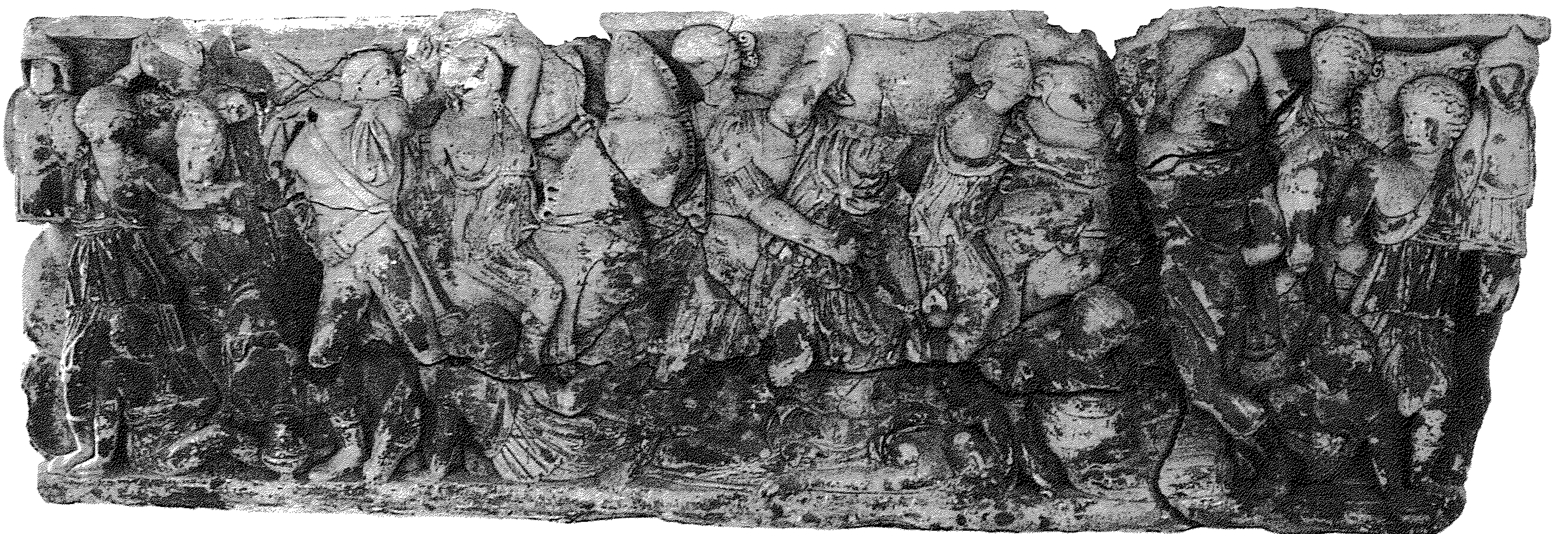
البكري «المسالك والممالك»

كنيسة القديس أغسطين



منظر لجبل إيدوغ من فندق المنتزه بسرايدي

«أضحت هيبّون (...) مستوطنة رومانية (...) شرفية.» «قامت بترويم مؤسساتها، واستفادت من حق المواطنة الرومانية دون أن تتحمّل تدخل المعمّرين.»



تابوت حجري يمثل أخيل وبينثيزيل تم اكتشافه في ثاغاست (سوق أهراس)، مسقط رأس القديس أغسطين، معروض في متحف هيبّون



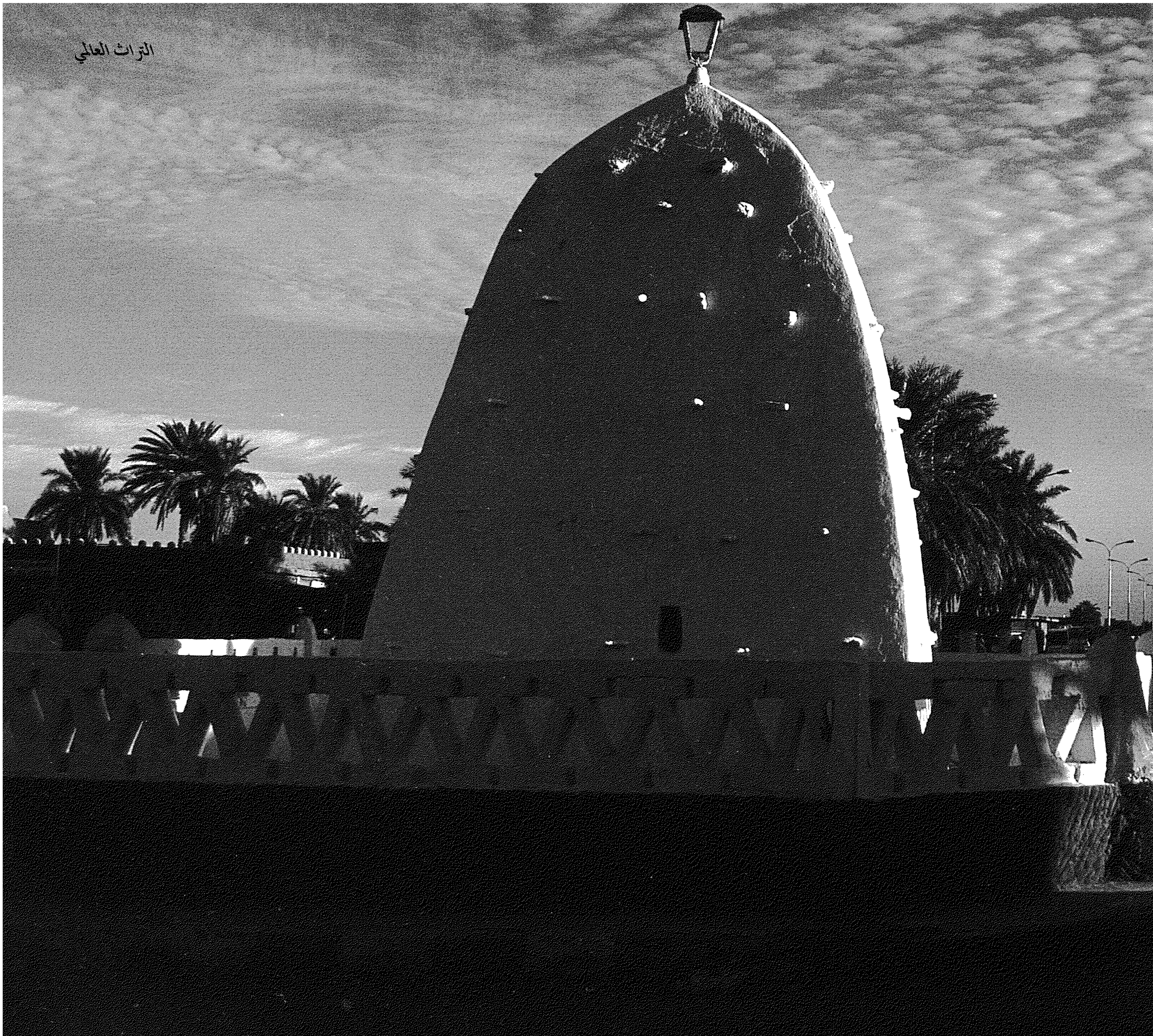
تيميمون

ملجأ القورارة

عبد الكريم جيلالي

"بارك رجال هذا الزمن
الذين بنوا كل هذا،
حفروا الآبار،
وصلوا القنوات،
وبنوا الأحواض
وغرسوا الأشجار."

أهلّيل
ترجمة مولود معمّري



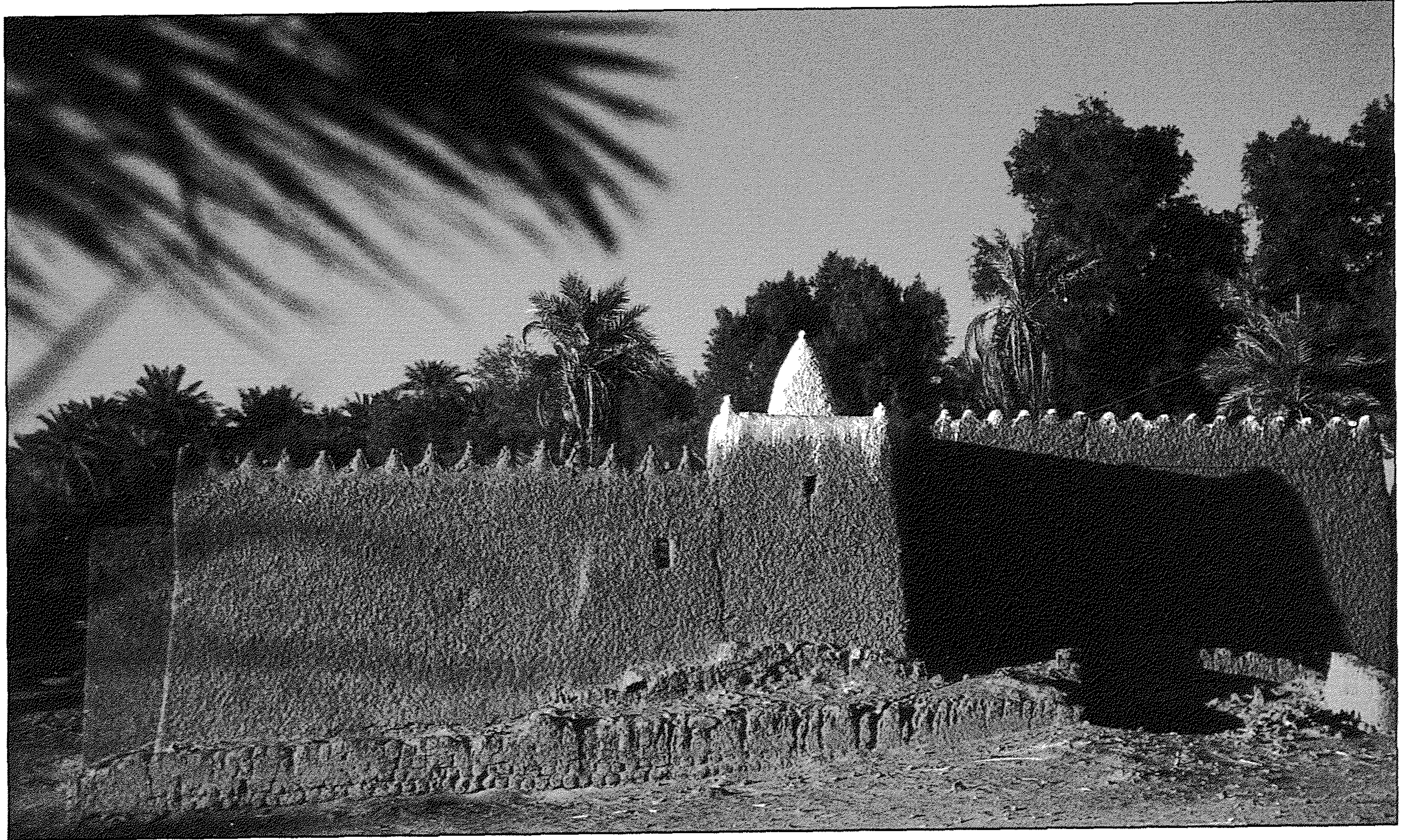


"ولا تخجلن أن تدعو
لمن تهوى
دعاء صبابة
فيه ارتجال."

تيميمون هي عاصمة القرارة، منطقة تقع على الهدب الجنوبي للمكثب الغربي الكبير، في الجزء الجنوبي الغربي للصحراء الجزائرية. و تشكل "ركناً معزولاً"، أو أرضاً محصورة بين هضبة "مقيدن" من الشرق، والمكثب الغربي الكبير الذي يحصرها من الشمال والغرب، وبين مكاثب أخرى أقل أهمية تحدّها من الجنوب الغربي. تنفتح القرارة من الجنوب، وتشكل مع توات وتيديكلت استمرارية الأرخبيل التواتي. تعتبر محطة هامة لتجار القوفل، وبوتقة ثقافات، وتشكيلة واحات تتداخل الواحدة بالأخرى في تدفق من خضرة النخيل على بساط أمغري فسيح، مكوّنة طريقاً طبيعياً إلى غاية حدود بلاد الطوارق في الأهقار. واسم القرارة هو تحريف لكلمة باللغة الزناتية "يقورارين"وهي صيغة الجمع لكلمة "أقرار" التي تعني المخيّم.

تُعدّ تيميمون من بين كل الأماكن الساحرة، المكان الذي أبدعت فيه الجغرافيا للناظر أروع أعمالها. إنّها كتاب مفتوح على ذاكرة الماء والتراب والحجارة، ومفتوح أيضاً على البشرية والتاريخ المتراكم بمكنونه ومهموزه. إنّها الذاكرة المطوّقة ومخزن هموم منطقة المغرب العربي. إنّها الحدود القصية للكبت بكل أنواعه التي تعاقبت، وجدد كلٌ على طريقته، بالتراص، بثوراتها و نزعاتها الانضمامية وهرطقاتها وهزائمها. تيميمون في النهاية، هي مصبّ المكرهين إلى المنفى، وبر الأمان الذي نلجأ إليه حين نفقد كل شيء، وحين لا يكون لدينا ما نفقده.

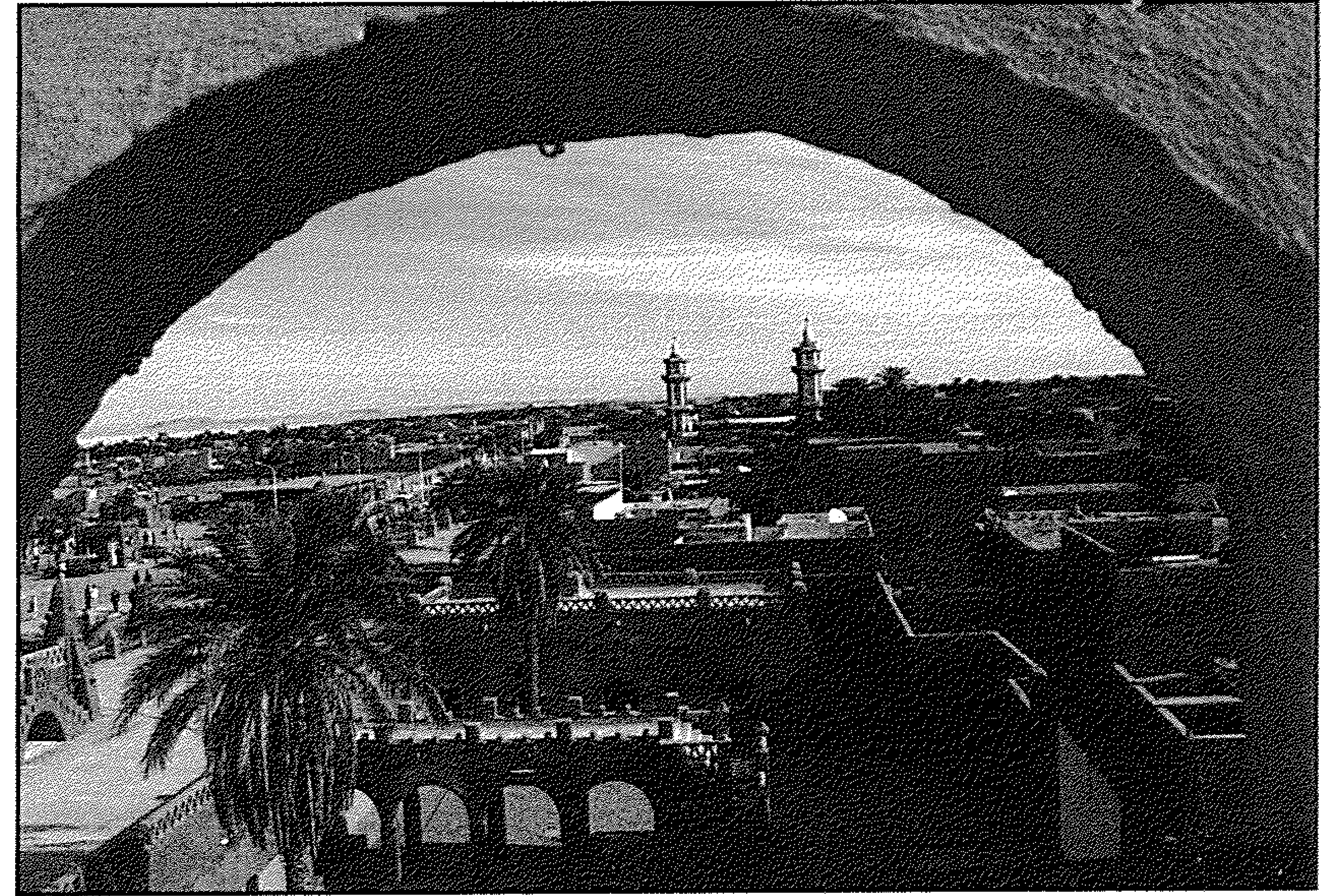
ثمّ، يتوقف كل شيء. بعيداً عن صخب العالم. فتلتئم شيئاً فشيئاً الجراح والآلام. كتب عنها رشيد بلّيل قائلاً:" إنه المكان الذي تستقر فيه أقوام من أصول مختلفة غالباً، وتؤول إلى الانصهار في مجموعات متجانسة." حينئذ، يتم الاندماج ضمن مجموعة قوية بتضامنها الذي تشهره بشكل مبهر إبّان الأشغال الجماعية والأعياد المنتظمة التي تضبط إيقاع الزمن الصحراوي. والموسيقى حاضرة حيثما ارتمت الأبصار: في الأفراح والأتراح، وفي الإيمان والعقيدة، بتناكب الأكتاف، في الصف أو في الحلقة، بصوت واحد، في الشعر والغناء، في المديح والثناء، في "الحضرة" أو احتفال "الأهلّيل".



ها هنا يبدأ الانفعال وتنخطف الأنظار، بسبب الموقع أولاً، لكن أيضاً، بسبب الدرس في هندسة العمارة الذي يلقنه، والعمل الخلّاق لبنائي المدن الصحراوية أولئك الذين عرفوا كيف يرصعوا أطراف وحواشي الهضبة الرملية لمقيدن بهذه الجوهرة تيميمون. كما لو كان الأمر تحدياً، أو فكرة متعنّتة، ينبجس الخط الأحمر للقصور دون سابق إنذار، ليشرف على الحدائق المتدرجة تليها السبخة ومد مياهها المالحة، ثم تتعانق واحات النخيل بكبريائها الشامخ مع أهداب السماء في تعارض بينها وبين شساعة المكثب الغربي وكتلته البالغة 80000 كم مربع.

يبدو الحاجز من الوهلة الأولى منيعاً، رابضاً بثبات في مفارقة القوة والخفة، بحيث يمنح إحساساً يتمازج بين التفرّد والتنوع، وبين الامتلاء والخواء، مواجهة أزلية غير منصفة في صميم المطلق بين المتناهي في الكبر والمتناهي في الصغر. وفي ما لانهائية هاذين الاثنين، حيث يذوب كل شيء دون فقدان أي شيء، يحتاج المرء بالفعل إلى كثير من الشجاعة ليضرب أوتاده في هذا المكان. ويحتاج أكثر من ذلك، في المنافي الشاقة داخل المكثب، إذ عليه أن يفتّك من الكثبان أقل قطعة تصلح للزراعة، ليغرس فيها حواجز واهية من النخيل التي تأتي الريح العاتية بمعين رمالها لتسترد منها حقها وتواري كل شيء. حينذاك، عليه أن يعيد الكرة، مرة تلو المرة. كتب مولود معمري في كتابه "محطات" قائلاً: "المسكونية بالنسبة للقساوسة الهائمين على وجوههم ليست حدثاً عارضاً، بل شيء فطروا عليه. والهجرات التوراتية ليست زلة من زلّات التاريخ (رغم عظمتها) بل هي ناموس الصحراء."

إنّ هذا العمل ليس خارقاً بقدر ماهو معرفة مستفيضة بالمحيط. إذ على الرغم من الفكرة الشائعة بأن المكثب الكبير عقيم لا حياة فيه، إلا أنه يزخر بأكبر احتياطي من المياه في كامل الصحراء. كيف كان يمكن

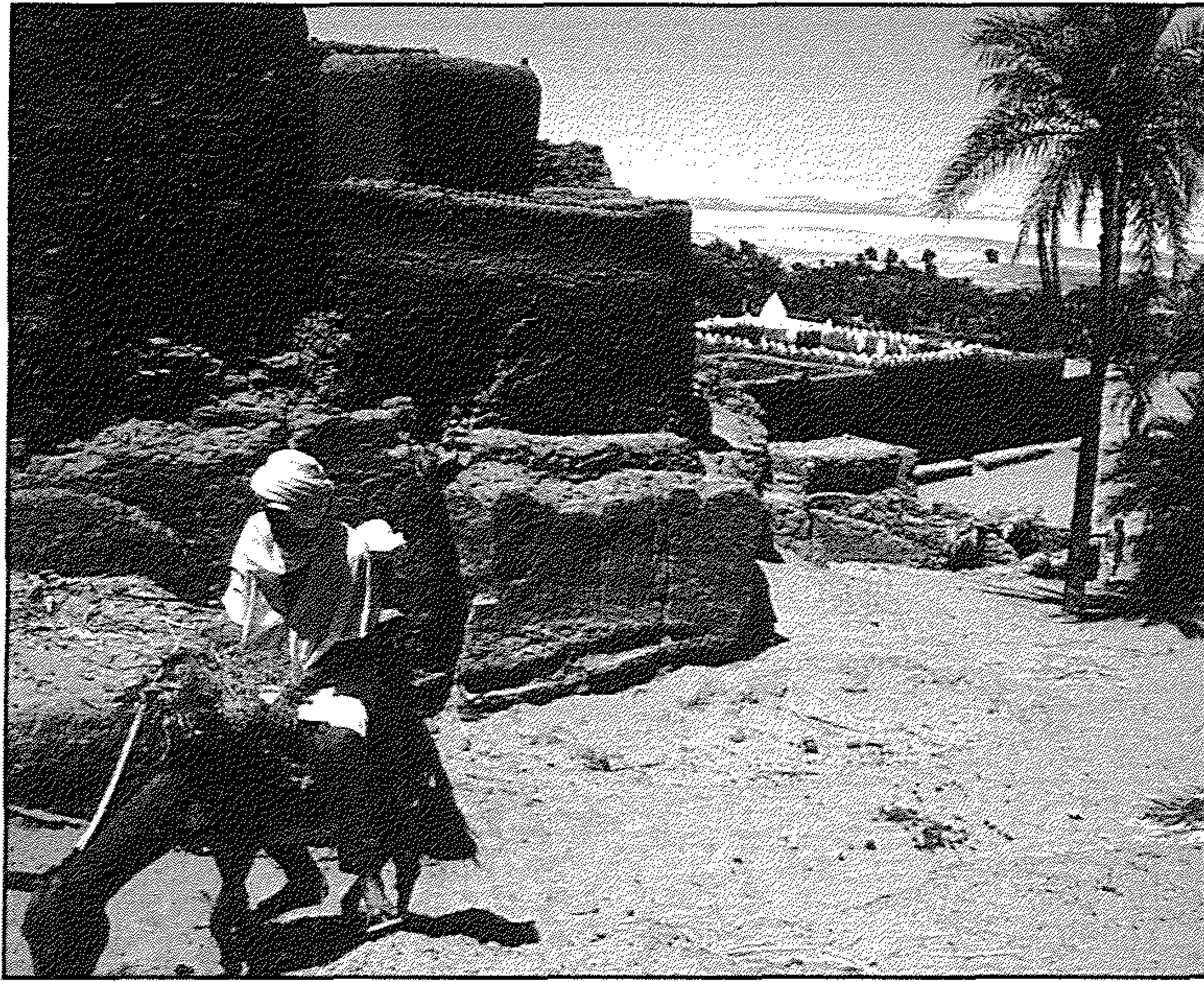


أن يخترع سحر حدائق كثبان ثالة أو المستويات الثلاثة المزروعة بالحدائق لتيميمون، دون اللجوء إلى الشعر، ودون الثبات في الإيمان؟ أول ما يقابلنا هو النخلة الملكة، ثم نتنشق العبير المحلّى للأشجار المثمرة إلى أن تغمرنا طراوة البساتين. الماء هنا، كما في أي مكان في الصحراء، هو شرط نشوء الحياة، ومعيار الأشياء، يحمل كل شبر بصمة وجوده الحيوي.

ذلك أقل ما يمكن ذكره، لأنه ينبغي الرجوع إلى قرون طويلة من التراكم الصبور والمؤلم للمعارف والجهود الخارقة، لكي نفهم كيفية استقطاب وإعادة توزيع أدنى قطرة ماء بواسطة تقنية الفوقارة، التي لا نعرف لحد الآن أصولها (أهي اختراع محلي، أم أنها مستوردة من الشرق؟). إنّه تحد بكل معنى الكلمة. إذ ينبغي أن نتخيل آلاف الكيلومترات من السراديب الأرضية التي حفرت في صلب هضبة مقيدن بالذات للوصول إلى المياه الجوفية المخزونة في الأحواض الألبينية. وحين نلقي عليها نظرة من الجو، لا يظهر من تخطيط الفوقارة سوى التوزيع المنتظم لمنافذ التهوية والصيانة، عمل مضن يتحايل على وعورة الأرض وميلانها من أجل إيصال الماء إلى واحة النخيل. ومنها تنطلق شبكة من القنوات والأحواض وأمشاط التوزيع في تآلف لا نظير له، لتروي كل قطعة من الحديقة مهما صغرت. ويدل حجم ومدى وضخامة العمل أن من قام به كانوا بلا شك عبيداً. تراث يشهد على صفحة مظلمة من تاريخ البشرية، لكنه على الرغم من ذلك أيضاً، عمل جماعي لا غنى للمجتمع عنه إلى يومنا الحالي. إنّه درس في المعرفة والعبقرية، وعمل رائد في الأشغال المائية الصحراوية.



تسترسل وديان مثل واد السقّور وواد الغربي، وواد الناموس، من أعالي الأطراف الوهرانية للأطلس الصحراوي، وتتغلغل عبر كتلته النفوذة لتملأ أحواضه الجوفية. وإذا كانت الأمطار وفيرة، فإنها تطفو فوق الرمال التي تبنى على حوافها مدن صحراوية مثل تيميمون. والطرق الوحيدة الممكنة لعبور المكثب توجد بالتحديد على الخطوط التي تتبع مسار المجاز الواقع ما بين الكثبان، حيث تكشف بعض النباتات الخضراء عن وجود الواد. وهكذا، تحكي الطرق القصة الحميمة للعلاقات بين مرتفعات قصور الأطلس والقرارة. وحسب ما يتناقله الناس هنا، فقد فاضت حدائق القرارة من الناحية الأخرى للمكثب، بعد سقوط الأمطار



على الجهة الجنوبية للأطلس الصحراوي بأسبوعين أو ثلاثة على الأكثر.

ولا تنحسر العلاقات بين المنطقتين إلى علاقات مناخية أو مائية فحسب، لكنها تجارية أيضاً. إذ يشترك هذان الفضاءان في نفس التضاريس ونفس السكان ذوي الأصل الزناتي. وكل منهما يقابل جهة من المكثب، ولكل منهما قدره: الأول كملاذ والثاني كجبهة.

حيثما مر الطريق، تبعته البقية. الذهب، والعبيد، والملح، واللبان العربي، والعاج، والأقمشة، والمخطوطات، والخردوات، والمواشي، والجلود، والحبوب...إلى ريش النعام الذي شكل مظهراً من مظاهر الأناقة للأرستقراطية

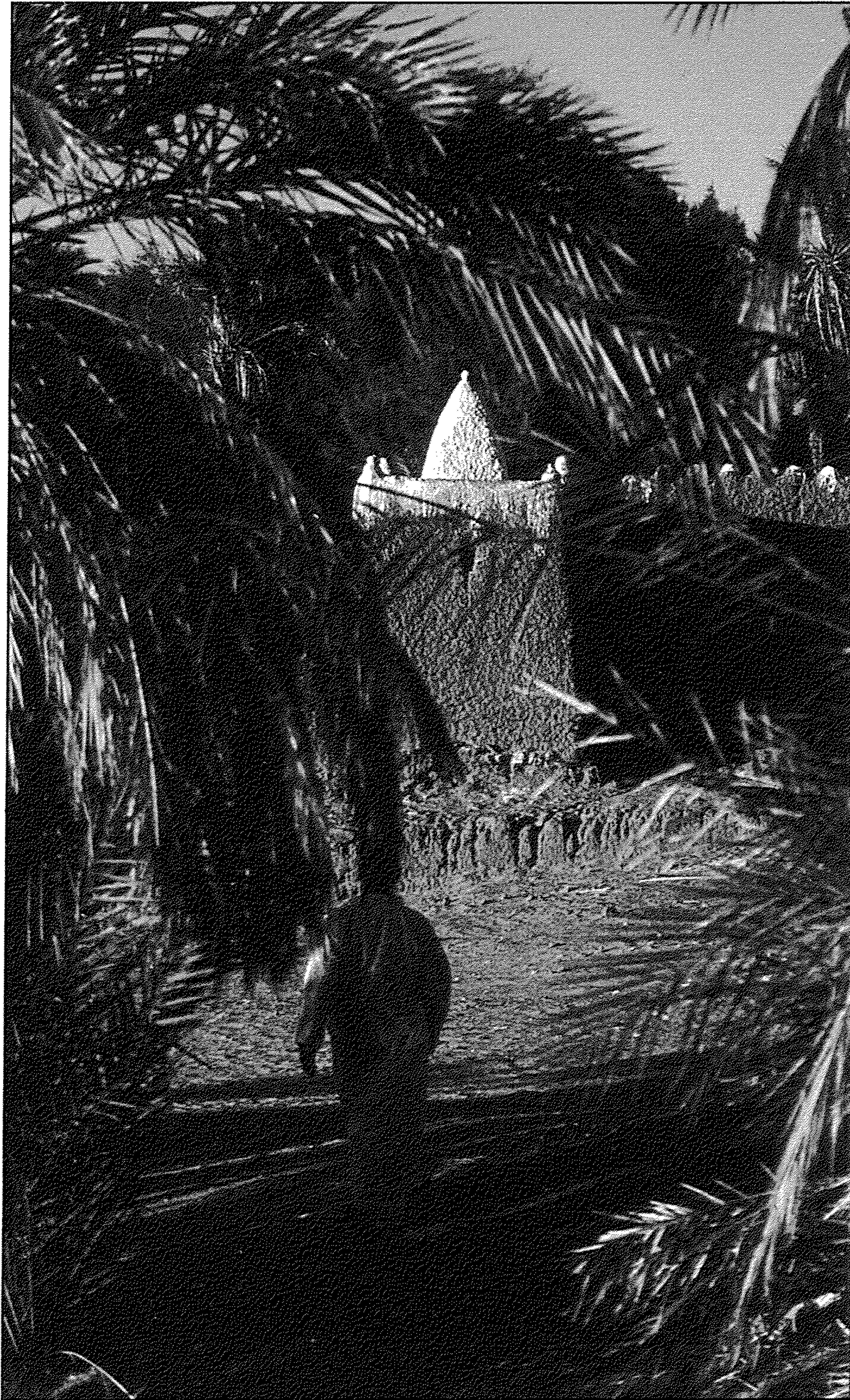
الأوروبية. وبما أن المرء لا يسافر دون روحه، والطريق أشبه بشريان ينقل الفكر البشري، والعقائد والمذاهب، والمعارف والمستجدات، والهرطقات والاضطهاد، حسب المعدلات السائدة، كما ينقل الحيوي والتافه، والأنيق والمنمق، والرخيص والباهظ. ولأنّه - وكما هو معروف عن حال التجارة المتقلب - لدى تقاطع الجغرافيا والجغرافيا السياسية تتعاظم ثروات وتزول أخرى، ويتقرر بذلك مصير الطرقات والناس الذين يقتاتون منها.

كانت تيميمون محطة للقوافل أو مقصداً استقر فيه الرحلّ الزناتيون الذين أسسوا على مدى قرون مركزاً للعيش حسب المبادئ المعمارية المعروفة أصلاً في القرن الأول بمنطقة المغرب. وكانت تحتوي على شبكة كثيفة من القلاع ومخازن المؤن المحصّنة حيث تخزّن الحبوب والتمور. مما يعطي فكرة عن مرحلة هامة، تعادل مرحلة المبادلات التجارية المكثفة، وحتى من خلال بنيتها بالذات، عن تاريخ منطقة تميّزت بالضرورة الحيوية لمجابهة فترات الأزمات الناتجة عن تقلبات أسعار المنتجات التجارية، أو فترات القحط والمطامع التي تنجرّ عنها. يتوزع فضاء القصور إلى تداخلات جميلة بأسلوب عمراني متراص وملموم، ويشكل تحفة من تحف التأقلم مع قساوة المناخ الصحراوي. بحيث أنها بنيت من الطوب الخفيف وتتميز بالهوائية وبانغراسها المتين بالأرض في نفس الوقت، في نوع من التلاحم الحاذق بين المادة والشكل، بطريقة تؤدي إلى اقتصاد في المواد وتقشف إلى حدود الكفاية، بالإضافة إلى مصدر الماء والحديقة. صورة لانسجام رائع يعود بنا إلى أزمنة سحيقة.



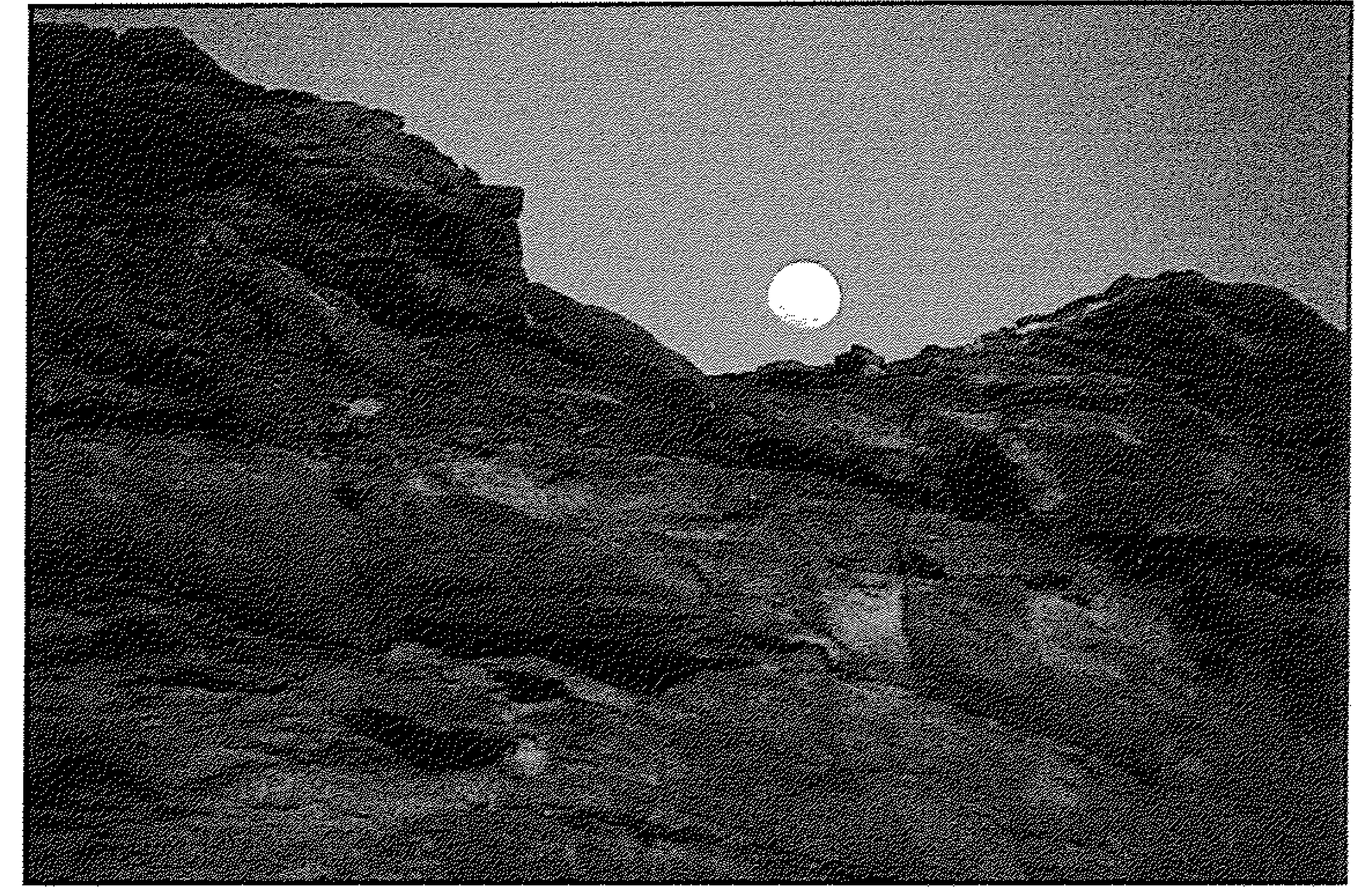
عرفت القرارة الوجود البشري منذ عهود ما قبل التاريخ. ففي البداية، عثر على بقايا خلّفها الإنسان المنتصب الذي عاش منذ مليون سنة إلى خمسمائة سنة خلت، وتتمثل أساساً في الأدوات ذات الوجهين للعصر الأخيلي التي اكتشفت في موقعي زاوية سيدي الحاج بلقاسم وماسين. ثمّ عثر على مواقع للعصر الأتيري في جنوب تيميمون، بينما تتمثل الحلقة المفقودة في العصر النيوليتي الذي يستغرب وجود آثار له في الشمال. ويقول الدكتور نجيب فرحات بهذا الخصوص:" من ناحية أهول المنطقة بالسكان وتطور تضاريسها في العصر الرابع، يمكن أن يكون ذلك قد انجر عن هجر السكان النيوليتيين لمنطقة جنوب المكثب الغربي الكبير. بحيث يكونوا قد تركوا منطقة أصبحت قاحلة بحثاً عن الماء والكلأ في عمق الكثبان داخل المكثب ذاته."

وقد حملت القرارة على مايبدو منذ زمن طويل صفة الملجأ. بحيث استضافت الحراتين المتحدرين من الإنسان النيوليتي، أو إثيوبيي هيرودوت أو حتى العبيد الذين انتزعوا من السودان موطنهم الأصلي؛ وقد جرت العادة على تسخير الأقوام السود في أعمال البستنة سواء كانوا أول من سكن المنطقة أو آخر من وصل إليها. ثم جاءت أقوام أخرى على مدى قرون لتمتزج بالمجموعة وتؤسس بعد أن تسترجع أنفاسها وتلتئم جراحها قصراً وسلالةً. ومنذ العصور القديمة، ما انفكّ الرومان والوندال ثم تلاهم البيزنطيون في دفع ونفي أقوام ، لما وراء حدود الأقاليم الساحلية أو المجال القابل للاستغلال، إلى أعماق الصحراء، أو حسب تعبير مولود معمري:" دفعوا بفوضى الجهل الأخرق إلى أبعد حدّ ممكن". وهذا هربت أفواج كبيرة من السكان الجيتوليين والزناتيين ويهود ليبيا والنوميديين...من "نظام أهل الربا". ولم تكن تلك أولى العلاقات بين

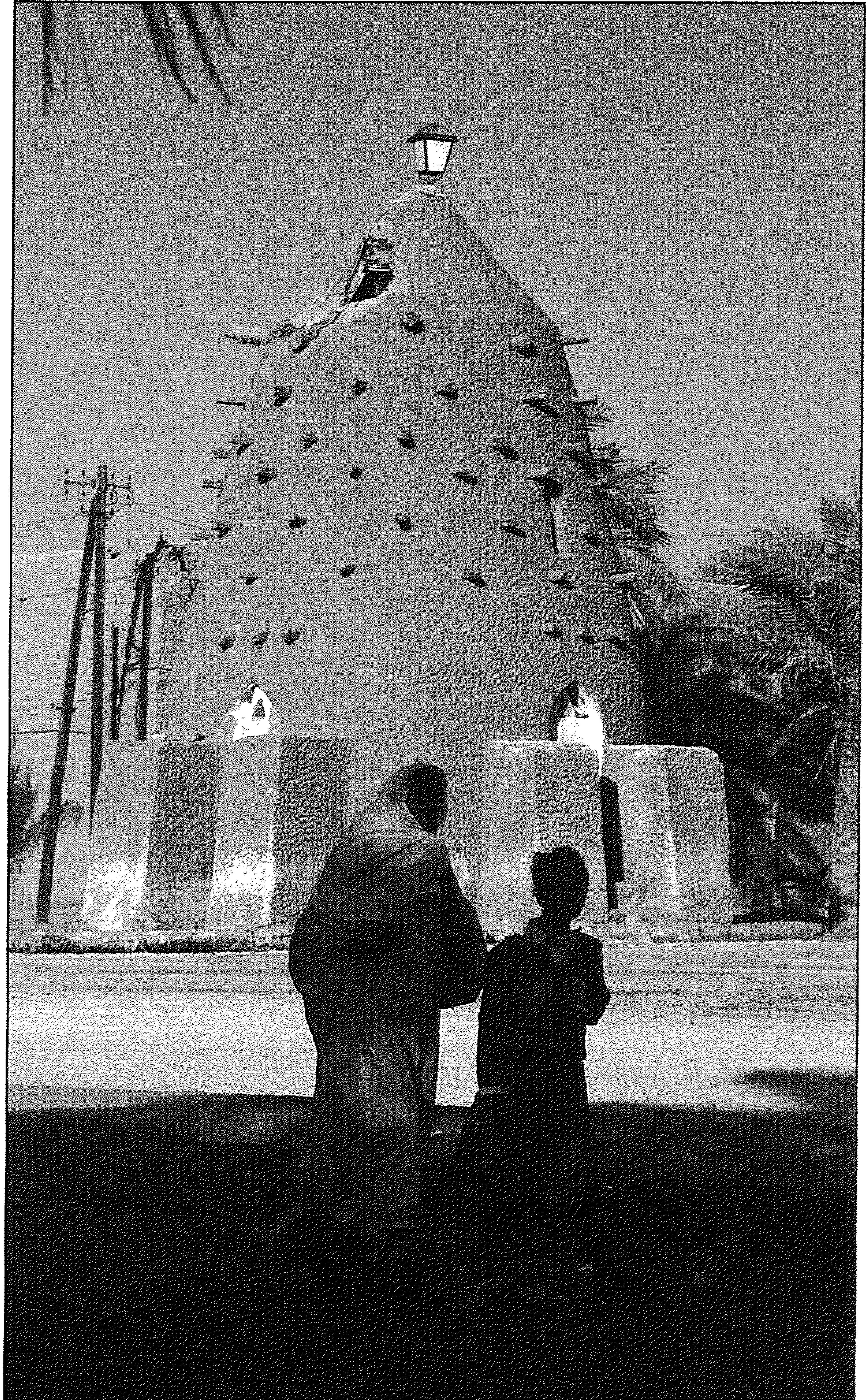


المنطقة البربرية والصحراء؛ فقد جمعتهم اضطرابات عميقة وعنيفة، بالإضافة إلى علاقات تجارية منتظمة. وتكثفت هذه العلاقات وتوسعت بطريقة متباينة إلى غاية الفترة الممتدة من نهاية القرن السابع والقرن الثامن، مع الانتشار السريع للإسلام وتعميم استعمال الجمال.وابتدأت بذلك التجارة العابرة للصحراء على نطاق واسع.

كتب برنار لوغان، الباحث في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا، قائلا:« اعتباراً من تلك الفترة، بدأت التجارة العابرة للصحراء تظهر على طول محاور مسار القوافل، وانطلاقاً من المدن التي نشأت في الصحراء.» تيهرت الإباضية، وسيجلماسة



جوهرة الموانئ الصحراوية، وتلمسان بذوقها الرفيع للأبهة، وتمنطيط عاصمة توات، وتيميمون المدينة الحمراء، و ورقلة مركز الإتجار بالذهب والعبيد... كلها مدن ازدهرت، واتحدت أوتخاصمت لتصنع مصيراً متبايناً. بحيث هيمن الزناتة الإباضيون على الطرق من مدن منطقة المغرب إلى الإمبراطوريات المعمورة للغرب الأفريقي. ودمر حكم الفاطميين تيهرت عاصمة الرستميين وسيجلماسة في العام 909. وفرّ الإباضيون وأسسوا في البداية مدينة سدراتة التي طردهم منها الحماديون، ليجدوا في نهاية المطاف، واعتبارا من القرن الثاني عشر، ملاذاً دائماً في مكان أبعد إلى الجنوب، والذي أصبح فيما بعد يعرف بخماسية المزاب وإحدى الطرق المؤدية إلى القرارة. كما طرد الفاطميون أيضاً اللاجئين الزناتيين إلى ما وراء المكثب من تافيلالت هذه المرة، بعد الاستيلاء على سيجلماسة.



نحن الآن في العام الألف تحت ظلال الإمبراطورية العباسية الآيلة إلى الأفول. إذ بدأت تتفكك شيئاً فشيئاً من طرف أقطاب سلطات منشقة، وعلى وجه الخصوص، الفاطميين في القاهرة والأمويين في قرطبة الذين تنازعوا السلطة على منطقة المغرب عن طريق تحالفات أبرموها مع القبائل البربرية الزناتية والصنهاجية. ورسموا بذلك الخطوط العريضة لمصير الممالك البربرية الأولى، بمجدها ثم انقسامها، تلك الممالك التي كانت غيورة على استقلاليتها، لكنها في نفس الوقت منبهرة أشدّ الانبهار بالشرق وأنواره.

عندما وصل الهلاليون على دفعات كبيرة في القرن الحادي عشر، وجدوا البربر الزناتيين والصنهاجيين في حالة من الانقسام الشديد، فغيّروا بشكل حاسم ديمغرافية منطقة المغرب الكبير وتاريخها. وفي نفس الوقت شرعت الإمبراطورية المرابطية المنتظمة الصفوف، في الطرف الآخر من الصحراء، ومن أدرار الموريتانية بالتحديد، شرعت في حملة توسعية خاطفة انطلاقاً من الصحراء الغربية. فتم نهب أوداغوست في العام 1055، وألحقت توات والقرارة، وبعد ذلك بقليل، تم إخضاع سيجلماسة. وهكذا أصبح المرابطون أسياد المراكز الرئيسية للتجارة عبر الصحراء، وأمسكوا زمام الإمبراطورية الجديدة من شريانها الحساس. ثم صعدوا إلى الأندلس لتحقيق الوحدة الدينية ووضع حد للهرطقات التي اتسع انتشارها في القرن الثامن. وعندما هزم الموحدون المرابطين المنهكين في القرن الثاني عشر، وسعوا انطلاقاً من مكتسبات المرابطين والفاطميين، الأراضي الإسلامية بشكل لم يسبق له مثيل، وحققوا الوحدة السياسية للغرب المسلم التي طالما حلم بها أسلافهم. ومنذ ذلك الحين، انفتح طريق تجاري من النيجر إلى الأندلس، مروراً بالإمبراطوريات الساحلية مابين الأطلسي وبحيرة التشاد. وفي هذا الصدد، يواصل برنار لوغن قائلا:" مع الموحدين، انضم الساحل إلى العالم التجاري لأوروبا والبحر الأبيض المتوسط." وقد شكلت توات مركز وصل حيوي من الأهمية بحيث أرسل عبد المومن، خليفة ابن تومرت على رأس الموحدين، ابنه ليمكث سنة كاملة في القورارة. وحسب بعض المصادر فإن بناء القصر الرئيسي لتيميمون يعود إلى تلك الفترة. وهنا أيضاً، كانت القورارة، كعهدها، ملاذاً استضاف اللمتونيين المرابطين الذين هزمهم الموحدون، كما استضاف بعد ذلك في نهاية القرن الثاني عشر، بني عامر، وهم عرب رحل

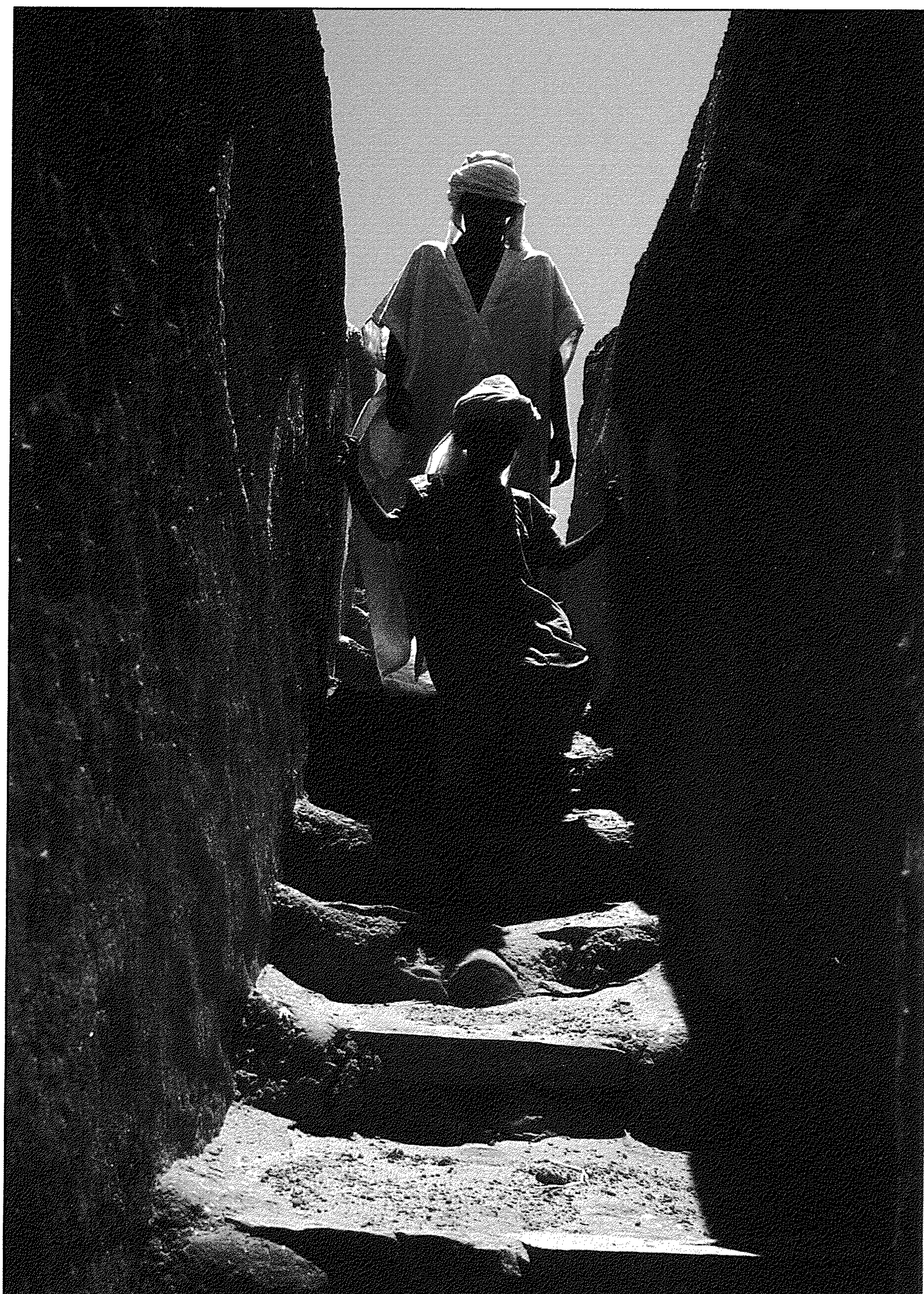


«حين يصعد المحارزة
يصدح غناءهم
على أنغام الطبل والناي،
ويرمون الماء
على ساحة حميان.»

"كان الماء في كل مكان، وكل الأراضي كانت مغمورة.
وعندما جاء الأولياء قرروا إفراغ القورارة من هذه المياه.
فشرب سيدي موسى الربع، وسيدي الحاج لحسن الربع الثاني،
وسيدي عبّاد الربع الثالث، وسيدي الحاج بلقاسم الربع الأخير."

نص جمعه رشيد بليل
في " قصور وأولياء القورارة"





"قلبي مجروح:
بارك يارب
فيمن جرحه
من جرحه ليس بعود
بل صبية رشيقة العود."



استقروا في هضبة مقيدن. وبعد وقت طويل من ذلك، أخذت الانقسامات الداخلية والهزائم التي منيوا بها في اسبانيا تنخر جسد الموحدين، مما أدى إلى انهيار السلطة الموحدية في القرن الثالث عشر. وقد انجرّ عن انهيارها تجزئة المغرب الكبير بين المرينيين في فاس، والزيانيين في تلمسان، والحفصيين في تونس. فتنافست إذّاك ثلاث طرق تجارية وأصبحت القورارة بفعل ذلك طريقاً هاماً للعبور. وقد قامت تيميمون تأكيداً على دورها الوسيط، بنسج علاقات مع المرينيين وبني عبد الوديد على حدّ سواء.

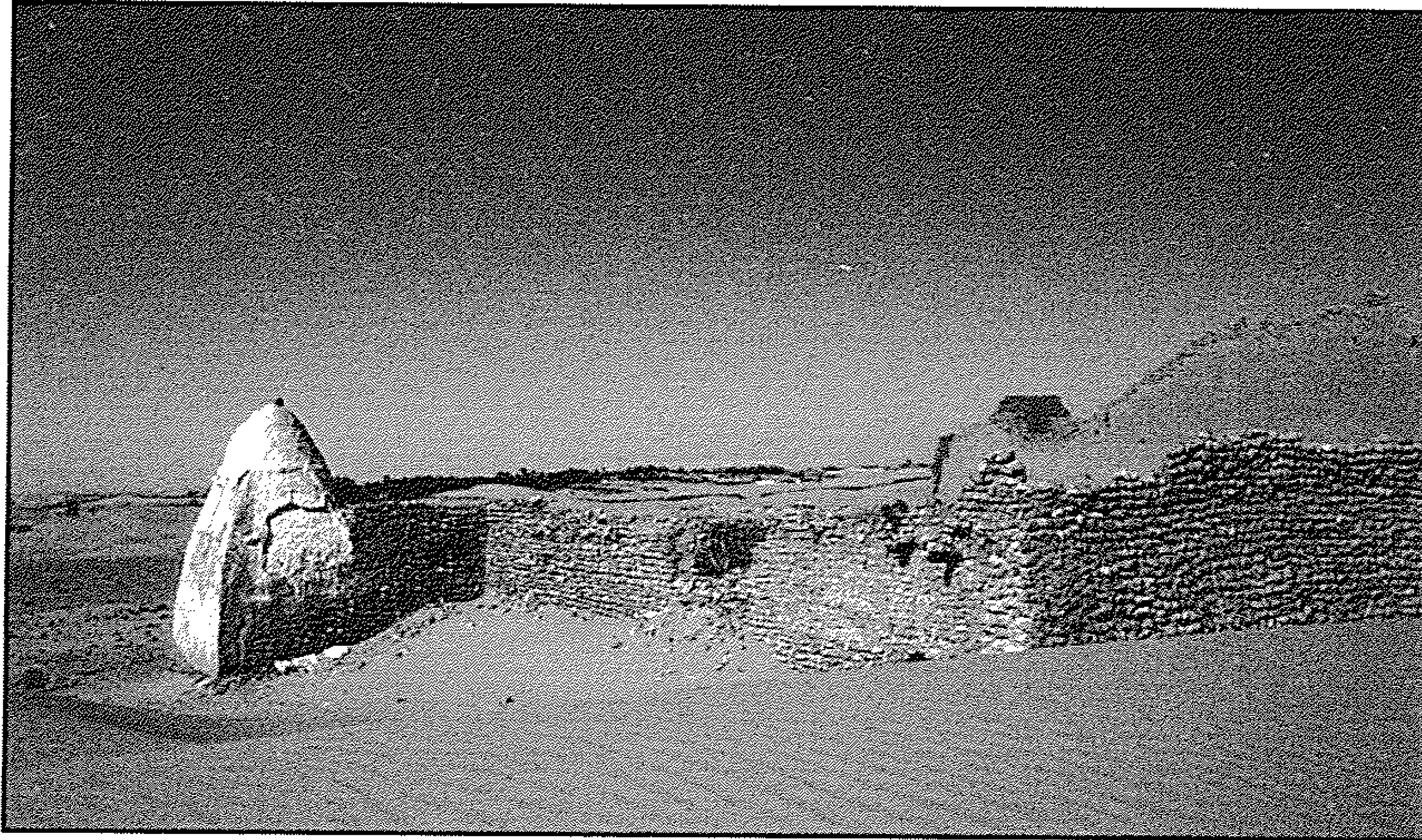
استفادت تلمسان من أفول نجم سيجلماسة في القرن الرابع عشر، واتخذت موقف الحكم بين البدو الرحل العرب ويهود تمنطيط في منطقة توات. بحيث زرعت النزاعات بين الزيانيين والمرينيين المخاطر في جنوب تافيلالت وأضعفت شيئاً فشيئاً الطريق الغربية. وأجبر أبو حمّو موسى الثاني الذي حكم تلمسان طيلة 30 عاماً، على الفرار والاحتماء بحلفائه القدامى من بني عامر المستقرّين في القورارة.

وقد أدّى اكتشاف البرتغاليين لضفاف المحيط الأطلسي وخليج غينيا، بالإضافة إلى الضغط المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية الذي انجرّ عنه سقوط الأندلس في القرن الخامس عشر، أدّى كل ذلك إلى تحويل جزء كبير من تجارة الذهب والعبيد نحو الساحل. وبدأ انحطاط لا رجعة فيه للعالم الإسلامي.



ومع كل الفوضى التي رافقت هذا الانحطاط والأزمات العميقة التي سببها، وأمام الفشل المرفوض، انتشر الإيمان كعلاج للخيبة، صحبه تصاعد الحركات الدينية التي كانت مترسخة في المغرب منذ قرون عدّة. فانتشرت شبكة من الزوايا كالنار في الهشيم، بفعل الغضب أو رغبة في الخلاص، وتكوّن لها أتباع في كل الصحراء. وكما أشار بلّيل:" فقد طرأت تحولات عميقة على الإسلام الصحراوي، بحيث اصطبغ بنوع من التجديد الشعبي المنبثق عن التصوف الإسلامي" لا تزال آثاره باقية إلى يومنا هذا.

تسبب انعدام الأمن المتزايد في الغرب إلى تحويل الطرق نحو الشرق مروراً بتوات قورارة، والمزاب، وورقلة، وطرابلس. في حين استقرّ الأتراك في القرن السادس عشر في الوسط والشرق، وشغل السعديون الغرب والجنوب الغربي دون أن يتمكّنوا فعلّياً من إعادة أمور قُضي فيها إلى نصابها. ثمّ دخلوا في نزاع مع امبراطورية سونغاي الغانية التي كانت لها علاقات مباشرة مع إفريقية و مصر. وقد أدّى تحويل الطرق إلى تقهقر مدن مغاربية، في الوقت الذي تأكّدت بشكل قاطع المقولة المكرّسة:"انتصر البراق على النياق". فحملت المدن الغربية الأكثر تضرراً السعديين إلى الخروج بحملة نحو تومبكتو. وفي العام، 1581سقطت قصور توات قورارة الواحد تلو الآخر على يد السعديين الذين آلوا إلى إخضاع تومبكتو في العام 1591 حيث أقاموا ولاية تركية أو بشالق... لكن، بعد فوات الأوان، فقد تقاسم البرتغاليون والمصريون جلّ الدّفق التجاري. وطويت بذلك صفحة هامة من صفحات التاريخ. ويذكر المؤرخون المحليون الأقل إطناباً عن هذه الفترة، بأنها شهدت إلى غاية 1584 تعاقب سبعة سلاطين وبقوا مستقلّين عن سلاطين فاس. ولم يكن للسلطات المسيحية المختلفة في واقع الأمر سوى سيادة شكلية على تلك المناطق؛ إذ أن أعيان القورارة



هم الذين طلبوا إحدى فرق الباشا من الجزائر لتصل إلى تيميمون في العام 1580، لكنها لم تمكث سوى مدّة قصيرة.
تعتبر السير الخاصة بالأولياء الصالحين للقورارة، بالشكل الذي وصلتنا فيه، مسرد مآثر لأسطورة علماء الإسلام الصالحين، الذين أسسوا بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر مدارس مرموقة. واستأثرت بالناس حميّة دينية كانت مزيجاً غريباً من الصوفية والسنية، والطرق الفردية والمذاهب الطائفية.وذلك في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي في طور الأفول، وكانت عملية تجزئته قد قطعت أشواطاً كبيرة. إلاّ أن الحركات الدينية كانت لا تزال تحمل سمات عظمته وإشعاعه. فجاء دور القورارة وعاصمتها تيميمون



"يارب اجعلني بالتقوى
خفيفاً
حين أفارق يوم مماتي
من أهوى."

وبسعادة مقدّرة وبثواب منصف. فقام رجال ذوو قدر متميّز، في تقاطع بين العلم والسلطان، بدور المرشدين والمنقذين من الضلال، ودور العلماء والوسطاء.

وتمنح النصوص المدونة مكانة متميزة لثلاثة من كبار الصالحين للفترة الممتدة من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر وهم: سيدي عثمان الذي تشرف قبّته على المقبرة الواقعة على الحدود الجنوبية لتيميمون، وقد كان أموياً طرده العباسيون من سورية، ويقال بإنه من أدخل تقنية الفوقارة للري (؟)، وسيدي موسى من تاسفاوت، وهو أحد تلامذة سيدي أحمد بن يوسف مؤسس قصر تيميمون وسوقه. وخليفته سيدي الحاج بلقاسم الذي استقر في الزاوية التي تحمل اسمه، في الجنوب الغربي لتيميمون، ويُعزى إليه احتفال "سبوع" حسب الروايات الشفهية.

اكتفت الحملة الاستعمارية الفرنسية لمدة طويلة، على غرار الحملات الرومانية، بمجال حدودي عن طريق بناء حصون كبيرة لإيقاف مد القبائل المتمردة ودحرها إلى أعماق هذه الصحراء التي كانت لا تزال مجهولة لديهم. وقد بقيت محصورة في الشمال إلى غاية 1847، بفضل المقاومة الشرسة للأمير عبد القادر، ولم تتمكن من الاستيلاء على بسكرة إلاّ في العام 1849 بعد القمع الهمجي لثورة الزعاطشة.

كما تم أيضاً في الفترة ما بين 1864 و 1869 قمع انتفاضة ولاد سيدي الشيخ بعنف، الذين كانوا يشكلون مجموعة من القبائل التي يمتد نفوذها إلى الحواف الصحراوية للأرخبيل التواتي. وفي العام 1881، جمّع الشيخ بوعمامة حركة جديدة للمقاومة، انضمت إليها غرداية وكل منطقة المزاب. وخلال نفس تلك السنة، وقعت فرقة الكولونيل فلاتير في كمين انجرت عنه عواقب لا تحصى، أهمها إيقاف الحملة الصحراوية لمدة سبعة عشر عاماً. ولقد كان لكل من الولوج التام إلى التشاد في العام 1898، وإقامة مركز مراقبة دائم في القليعة في العام 1890، والاستيلاء غير المأمول لعين صالح في العام 1899، كان لكل ذلك أثر في إعادة الانطلاق الحاسمة لاحتلال الصحراء الوسطى. وقد كان الهدف منذ البداية، بطبيعة الحال، هو الاستحواذ على بلاد الطوارق، وفتح معبر نحو منطقة الساحل. قاومت تيميمون مقاومة باسلة بينما كانت واقعة بين المطرقة والسندان بصفين من ألف رجل أحدهما قدم من القليعة والثاني من واد الساورة، ولم تتداعى أسوارها إلاّ سنة 1900، تحت ضربات قذائف المدافع المتمركزة في الجبال. وأمام المعادلة الجديدة لموازين القوى بين المدجج والأعزل (بين السيف والعصا)، ظلت مقاومة أهالي قصور القورارة، وتوات وتيديكلت حامية الوطيس، حتى أن مراسلاً استعمارياً علق بمرارة:" ما كانت الحرب لتضع أوزارها حتى تنشب من جديد".



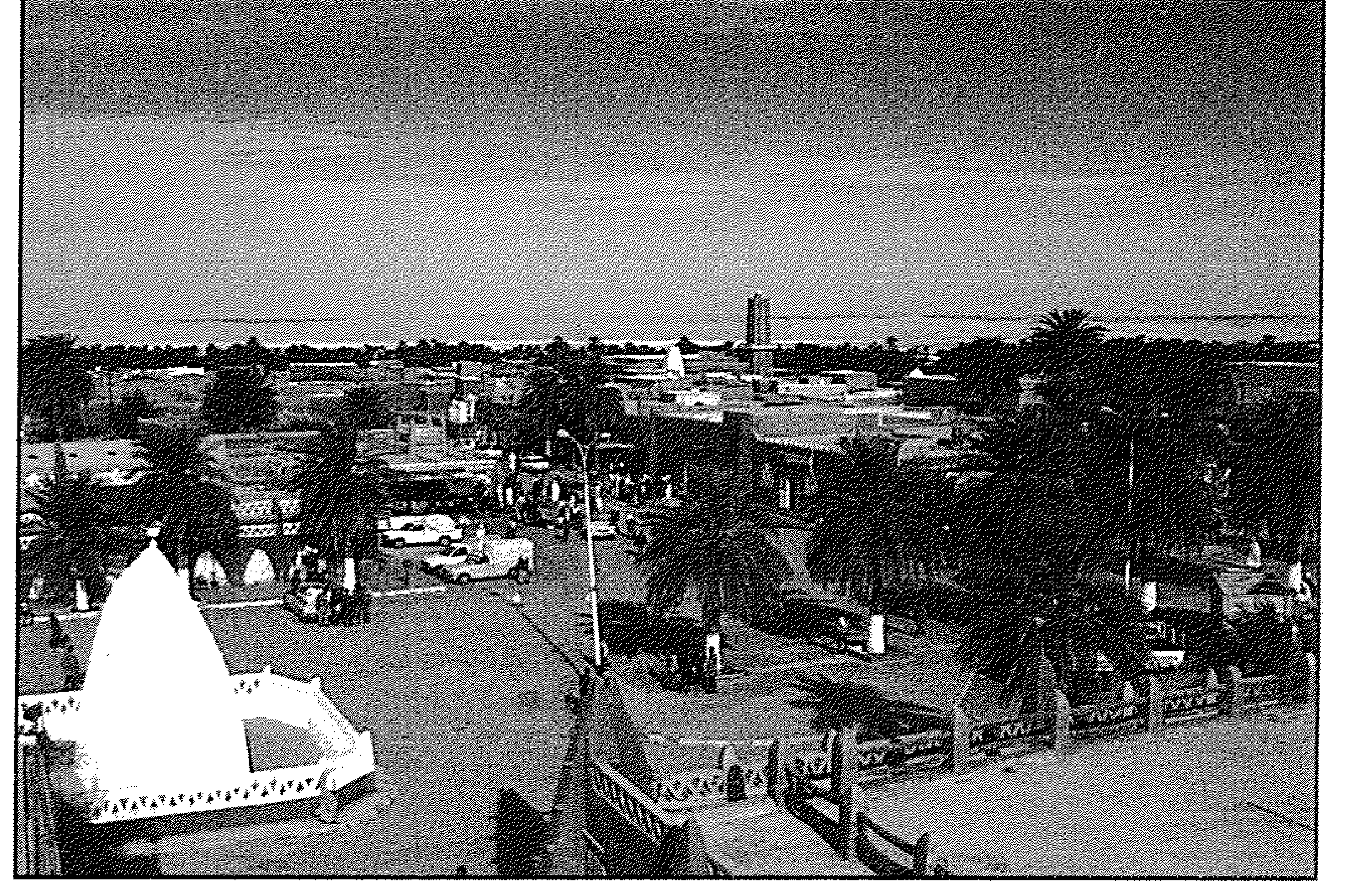
بني برج تيميمون في العام 1901 قبالة القصر بالضبط، ويعود الفضل في إضفاء الطابع الأفريقي على طراز المدينة الجديدة إلى الضابط أنتينور. فقد بنى باب السودان، ومقرّ الدائرة الحالية، والمبنى الأكثر تميزاً وجمالاً هو فندق "الواحة الحمراء" بجدرانه المنحوتة بنقوش زخرفية بربرية، وقد أصبح الآن مركزاً ثقافياً، ومحطة للسياحة الصحراوية لا يمكن إغفالها. وهو البناء المتفرّد الوحيد، أما البقية فإنها تحمل بصمات تاريخها، بصرحيتها العمودية، وتطوقها، وانحصارها، وتأهّبها. لقد كانت المستعمرات هنا، خلافاً للشمال، مستعمرات تأطيرية وليست استيطانية، يقتصر دورها أساساً على دور الشرطة. فلم يكن لدى فرقة الضباط الذين كانوا يحرسون المنطقة الملحقة بتيميمون، أية نيّة في الاندماج بالسكان، بل على العكس من ذلك تماماً، كانوا متشبّعين بالإيديولوجية الاستعمارية وفضائلها "الحضارية"، وركنوا إلى جهل مطبق بالأهالي المحليين، وبتارخهم، وتقاليدهم وثقافتهم. لكن رغم أنّهم عصبوا أعينهم وسدوا آذانهم إزاء السكان، غير أنّهم كانوا مسكونين تماماً بسحر العالم الصحراوي وأساطيره.

وقد كان علينا أن ننتظر لسنوات بعد استقلال الجزائر، لتنكشف لنا، من خلال دراسات علمية، الطبيعة المعقدة لعالم الواحات، بمعارفه المتطورة، وتاريخه الذي يضرب جذوره في مهد البشرية السحيق. فقد كوّن شيئاً فشيئاً هويته القوية، والمتفرّدة التي خطت ملامحها قلاقل الزمان وقساوة التضاريس والمناخ. إنّه، في نهاية المطاف، أسطورة لم تفش بعد عن كل أسرارها، وتنهل قوتها ونسغها من الأساس الاجتماعي لذاكرة كل شيء فيها محتجز تقريباً. أنساب السلالات، والمشاطرة، والأمكنة والهويات، وفوق كل شيء، اندماج متين ورائع.

تظهر تيميمون على مرآة المكثب وكأنها تمتص كل شيء، وكأن كل شيء يذوب فيها. القورارة تسبي العقول حين نظن بأننا سبيناها،

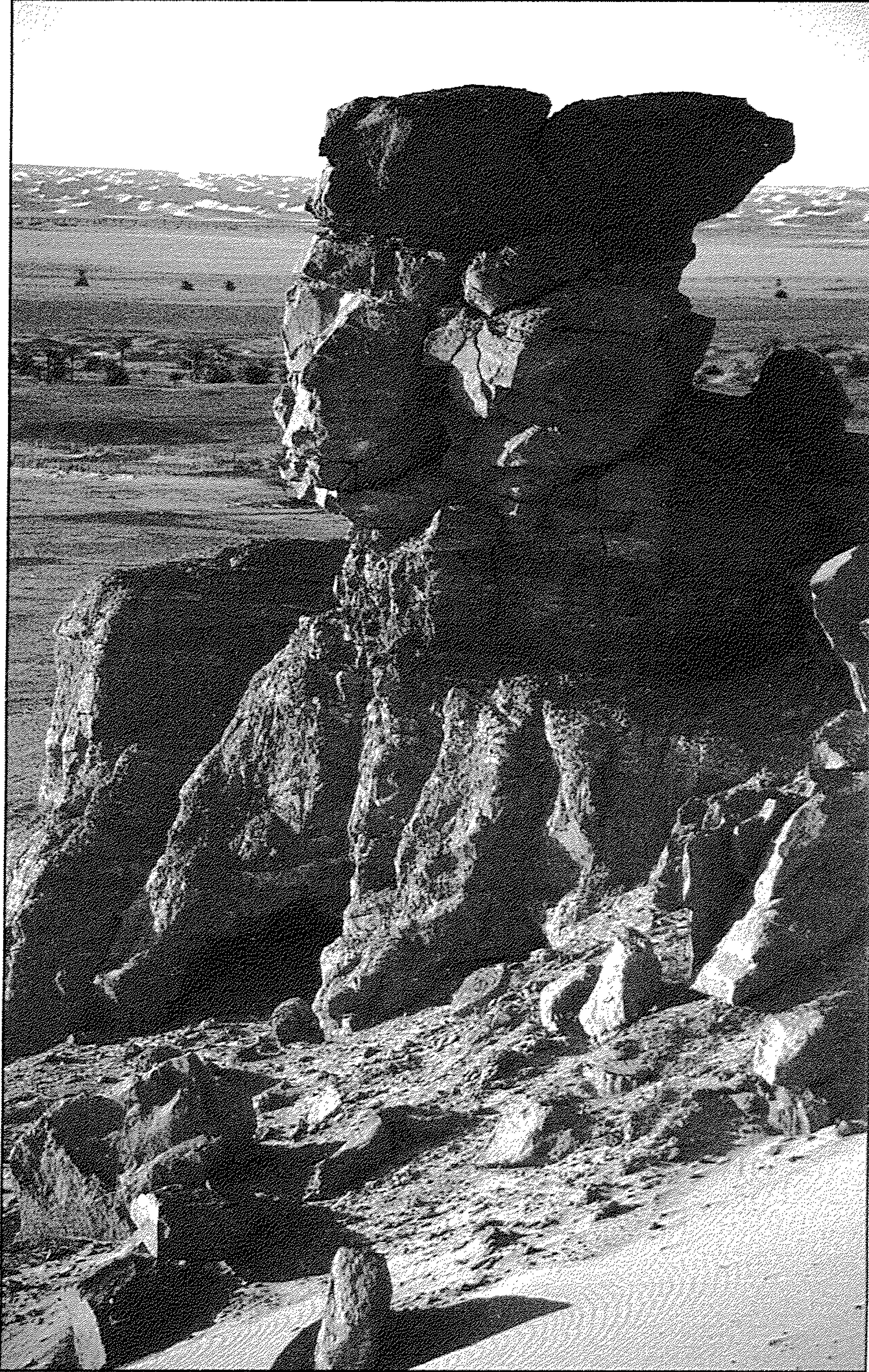


ولا تسفر عن ذاتها إلاّ حين تسبينا. بعد الإنصات، يأتي الانتباه، ويخرج الاعتراف المؤثر بالتماهي عبر الدروب غير المسبرة والعديدة للانبهار. «أنا زناتي» ، هكذا كتب مولود معمري بعد أن اكتشف في معرض بحثه في علم نشأة الواحات في العام 1971، بمحض الصدفة، وبشكل أكثر تحديداً احتفال "الأهلّيل" للقورارة. و بدفع من حماسه المتقد، شكلت هذه المقاطعة البربرية الصغيرة التي صمدت منذ أقدم العصور، عمل بحث متعدد التخصصات، وإنجازاً عظيماً يتسم بالصرامة العلمية والحساسية المفرطة، وإنقاذاً لتراث شعري وموسيقي فريد من نوعه، يتجلى مظهراه الأكثر خصوصية وانتشاراً في السبوع الذي يحتفل فيه بالمولد النبوي، وفي الاحتفال بعيد القصر ووليه الصالح. ويتمثل الاحتفال، من حيث كونه " عودة إلى المعالم المؤسسة للذاكرة الجماعية"، في تجمع سنوي لجزء كبير من قصور القورارة وفقاً لطقوس ومسارات محددة، تبدأ من زاوية سيدي الحاج بلقاسم، لتسير بالجموع في موكب عبر الأماكن المقدسة لتيميمون لمدة سبعة أيام. وفي اليوم السابع ينتهي المطاف وتلتقي الرايات ويبلغ التلاحم ذروته. مع أن الاحتفال بالمولد لا يمت بصلة لشعائر الإسلام الأصلية. فقد جاء من الأندلس، وأقرّه في القرن الثالث عشر السلطان المريني أبو يعقوب، لكن الذي عمم انتشاره بعد نصف قرن من ذلك التاريخ هو السلطان الزياني أبو حمّو موسى، الذي كان لا يزال يحكم تلمسان قبل أن يصبح لاجئاً في القورارة.



يعتبر الأهلّيل أحد الخصوصيات الموسيقية المميزة للقورارة، يتماهى بها كل أهلها. حتى أنه النغم الذي يجمعهم على اختلاف مشاربهم وأصولهم. إنه نشيد الأرواح السافرة في كمال اللحظة، و حميمية التواصل الوجداني، ونفس الليل العابق، وتفرّد وكونية نشيد من أناشيد العالم، إنّه حقاً لتراث حيّ للإنسانية جمعاء. ويقع الأهلّيل ضمن حيّز يتراوح بين المقدس والمدنّس تنتظم حوله الحياة الاجتماعية والدينية.

وهو عبارة عن غناء متعدد الألحان يضبطه عازف منفرد بتدارك أصوات متتابعة وآلات موسيقية بدائية تتألف من ناي وقمبري ومجموعة من الطبول. يحتدم الإيقاع والوقع المنتظم حتى النشوة، مع رقص بحركات موجزة وقوية في آن. ثم يصدح الشعر بكامل رونقه المشبع بتوق الليل ولهفه، ففي الأهلّيل بعض من فرح في ترح، وبعض من اليُمن في الإيمان. وكما كتب معمري أيضاً:" لا عجب أن تكون هذه الأرض الشاسعة منبت فكرة الإله الواحد: كان لا بدّ من وجود عظيم، لملء هذا الفراغ العظيم." والأهلّيل نشيد القورارة العظيم وملاذها الأخير.

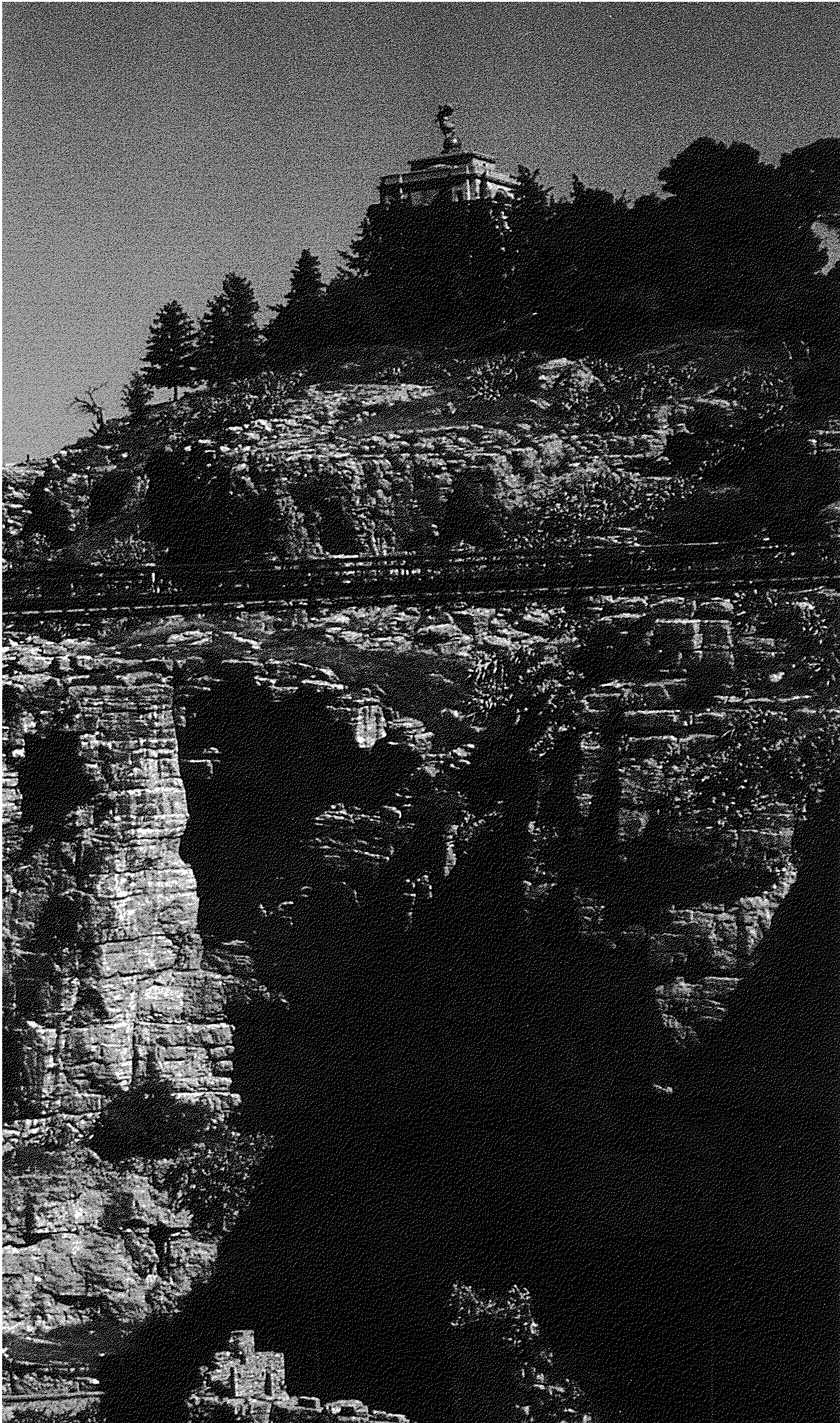


"لا يجرح محبوب أبداً حبّه
تمضي السنتان كما الساعة قربه
ويحدّثني قلبي عن كامن أربه
ما أصعب أن يؤخذ من كرم عنبه."



قسنطينة
المدينة السماوية

عبد الرحمن خليفة



الموقع الجغرافي

مامن رحالة أو مؤرخ زار المدينة إلا ونوّه بموقعها المحصّن الأشبه بعش النسر.
تتشكل صخرة قسنطينة من كتلة كلسية يمكن رؤيتها من مدّ بصر يصل إلى 300 متر. وتبلغ أعلى نقطة من سطح الصخرة في الشمال 644 م من مكان يسمى "كف الشكارة". وتهبط النقطة الأكثر انخفاضاً نحو سيدي راشد إلى 534 م. ولهذه الكتلة الكلسية العظيمة التي تحمل المدينة شكل موشور شبه منحرف. تشرف الصخرة على جرف شاهق يجري في حوضه واد الرومل (أمبساغا قديماً). وهي وضعية لم يكن بوسع مختلف الأقوام الذين صنعوا تاريخ المنطقة إغفالها. علاوة على أن المدينة كانت تقع على الطريق الكبير الذي يربط إفريقية بباقي شمال أفريقيا.

ويعتبر موقع قسنطينة من أشهر المواقع الجزائرية من حيث خروجه عن المألوف ومن حيث الدور الذي لعبه في تكوين مدينة لطالما ضمن لها الحماية.

يصف البكري المدينة كالتالي:" قسنطينة مدينة كبيرة وعتيقة، تحتضن سكاناً كثيرين، وولوجها من العسر بحيث لا يضاهيها حصن في العالم أجمع. وهي تقع على ثلاثة أنهر كبيرة تقلّ سفناً، تحيط بها من كل جانب. وتنهل هذه الأنهر مياهها من الينابيع العديدة المسماة " عيون أشقّار"، أي "الينابيع الحمراء"، وتمر في هاوية مهيقة العمق. وقد بني على الجزء الأسفل من هذه الهاوية جسر بأربعة أقواس، يستند إليه جسر ثانٍ يحمل جسراً ثالثاً ذا ثلاثة أقواس. توجد في الجزء العلوي من هذه الأقواس حجرة تقع في مستوى حواف الهاوية وتشكل معبراً يمكّن من الدخول إلى المدينة. وحين يُنظر إلى الماء في قاع الهاوية، يبدو وكأنه نجمة صغيرة من شدّة عمقها. تسمى هذه الحُجرة "العبور"، أو "سيريوس"، لأنها تبدو كما لو كانت معلّقة في السماء. تسكن قسنطينة



قسنطينة



أسر مختلفة كانت تشكل جزءاً من القبائل البربرية التي استقرت في «ميلة» في بلاد «النفزاوة» وبلاد« الكستيلية». لكنها تعود إلى بعض القبائل الكتامية. وهي تحتوي على أسواق وفيرة البضائع، وبها تجارة مزدهرة. وتستغرق الرحلة من هذه المدينة إلى سكيكدة يوما واحداً سيراً على الأقدام". ويلقبها أهلها باسم «بلاد الهوى»، وهو تعبير يعني المدينة الهوائية، و"مدينة المهوى"، و"مدينة الهوى" على حد سواء.

يقارنها الأبداري، رحالة القرن الثالث عشر" بسوار يحيط بالذراع، نهر يضجّ في قاع جرف عسر الموطئ، ويحيط بصخرة تستند إليها قسنطينة. وهو يدافع عن هذه المدينة كم ا تحمي القمم الوعرة عش الغراب."أما ليون الأفريقي فيلاحظ: " تقع قسنطينة فوق جبل شاهق الارتفاع، وتحيط بها من الجهة التي تنظر صوب الجنوب صخور عالية، يمر على سفحها نهر يسمى "سوفقمار"



" لن يكون لقسنطينة بالمعنى المادي لبلاد "الهواء"، أن تتوسع أو تتناقص. لكنها بمعنى الهوى تنمو وتكبر على مرّ الليالي والأيام..."

أبو حفص سيدي عمور الوزان

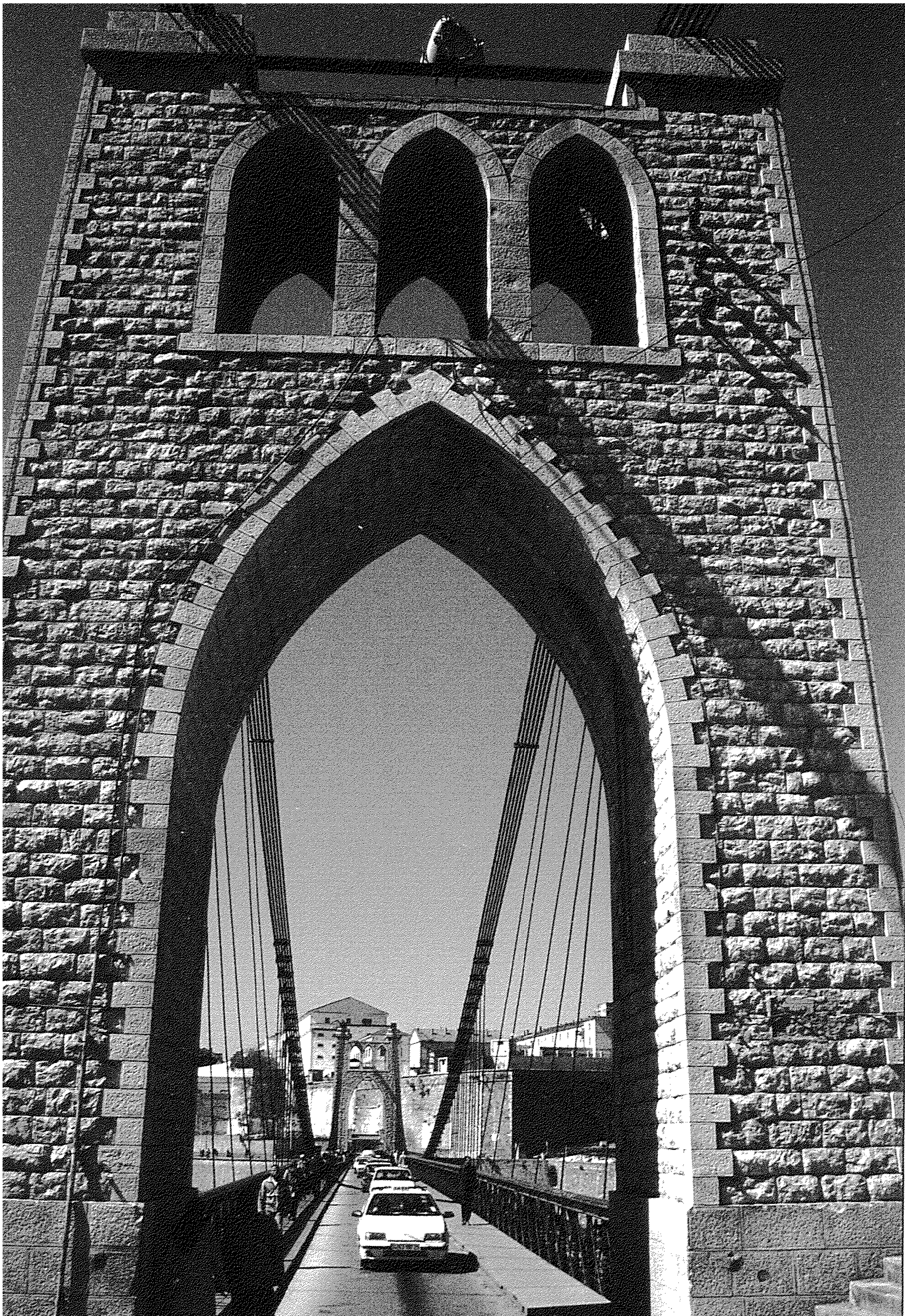


(رومل؟). كما تحفّ الضفة الأخرى من مجرى الماء صخوركبيرة، لدرجة أنّ المضيق العميق الموجود بين هذين الجرفين يستعمل كمقبرة للمدينة. وقد كتب الضابطان الفرنسيان روزيت وكاريت حول هذا الموقع قائلين:" من الصعب التخلص من شعور يتمازج بين الدهشة والاحترام، وحتى الرهبة، حين يقف المرء لأول وهلة أمام هذه المدينة الغريبة، عشّ النسر هذا الذي كان عاصمة لنوميديا."

ما قبل التاريخ

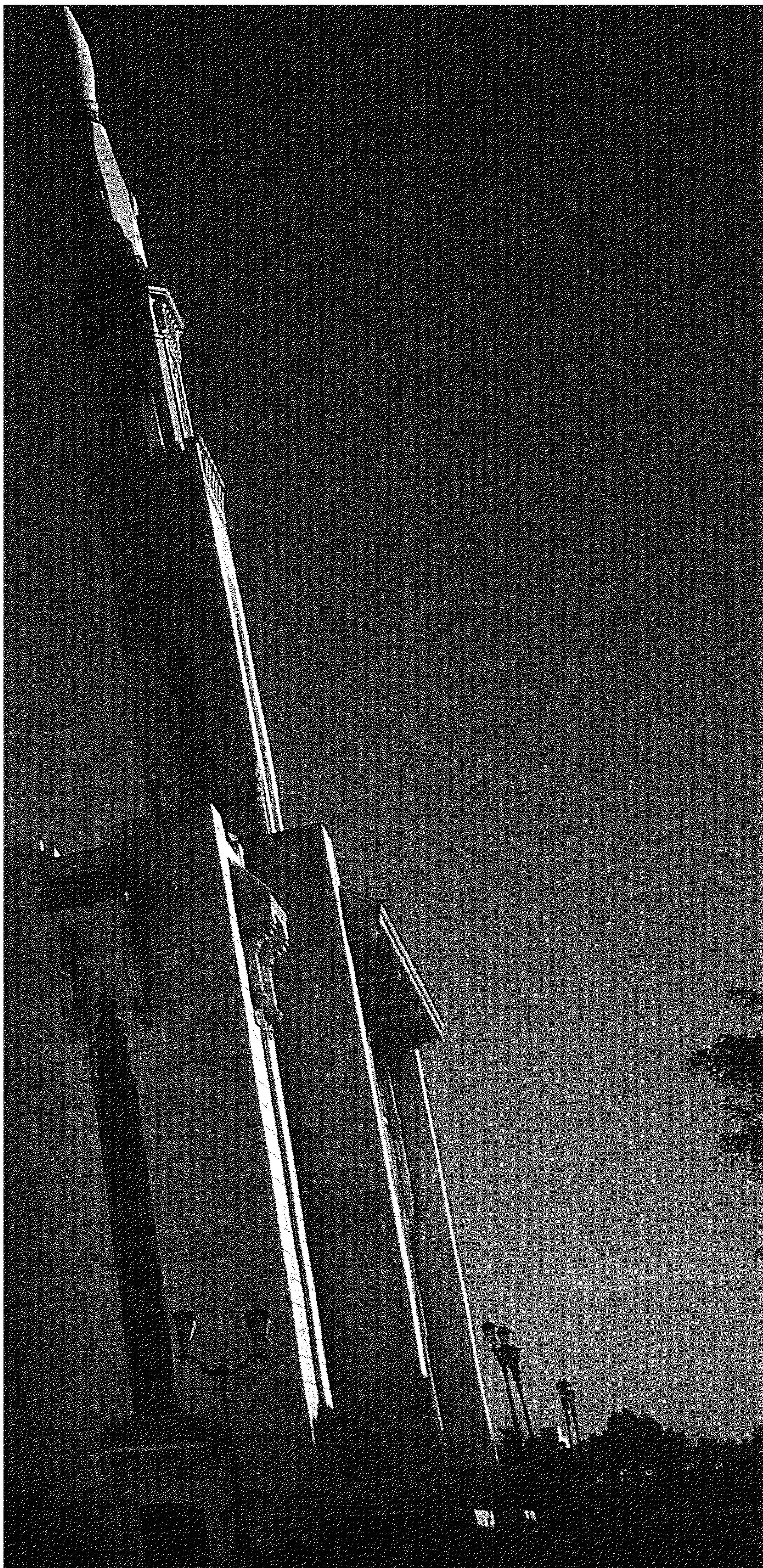
سكن الإنسان هذا الموقع منذ ما قبل التاريخ منجذباً إلى المياه الموجودة فيه. كما هو الحال في مغارة الدببة التي سميت كذلك بسبب وجود العديد من عظام الدببة فيها. وكذلك مغارة الأروية المحفورة في جرف سيدي مسيد. وتوجد من الجهة الأخرى للهاوية مغارة شقّت في الصخر تدعى مغارة الحمام. وقد عثر في هذه الملاجئ على أدوات بدائية مثل المسحقات، والرحى، والفؤوس المصقولة، ومظرّات، وملوقات، ومقدّات، وإبر من العظم... ترجع إلى العصر النيوليتي والباليوليتي الأوسط. كما عثر على مقربة من هذه الأدوات على عظام حيوانات مثل: وحيد القرن، والزرد والحيرم والفهد.

وتحتل مقبرة السكان الأوائل للمنطقة المسكونة مرتفعات جبل سيدي مسيد، التي استعملت فيما بعد كموقع للصروح التي شيدت تخليداً لقتلى الحرب الكبرى. وقد كان يوجد هنالك عدد من نصب الدلمن في العام 1849، وكان يوجد منها أيضاً في مغارة الدببة، أو على الضفة اليمنى لواد زياد.



" إنني لم أنل ما نلته من رفيع المقام والشرف عن طريق سبل ملتوية. بل انصب اهتمامي على العناية بروحي قبل جسدي. وآثرت طلب العلم على نفع الثراء. وخير لي أن أبقى فقيرا على أن أستجدي حماية أي كان..."

فرونتون دو سيرتا



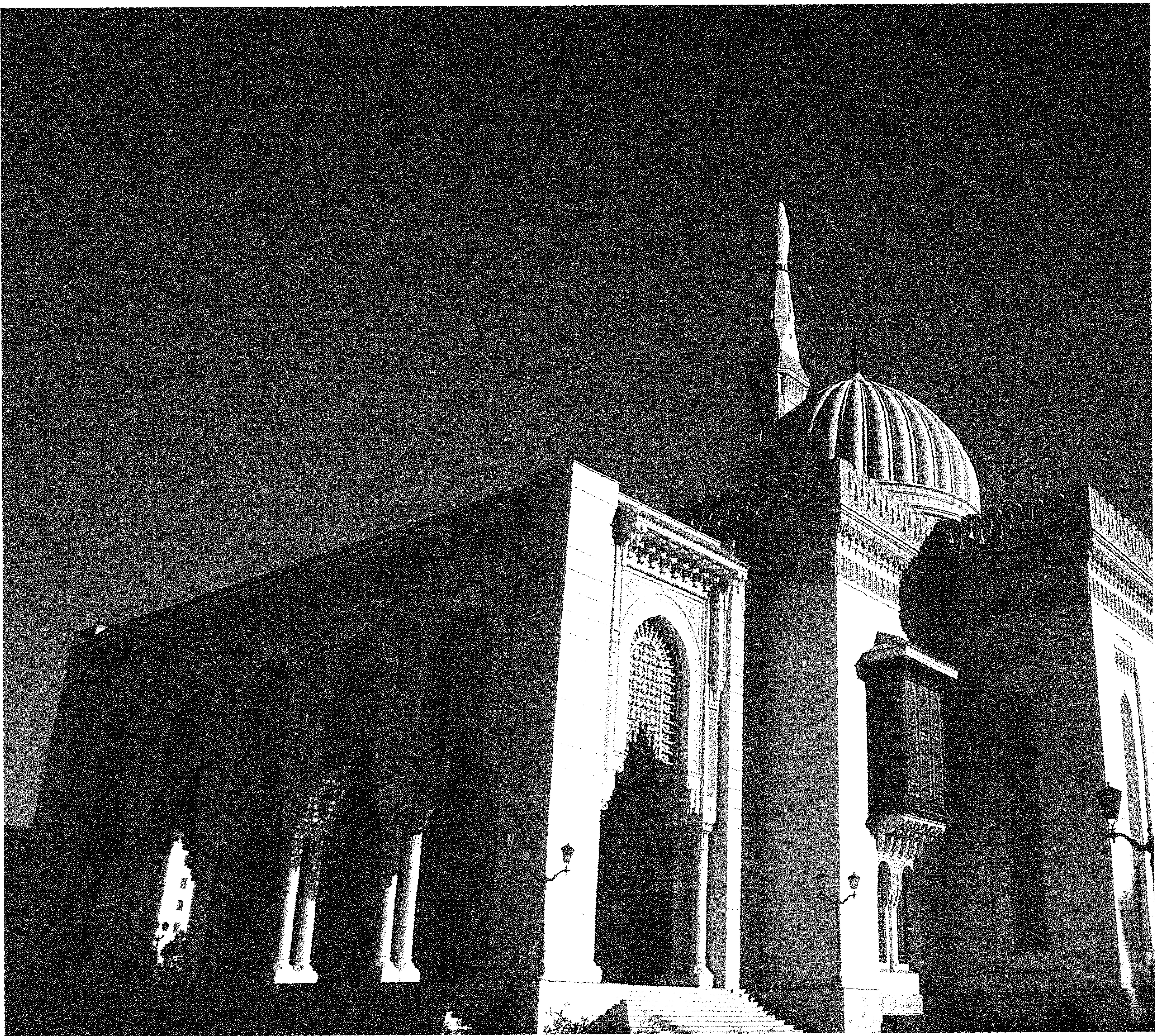
العصر القديم

تعتبر سيرتا من أقدم مدن شمال أفريقيا. وقد ذكرت المدينة منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد بصفتها إحدى عواصم الملك سيفاكس. ويشعر المرء بقربها من قرطاجة في المجال الثقافي والديني على وجه الخصوص، من خلال العدد المدهش من الكتابات والتماثيل الصغيرة المنذورة للإله بعل حامون المكتشفة في المدينة. وفي العام 203 قبل الميلاد، وبعد معركة زاما والقبض على سيفاكس، استسلمت المدينة لماسينيسا الذي جعلها عاصمته ومات فيها. وفيها أيضاً تزوج من سوفونيسب الحسناء إبنة أحد الأرستقراطيين القرطاجيين. وكذلك عاش فيها خلفاؤه. وقد زيّن الملوك الماسيليون والمسايسيليون مدينتهم بقصور كان يقيم فيها ماسينيسا "مآدب حيث كانت الطاولات مملوءة بالأواني الفضية والسلال الذهبية، وحفلات موسيقية يعزف فيها موسيقيون من البلاد الهيلينية". واستقدم ميسيبا حرفيين وفنانين من اليونان لتجميل المدينة المحاطة بالأسوار، حسب ما ذكره تيت ـ ليف وسالّوست. لكن للأسف لم يبق من تلك الفترة سوى الضريح المهيب في الخروب، الذي يواري رفاة ماسينيسا. وكانت المدينة محط منافسة حادة في الحرب التي خاضها يوغرتا ضد الجيوش الرومانية.

كان للمدينة وظيفة تجارية في غاية الأهمية في وقت مبكرّ جداً، إذ كان هناك تجّار إيطاليون قبل الاحتلال الروماني بزمن طويل، استقروا في المدينة بعدد كاف لمساعدة أدربال في الدفاع عنها ضد يوغرتا. وقد كانت المجزرة التي اقترفت بحقهم السبب الحقيقي للحرب التي شنت ضد يوغرتا.

بعد إنهزام جوبا الأول و إحتلال قيصر لإفريقيا، أصبحت سيرتا عاصمةً لمنطقة نفوذ منحها قيصر لأحد مساعديه يدعى سيتيوس، وهو مغامر و رجل أعمال كامباني، مقابل الخدمات التي قدمها له أثناء الحملة . و في العام 44 قبل الميلاد على الأرجح، وهو التاريخ الذي توفي فيه سيتيوس، أنشئت المستعمرة الرومانية سيرتا (كولونيا جوليا جوفيناليس هونوريس و فيرتوتيس سيرتا). وأصبحت المدينة فيما بعد مقرّ "الكونفيدرالية" السيرتية التي كانت تشمل علاوة على العاصمة النوميدية القديمة مدناً مثل "شولو" (القالة) و ميليف (ميلة) و روسيكاد (سكيكدة) ارتقت على ما يبدو إلى مصاف مستعمرات في نفس الفترة. و في أواسط القرن الثالث من العهد المسيحي، اختفت "الكونفيدرالية" وعادت سيرتا لتصبح عاصمة إقليم نوميديا السيرتية في العام 297 ، تحت حكم ديوكليتيان. وقد شهدت فيها الحياة من جديد في بداية القرن الرابع ازدهاراً كبيراً تحت حكم قسطنطين (306–323) الذي أعطاها اسمه الذي احتفظت به إلى يومنا هذا.

كانت المدينة محاطة بثلاث ضواح، إحداها في "كوديات آتي"، والأخرى في هضبة القنطرة و الثالثة في موضع سيدي مبروك.



بعد قرن تقريباً من ارتقائها إلى مصاف مستعمرة في العام 80، تحت حكم فاسبازيان ، تقلّد أحد أبنائها وهو أوريليوس باكتوميوس فرونتو منصب قنصل. ونقشت ابنته على قاعدة أحد التماثيل بأنه كان أول أفريقي يعينّ في هذا المنصب. وارتفع شأن ابن آخر من أبناء سيرتا في روما وفي الإمبراطورية بأسرها، وهو الخطيب أورنيليوس فرونتو الذي يعتبر أول خطباء عصره. ولد في سيرتا في حدود العام 100، وكان يتباهى بأنه ليبي قح. وقد اختاره الإمبراطور ليكون معلم مارك أوريل ولوسيوس فيروس.

وعندما احتل الوندال إفريقية، قاموا بمحاصرة المدينة التي صمدت في وجه الحصار عشر سنوات لتسقط بعدها في العام 455 م.

وقد كانت المدينة خلال الاحتلال البيزنطي مقرّ إقامة غونثاريس دوق نوميديا، ومقرّ الأبرشية. إذ تم بناء الكنيسة البيزنطية فوق معبد الكابيتول بمواد بناء الفترة الرومانية.

وإبّان الحملة الفرنسية في العام 1837، كانت المدينة تحتوي على عدد من الصروح لا تزال بعض آثارها باقية مثل الكابيتول الذي كان يقع داخل القصبة، وقد رأى المهندس المعماري رافوازييه قبوه الذي "يحتوي على تمثال جوبيتر المنتصر المصنوع من الفضة، يحيط برأسه إكليل يتشكل من ثلاثين ورقة سنديان، وخمسة عشر حبة عفص فضية، يحمل في يده اليمنى كرة يعلوها تمثال صغير للنصر يحمل سعفة من 20 ورقة، وإكليلا من 40 ورقة". وقد استخدم هذا المكان كأكروبول وكقلعة لملوك نوميديا، وللرومان، والبيزنطيين، والمسلمين، ثم تحول إلى أركان عسكرية للفرنسيين. واستعملت الأحجار المشذّبة للكابيتول في بناء الثكنة والمستشفى.

كان لا يزال بالإمكان رؤية قوس النصر من المدينة بأطباره الكورنثية، وأعمدته الرباعية، وأبنيته الرباعية الزوايا التي تشكل الرابط بين شارع كومب سابقاً (تليلي سعيد) وشارع فيو سابقاً(قديد صالح). كما يمكن أيضاً رؤية بقايا السيرك الواقع بين سفح المنصورة وحافة الجرف.

الفترة الإسلامية

تم احتلال المدينة في بداية القرن الثامن، و أقام فيها الفاتحون المسلمون حامية.



"إن احتاج النصارى إلى البارود فسوف نرسله لهم، وإن نقصهم الخبز فسوف نقتسم خبزنا معهم. لكنهم لن يدخلوا قسنطينة ما دمنا أحياء نرزق."

مقاتلو قسنطينة أثناء حصار المدينة من طرف الجيش الاستعماري في العام 1837.



غير أن المدينة أخذت تزداد أهمية مع الفاطميين، لكونها تقع في قلب بلاد كتامة، الأتباع المتحمسون للمذهب الجديد. والمقدّسي الذي كتب في القرن العاشر، ذكرها للمرة الأولى وحدد موقعها على بعد يومين من القيروان. وأشار ابن حوقل الذي زار المغرب العربي في نفس تلك الفترة أنّ " أهل قسنطينة يسيرون في قوافل مرتين في العام نحو "الزاب" للتجارة".

وقد احتفظت المدينة بعدد كبير من الصروح العتيقة، وخاصة الأسوار التي فتح فيها بابان: باب ميلة في الغرب، وباب القنطرة في الشرق المؤدي إلى الجسر العتيق الذي كان جسراً وقناة في آن عابرة للوهد.

وانضوت تحت لواء أبو يزيد" الرجل ذو الحمار" عند تمرّده في الفترة من 934 إلى 947. وقد خضعت قسنطينة تحت حكم الزيريين، مثلها مثل تيجيس، وسطيف، وميلة والقصر الإفريقي، لسلطان والٍ فوق العادة هو أبو زعبل ابن هشام، أحد معارف بولوغين. ويرجّح أنها كانت مقر إقامة هذا الحاكم. ثم عادت فيما بعد لحمّاد، عم السلطان الذي رفض منح ولايتها لابن أخيه باديس الذي كان ملك إفريقية. وأصبحت المدينة بعد ذلك جزءاً من

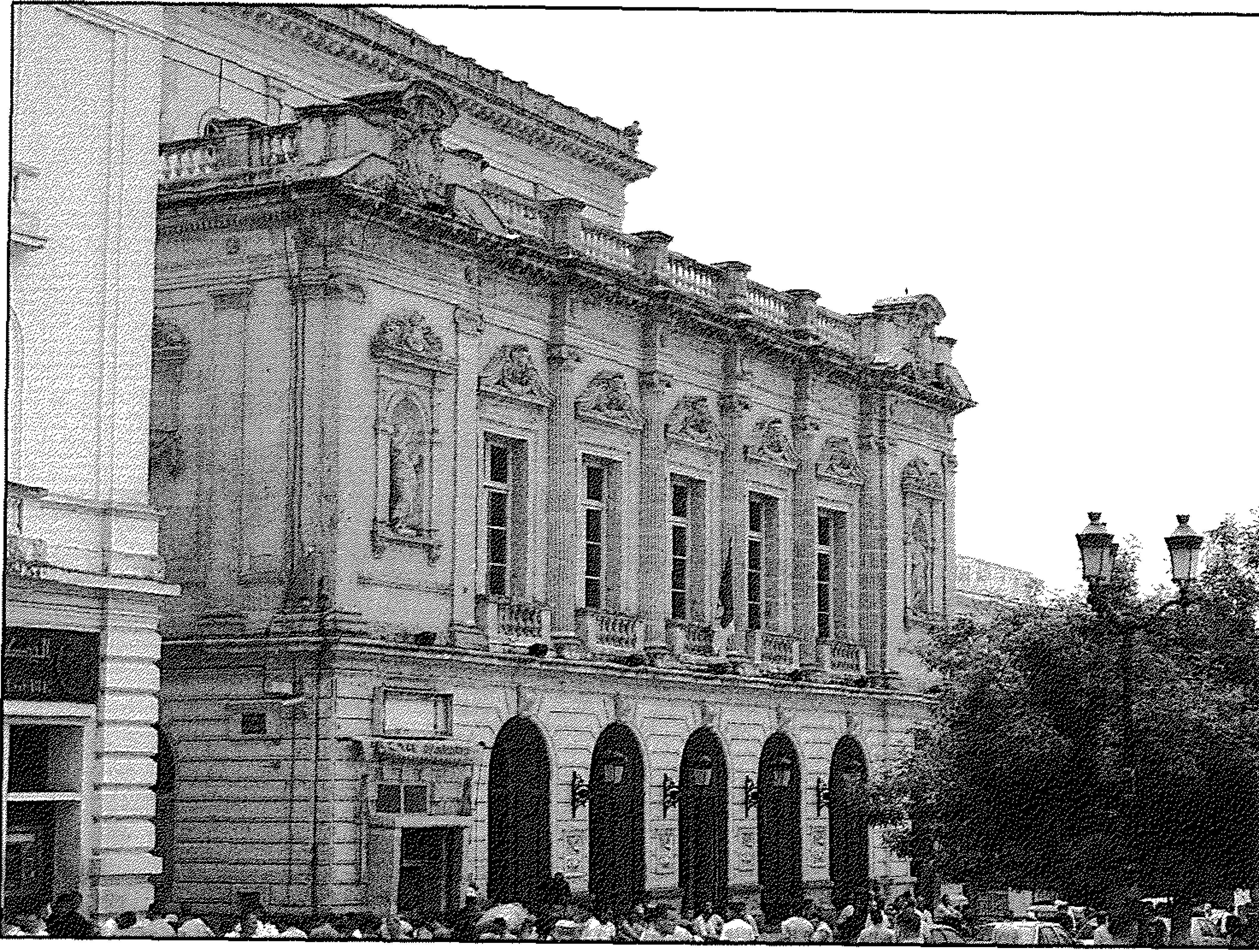
الدولة الحمّادية، حيث أوكل النصير زمام الأمور فيها إلى أخيه بلبار في العام 1064. وعند اعتلاء المنصور سدة الحكم خلفاً لأخيه النصير، تمرّد بلبار، فأرسل الأمير ضده أبو يكني الذي عينه حاكماً لقسنطينة وباتنة في العام 1089.

بنى الحمّاديون المسجد الكبير نحو عام 1063، حتى وإن تعرض هذا المسجد لتحويرات متعددة. وفي وقت مبكر جداً بدأت حركة كثيفة للقوافل باتجاه الزاب.

يصف الإدريسي، جغرافي ملك صقلية روجي الثاني، المدينة كما يلي:" مدينة مأهولة بها أسواق وتجار وسكان ميسوري الحال، يعيشون أساساً من الصفقات التي يعقدونها مع العرب، وعقود الشراكة التي يبرمونها معهم في مجال الفلاحة وتخزين الحبوب. وكان كل منزل يحتوي على مطمورة أو مطمورتين محفورة في الصخر، وهي ملائمة تماماً لحفظ الحبوب. إذ يمكن أن يبقى القمح في المطامير لمدة مائة سنة دون أن يفسد. ولديهم العسل بوفرة والسمن الذي يصدرونه إلى جميع البلدان." وهو هنا يؤكد على ثروة أرضها من الحبوب ووظيفتها كنقطة التقاء طرق بالنسبة للمدن المجاورة. فهي ممر إجباري نحو المغرب الأوسط، وقد توقف ابن تومرت بشكل طبيعي في قسنطينة قبل أن يذهب إلى بجاية حيث التقى بعبد المؤمن مؤسس السلالة مستقبلاً.

وأثناء الحملة التي قادها عبد المؤمن الخليفة الموحدي ضد المملكة الحمادية، سقطت بجاية بعد معركة قصيرة. وسقطت قسنطينة دون مقاومة بعد حصار قصير في العام 1152، وبعد أن تلقت من الخليفة وعداً مكتوباً بالأمان. وأرسل حاكمها أبو زكريا برفقة يحيى الملك الحمادي إلى بلاط مراكش حيث قوبلا بالتشريف الذي يليق بمكانتهما. وكانت لقسنطينة في عهد الموحدين قلعة تعتبر مدينة صغيرة حقيقية داخل المدينة الكبرى، بأسوارها التي تعزلها وتمكنها من الصمود حين تسقط المدينة. وكانت لها شوارعها ومسجدها (مسجد الجامع) حيث كان الحاكم يقيم فيه الصلاة بدلاً من المسجد الكبير في وسط المدينة.

وقد جعل منها الحفصيون الذين خلفوا الموحدين مقراً لولايتهم. وعلى غرار الزيريين والحماديين والموحدين، زينوا المدينة





"أفريقيا للأفريقيين"

ماسينيسا



وحصنوها وخاصة بين 1282 و 1285، في عهد الأميرين أبي فارس وأبي زكريا، إبنا السلطان أبو إسحاق. وقد شاركت المدينة عن طريق مينائي سكيكدة وبونا في التجارة مع بلدان المتوسط وجنت منها الأرباح. وتم التوقيع على معاهدات تجارية بين ملوك قسنطينة وبين المرسيليين (1230 و1250)، والقشتاليين (1273)، وأهل البندقية (1320)، وأهل بيزا (136 - 1378)، حسب ما ذكره ماس لاتري. وكانت الفنادق تؤوي في الغالب التجار الأوربيين. كان يوجد منها سبعة وقت الاجتياح الفرنسي. وقد كثرت الأبنية الدينية في تلك الفترة. لكن للأسف فإن التاريخ المضطرب لهذه المدينة لم يسمح بوصول إلا النزر اليسير من الشهادات حول الحياة الفكرية. ولا يعرف من تلك الفترة سوى مسجد واحد هو مسجد فضيلة الشيخ عبد الوهاب الصفار، الذي دفن في العام 1349 داخل باب القنطرة. ومسجد آخر يعود إلى نهاية القرن الثاني عشر هو مسجد سيدي أبو الحسن علي ابن مخلوف، الذي عاصر حصار المدينة من قبل ابن غانية المتحدر من المرابطين. وقد مكنت شواهد مسجد سيدي النقاش من التعرف على رجال دين عاشوا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ومن جهة أخرى ورد ذكر مصلّى في العام 1340. وفي الواقع، فقد ظهرت في وقت مبكّر جداً برجوازية ثرية محافظة، على الأقل منذ القرن الثالث عشر، بقي منها بعض العائلات مثل بن باديس وبن لفقون.



كان للجزء الجنوبي الغربي الأكثر عرضة للخطر باب يسمى باب الواد (سميت فيما بعد ساحة لابريش)، حيث كانت تتم جل حركة المواصلات مع الخارج. وعلى نفس هذه الواجهة الجنوبية الغربية كان يعتقد وجود باب الحمة. وكانت السراديب الضيقة والمتعرجة التي تمتد نحو عمق الجنوب تحت الأسوار تسمى الحنينشة. وفي الجهة المقابلة في الجزء الشرقي للمدينة يفتح باب القنطرة على الوهد. وقد هدم ابن الأمير هذا الجسر في العام 1304، عندما كان محاصراً من قبل أبو البقاع. وقد عرفت قسنطينة نوعاً من الازدهار في القرن الخامس عشر في عهد الحاكم نبيل، وهو مسيحي بروفانسي اعتنق الإسلام. بحيث صك نقوداً باسمه كانت لها قيمة أكبر من قيمة نقود ملكه في تونس حسب ما ذكره ليون الأفريقي. وقد وصف هذا الأخير المدينة وصفاً كاملاً تقريباً في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر:" يمكن لقسنطينة حسب أبعادها أن تشغل 8000 موقد. لها موارد كبيرة ومرافق حضرية. وهي مملوءة بالبيوت الجميلة والمباني النبيلة مثل المعبد الكبير والمدرستين والزوايا الثلاث أو الأربع. الأسواق فيها متعددة وحسنة التنظيم، تفرق بين المهنوالحرف.رجالهاذوومروءةوشهامةوخاصة التجار منهم. ويوجد عدد كبير من التجار الذين يتاجرونبالأقمشةالصوفيةا لمصنوعة فيالبلاد. ويصدربعضالتجارالزيتوالخيشإلىنوميديا.وكل ذلك يباع بالمقايضةمقابل التمور والعبيد."وكان للأمراء الحفصيين



رياضهم خارج المدينة. وكان روض السلطان أبو بكر في القرن الرابع عشر يسمى الدكان حسب ابن قنفد. كما ورد ذكر مضمار خيل رسمي يسمى الميدان.

كانت السلطة الحفصية في بداية القرن السادس عشر شكلية تماماً. وتجزأت البلاد إلى عدد من الإمارات. وحكم شيخ قسنطينة بشكل مستقل منطقة بونا والقل. غير أن وصول الأخوين بربروس إلى جيجل ثم إلى الجزائر قد غير الخريطة السياسية لجزء من شمال أفريقيا. إذ ما لبث خير الدين أن استحوذ على القل في العام 1521، وتلتها بونا وقسنطينة في العام 1522.

ومنذ العام 1565، قسم حسن باشا ابن خير الدين البلاد إلى ثلاث مقاطعات يحكمها ويسيرها ثلاثة بايات. وأصبحت قسنطينة نظراً لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية مقر بيلك الشرق. وتتابع منذ الباي رمضان تشولاك، أول باي عين على رأس المقاطعة في الفترة من 1567 إلى 1574، تتابع 46 باياً إلى غاية احتلال المدينة من طرف القوات الاستعمارية. وكان البايات المختلفين يسايرون قبائل المنطقة القوية (الحنانشة والمقراني). وأحدث بعضهم تعديلات في المدينة وأثروا المدينة من خلال تشييد أبنية جديدة. وهكذا بنى كليان باي (الملقب بوكمية) مسجد سوق الغزال (مسجد حسن) في حدود 1730.وبنى حسن باي(الملقب بوحسن) مسجد سيدي لخضر (1743) ومسجد سيدي عبد الرحمن القروي.



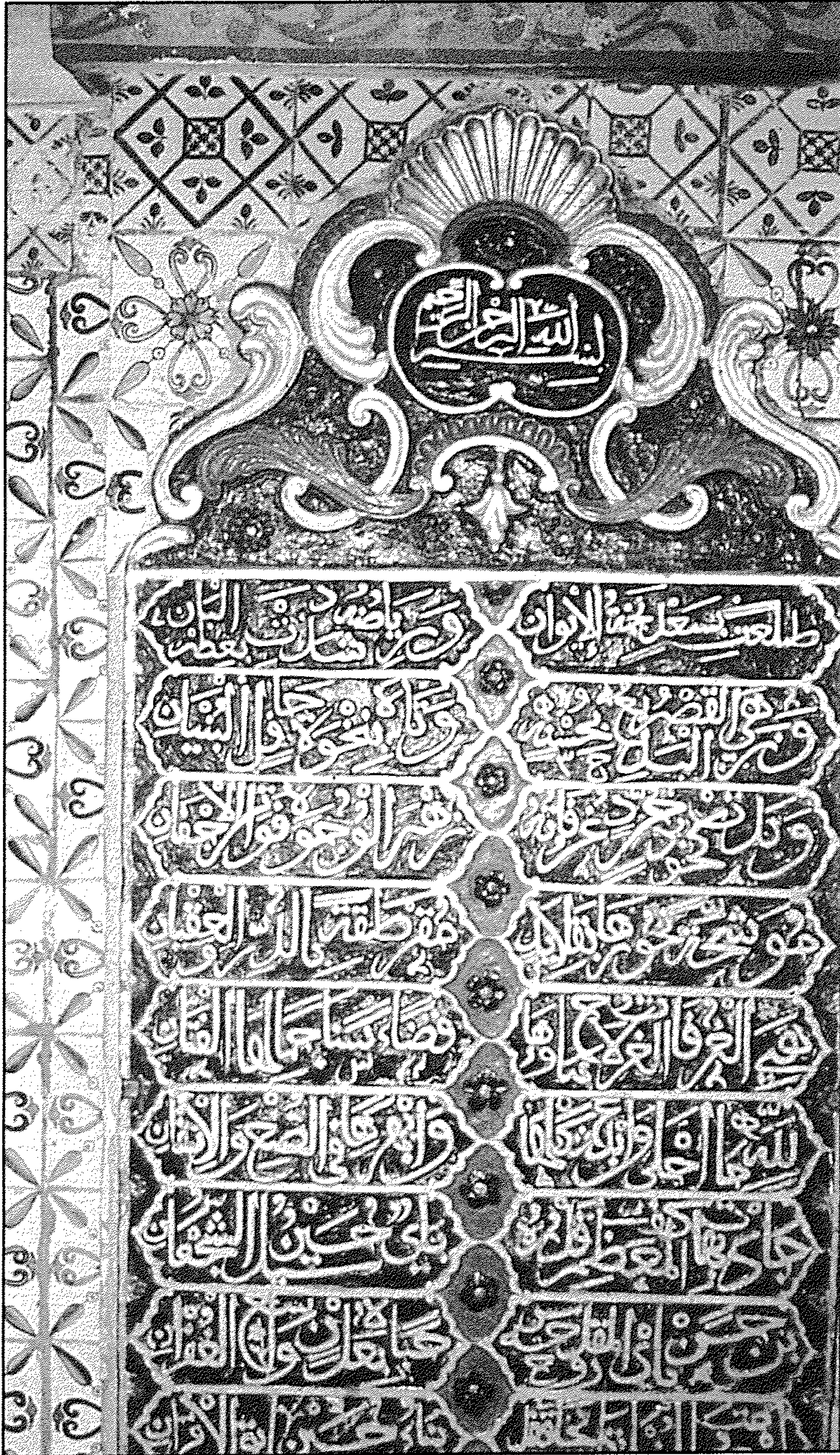


بنى صالح باي (1771 - 1792) مسجد سيدي الكتاني ورمم جسر القنطرة في العام 1792. وقد استبدل هذا الجسر بجسر القنطرة الحالي بأقواس من الحديد المصبوب على ارتفاع مائة وخمسة وعشرين متراً من واد رومل. وكانت المدينة حسب ميرسييه، تحتوي على 79 بناءً دينياً منها عشر مساجد جوامع.

بنى أحمد باي (الملقب الحاج أحمد باي) قصراً في جنوب المدينة، دشن في العام 1835. ولهذا القصر الذي يجري ترميمه حالياً رسوم تصور الرحلة التي قام بها الباي إلى الديار المقدسة للحج.

كانت المدينة القديمة لقسنطينة تعد 1700 بيت. وتنتظم حول خمسة مراكز كبيرة ذات حدود متفاوتة: القصبة في الشمال الغربي، والقنطرة في الجنوب الشرقي، وباب الجابية في الجنوب الغربي، وطابية في الشمال الغربي. وبين هذه الفضاءات الأربعة التي تشغل الزوايا الأربع للمدينة، كانت توجد مساحة كبيرة لها عدد من الأسماء الخاصة، لكونها مخصصة لمختلف أنواع التجارة والحرف ومقرات لموظفي الإدارة. وكانت تقطع المدينة القديمة شوارع ضيقة تحدد مختلف أحياء المدينة. لكن أربعة من الشوارع الرئيسية المخصصة للنشاطات الاقتصادية البارزة كانت تربط الأبواب المختلفة للمدينة. أحدها ينطلق من باب الواد نحو رحبة الصوف، وكان هذا الشارع يتألف من مجموعة من المتاجر (سوق العطارين، سوق السراجين...). ثم ينقسم الشارع إلى زقاقين أحدهما يؤدي إلى نهاية رحبة الصوف والثاني إلى بدايتها. ووراءهما شوارع أخرى تؤدي إلى سوق العصر والقنطرة والشارع، وسيدي جليس.

وينطلق الشارع الرئيسي الثاني من باب الجابية، مروراً على جانب الصخرة، والزلاقية والشط. وينطلق الثالث أيضاً من باب الواد، ويصعد متوازياً مع الصفة الغربية إلى أعلى نقطة في المدينة ليصل إلى



القلعة أو القصبة. وأخيراً يأخذ الأخير منطلقه على بعد مائة متر من أعلى باب الواد صعوداً نحو الشمال إلى مستوى سوق العصر. ومنه تمتد تلك الطريق على طول الجانب الشمالي الغربي للصخرة ليصل إلى باب القنطرة.

كان هناك حوالي عشرين فندقاً موزعة على مجمل المدينة القديمة. كانت تستعمل كمخازن للسلع وورشات للحرفيين أو نزل للتجار الذين أتوا لبيع بضاعتهم. وعلى غرار الأسواق، فقد كان لكل منها اختصاص معين مثل فندق الزيت لتجار الزيوت.

كما كانت ساحات الأسواق أو الرحبات تساهم في نشاط المدينة، وكانت تقع أساساً على أبواب المدينة مثل رحبة الزرع ورحبة الجمل اللتين كانت على طرفي باب الواد وكانت خاصة بالسوق الجهوي. وتوجد داخل المدينة أمكنة مرتبطة بالنشاطات الاقتصادية مثل رحبة الصوف، وسوق العصر(سوق الخضر)، وسوق الجمعة(السوق الأسبوعي للخضر والفواكه)، وسوق الغزال (سوق الصوف).

سقوط قسنطينة

كان أحمد باي آخر بايات قسنطينة (1826 ـ 1837). ولد في حدود 1784 من أب تركي وأم جزائرية من قبيلة بن قانة. وقد شارك أحمد باي في الدفاع عن الجزائر قبل سقوطها في العام 1830. وعلى الرغم من مغادرة الداي حسين إلى اسطنبول، استمر في تنظيم المقاومة في مقاطعته. واختار بالاتفاق مع أهالي قسنطينة العلم الأحمر المزدان بسيف ذي رأسين. وضرب نقوداً بين العام 1830 و1837.

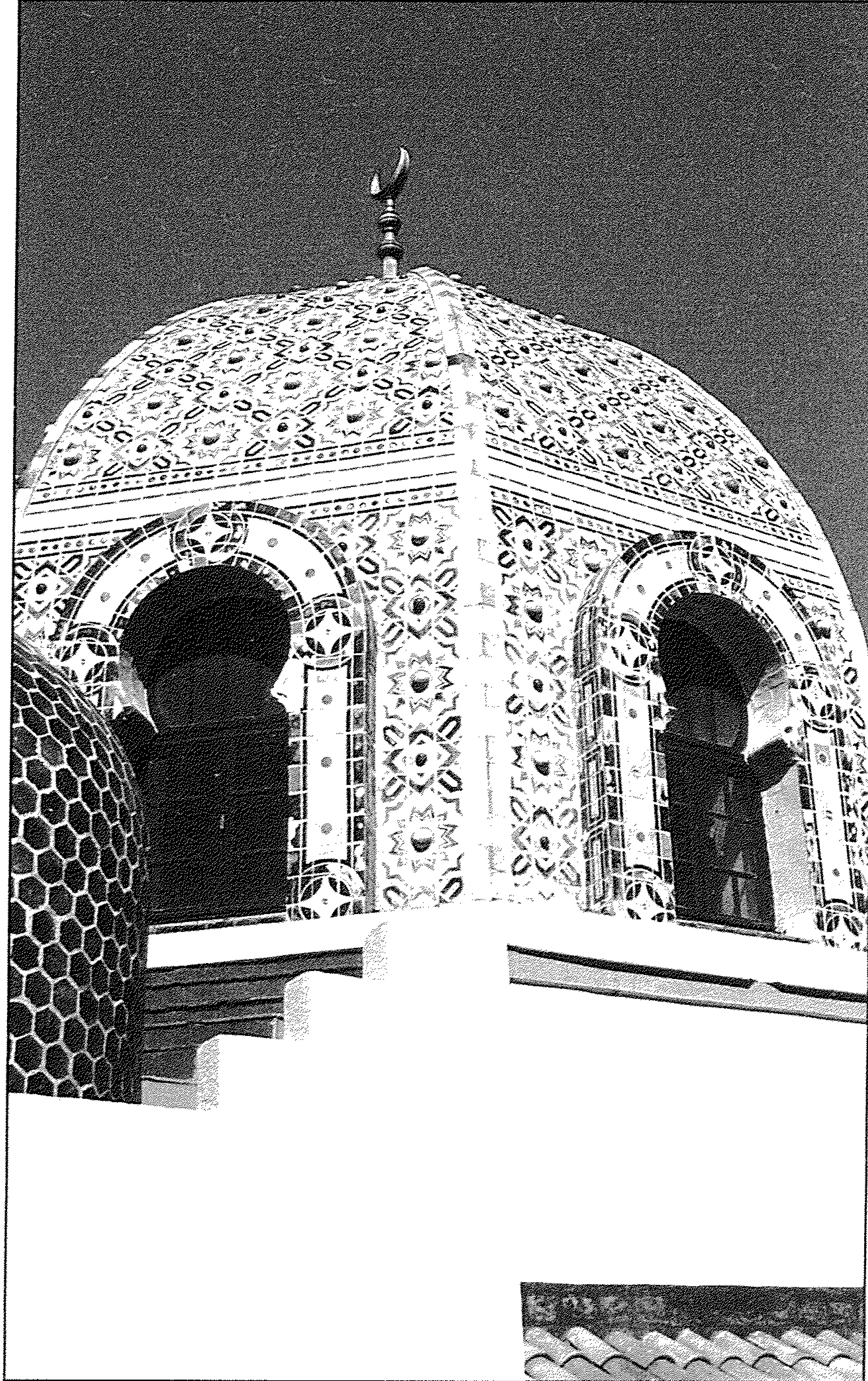
تموقعت القوات الفرنسية التي يبلغ تعدادها 10000 جندي، وعلى رأسها المارشال كلوزيل، على هضبة المنصورة في 21 نوفمبر 1836. وفشلت المحاولات المتعددة في احتلال المدينة بالقوة، وأصيب أثناءها الجنرال ترزيل بجروح بليغة. واضطر المارشال كلوزيل إلى التراجع.

ثم تقرر القيام بحملة أخرى. ووصل دوق نمور والجنرال تريزيل قرب الصخرة في 6 أكتوبر 1837.

وفي 10أكتوبرونجحت القوات الفرنسية في شق ثغر في الأسوار وولجت إلى داخل المدينة حيث اصطدمت بمقاومة شديدة.

واصل أحمد باي المقاومة في الجنوب إلى غاية 1848، العام الذي ذهب فيه إلى بسكرة. وتوفي في الجزائر في 30 أوت 1850.

وقد تعرض النسيج العمراني في مجمله إثر احتلال المدينة إلى الهدم أو التغيير. وأبرزت الأشغال المختلفة لأعمال الصرف والطرق والتهيئة العمرانية والتهديم بشكل جلي الثراء الطبقاتي لعاصمة من أقدم عواصم أفريقيا الشمالية، والتي مافتئ الإنسان يشغل موقعها منذ ما قبل التاريخ.





شرشال

يول - سيزاريا

نصيرة بن صديق



لا يسعنا أن نتخيل أن مدينة شرشال الصغيرة، مع قسنطينة وعنابة، هي من أقدم المدن في الجزائر، في منطقة سكنها الإنسان منذ ما قبل التاريخ. إذا ما أغفلتها النصوص الأدبية إلى حد كبير، فإن الأعمال الأثرية التي تمت فيها منذ ما يقرب من قرن قد أظهر بالفعل أن مقاطعة سكنية قد نشأت في موقع اجتذب بحارة المتوسط بسحره.

عاصمة نوميدية ثم موريسكية

تعرف علماء الآثارفي جزيرة جوانفيل، أو جزيرة المنارة المنفصلة ببضع عشرات الأمتار أمام الشاطئ والتي ألحقت به في الفترة الرومانية، تعرفوا على بقايا أثرية تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وبعد قرنين من ذلك، برز اسم يول - اسم بوني يبدأ بالسابقة "ي" الذي يعني جزيرة، في قائمة المرافئ التجارية التي أحصاها بسودو- سيلاكس على الساحل الشمالي لمنطقة المغرب. ولفترة طويلة، شكلت بعض الأدوات النادرة والكتابات النيوبونية، بالإضافة إلى مقبرة رأس تيزرين،

" شرشال مدينة ترجع إلى أقدم العصور، لم يبق منها سوى أطلال اليوم. يوجد فيها مرفأ، وصروح قديمة، علاوة على أحجار منتصبة، وأبنية ضخمة."

ابن حوقل



انتصار باخوس

" مدينة سيزاري الشهيرة، بشناخ أبولو الممتد في البحر، والتي كانت تسمى سابقاً يول، وكانت مقر الإقامة الملكي لجوبا. أسبغ عليها كلود المؤله صفة مستعمرة..."

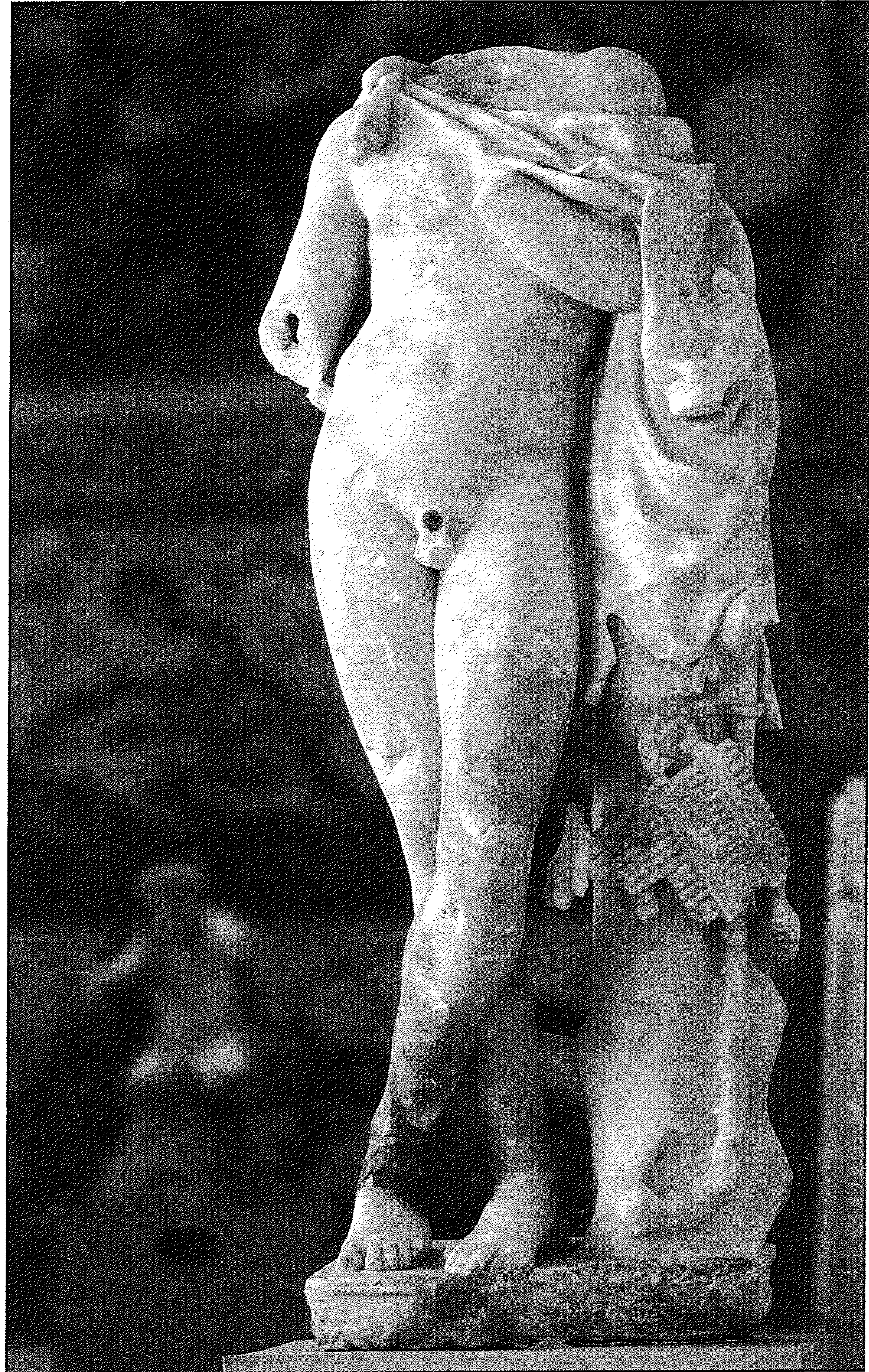
بلين القديم

الشواهد الوحيدة حول الجزيرة بالنسبة للقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وقد سمحت الحفريات الجزائرية البريطانية التي جرت بين 1977 و1981، بتحديد وجود منطقة سكنية تبلغ مساحتها 10 هكتارات تقريباً: قد تكون إحدى عواصم الملك النوميدي الماسيلي "ماسينيسا"؟

ولا نعرف الظروف التي جعلت من يول إحدى عواصم الملك الموريسكي بوخوس الذي حكم الجزء الغربي من منطقة المغرب في القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن أدى فشل السلالة النوميدية المتحدرة من ماسينيسا إلى تحويل مركز السلطة من سيرتا نحو الغرب، في إفريقية التي كانت لا تزال مستقلة عن روما. ويبدو أن هناك علاقة بين الضريح الملكي المسمى "قبرالمسيحية" واستقرار السلالة الموريسكية في موقع يول. وقد كانت على الخصوص عاصمة جوبا الثاني، سليل بعيد للملوك النوميديين، عندما منحه الإمبراطور أغسطس مملكة موريتانيا. وعلى غرار ما كان يفعله الملوك التابعون لأغسطس الذين كانوا يؤسسون ممالكهم في مدن يطلقون عليها اسم سيزاري تشريفاً للإمبراطور، شيد جوبا الثاني في المكان الذي تقع فيه يول عاصمة تعتبر من أعظم العواصم في منطقة المتوسط الغربية. وبما أنها كانت تغطي مساحة تقدر ب 370 هكتاراً، لم يبن منها سوى الهضبة الساحلية حسب مخطط هندسي، فقد أحيطت بأوسع الأسوار التي عرفها العالم الروماني (4460 م)، ومنحها ملكها أهم الأبنية العمومية: مسرح يعتبر مع نظيره مسرح أوتيك، من أقدم المسارح في شمال أفريقيا، وأقدمها في منطقة المتوسط الغربية؛ ومدرج بما يكفي من الاتساع لاحتواء عروض الضواري أو المصارعين؛ وربّما منحها سيركاً أيضاً.

المدّرج

من المحتمل أن المدرج قد بني على جزء من مقبرة يول، غير بعيد عن الأسوار، وله شكل لا مثيل له في العالم الروماني، لأن حلبته بدل أن تكون إهليجية الشكل، فإنها تأخذ شكل مستطيل ممتد على الجانبين الصغيرين للفضائين شبه المستديرين. وهي حلبة من حيث مساحتها المقدرة 4082 متر مربع أكبر من حلبة الكوليزي نفسه، وأكبر حلبة عرفت لمدرج. وقد تم التعرف على سراديب وعلى مغارز للشموع تحت الحلبة. وتشتمل على مكان تعلوه



تمثال لغلام شاب



قنـــــاة

أروقة معمّدة يتسع لـ 14400 متفرجاً تنظم فيه عروض مصارعة الضواري أو معارك بين فرق مسلحة، وهي من العروض المفضلة في روما تحت حكم قيصر وأغسطس. وتم تحديد أماكن أقفاص للضواري على بعد حوالي خمسين متراً شمالاً، في حين أنّ مدرسة المصارعين التي ذكرت في " شغف القديسة مارسيان" لم تكن بعيدة عنها. وهذا الصرح الخارق للعادة محصور حالياً داخل حي من الخرسانة.

المسرح

شيد المسرح في مركز المدينة العتيقة في عهد جوبا الثاني، وهو روماني من حيث توجيهه وتصميمه وعناصره المعمارية؛ مستوحى من خلال مدرجاته العليا المبنية على شكل قبة، وجزئه السفلي المحفور في عمق الهضبة من فن العمارة الإيطالي والإغريقي على حدّ سواء. وقد فقد غالبية أحجار مدرجاته التي استعملها المعمرون الفرنسيون. وهناك بناء مستطيل الشكل تم التعرف عليه في وسط رواق الأعمدة المنحني في أعلى المسرح، قد يكون جزءاً من مقام لآلهة لم تحدد ماهيتها. وفي القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد، تحول المسرح إلى مدرج للاستجابة للذوق المتزايد للجمهور لمصارعة الضواري والمجالدين. فاستبدلت خشبته بحلبة بيضاوية الشكل مما انجر عنه تهديم جزء من المسرح ومن الخشبة. كما توجد أربع حجرات تنفتح على الحلبة قد تكون استعملت كأقفاص للضواري. ويمكن مشاهدة العناصر المعمارية التي تم بواسطتها تأريخ الصرح في عين المكان وفي المتحف. ولا يزال جزء من المسرح مغطى بالطريق الذي يؤدي حالياً إلى الثكنة.

وجوبا الثاني أيضاً هو من هيأ مرفأً به منارة بارتفاع 36م، وربمّا كان كذلك من وضع خط سير القناة التي كانت تجلب المياه للمدينة من واد بوقادير على بعد 30 كم من ذلك المكان. وهناك عناصر معمارية مجمعة في الساحة أو في المتحف القديم للمدينة، تشكل آثاراً لأبنية صرحية أخرى (معابد وقصور)، بنيت في عهد جوبا الثاني ولا تزال مطمورة تحت شرشال. وهنا أيضاً لا تزال ترقد ربما بقايا المكتبة حيث كان جوبا الثاني



مصباح زيت

والتي مافتئ بلوتارك، الذي كان يعتبره جوبا الثاني "من بين أهم المؤرخين الإغريق"، وبلين القديم من النهل منها. وأصبحت سيزاريا منذ تلك الفترة بوتقة ثقافية من الطراز الأول ومركز إشعاع ثقافي إغريقي ولاتيني.

مدينة رومانية، عاصمة إدارية وعسكرية واقتصادية

انتهى في العام 39 بعد الميلاد الاستقلال النسبي إلى حد كبير لملكة كان أمراؤها " أصدقاء وحلفاء الشعب الروماني" قد قاتلوا إلى جانب روما الجيتوليين ثم تاكفاريناس: إذ اغتال كاليغولا ملك بتوليمي ابن عمه. وارتقت مستعمرة كلوديا سيزاريا إلى مصاف مستعمرة شرفية (دون إسهام المستوطنين الإيطاليين)، وسجلت في قبيلة كيرينا، مع احتفاظها بدورها الثقافي. لكنها فقدت أهميتها الاقتصادية التي منحتها إيّاها مملكة تمتد من الجزائر الشرقية إلى المحيط الأطلسي. وأصبح مقر الإقامة الملكي الموريتاني عاصمة للمقاطعة الموريتانية السيزارية الواسعة (الجزائر الوسطى والغربية) وعليه أضحت مقر الحاكم وإدارته والهيئة العامة للأركان العسكرية الإقليمية. وتمثل نشاط صيانة الطرقات والمباني في الإقليم الجديد على الخصوص في ترميم الأبنية المتعددة للفترة الجوبية بمبالغ ضخمة: تم تحديث وسط المدينة وتوسيع المدرج وإدخال تعديلات على المسرح، وأضيف إلى القناة الشرقية جسران كبيران.

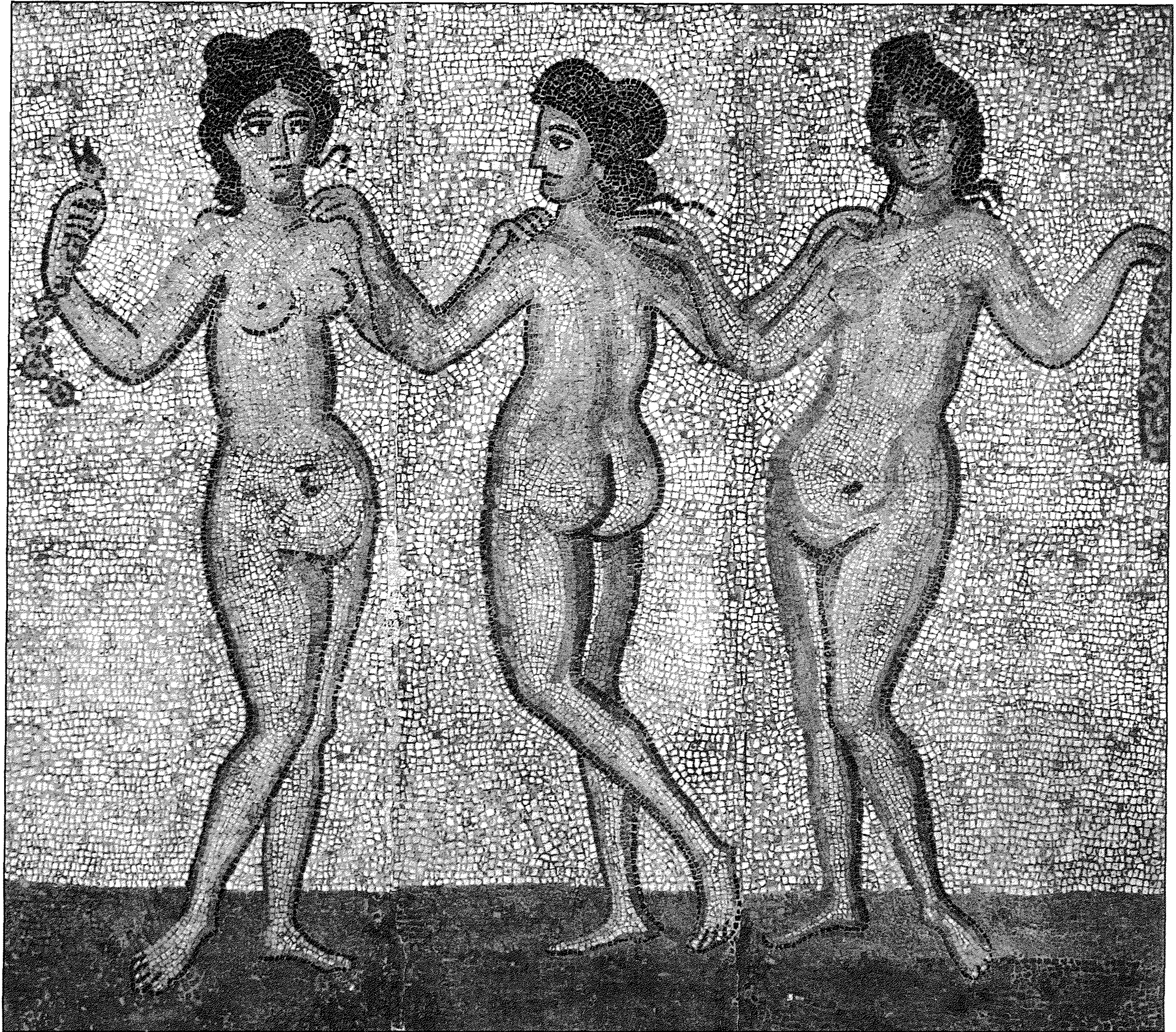
الحمامات الغربية الكبرى

من بين الحمامات العديدة الموجودة في شرشال، يتميز ثلاثة منها بأحجامها المعتبرة: تقع حمامات الجهة الشرقية ضمن النطاق العسكري، واختفت حمامات الوسط، لكن لا زال بالإمكان زيارة تلك التي تقع في الجهة الغربية (8050 متر مربع). وهي ذات تصميم شديد التناظر، وتتألف من ممرين على جانبيهما قاعة



رأس ضخم ، أحد آثار قصر جوبا الثاني

يحرر و يحتفظ بالعديد من المعاهدات باللغة الإغريقية واللاتينية،



فسيفساء الحوريات الثلاث

بـاردة تؤطرها ثلاثة مسابح تغطي أكبرها أبنية عسكرية. بحيث يستطيع المستحم الولوج إلى القاعة الفاترة قبل الدخول في القاعة الساخنة. وكانت جدران كل هذه القاعات ملبسة بالرخام وأرضياتها مغطاة بالفسيفساء. و كانت الأعمدة المصنوعة من غرانيت حجرة النوس بالإضافة إلى التماثيل المجلوبة من المعابد المهجورة، تزيد المكان روعة.

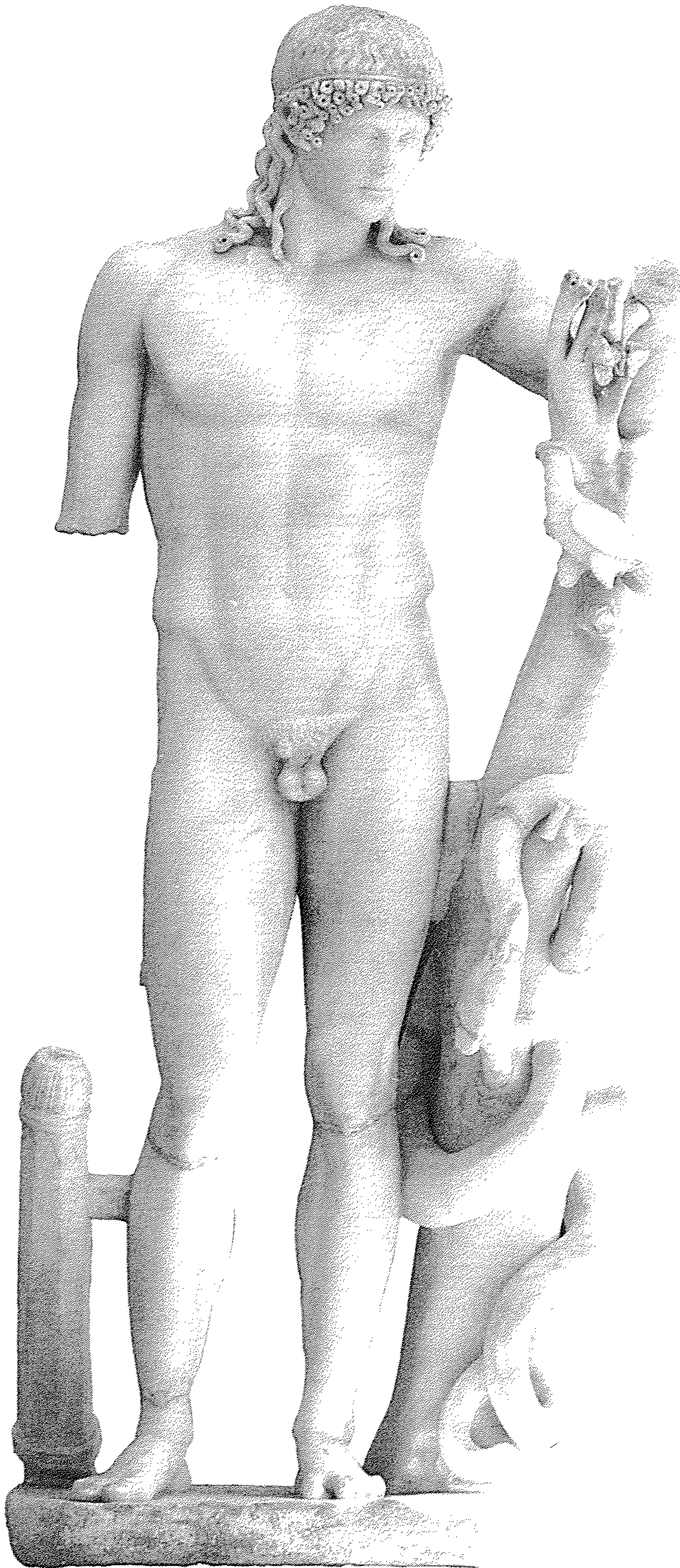
القناة

كانت الحمامات والنوافير وغيران الحوريات، وغرف الغسيل في البيوت الفخمة تتطلب الكثير من المياه. إذ كانت تزود بالإضافة إلى الخزانات عن طريق تجميعها من الهضبة الجنوبية، إلاّ أنها كانت تجلب على الخصوص بواسطة قناة يصل طولها إلى 50 كم لايزال بوسعنا التمتع بمنظر جسرين منها. لكن لم يبق من الأقواس الجميلة لواد بلاح التي بنيت حسب تقنيات نادرة في هندسة الجسور الرومانية، لم يبق منها سوى الأجزاء السفلية للأنضاد المبنية مرة واحدة، لكنها مدعمة في منتصفها بأقواس لجافية. وقد قام المهندسون الرومانيون في عهد أدريان، بغرض تقصير المسار وجعله أكثر متانة، بإنجاز الجسر الرائع الواقع في شعبة إيللوين، الذي يمكن رؤيته على بعد حوالي عشر كيلومترات من شرشال، غير بعيد عن النصب الذي شيد لإحياء ذكرى متمردي 1871: بحيث يسند جسر يبلغ طوله 137 م وارتفاعه 34 م ، الركائز الشديدة العلو لجسر آخر؛ بشكل تعطي فيه الأقواس الجافية الموجودة في هذا العمل أيضاً، شكل جسر ذي ثلاثة مستويات. ولا تزال جسور أخرى عديدة موجودة في سهل واد الهاشم.

يعود الميدان الروماني إلى السلالة الأفريقية الكبرى للسيفيريين، وكانت فترة تغيرات عميقة طرأت على المركز المدني لسيزاريا. وقد اكتشف أثناء الحفريات التي قام بها علماء الآثار الجزائريون والبريطانيون بين 1977 و 1981، وكذلك تهيئة بايب النصر للسيرك وتجميل معبد إيكولاب.

الميدان الروماني

حين نأخذ طريق المسرح، نلاحظ مكاناً مبلاطاً تحده من الشمال ساقية ودرجتان وصف من الأعمدة لا تزال قاعدتها قائمة، في حين أنه



أبولو. تحفة متحف شرشال


مدرّع شرشال

لم يبق من الجهة الشرقية سوى الساقية الباقية على حالها إلى حد ما. يمثل ذلك الزاوية الشمالية الشرقية لسيزاريا. فهل يتعلق الأمر بتوسيع للميدان الذي بناه جوبا، أم أننا أمام ميدان ثان؟ من الناحية الشرقية يوجد مدخل كبير بثلاث فتحات على الأقل ذات أعمدة مزدوجة، يؤدي إلى مبنى قضائي لبّست جدرانه بالرخام الأبيض، وأعيد تبليطه في القرن الخامس بفسيفساء هندسية ذات تربيعات خزفية بالأسود والأبيض. وهناك آثار تدل على أنه قد أسند إلى رواق الأعمدة الشمالي في نفس الفترة ثلاثة دكاكين خشبية.. وفي حدود العام 420 بعد الميلاد، تم إلصاق كنيسة صغيرة برواق الأعمدة الشمالي، وهي الكنيسة الأولى المسجلة تاريخياً في هذه المدينة، والمتألفة من بهو وجناح فريد ومذبح مرتفع، موجهة صوب الشرق ومعبدة بكتل حجرية، يتم الدخول إليها من ثلاثة أبواب ضيقة تنفتح من جدارها الجنوبي. وتم فيما بعد بالتدريج تهيئة ثلاثة أفران من الآجر والصلصال في أرضية الكنيسة.

وفي الوقت الذي كانت فيه المدينة الملكية تستفيد من موارد المملكة، لم يكن بوسع العاصمة الرومانية إلا الاعتماد على السخاء الإمبراطوري، وكان عليها التأكيد على قاعدتها الاقتصادية في أراض نظمت كيفية استثمارها. وقد كشفت الحفريات الأثرية التي أجريت في الهضبة الساحلية وفي داخل البلاد في أواخر الستينات، عن منطقة استغلال فلاحي كانت قد أسست على مزارع منذ الحقبة الملكية التي تدعمت في نهاية القرن الأول بعد الميلاد. ويصل عدد المزارع المتخصصة في عصر الزيتون إلى ما يقارب العشرين معصرة في تلك المنطقة المتميزة بشكبة كثيفة من المزارع على شكل قوس دائرة يحيط بسيزاريا. وهناك أخرى تحتوي على عتاد لجني الكروم، وأخرى واقعة على الساحل كانت تستعمل ربما كمكان استجمام لأعيان المدينة الأثرياء. والظاهر أنه، بالإضافة إلى زراعة الزيتون التي تركت آثاراً عديدة لا تزال بادية لحد الآن، احتلت زراعة الحبوب وتربية المواشي والبستنة جل أرياف سيزاريا. وقد تم العثور على مشاغل للزجاج والبرونز والفخار والصباغة في ضواحي المدينة العتيقة، في حين اكتشفت أحواض لتربية الأسماك والتمليح على سفح رأس تيزرين. ويحفظ المتحف منتوجات صنعت في مشاغل فناني الفسيفساء والنحاتين والنقاشين من أجل زبائن محليين أثرياء. ولم يترك أثر لأي سوق في المدينة، لكن أشير إلى موقع دكاكين في الحي الغربي.



رحلة عوليس

المرفــــأ

كتب سترابون في بداية عصرنا قائلاً:" لهذه المدينة مرفأ وجزيرة تقع مقابل هذا المرفأ بالضبط." كان يستعمل أثناء حكم الملوك في التبادلات التجارية مع روما كما هو الحال بالنسبة لموانئ متوسطية أخرى. وكان ارتفاع المنارة المنتصبة فوق الجزيرة، والتي تشبه منارة الإسكندرية ولكن بشكل أكثر تواضعاً، يبلغ ربما 36م، بطابقين يتألفان من برج ثماني الشكل ومصباح أسطواني. أصبحت سيزاريا بعد إلحاقها المدينة المرفئية الأفريقية الثانية بعد قرطاجة، ولها ميناء عسكري لأسطولها وآخر تجاري من الطراز الرفيع؛ كما تركت النشاطات المرتبطة بالصيد البحري آثاراً في منطقة رأس تيزرين.

ولا يعرف لحد الآن لأي آلهة نذرت المعابد المكتشفة خاصة في ملكية قايد يوسف وفي مرتفات المدينة. ومن العبادات المعروفة في شرشال، شهدت عبادة الإمبراطور تطوراً مبكراً يربط أحياناً بالعبادة القديمة للملوك الموريسكيين. وقد شيد جوبا الثاني معبداً على شرف أغسطس، و شيد بطليموس معبداً نذره لتيير، كما تأسست ألعاب في سيزاريا على شرف كومود والسيفيريين. وتوجد تماثيل وإهداءات تعلمنا عن العبادات الرسمية لروما: الثلاثية الكابيتولية، وجوبيتر، وفولغور، وأبوبو، وفينوس، وليبر باتر، وهرقل، وإسكولاب، ونبتون، ومارس، وعطارد، وديانا، ونيميزيس، والعديد من التجريدات. وفي هذه المدينة الكبيرة

الرومانية أصلاً، احتفظت الآلهة الأفريقية بأتباعها: خصص لساتورن الذي حل محل بعل حامون الذي كان يعبد في الفترة النيوبونية، مقام في المدافن الغربية وكانت تقدم له القرابين في عز الفترة المسيحية. كما ذكر كل من سيريس الآلهة الأفريقية، والآلهة الموريسكية والدراكوية. وكان يعبد في سيزاريا كذلك آلهة شرقية وهي على الخصوص ميترا، وسيبل، وإيزيس وسيرابيس. ويشهد أيضاً على وجود طائفة يهودية. وتشهد تضحيات الشهداء والنصوص المنقوشة والمنحوتات البارزة على انتشار المسيحية في سيزاريا قبل فترة سلام الكنيسة. ومن بين ضحاياها نذكر مارسيانا من روسوكورو، التي كانت تعيش منعزلة في سيزاريا قبل أن تقع ضحية للاضطهاد وضحية جرأتها: إذ ألقي بها فريسة للضواري في حلبة المدرج. وقد رافق انتصار هذه الديانة اضطهاد العبادات القديمة: دمرت معابد وسلبت، ونقل عدد كبير من التماثيل واللوحات الحجرية المكتوبة وعليها " وصمة العار"، لكنها نقلت بحرص إلى الحمامات الغربية الكبرى. وإن كانت زخارف المنازل الثرية لاتترجم أي تغير ثقافي، لم يكن يوجد فيها ما يؤكد أن مالكيها لم يكونوا مسيحيين. كما لم يكن في دراسة الأعلام المتأخرة سمات مسيحية بحتة، في حين أن المدافن المسيحية لم تكن تتميز بشيء عن المدافن الوثنية. وأظهرت الحفريات تناضد القبور المسيحية والوثنية واستمرارية في المقدس، بحيث حلت على ما يبدو كنيسة نصرانية محل معبد وثني. وفي بداية القرن الخامس، بدت كنيسة سيزاريا منقسمة بين الكاثوليكيين والدوناتيين. وقد حضر أغسطس شخصياً في العام 418، ليتحدث في الكنيسة الرئيسية للمدينة ضد الأسقف الدوناتي إميريتوس دون أن يحرز نجاحاً، مما يجعلنا نستنتج بوجود كنيسة كاثوليكية أساساً بالإضافة إلى كنائس ثانوية أخرى، في نفس الوقت الذي وجدت فيه كنيسة دوناتية. ويعتبر هذا الحدث مؤشراً على امتياز مدارس سيزاريا، وهي مدارس تخرج منها بريسيان النحوي البيزنطي الشهير. ويبدو أن الطائفة المانوية كانت ممثلة من خلال خلية في زمن أغسطين. والسلسلة المتعددة من الأعمدة الكورنثية والإيونية على وجه الخصوص، التي لا نجدها سوى في الكنائس الباليومسيحية، والبيزنطية للمدن الأخرى لأفريقيا الرومانية، شكلت إلى غاية حفريات 1977 - 1981 الشواهد الوحيدة على أماكن العبادة المسيحية في سيزاريا.

كانت المدافن تمتد في الشرق وفي الغرب على أطراف الطريق الروماني، وكذلك في الهضبة الجنوبية. أما في الجهة الشرقية، فإنها تتبع الطريق الحالي إلى غاية واد النصارى، وقد كان بالإمكان منذ سنوات قليلة خلت، رؤية بعض القبور الهامة. في حين اختفت في الجهة الغربية أغلب القبور الذي كان بعضها يكتسي نوعاً من الأهمية. ويتماشى تنوع الصروح الجنائزية المكتشفة مع تنوع السكان: أراض مسورة، وأضرحة، وقبور فردية، نواويس من الطراز السوري. وفي شرشال تتميز القبور ذات الكؤيسات بخاصية احتوائها على كوات ينحت فيها تمثال أو تمثالان صغيران؛ وطاولات للقرابين مع مصرف لإراقة الخمر



منحوتة لجندي دالماسي

موضوعة أمام القبر أو في الجزء الداخلي منه. ونأمل أن تستمر الحشائش البرية في حماية برج الحمائم ذي التزيينات المعرّقة الرابض على الضفة اليسرى لواد القنطرة، شمال الطريق الوطني بالضبط. وقد تم التعرف على مدافن مسيحية في شرق المدينة وغربها، وعثر على توابيت أو أغطية توابيت، كذلك الذي يمثل "القس الطيب"، أو ذاك الذي يمثل العبرانيين الثلاث يصطلون بالنار.

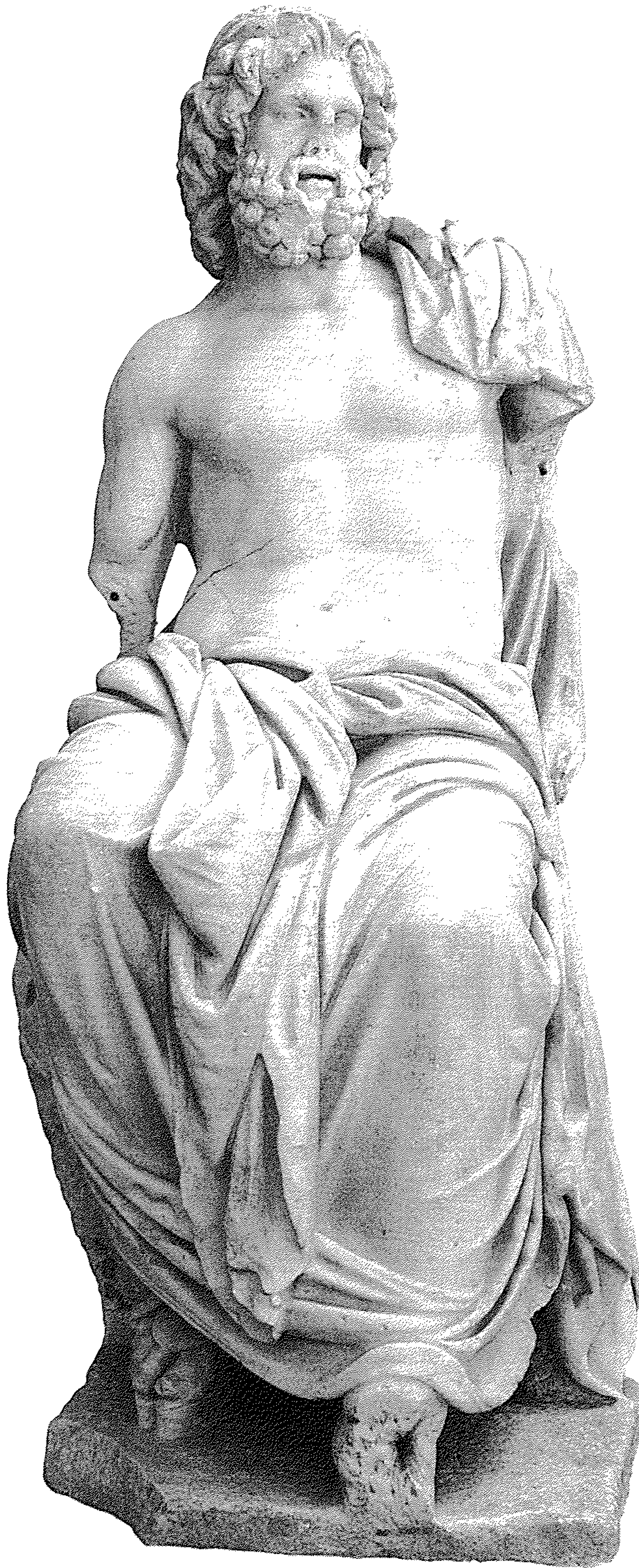
إن دراسة الأعلام، نظراً لغياب أسماء الشرائح الفقيرة في المصادر المنقوشة، قد كشفت عن الترويم القانوني لسكان سيزاريا القرنين الثاني والثالث، يرافقه تناقص متلازم للأسماء الأصلية والإغريقية. وقدر عدد سكان المدينة التي تعتبر الثانية بعد قرطاجة بـ 22000 نسمة، يشغلون رقعة مبنية مساحتها 150 هكتاراً، لأنه يجدر الأخذ بعين الاعتبار المساحات الهامة غير المبنية ووجود "الدوموس"، المتمثل في تلك المنازل الفسيحة والفخمة التي تشهد على ثراء وسلطان النخبة المنبثقة عن انصهار الأرستقراطية المحلية والرومانية. أولم تمنح المدينة في 217 - 218 أمبراطوراً لروما (ماكرين)؟ وتعلمنا النقوش المكتوبة عن بعض المهن التي كانت تمارس في سيزاريا: رجال العروض (المصارعون والعازفون الموسيقيون)، رجال الفكر (الأطباء، وأطباء العيون، والمربون، والكتاب والكتبة، والنحيون اللاتينيون، والمحاسبون)، والحرفيون (أصحاب الدكاكين، وصناع الزيوت، والجزارون، والإسكافيون، وصانعو الزجاج، والنحاتون، وصناع البرونز، وصانعو السهام، وأصحاب الملاهي)، وكان بعضها منظماً في رابطات حرفية. ولا نعرف إلا النذر اليسير عن السكان الأصليين الذين كانوا يعيشون على هامش إقليمها. ومما يدل على أهميتها، الضغوط المستمرة التي كان يمارسها كل من: ماكوي أو ماكوسي، وماكوربي، وتابيانيسيس، وأفاستوماتيس، وكافابيس، وكانتورياني، ومن ضمن تلك الضغوط التمرد الموريسكي في عهد أنطونان، أو هجوم فيرموس الأمير البربري المتمرد في العام 371، الذي تذكره المصادر. وكانت نهضة العالم المحلي في القرن الثالث، وانحطاط إنتاج مزارع الأطلس الشرشالي، من العوامل التي أنقصت من التأثير الاقتصادي لمدينة لا تزال تعتبر عاصمة للمنطقة الساحلية، لتصبح منطقة سهبية تمتد نحو تيبازة، ونحو واد هاشم من جهة الجنوب. وحين نقرأ أميان مارسلان، فإن المدينة العظيمة " التي كانت قديماً مزدهرة ومشهورة (...) التهمتها، عن بكرة أبيها تقريباً،



ديانا آلهة الصيد

الحرائق التي شبت في مناطق واسعة» ، بعد أن نهبها فيرموس. لكن ترميم وسط المدينة والحمامات الغربية، والمنازل الثرية للقرن الرابع والخامس، بالإضافة إلى الإصلاحات المختلفة للميدان، وكذلك الفسيفساء التي عثر عليها إبان الحفريات التي جرت في ذلك المكان، تناقض تلك الصورة الحالكة، وتجعلنا نعتقد بوجود قرن خامس مزدهر في سيزاريا. وبعد التهديم الذي تعرضت له مجدداً أثناء غزو الوندال، بدأت حدود عاصمة موريتانيا الثانية التي كانت مقر إقامة الحاكم والدوق، تتناقص لتنحصر في الهضبة الساحلية ربما، مع ضم المنطقة الساحلية للقيصرية إلى مملكة ماستيغاس وقت الغزو البيزنطي الثاني الذي انتهى في العام 533. وهنا بالذات يجدر بنا تحديد نهاية المركز الحضري للمدينة الرومانية، الذي تمثل على الخصوص بعمليات تهديم وإعادة بناء فظة للميدان. و بدا أنها قد انتهت في نهاية القرن بالنسبة للإمبراطورية، لأنها كانت غائبة عن قوائم جورج القبرصي، التي تم إعدادها في بداية القرن السابع، وقد غادر الدوق سيزاريا ليستقر في سطيف. وحول نهايات سيزاريا البيزنطية و بدايات شرشال العربية، لا يمككنا إلا ذكر دهشة الجغرافيين العرب أمام أهمية آثار المدينة العتيقة، ووضاعة المدينة القروسطية.

ولكي لا تمحو شرشال يول-سيزاريا من الذاكرة الجماعية، علينا أن نحافظ على صروحها البادية والمخفية من الزحف التوسعي للإسمنت المسلح.



إيسكولاب، إله الطب عند الإغريق والرومان



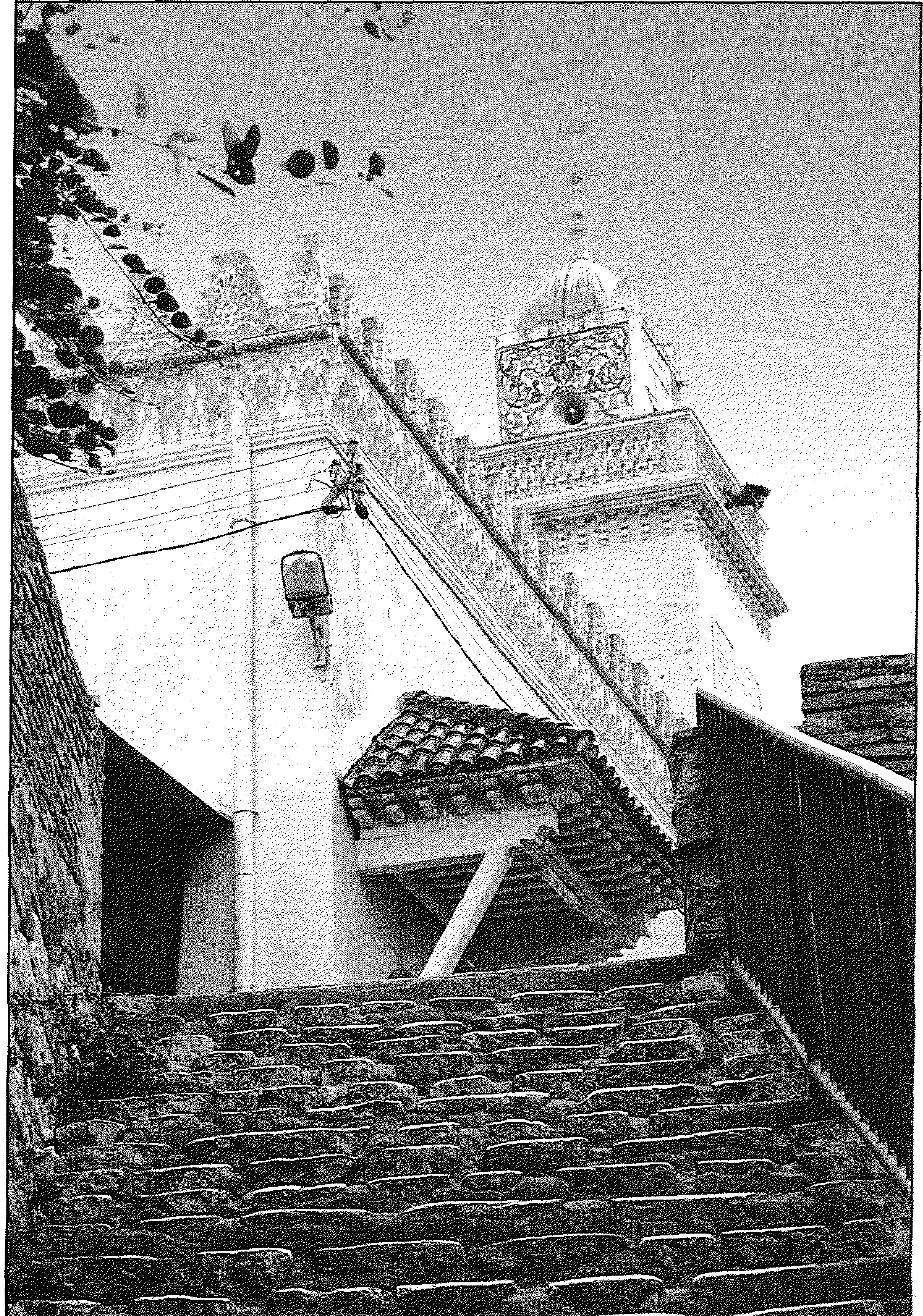
فسيفساء الحرث

كتب ث. شو (نحو 1691-1794) حول آثار شرشال:" إن لها نفس امتداد آثار قرطاجة تقريباً. وتعطي فكرة عن عظمتها التليدة من خلال بقايا الأعمدة الجميلة، والخزانات، والأرضيات الفسفسائية الرابضة هنا وهناك."



بجاية
ابنة البحر الأبيض المتوسط

عبد الرحمن خليفة



تعتبر بجاية الموقع المتوسطي الأمثل. وهو محمي بخليج كبير شبه بيضاوي الشكل يمتد عرضه على 28 ميلا وعمقه 8 أمتار مفتوح على الشمال، الأمر الذي يجذب بالضرورة البحارة الباحثين عن مرسى أمين. يقع خليج بجاية بين رأس كاربون ورأس كافاليو. وفي هذا الصدد فان جملة سالوست الشهيرة بشأن شاطئ نوميديا، "ليتوس ايمبورتويوسوم" والتي تعني "واجهة دون نافذة" ليست في محلها.

في الناحية الغربية من هذا القوس المعقوف المؤلف من مجموعة حواجز طبيعية متوّجهة من الشرق إلى الغرب، نجد المدينة و الميناء. يعطي هذا الموقع لميناء بجاية ميزة فريدة. هذا الحوض الطبيعي محمي من جميع أنواع العواصف الآتية من الشمال و الغرب. و يحتل جبل «قوراية» الكامن شمالا تماما، أعلى قمة لهذا الموقع، 680 مترا. و من هذا المكان يمكن للناظر أن يطل بلا حواجز على البحر و الجبال الناتئة في البحر و الشواطئ و جبال القبائل المجاورة. انطلاقا من «لالا قوراية»، تتتابع الارتفاعات متعددة المستويات نزولا إلى البحر: «ملعب الذيب» و « سبع جبلات» و اخيرا «راس بو حي» الذي يغطس أسفله في البحر. و كان من الممكن لرحالة الأبدري أن يقول عن هذا الموقع بأنه «جذاب لأنه مشيّد في سفح الجبل و لأنه ملتقى للنهر و البحر معا. فيسيطر الموقع عليهما و هما يحميانه. هذه المدينة محصنة و بامكانها تحدي أي مهاجم.»

تحمل المدينة اسم قبيلة بربرية «بيقايت» و عندما عرب الاسم أصبح بجاية. و تروى خرافة لا أساس لها بأن هذا الاسم هو آت في الأصل من «بقايا» و المقصود به «الذين نجوا». بعد ذلك أعطى البحّارة في العصور الوسطى أسماء عديدة للمدينة دونت في الخرائط البحرية، «بوجايا» و «بوزيا» و «بوجيا» و «بوزانا».



"بغداد و القاهرة و جميع مدن الشرق قد ذوت اليوم وما من واحدة بينها تقارن بالناصرية؛ أو تنعم مثلها بالبحر و الأرض و مياه العديد من العيون.
أنتم يا من تطلبون وصفا لهذه المدينة ، أدعوا الله أن يجعلها محل إقامة عائلاتكم و أولادكم.»

بجاية في العصر القديم



باكراً، تردد الفينيقيون على المدينة. كانوا يبحرون بالقرب من شواطئ البلاد الواقعة غرب قرطاجة باحثين عن المعادن الخام. كانت المدينة حتما إحدى المحطات التي كانت تسمح بالمقايضة مع أهالي البلد مقابل ضريبة سنوية. من الممكن أن تكون مذكورة في رحلة «سكيلاكس» كإحدى المدن التابعة لقرطاجة. و نحن على علم بأن المدينة وأراضيها كانت تابعة لمملكة «ماسينيسا» في القرن الثالث قبل الميلاد. فقد وجد في الموقع عملات من نوميديا و قرطاجة و أعمدة نحت على واجهاتها شموس و بدور. من جهة أخرى، عثر في هذه المنطقة على نصوص «ليبية قديمة» تؤكّد وجود الكتابة و بالتالي وجود احتلال قديم جدا.

وحسب «بلين» (23-79 بعد الميلاد)؛ أصبحت المدينة مستعمرة (كولونيا جوليا سالدانتيوم) في عهد «أوغوست» (أوكتاف) أي سنة 33 قبل الميلاد، إذ أتى بجنود من الفرقة السابعة للاستقرار فيها. و في هذه الفترة أيضاً شيّدت ضاحية «تقلاط» (توبوسوكتو).

يذكر سترابو (58-25 قبل الميلاد) ميناء «سالدا» مضيفا أنه كان يرسم حدود مملكة «جوبا الثاني» الذي كان «أوغوست» قد منحه حينها إدارة موريتانيا. وجد في بجاية اهداء للملك «بطليموس»، ابن جوبا الثاني. و بعد عالم الجغرافيا اليوناني، ذكر العديد من المؤلفين «سالدا» في كتاباتهم، من بينهم «بطليموس» جغرافي الإسكندرية (140 بعد الميلاد) ورحلة أنطونان، المؤلّف في عهد «ديوكليتين» (248-305)، ولائحة «بوتينجير»، جغرافي «رافين» ...

في أواسط القرن الثاني، استخدم جنود مسخرون لحفر قناة لجر المياه الى المدينة. و في «لامبيز» اكتشف «الرخام» الموجود حالياً أمام البلدية والذي نقش عليه باللاتينية قصة «نونيوس داتوس». وقد حفرهذا الجندي التابع لجوقة أوغوست الثالثة قناة باطنية طولها 428 مترا تجلب الماء بواسطة الجاذبية من «تودجا» إلى خزّانات «سالدا» و«بجاية».

توزّع منظر للمدينة عبر مرمى سهام في برج موسى بعد ذلك عبر أحواض كبيرة محفورة في أعالي المدينة. في الفترة نفسها



منارة رأس كاربون
« أليست بجاية هي أجمل مدينة في العالم ، و تستحق كنية مكة الصغيرة. »

الناصر . عاهل حمادي.



كانت"سالدا" تسمى "سيفيتاس سبلينديديسيما". في قرطاجة سنة 484 حضر أسقف من سالدا يحمل اسم "باشاسيويس" المؤتمر الديني الذي عقده الملك الوندالي "هونيريك" والذي انتهى بقرار مطاردة الكاثوليك. من المحتمل أن يكون البيزنطيون والوندال قد احتلوا المدينة و لكن إلى حد الآن لا يوجد لدينا أي برهان أثري يدلّ على هذا الاحتلال.

كانت المدينة الرومانية الملتفتة إلى الجنوب في منحدر جبل قوراية تحتل مرتفعي برج موسى غربا و بريجا شرقا اللذين يفصلهما واد النّوافير الخمس (واد أبزاز). و في بداية الغزو الفرنسي، كان من الممكن التعرّف على معالم الأسوار الرومانية في العديد من الأماكن. فكان طول السور يمتد على 3000 متر بغية احتواء القبائل الجبلية المجاورة التي كانت تتأقلم بصعوبة مع هيمنة المحتلّ. و طيلة الفترة الرومانية اندلعت عدة ثورات في أراضي «سالدا».

وهكذا، حشد «تاكفاريناس» في السنة 25 من عصرنا، النوميديين والموريسكيين في ثورة هائلة، فاحتلّ «توبوسوكتو» ومن المحتمل أن يكون قد توجه نحو «سالدا». بعد ذلك بثلاثة قرون اندلعت ثورة أخرى في الجبال المجاورة. كان على رأسها «فيرموس»، وهو قائد بربري استطاع أن يقض مضاجع السلطة لمدة سنتين. و في سنة 293، عثر في بجاية على نقش ينوّه بالنصر الذي حققه «أوريليوس ليتويا» و هو حاكم إقليم موريتانيا القيصرية ضد الحلف القبائلي الخماسي الذي كانت قبائله تسكن الجبال المجاورة. ولم تنته هذه الحرب إلا سنة 297 حيث اضطر الإمبراطور ماكسيميان هرقل أن يقودها بنفسه.

وقد أعدّ فيرّو، ترجمان الجيش، جرداً بالمعالم الأثرية القديمة التي تمّ العثور عليها أثناء الاقتحام الفرنسي. وهي تشير الى وجود خزّانات كبيرة من العهد الروماني في جميع أنحاء المدينة بالعموم و في حيّ عزيب بكشي على وجه الخصوص

باب الفوكة



برج موسى

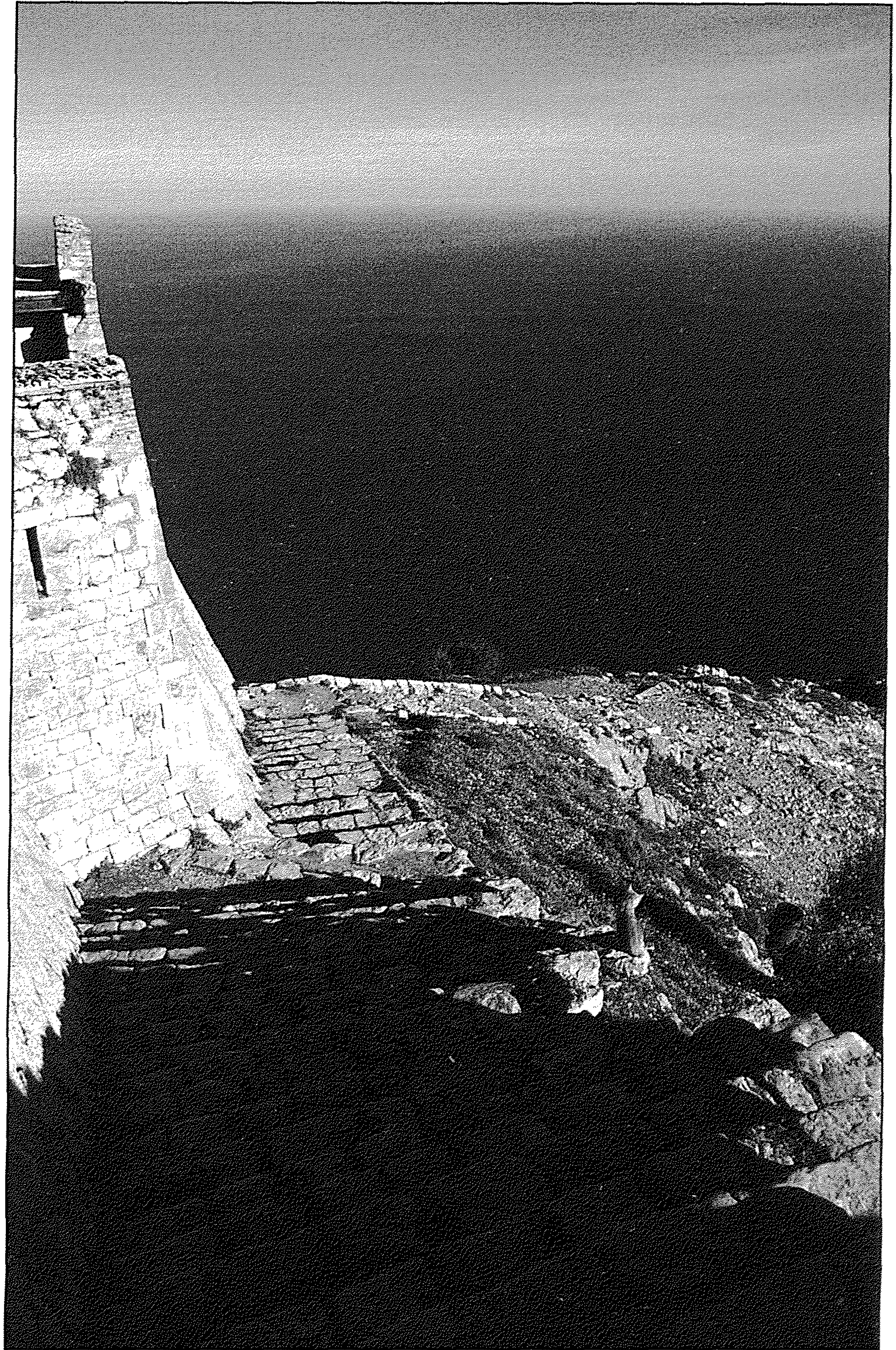
الذي يقع بين قلعة برّال و باب الواد الكبير: وقد تم التعرّف على أطلال المدرّج تحت باب الواد الكبير، و في ساحة فوكة أخرجت العديد من الأحجار المنحوتة والأعمدة الكلسية؛ ويبدو أنه تمّ بناء معبد كبير في هذا المكان. حتى في القصبة أخرجت للنّور مبان قديمة كما كان الحال في العديد من أحياء المدينة: قرب سيدي تواتي أو على طريق قلعة عبد القادر صوب الميناء على سبيل المثال... كما تمّ العثور أيضا أثناء أشغال البناء الاستعمارية على مجموعة من الفسيفساء والنّقوش.

وتشهد المناطق المجاورة لبجاية بالطبع على هذا الوجود القديم: أجزاء من طرقات رومانية توصل الى دجيجل(إغليلي)، تقلات (توبوسوبتو)، روسوكورو (دلس) و أخيراً قنطرة قناة توجا.

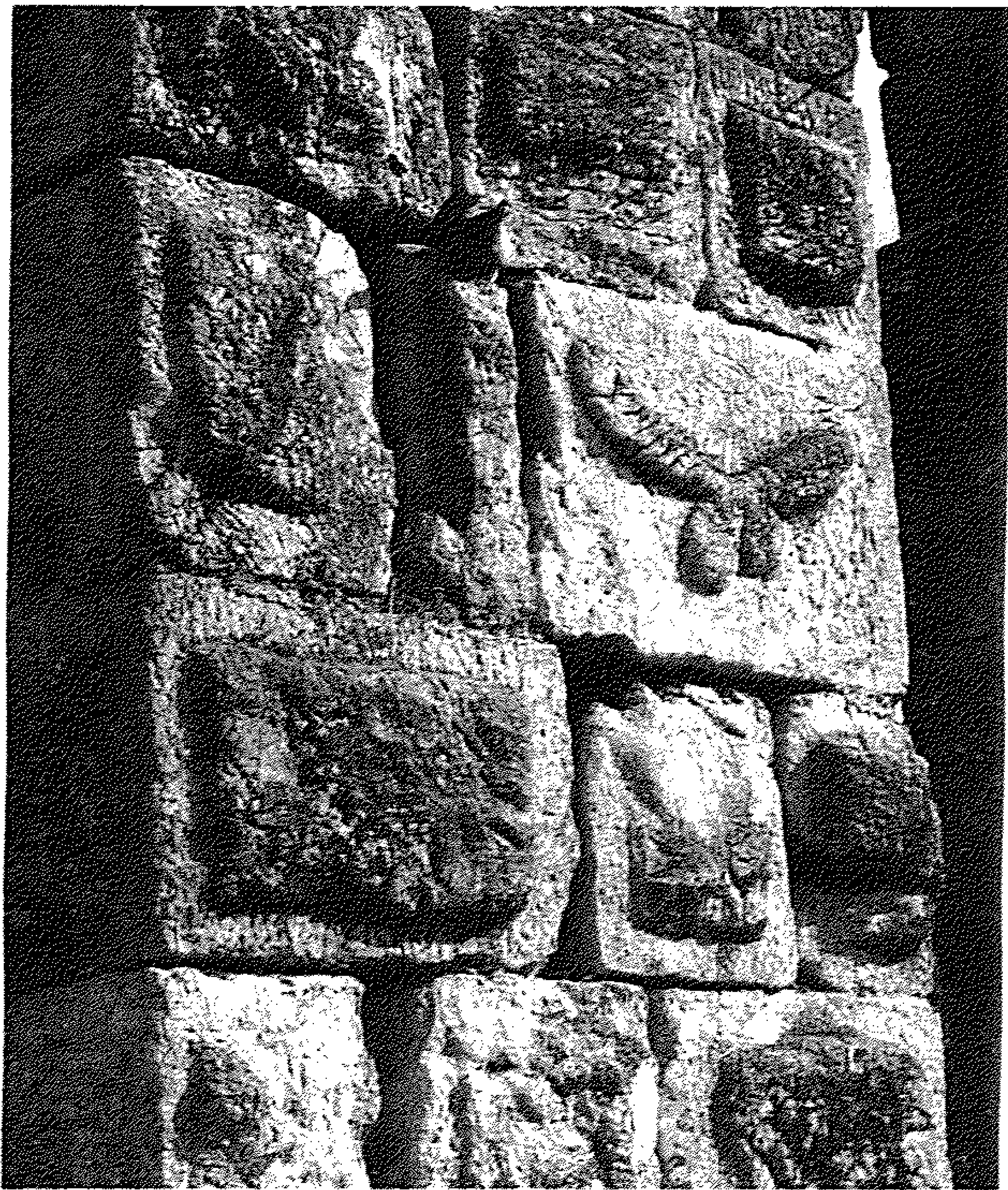
بجاية في العصر الإسلامي (647-1510)

لا تشير الكتابات التاريخية إلى بجاية في بداية الإسلام. وقد كان لمختلف فاتحي إفريقيا الشمالية طرقٌ عديدة بداية من القيروان أوّل قاعدة إسلامية وصولا إلى المغرب الأقصى، مرورا بطريق الجبال العالية متجنبين الطريق الساحلية و مدنها.

ويوضّح البكري، مؤلّف كتاب «وصف إفريقيا» في منتصف القرن الحادي عشر، أي في الوقت ذاته الذي تَم فيه اختيار النّاصر، يوضح ميّزات الموقع:»نجد ميناء بوجي بعد مرسى الدجاج، وهو مرسى بجاية المدينة القديمة التي يقيم فيها سكان من الأندلس. في الشرق، نجد نهراً كبيراً يستوعب سفنا محمّلة. و يؤمّن هذا الميناء الآمن تمضية شتاء لطيف. بجاية هي ميناء قلعة أبي طويل. ونجد في الجبال المطلة على هذا الميناء، القبائل القتامية التي تعتنق المذهب الشّيعي. وهي قبائل تحترم من يميل إلى عقيدتها كما تعامل بسخاء أولئك الذين يعتقدون معتقداتها. و قبل الوصول إلى مدينة بجاية نجد جزيرة جوبا (جزيرة بيسان).» ويوضح البكري في سرده و بشكل جيّد أن أراضي بجاية كانت تحت سيطرة الفاطميين، بما أنه يشير إلى القبائل القتامية التي كانت تدعم الداي عبد اللّه الشّيعي



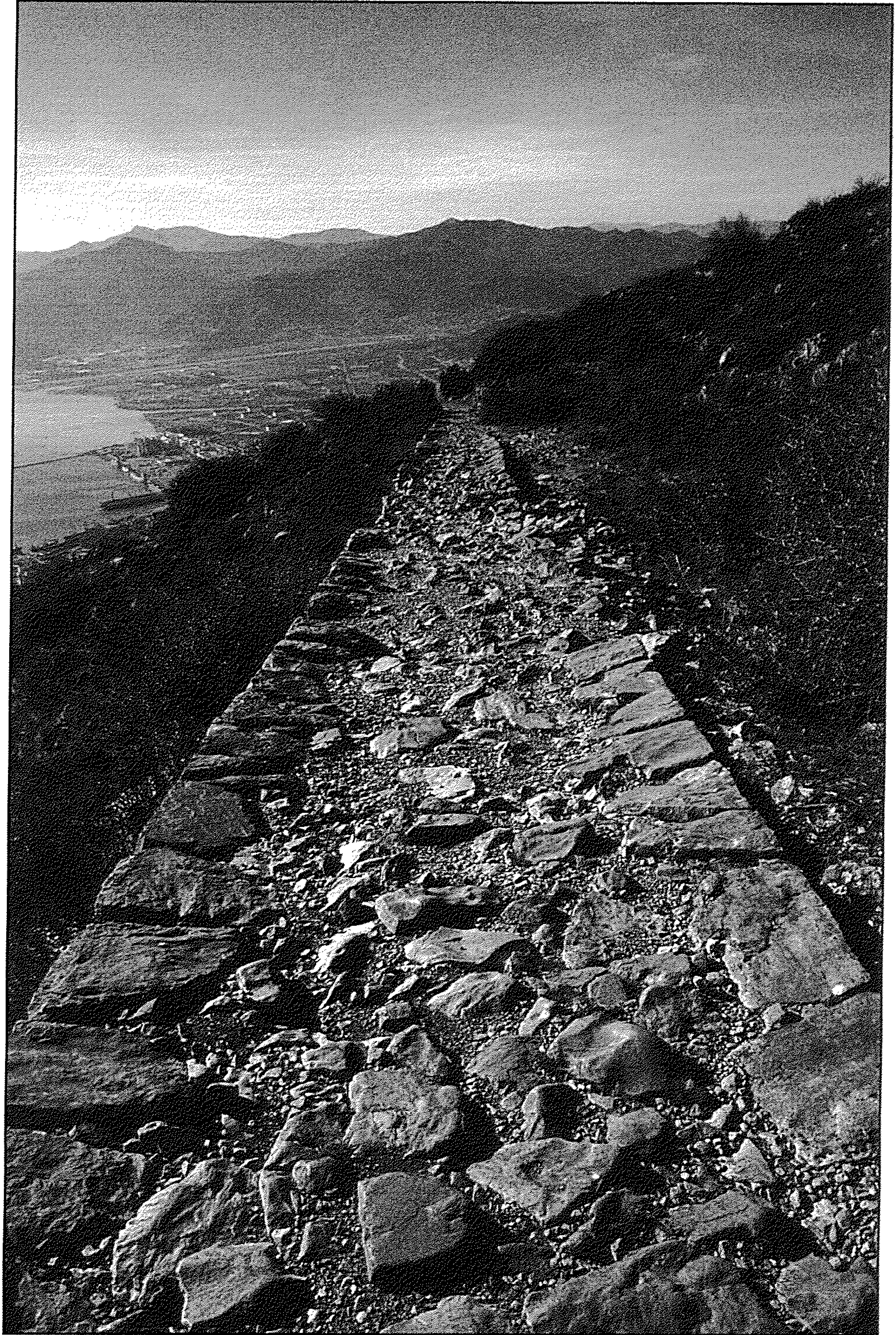
مشهد من يما قوراية



بقايا قناة توجا الرومانية

في غزوه للمغرب و ذلك لحساب المهدي عبيد اللّه. و كانت نقطة انطلاق الحركة الفاطمية تتمّ من إكجان وهي مدينة صغيرة تقع بين سطيف و بجاية.

ولكن المدينة لم تدخل التاريخ تماما إلا ابتدءا من سنة 460/1067. و بالفعل، فقد شهد منتصف القرن الحادي عشر انفصالاً بين زيريي المهدية والخليفة الفاطمي في القاهرة الذي بعث بالقبائل الهلالية نحو المغرب لعقابهم. فنهب هؤلاء البدو الرّحل أرياف إفريقية. وبسبب انعدام الأمن السائد في المنطقة أخليت المدن الداخلية بشكل جزئيّ. و استقبل المغرب الأوسط و بالذات المملكة الحمادية أفواجا هائلة من السكان الفارين من الهيمنة الهلالية. و لكن لم يلبث الهلاليون أن بدأوا بتهديد إقليم القلعة


طريق ياما قوراية

وانطوى الأسياد الحماديون على الساحل. وفي سنة 1067، استولى الناصر، وهو العاهل الخامس للأسرة، على إقليم "بقايت" وأنشأ عاصمته في بجاية التي كان يودّ أن يمنحها اسم الناصرية. ومع استمراره في الإقامة جزئيا في القلعة، اهتمّ بتطوير عاصمته المستقبلية ببناء قصر في غاية الرّوعة، قصر اللؤلؤ. و حوّل إليها ممتلكاته ومكتباته ودعا العلماء والكتاب والفنانين إلى الاستقرار فيها. وقد ترك المنصور ابن الناصر (1090-1104) القلعة واستقرّ نهائيا في بجاية مع جنده وحاشيته. وبنى فيها المسجد الكبير الذي يتحدّث عنه الأبداري (القرن الثالث عشر و القرن الرابع عشر) في وصفه لبجاية: "لبجاية مسجد فريد في جماله وصنعته، يهيمن على الهضبة وعلى البحر في آن ويشكّل مشهدا خلاباً ويغمرك سحراً وفتنة. يواظب عليه المؤمنون ويصونونه بتفان." كان داخل المسجد بأكمله مبلّطاً بالمرمر كما كانت مئذنته تبلغ ستين ذراعا في الطول وعشرين في العرض. وكانت الديانات السماوية الأخرى، اليهودية و المسيحية، الموجودة من قبل في قلعة بني حمّاد، ممثّلة في العاصمة الجديدة. وكانت المجتمعات المسيحية في مختلف المدن الحمّادية (بونا، عنابة، القلعة وبجاية) تعيش في أمان تام تحت رعاية قسيس. و احتفظ التاريخ بمراسلة للبابا غريغوار السابع الذي كان قد استجاب إيجابياً لطلب الناصر، "ملك موريتانيا وإقليم سطيف"، لتعيين مرشد لمجتمع "هيبون" المسيحي. و كان العاهلان قد تبادلا الهدايا. ومنذ هذا العصر، كان تجّار "غايتا" و"أمافلي" يترددون على ميناء بجاية. تبعهم فيما بعد سكان "جنوة" و"بيزا" و"البندقية" و"فلورنسا" و"أراغون" و"كتالونيا" و"مرسيليا"... وكان لكل هؤلاء التجّار محلات في القيصرية الواقعة قرب باب البحر. وقد زرع الناصر حدائق وعمّر قصري الميمون و النجمة. وطوّر نظام توزيع المياه في المدينة. و نستطيع أن نعدّ 72 جامعا من بينهم جامع الأدهم، جامع القصبة، جامع المرجاني و جامع أبو زكريا الزّواوي... كما كانت المدينة التي تعود للعصور الوسطى تشمل العديد من الأحياء.



إيغاد

يتحدّث أبو العبّاس أحمد الغبريني عن ثمانية أحياء، بينما عدّ فيرّو أكثر من عشرين حياً. من بينها: حيّ بريجا والمقدسي وباب البحر وسيدي بوعلي وأشرشور وسيدي عبد الهادي والقنيطرة وزاوية سيدي تواتي... كان ذلك العصر الذهبي للمدينة التي استقبلت في تلك الفترة نخبة المثقفين و العلماء والفنانين الذين تركوا القلعة المهزومة ومدن إفريقية والأندلس... وكانت بجاية تشع في حوض المتوسط. وبفضل تأثيرالفنّ المغاربي تم تقليده خاصّة في صقلّية وإيطاليا. كما كانت منازل وقصور "باليرمو" تستوحي فنّها من تلك التي كانت موجودة في بجاية والتي وصفها لنا بإعجاب الشّاعر الصّقلي ابن حمديس.

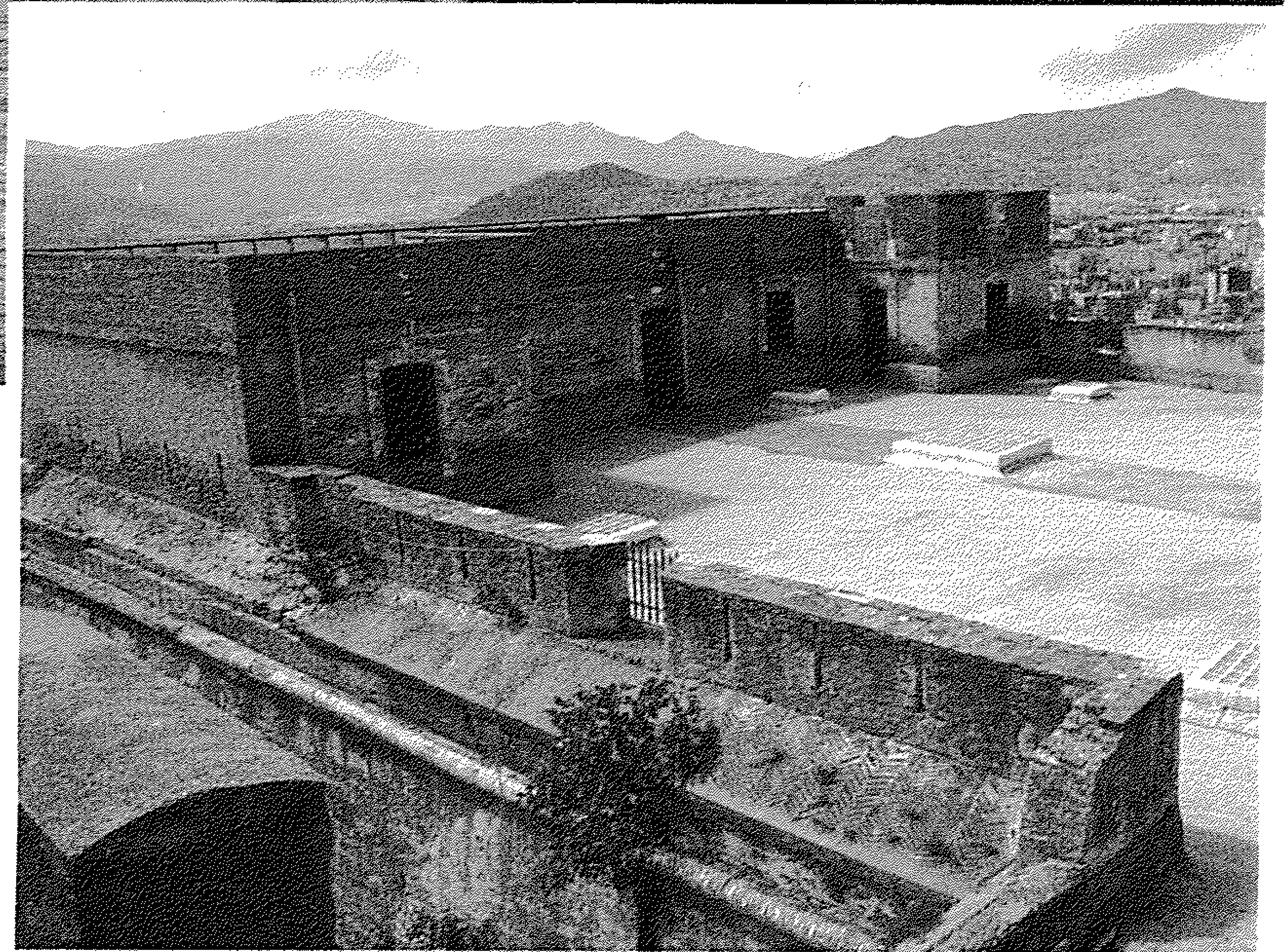
من المرجح أن قصر أميمون كان يقع بالقرب من قبر سيدي تواتي أميمون، وجاءت قلعة برّال بعد قصر النجمة، كما كان قصر اللؤلؤ يحتلّ مكان معسكرات بريجة. وتعزى الخزّانات وجزء من الجناح الشرقي وباب "المغاربة" إلى الملوك الحمّاديين. وكانت لبجاية، تماما مثل "هنين" والمهدية و "سالي"، ميزة تتمثّل في وجود ميناء داخلي يمكن الولوج إليه من القنطرة. و كانت مساحة المدينة الحمّادية ممتدة جدا. كما نعرف أسماء الأبواب السبعة أوالثمانية التي يمكن تحديد مواقع بعضها: باب أمسيوان الذي يقع شرقا على طريق واد القرود، وباب البنود الذي يقع محل باب الفوقة، باب اللوز على الواجهة نفسها، باب الصناعة أو باب "الترسانة" الذي اختفى بعد سقوط المدينة في يد الإسبان. وتوجد أبواب أخرى قد ذكرها مؤرخو العصور الوسطى مثل باب إلعان وباب الدّباغين وباب الجديد وباب بطينة وباب الرواح... وخارج المدينة تمتد على ضفتي الصومام الحديقتين اللتين نشأتا في القرن الثاني عشر ورممتا في القرن الثالث عشر: البديع في الغرب و الرّفيع في الشرق.

و بعد قرن من ذلك، خصها الإدريسي بوصف أوفى بسبب وضعها الجديد: « في زمننا، بجاية هي مدينة المغرب الأوسط و عاصمة إقليم بني حمّاد التي تبحر إليها المراكب، وتتوجه نحوها القوافل، و تصدر المنتجات و السّلع برّاً و بحراً، تزدهر فيها التّجارة بشكل متميّز، و سكّانها تجّار أثرياء، فيها الحرف و الحرفيون على مستوى لا يضاهى.



جزيرة البيسان الصّغيرة

وكان تجّار بجاية يتعاملون مع تجار المغرب والصحراء والشرق الأوسط. وفي بجاية، تخزّن البضائع وتباع السلع بأسعار باهظة وتنتج في أريافها وأراضيها الزّراعية، الحنطة والشّعير والتين وجميع أنواع الفواكه بكميّات وفيرة تكفي استهلاك العديد من البلدان. ولبجاية حوض تصنع فيه السّفن الحربية والبواخر والبوارج والقوادس. ويوجد في وديانها وجبالها خشب بكميّات هائلة. وتجلب من مناطقها المجاورة،



برج موسى



نوعية رفيعة من القار القطران. وتوجد فيها مناجم للحديد الخام. و تنتج صناعتها التقليدية أنواعاً مختلفة من الأدوات المبتكرة العالية الجودة. وعلى بعد ميل من المدينة، يجري نهر آت من الغرب، من ناحية جبال جرجرة. وهو مجرى ذو مصب واسع لا يمكن اجتيازه إلا على متن القوارب." و يذكر الجغرافي المدن المنتشرة حول المدينة: إكجان، بليزما، سطيف، باغاي، طوبنة، قالمة، تبسة، و بسكرة...

وهكذا أخذت أهمية المدينة تزداد وخاصة لكونها تقع على الطرق الرئيسية للتجارة في ذلك العهد. وإذا كرس لها الإدريسي كل هذه الأهمية في كتابه فلأن المدينة اكتسبت بعدا متوسطيا لا يمكن إنكاره.

وزيادة على نشاطاتها الاقتصادية والمرفئية آوت المدينة تحت لواء المنصور وخلفه صرحا جامعيا هاما يدرس فيه أساتذة ذائعو الصيت. وقد نزل ابن تومرت في بجاية آتيا من المشرق إبان حكم العزيز(1118-1119) وفيها تميز هذا الشخص الذي فرض على المغرب مذهبا جديدا بخطاباته الأخلاقية وخلق هيجانا شعبيا بتحطيمه للآلات الموسيقية ومنعه الشباب من «ارتداء النعول ذات القدات الذهبية والعمامات التي تعود إلى عهد الأصنام»

وقد وضح عبد الرحمن بن خلدون أنه" حين رأى عبد العزيز بن المنصور يعيش محاطا بملذات الحياة لم يستطع تمالك نفسه من توجيه تأنيبات شديدة الصرامة لهذا الأمير الحمادي الصنهاجي وضباطه". والتجأ ابن تومرت إلى بلدة ملالة الصغيرة على بعد فرسخ من العاصمة للفرار من حنق الملك. وهناك التقى بالطالب الشاب عبد المؤمن الذي قدم من تلمسان بغرض الإبحار نحو المشرق لإتمام دراسته. وبهذا نشأت الحركة الموحدية.

في العام 1152 الموافق لـ 546 هجرية استولى عبد المؤمن على المدينة وقد عومل آخر ملك حمادي، يحيى بن العزيز لآخر أيام حياته معاملة الأمير، أولا بمراكش عاصمة الموحدين وبعد ذلك بـ"سالي" حيث توفي عام 1163 الموافق لـ558 هجرية.

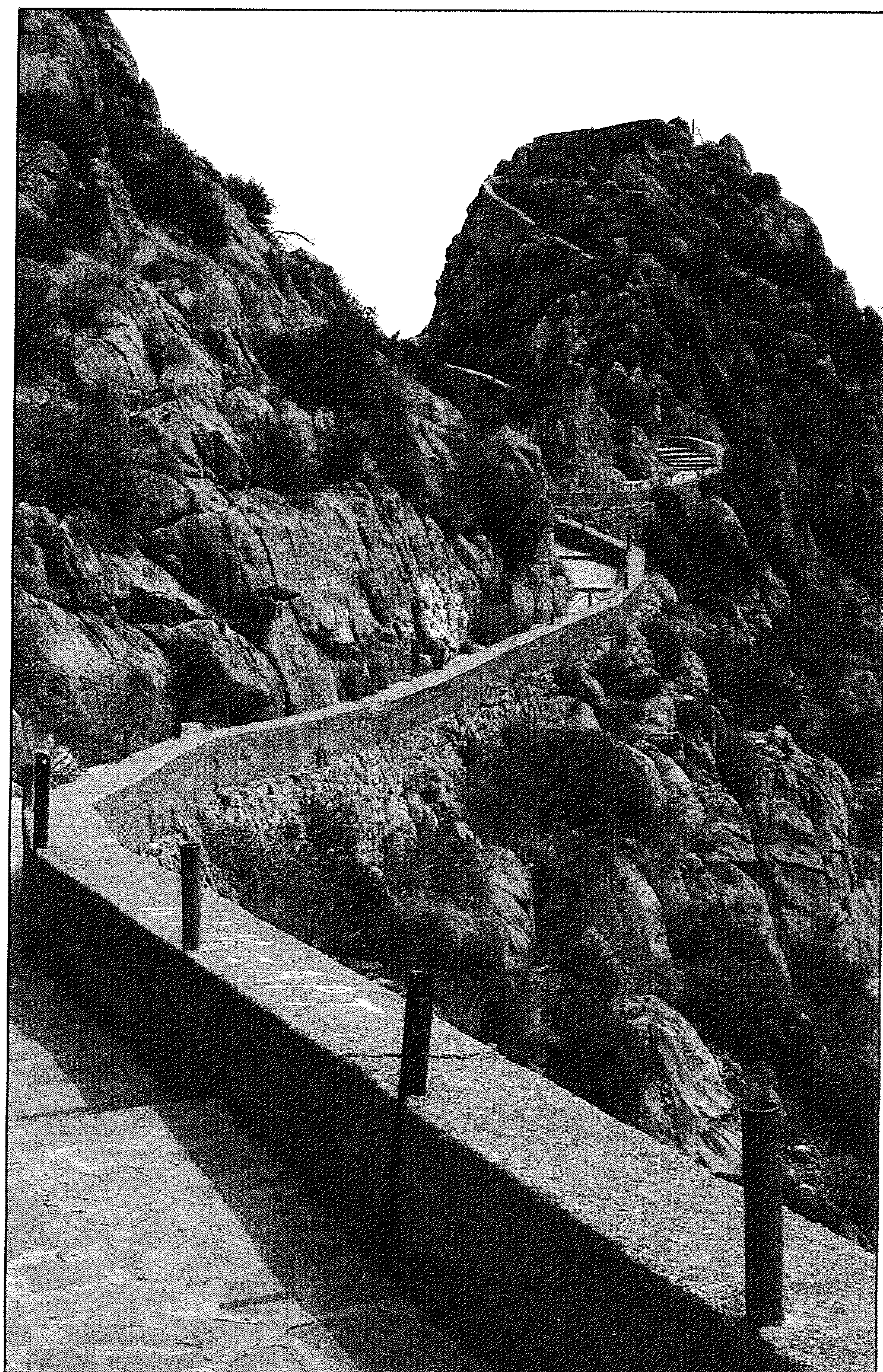
خلع عن بجاية دور العاصمة الذي كانت تشغله لتصبح مركز محافظة موحدية على رأسها أحد أبناء الخليفة. غير أنها استمرت وبالرغم من هذا كله في استقطاب العلماء طوال العصور الوسطى.



ويقدم لنا الغبريني في كتابه "عناوين الدراية وسير علماء بجاية" قائمة مذهلة بعلماء قطنوا ودرسوا في العاصمة الحمادية. نستطيع أن نذكر من علماء ذلك العهد أبو علي المصيلي، وأبو مدين شعيب الذي دفن بتلمسان، وعبد الحق الإشبيلي، وأبو فضل النحوي الذي دفن في القلعة أو محي الدين بن عربي الذي دفن في دمشق. كما درّس فيها ابن خلدون لاحقا.

بسقوط الإمبراطورية الموحدية في القرن 13 انتقلت بجاية إلى سلطة الحفصيين عام 1228 مع احتفاظها ببعض الاستقلالية الذاتية لكونها بعيدة عن تونس. ويعطي ابن خلدون في كتابه عن تاريخ البربر تفاصيل عن هذه المرحلة (من القرن 13 إلى القرن 14) الغنية بالتقلبات والمنافسات بين الأسر المالكة المرينية والزيانية والحفصية. غير أن هذا الأمر لم يمنع بواخر التجار من التردد على الميناء بفضل المعاهدات التجارية الموقعة مع الأمم الأروبية.

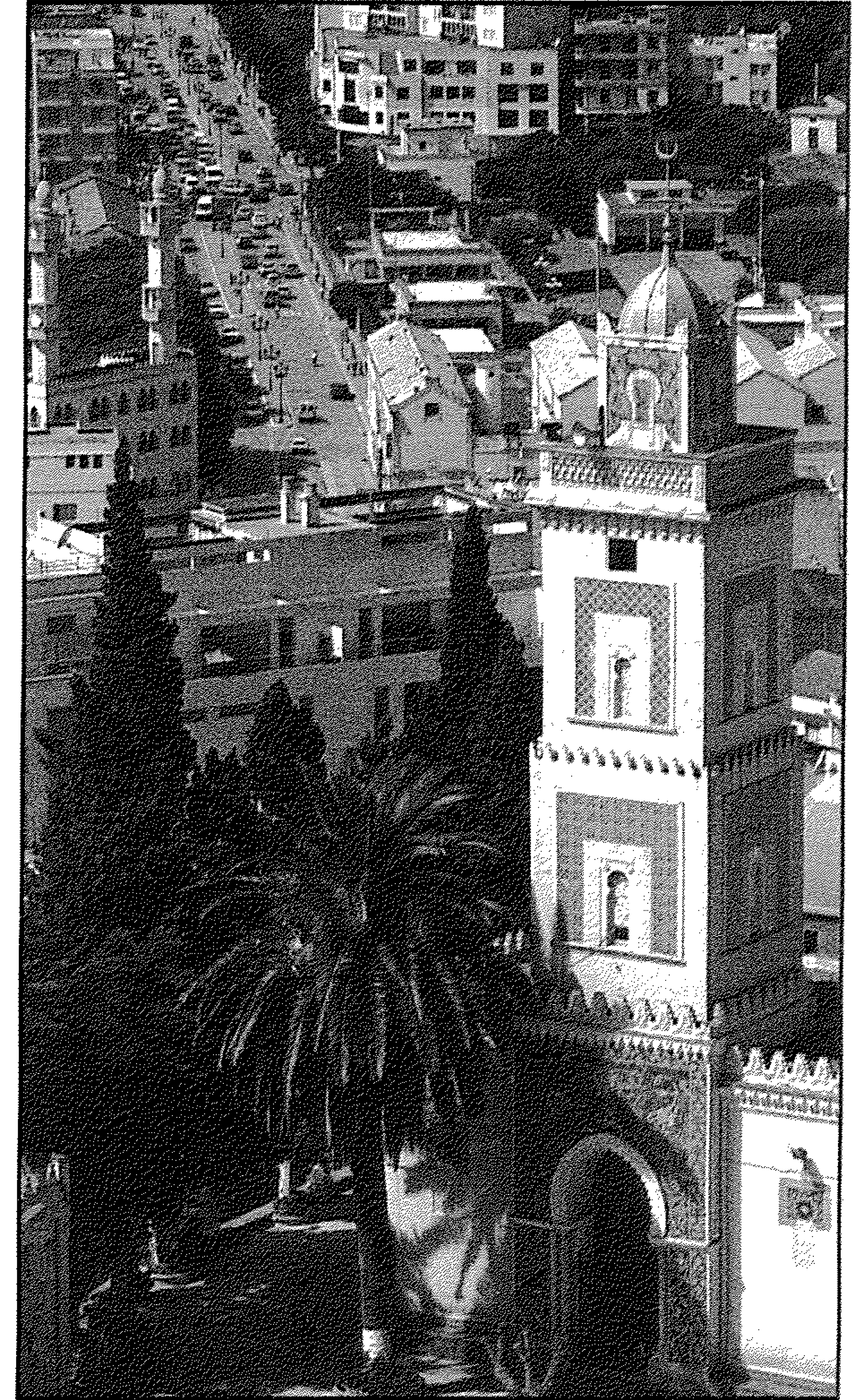
في بداية القرن 16 يصف ليون الإفريقي البهاء السابق للمدينة التي تظهر وكأنها مهجورة من سكانها " إن بجاية مدينة عتيقة، شيدت كما يظن البعض من طرف الرومان على انحدار جبل شامخ على حافة البحر الأبيض المتوسط. كانت هذه المدينة المحاطة بأسوار عالية وقوية تضم 8000 أسرة، أعني بذلك قسمها المعمور لأنها إذا كانت مليئة بالمنازل فستضم أكثر من 24000 أسرة، والأمر العجيب هو مدى امتدادها بالعرض على منحدر الجبل. كل منازلها جميلة وهي مزودة جيدا بالمعابد والكليات التي يكثر فيها الطلبة وكذا مدرسو الحقوق والعلوم. كما نجد بالمدينة أيضا مناسك لرجال الدين المحمديين ومحمات ونزلاً ومآوي وهي كلها عمارات جميلة ومشيدة بطريقة جيدة. أسواقها جميلة أيضا ومنسقة بشكل جيد. مما لا شك فيه أن بجاية مدينة ساحلية (....) ولكن يوجد عند سفح الجبل حصن كبير ذو أسوار متينة. زين هذا الحصن بكم هائل من الفسيفساء والجص المنحوت والخشب المنقوش الذي زاد من قيمته الطلاء البحري القاتم إلى درجة أن قيمة هذه الأعمال الفنية تفوق لوحدها قيمة الحصن ذاته. ويعد البجاويون أناساً لطفاء يحبون أن ينعموا بأوقاتهم: كلهم يعزفون الموسيقى ويرقصون بمهارة".



طريق قمة القرود







سيدي صوفي

" كان البجاويون يسلحون أعداداً كبيرة من السفن ويرسلونها إلى سلب ونهب السواحل الإسبانية. ومن هنا آلت المدينة إلى الانحطاط لأن الكونت بيار نافارو بعث إليها بغية الاستيلاء عليها وتدميرها. فبنى فيها قلعة بجوار البحر، وقام أيضا بتقوية قلعة قديمة مجاورة للبحر ولحوض السفن.

ويروي ليون الإفريقي : "بعد ست سنوات أراد التركي بربروس(عروج) انتزاع المدينة من بين أيدي المسيحيين، فخيم مع ألف جندي تركي وجميع القبائل القادمة من الجبال المجاورة أمام المدينة (...) واضطر لاحقا إلى الفرار إلى قلعة جيجل".

لقد فشل عروج في محاولة الاستيلاء على المدينة، حتى أنه فقد في محاولاته ذراعه. ولكن صالح رايس هو من أجبر الحامية الاسبانية على الاستسلام بعد حصار عنيف. صارت المدينة تحت لواء حامية، إلا أنها لم تلعب دورا مهما خلال الفترة العثمانية. لاحقا، احتلها الجيش الاستعماري في عام 1833.

لبجاية وعلى غرار العديد من مدن المغرب الأوسط ماض ثري باعتبارها عاصمة مركزية؛ غير أن الحملات الاستعمارية المتعاقبة قامت بمحو آثار مجدها.



Bibliographie

Bibliographie TIPASA

P. Cintas : Fouilles puniques à Tipasa, revue africaine, t.XCII, 1949, p. 262-263

J. Baradez : Tipasa, ville antique de Maurétanie, Alger 1952

M. Bouchenaki et S. Lancel : Tipasa de Maurétanie, Alger 1971

M. Bouchenaki : Le Mausolée Royal de Maurétanie, Alger 1979

M. Bouchenaki : Tipasa, site du patrimoine mondial, Alger 1988

F. Djelti et S. Ferdi : Sites et Antiquités de Tipasa, Alger 1996

S. Lancel : Tipasa de Maurétanie ; histoire et archéologie. I. Etat des questions des origines pré-romaines à la fin du III° siècle après J.C, ANRW, II, 1982, p. 739-785

Bibliographie HIPPONE

St. Gsell, " Histoire ancienne de l'Afrique du Nord "

" " , " Atlas archéologique de l'Algérie "

" " , " Les monuments antiques de l'Algérie "

E .Marec , " Monuments chrétiens de Hippone, ville Episcopale de saint Augustin

S. Dahmani, " Hippone la royale " " Hippo Regius " " Mosaïques de Hippone "

S. Dahmani, " De Hippone-Buna à Annaba, histoire de la Fondation d'une métropole ", Annaba 2002.

Saint Augustin, " Confessions "

P. Brown, " La vie de Saint Augustin ", trad. Par Jeanne Marrou

A. Trape, " Saint Augustin, l'homme, le pasteur, le mystique "

A. Mandouze, " Saint Augustin, l'aventure de la raison et de La grâce "

Actes des travaux du 1er Colloque international sur le philosophe algérien Augustin, Alger-Annaba, avril 2001.

S. Dahmani, " Hippo Regius-Annaba, pont spirituel entre les Deux rives " ; dans " Saint Augustin, une mémoire d'Algérie " ; Année de l'Algérie en France, Bordeaux 2003.

Bibliographie DJEMILA

Allais(Y) Djemila, Paris, 1938.

Allais (Y) : La maison d'Europe à Djemila, Revue Africaine, LXXXIII, 1939.

Ballu (A) : Ruines de Djemila antique Cuicul, Alger 1921.

Fevrier (P. A.) Djemila, Alger, 1990

Fevrier (P. A.) : Remarques sur les mosaïques de basse époque à Djémila, B.S.A.F. 1965,

Fevrier (P. A) : Inscriptions chrétiennes de Djemila (Cuicul), B.A.A., I, 1962- 1965

Leschi (L.); Djemila, (antique Cuicul), Alger, 1949.

Lassus (J) : la salle à sept absidesde Djemila Cuicul, Antiquités Africaines, 5, 1971.

Banchard- Lemée : Maisons à mosaïques du quartier central de Djemila (Cuicul) 1975.

Bibliographie BEJAIA

Obayd Allah Al Bekri : Description de l'Afrique septentrionale, trad. De Slane, Paris, Maisonneuve, 1965.

Al Idrissi : Le Maghreb au XII ° siècle, texte établi et traduit en français d'après Nuzhat al Mushtaq, par Hadj Sadok, OPU, Alger, 1983.

Al Ghubrini (Abû -l -Abbas Ahmed) 'Unwan Al Diraya, texte établi par R. Bounar, Alger SNED, 1970.

L'Africain (J.L.) Description de l'Afrique, trad. Epaulard, 2 tomes, Maisonneuve, Paris, 1956.

Ibn Khaldoun (A.) : Histoire des Berbères, quatre tomes, trad. De Slane, Paris Geuthner, 1978.

Féraud (L. C.) : Histoire de Bougie, Editions Bouchène, Condé sur Noireau, 2001.

Bibliographie CONSTANTINE

Obayd Allah Al Bekri : Description de l'Afrique septentrionale, trad. De Slane, Paris, Maisonneuve, 1965.

Al Idrissi : Le Maghreb au XII ° siècle, texte établi et traduit en français d'après Nuzhat al Mushtaq, par Hadj Sadok, OPU, Alger, 1983.

Al Ghubrini (Abû -l -Abbas Ahmed) 'Unwan Al Diraya, texte établi par R. Bounar, Alger SNED, 1970.

L'Africain (J.L.) Description de l'Afrique, trad. Epaulard, 2 tomes, Maisonneuve, Paris, 1956.

Ibn Khaldoun (A.) : Histoire des Berbères, quatre tomes, trad. De Slane, Paris Geuthner, 1978.

Brunswig (Robert) La Berbèrie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV e siècle, A. Maisonneuve, Paris, 1982.

Constantine : Son passé son centenaire, in Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de Constantine, volume LXIV, Edit. Braham, Constantine, 1937.

Bibliographie CASBAH

Obayd Allah Al Bekri : Description de l'Afrique septentrionale, trad. De Slane, Paris, Maisonneuve, 1965.

Al Idrissi : Le Maghreb au XII ° siècle, texte établi et traduit en français d'après Nuzhat al Mushtaq, par Hadj Sadok, OPU, Alger, 1983.

L'Africain (J.L.) Description de l'Afrique, trad. Epaulard, 2 tomes, Maisonneuve, Paris, 1956.

Ibn Khaldoun (A.) : Histoire des Berbères, quatre tomes, trad. De Slane, Paris Geuthner, 1978.

Shaw (Thomas) : Voyage dans la régence d'Alger, éditions Bouslama, Tunis 1980.

Klein (H) : Les feuillets d'El Djézaïr, L. Chaix éditeur, Alger 1937.

Venture de Paradis : Alger au XVIII e siècle, bouslama éditions, Tunis

Devoulx (A) : El Djézaïr in Revue Africaine, 1975 ; 1876, 1877, 1878.

Grammaye (J. B.) : Alger au XVII e siècle

Haedo : Histoire des rois d'Alger, Bouchène Alger, 2000.

Projet de revalorisation de la Casbah d'Alger, Atelier Casbah, Ministère de l'Urbanisme et de l'Habitat, ETAU / UNESCO/ PNUD, Alger 1988.

Bibliographie TLEMCEN

Obayd Allah Al Bekri : Description de l'Afrique septentrionale, trad. De Slane, Paris, Maisonneuve, 1965.

Al Idrissi : Le Maghreb au XII ° siècle, texte établi et traduit en français d'après Nuzhat al Mushtaq, par Hadj Sadok, OPU, Alger, 1983.

L'Africain (J.L.) Description de l'Afrique, trad. Epaulard, 2 tomes, Maisonneuve, Paris, 1956.

Ibn Khaldoun (A.) : Histoire des Berbères, quatre tomes, trad. De Slane, Paris Geuthner, 1978.

Ibn Khaldun (Y) : Histoire des Beni Abd El Wad, rois de Tlemcen, édit et trad. A. Bel, Alger 1904 - 1913.

Canal (J) Piesse (L.) : Tlemcen.

Barges (Abbé) / Histoire des rois de Tlemcen.

Bibliographie TASSILI N'AZJJER ET AHAGGAR

Orientation bibliographique Tassili & Ahaggar.

ASSOCIATION LES AMIS DU TASSILI, 2000 - Promenade au Tassili Azjer. ANEP, Alger.

BEUF S., BIJU-DUVAL B., CHARPAL O., ROGNON P., GABRIEL O., BENNACEF A., 1971 - Les grès du Paléozoique inférieur au Sahara. Technip., Paris.

BOUCHELAH A.C., BOUZIANE H., MAKA M., OUAHES C., 1999 - Fleurs du Sahara. Voyage ethnobotanique avec les Touaregs du Tassili. Ibis Press, Biarritz.

CAMPS G., 1996 - Des rives de la Méditerranée aux marges méridionales du Sahara : les Berbères. Aix-en-Provence, Edisud-Alif-Toubkal, 89 p. Traduction italienne I berberi della riva del Mediterraneo ai confini del Sahara, Jack Book, Milano.

CHOPPY J. et B., 1995 - Le chemin de Tin Aboteka (Tassili-N'Ajjer). 120 panneaux d'art rupestre inédits. Chez les auteurs, Paris.

Conservation des peintures rupestres du Tassili. 1979, Actes du Séminaire Internat., 21-30 octobre 1978, Office du Parc National du Tassili, 2 vol., Alger.

DUBIEF J., 1999 - L'Ajjer. Sahara central. Karthala, Paris.

DUVEYRIER H., 1864 - Exploration du Sahara. Les Touaregs du Nord. Challamel, Paris.

HACHID M., 1998 - Le Tassili des Ajjer. Paris-Méditerranée, Paris et Edif 2000 Alger.

HACHID M., 2000 - Les Premiers Berbères. Entre Méditerranée, Tassili et Nil. Edisud, Aix-en-Provence et Ina-Yas, 2001, Alger.

HAMPATE BA A., DIETERLEN G., 1961 - Koumen, texte initiatique des pasteurs peuls. Cahiers de l'Homme, Mouton, Paris.

La Préhistoire de l'Afrique de l'Ouest. 1996. Sépia, Saint Maur.

LAJOUX J.D., 1962 - Merveilles du Tassili n'Ajjer. Ed. Du Chêne, Paris.

LAJOUX J.D., 1977 - Tassili-n-Ajjer : Art rupestre du Sahara préhistorique, Ed. Du Chêne, Paris.

LE BERRE M., 1989 et 1990 - La faune du Sahara. Chabaud-Lechevalier, Paris.

Les chars préhistoriques du Sahara. Archéologie et techniques d'attelage. 1982, Actes du Colloque de Sénanque 1981, G. Camps, M. Gast éd., Univ. De Provence, Aix-en-Provence.

LHOTE H., (avec la coll. de P. Colombel) 1979 - Gravures peintures rupestres et vestiges archéologiques des environs de Djanet (Tassili-n-Ajjer). Publ. Office du Parc National du Tassili, Alger.

LHOTE H., 1956 - Peintures rupestres préhistoriques du Tassili-N'Ajjer. Gouvernement Général de l'Algérie, Sous- Direction des Beaux Arts, Alger.

LHOTE H., 1958 (2ème éd. 1988 et diverses éditions étrangères) - A la découverte des fresques du Tassili. Arthaud, Paris.

LHOTE H., 1967 - Gravures rupestres du Tassili-n-Ajjer (Sahara Central). Objets et Mondes, Musée de l'Homme, VII/3, : 217-232.

LHOTE H., 1976 - Les gravures rupestres de l'oued Djerat. Tassili-n-Ajjer. Mém. CRAPE n° XXV, 2 vol. Alger.

LHOTE H., 1976 - Vers d'autres Tassili. Nouvelles découvertes au Sahara. Arthaud, Paris.

LHOTE H., 1982 - Les chars rupestres sahariens. Des Syrtes au Niger par le pays des Garamantes et des Atlantes. Les Hespérides, Toulouse.

LHOTE H., 1987 - Chameau et dromadaire en Afrique du Nord et au Sahara. Recherches sur leurs origines. ONAPSA, Alger et Groupe Media Internat., Paris.

MUZZOLINI A., 1995 - Les images rupestres du Sahara. (Chez l'auteur).

OZENDA P., 1958 - Flore du Sahara septentrional et central. CNRS, Paris.

Sahara, 10 000 Jahre zwischen Weide und Wüste. 1978. Museen der Stadt Koln.

SAVARY J.P., 1966 - Monuments en pierres sèches du Fadnoun (Tassili n'Ajjer). Mém. n° VI, CRAPE, Alger.

SPRUYTTE J., 1996 - Attelages antiques libyens. Archéologie saharienne expérimentale. Maison des Sciences de l'Homme, Paris.

En outre, on trouvera un maximum d'indications dans : FERHAT N., TAUVERON M., 2001 - Essai de bibliographie du nord de l'Afrique. Préhistoire et Protohistoire. L'Harmattan, Paris, et diverses informations dans la revue Sahara.

Bibliographie QALÂA

Al Bakri : Description de l'Afrique septentrionale, trad. De Slane. Paris, A. Maisonneuve, 1965.

Bourouiba (R.) : Cités disparues. Alger, coll. Art et culture, 1979.

Bourouiba (R.) : Les Hammadites. Alger, Enal, 1984.

De Beylié (L.) : La kalâa des Bani hammad. Une capitale berbère de l'Afrique du nord au XI^{e} siècle. Paris 1909.

Golvin (L.) : Le maghrib central à l'époque des Zirides. Recherches d'archéologie et d'histoire. Paris, Arts et Métiers graphiques, 1957.

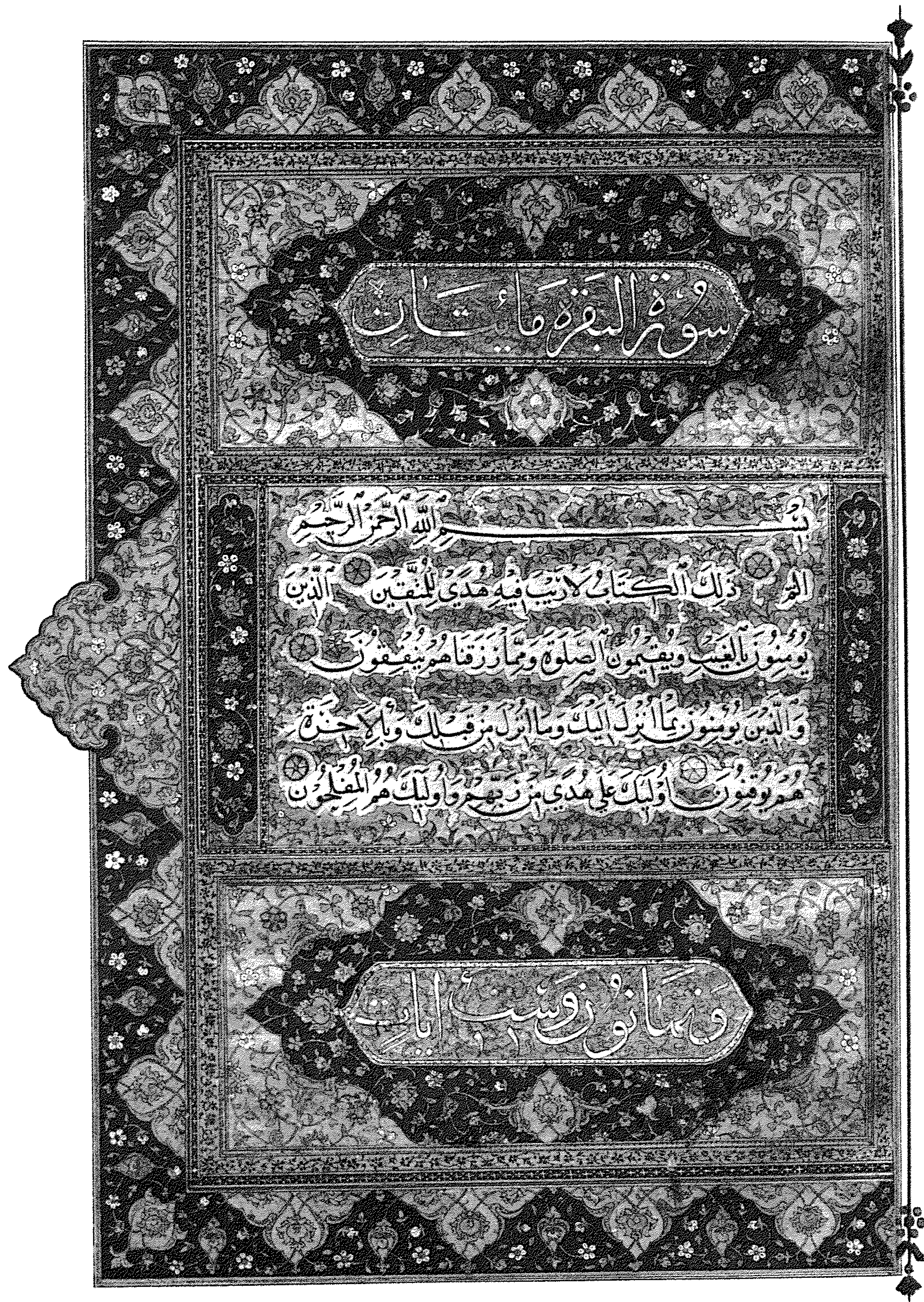
Golvin (L.) : Recherches archéologiques à la Kalâa des Banou Hammad. Paris, G.P. Maisonneuve et Larose, 1965.

Ibn Khaldoun (A.) : Histoire des Berbères. Alger, Berti Editions, 3 vol, 2001.

Idris (H. R.) : La Berbérie orientale sous les Zirides. Paris, Adrien Maisonneuve, 1962.

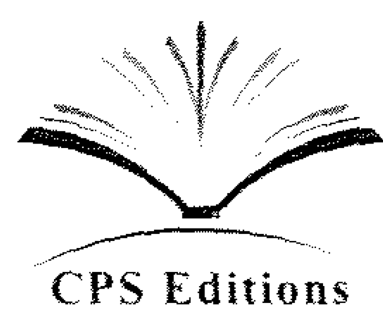
Al Idrisi : Le Maghreb au 6ème siècle de l'Hégire, trad M. Hadj Sadok. Alger, OPU, 1983.

Marçais (G.) : L'architecture musulmane d'Occident, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile. Paris, Arts et Métiers graphiques, 1957.

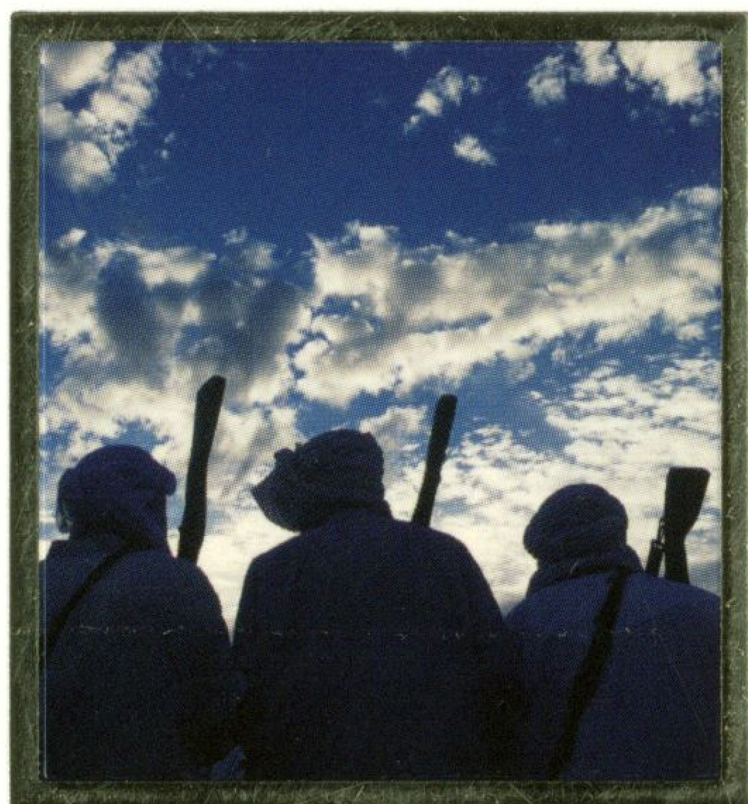
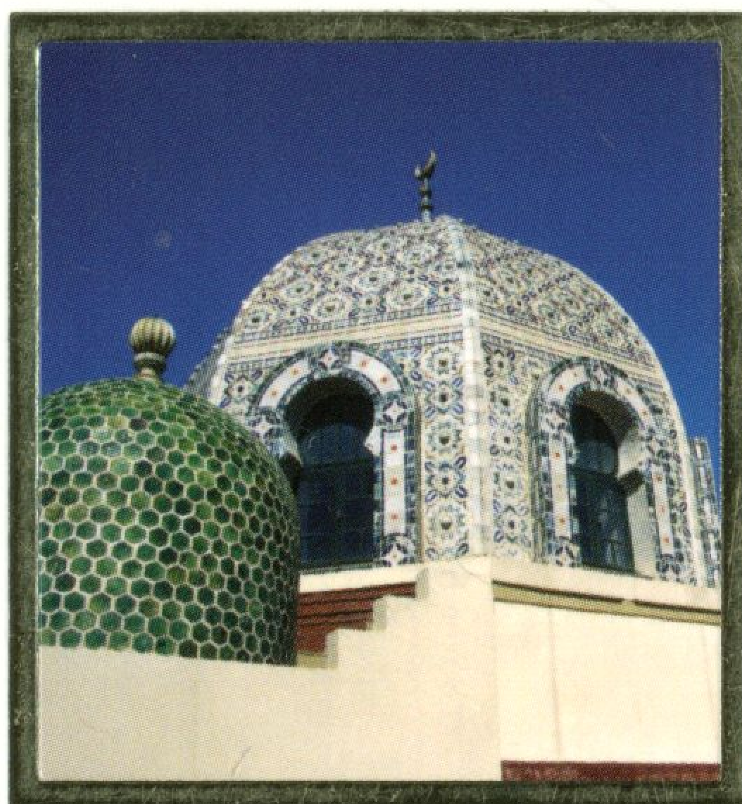
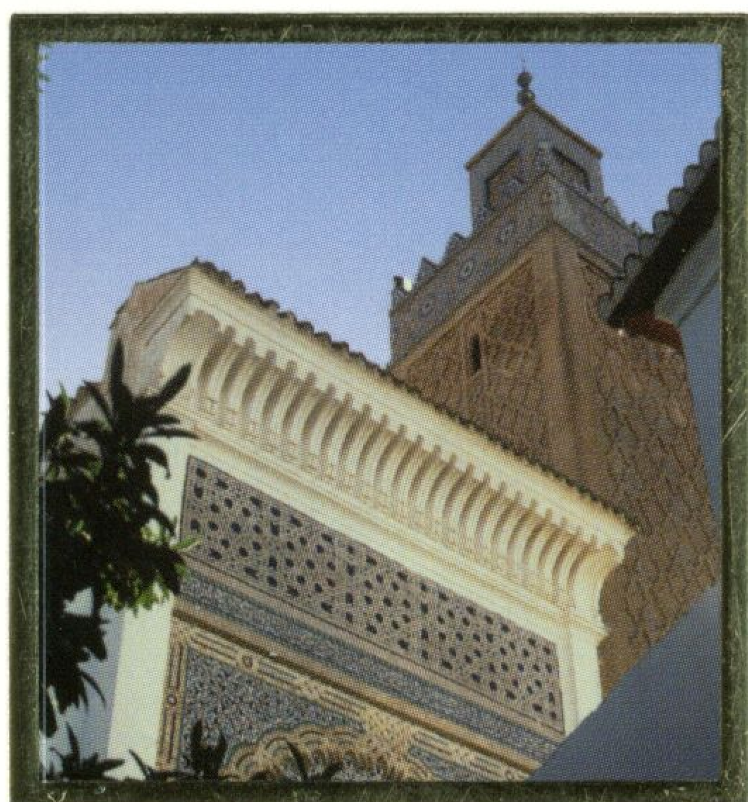
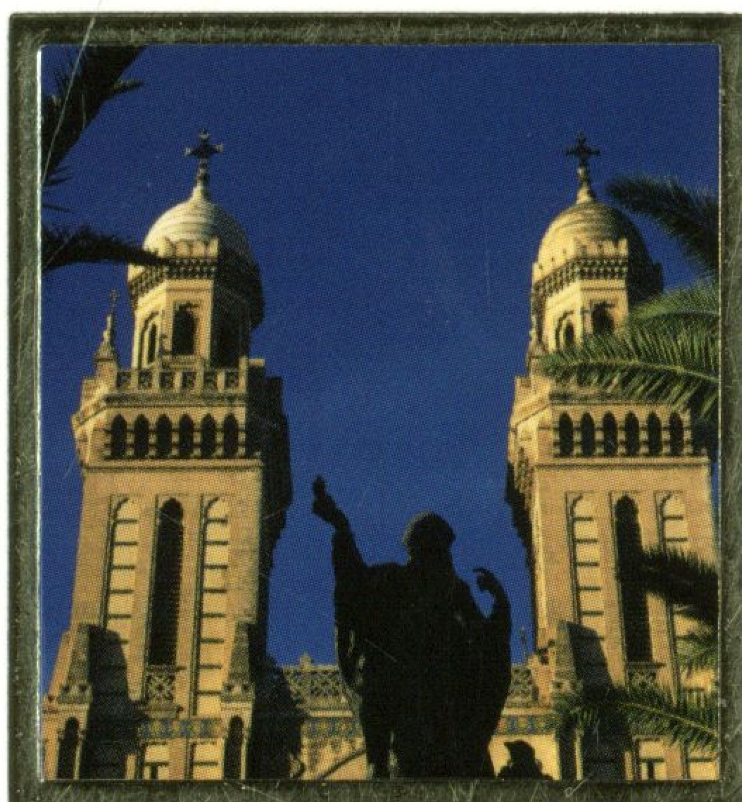
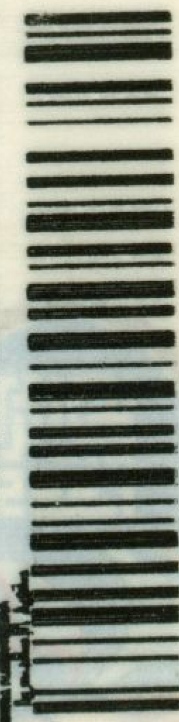


سورة البقرة مائتان
بسم الله الرحمن الرحيم
الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين
يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون
والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة
هم يوقنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون
وثمانون وست ايات

نشر هذا الكتاب من طرف :



كونتينونتال باك سيرفيس (منشورات CPS)
رياض الفتح - مركز الفنون -
رواق الخدمات
المدنية - الجزائر
هاتف : 25 17 28 21 00213
00213 61 51 04 01
فاكس : 72 34 28 21 00213
zakibouzideditions@yahoo.fr


9 789961 771051